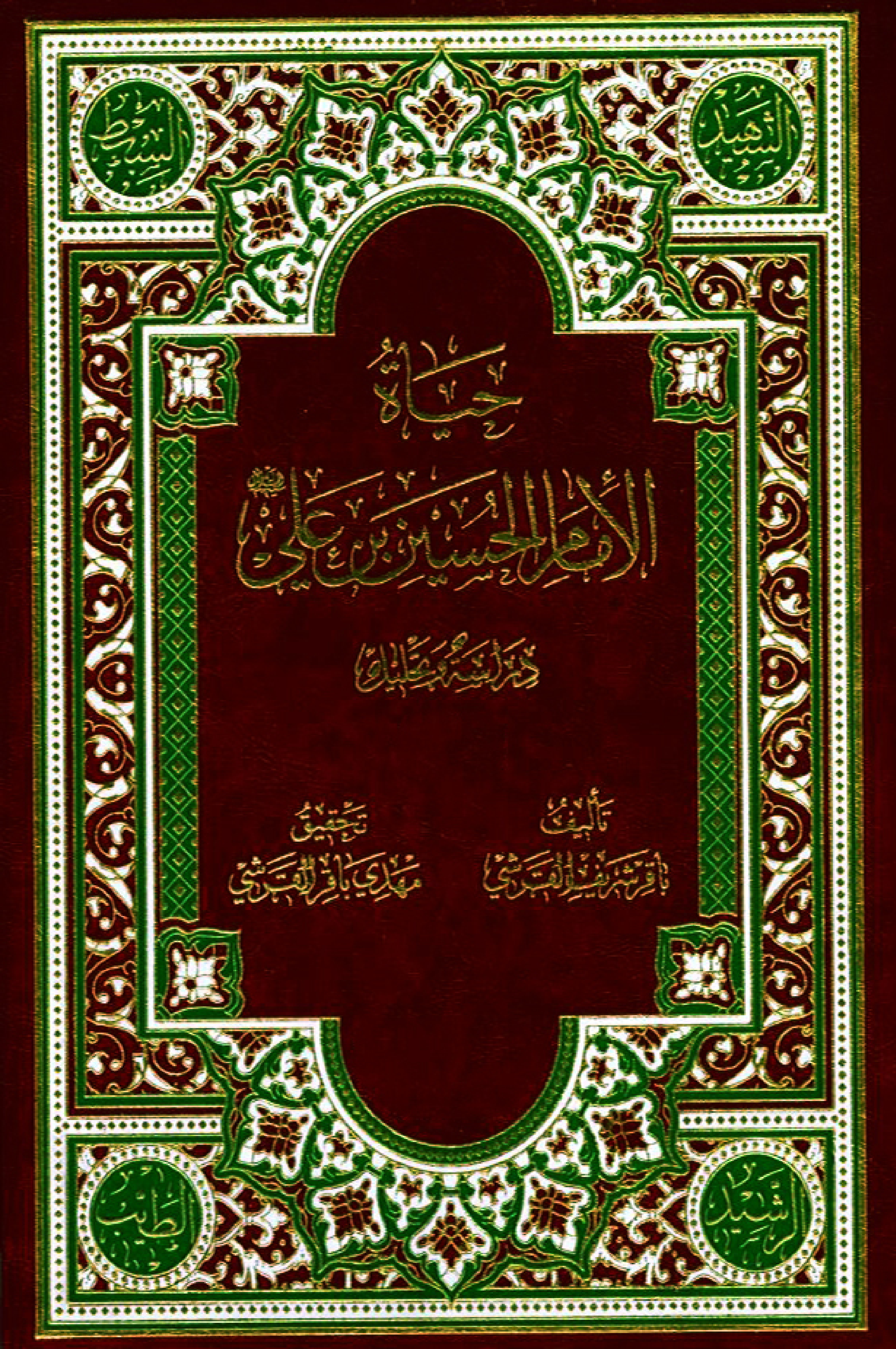

حياة
الإمام الحسين بن علي عليه السلام
دراسة وتحليل
تأليف
باقر شريف القرشي
تحقيق
مهدي باقر القرشي


حياة
الإمام الحسين بن علي عليه السلام



القرشي، باقر شريف، ١٩٢٦- م.

حياة الإمام الحسين بن علي عليهما السلام: دراسة وتحليل / تأليف باقر شريف القرشي؛ تحقيق مهدي باقر القرشي. - كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة، ١٤٢٩ ق. = ٢٠٠٨م.

٣ ج. - (قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة؛ ٢١).

عنوان العطف: حياة الإمام الحسين عليه السلام.

المصادر.

١. الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، ٤ - ٦١ق. - السيرة. ٢. الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، ٤ - ٦١ق. - فضائل. ٣. سقيفة بني ساعدة - نتائج وتأثيرات. ٤. علي بن أبي طالب (ع)، الإمام الأول، ٢٣ قبل الهجرة - ٤٠ ق. - السياسة والحكومة. ٥. واقعة كربلاء، ٦١ ق. - دراسة وتحقيق. ٦. الإسلام - القرن ١ ق. - تأريخ شبهات وردود. ألف. القرشي، مهدي باقر، محقق. ب. العنوان. ج. عنوان: حياة الإمام الحسين عليه السلام.

BP ٤١ / ٤ / ٤ ق ٩ ح ٤ .١٤٢٩ق

تمت الفهرسة في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة قبل النشر



حياة الإمام الحسين بن علي عليه السلام

دراسة وتحليل

الجزء الثاني

تأليف

باقر شريف القرشي

تحقيق

مهدي باقر القرشي

إصدار

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

في العتبة الحسينية المقدسة



الطبعة الثانية
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م



العراق: كربلاء المقدسة - العتبة الحسينية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية - هاتف: ٣٢٦٤٩٩
Web: www.imamhussain-lib.com
E-mail: info@imamhussain-lib.com


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ❊ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِن خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ❊ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

آل عمران ٣ : ١٦٩ ـ ١٧١

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ❊ أُولٰئِك عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولٰئِك هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾

البقرة ٢ : ١٥٦ و ١٥٧

تقديم

١ لقد أثَّرت الأحداث الرهيبة التي عاصرها الإمام الحسين عليه السلام تأثيراً هائلاً في تغيير مناهج الحياة الفكريّة والاجتماعيّة في الإسلام ، كما لعبت دورها الخطير على مسرح الحياة السياسية على امتداد التأريخ ، وكان من أبرز نتائج تلك الأحداث التناحر على السلطة ، والتنافس على الحكم ، والصراع على الظفر بخيرات البلاد .

وكان من الطبيعي أن يحدث ذلك الصراع السياسي بأقسى صوره ، وأبشع ألوانه ، وأن يحتدم الجدال أشدّ وأعنف ما يكون الجدال ، فقد سحرت عيون الكثيرين من الصحابة والتابعين ما رأَوه من ألوان الترف وخفض العيش ورقّته ، وما شاهدوه من جلال الملك الذي أزالوه من فارس ، وما احتلوه من بلاد الروم ، وهالتهم الفتوحات التي تقوم بها الجيوش الإسلامية ، وما يفتح الله على أيديهم ، وما يجلبونه من البلاد المحتلة من الرقيق ، وسائر الأموال التي لم يكونوا يحلمون بالنظر إليها ، كل ذلك دفعهم إلى التهالك على السلطة ، وفتنهم عن دينهم .

واستشفّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله من وراء الغيب ما تبلغه أُمته من المجد والسيادة على جميع شعوب الأرض ، وسقوط الدول الكبرى تحت وطأة الزحف الإسلامي المقدّس ، فأذاع ذلك بين المسلمين وآمنوا به كجزء من عقيدتهم ، كما استشف النبيّ صلى الله عليه وآله من وراء الغيب ما تُمنى به أُمته من الفتنة والفرقة ، فاحتاط لها أشدّ ما يكون الاحتياط ،

فوضع لها رصيداً يحسم كل داء ، ويقضي على كل خلاف ، فدلل على إمامة العترة الطاهرة من أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، ولم يكن بذلك مدفوعاً بدافع العاطفة أو الحبّ ، فإنّ شأن النبوة أسمى من أن يخضع لأيّ عامل من عوامل الحبّ أو غيره من الاعتبارات الماديّة .

وبلغت أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله في فضل عترته حدّ التواتر ، ولم يتطرق إليها الريب والشكّ عند أحد من المسلمين ، فقد قرنهم بمحكم التنزيل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وجعلهم سفن النجاة وأمن العباد . وأمّا سيد العترة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فإنّه ـ حسب النصوص النبويّة ـ أخو النبيّ ونفسه ، وباب مدينة علمه ، وأقضى أُمته ، وإنَّه منه بمنزلة هارون من موسى ، و« مَنْ كُنْتُ مَولاَهُ فَهـٰذا عَلِيٌّ مَوْلاَهُ . . . »[1] ، ولكن القوم كرهوا اجتماع النبوة والخلافة في بيت واحد ، فتأولوا النصوص وزووا الخلافة عن أهل بيت النبوة ، ومعدن الحكمة ، ومهبط الوحي ، وحرموا الأُمة من التمتع بظلال حكمهم الهادف إلى نشر عدالة السماء في الأرض .

وأدَّت عملية الفصل إلى التطاحن الفظيع على كراسي الحكم بين الأُسر البارزة في الإسلام ، فمُنيت الأُمة من جرّاء ذلك بالكوارث والخطوب التي أحالت الحياة في تلك العصور إلى جحيم لا يطاق ، فقد كان حكم النطع والسيف هو السائد بين الناس .

٢ وظهر الصراع السياسي بأبشع ألوانه حينما أمسك الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام زمام السلطة في البلاد ، فقد تحرَّكت القوى الطامعة في الحكم وهي تعلن العصيان المسلّح محاولة بذلك إسقاط حكومته التي احتضنت مصالح الشعوب الإسلامية ، وتبنَّت حقوق الإنسان ، وراحت تؤسس معالم العدل والحق ، وتدكُّ حصون الظلم ، وتنسف قلاع الباطل ، وترفع منار الكرامة الإنسانية ، وتقضي على

---

(١) تفسير القمّي : ١ : ١٧٤ . الخصال : ٢١٩ . شرح الأخبار : ١ : ١٠١ . روضة الواعظين : ١٠٣ . سنن الترمذي : ٥ : ٥٩١ . ينابيع المودّة : ١ : ١٠٧ .

جميع أسباب التخلّف والفساد التي تركها الحكم المباد .

لقد أوجد الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام انقلاباً جذرياً ، وتحوّلاً اجتماعياً في الميادين السياسية والفكريّة والاقتصاديّة ، التي كان منها العدالة في التوزيع ، وإلغاء الامتيازات التي منحتها حكومة عثمان لبني أُمية وآل أبي معيط ، ومصادرة الأموال التي اختلسوها بغير حقّ ، وعزل الولاة وسائر الموظفين الذين اتخذوا الحكم وسيلة للإثراء والاستعلاء على الناس بغير حق .

وقد أدَّت التغييرات الاجتماعية التي أوجدتها حكومة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام إلى زيادة الأزمات النفسية في نفوس القرشيّين وغيرهم من الحاقدين على الإصلاح الاجتماعي ، فأيقنوا أنّ حكومة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ستدمِّر مصالحهم الاقتصاديّة وغيرها ، فهبّوا متضامنين إلى إعلان المعارضة . ومن المؤسف حقاً أن تضمّ المعارضة بعض أعلام الصحابة كطلحة والزبير ، وأن يكون العضو البارز فيها السيدة عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وآله ، ومن المؤكد أنّه لم تكن للمعارضين أيَّة أهداف اجتماعية أو إصلاحية ، وإنّما دفعتهم الأنانية والأطماع حسب التصريحات التي أدلوا بها في كثير من المناسبات .

وقد كان في طليعة القوى المتآمرة على الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام الحزب الأُموي ، فقد سخَّر جميع أرصدته المالية التي حصل عليها أيام حكومة عثمان فجعلها تحت تصرّف المعارضين ، فاشتروا جميع أدوات الحرب ، ووهبوا الكثير من الأموال للمرتزقة ، وقد اندلعت بذلك نار الحرب التي أسماها بعض المؤرخين بحرب الجمل ، وقد أسرع إليها الإمام عليه السلام فأخمد نارها ، وقضى على معالمها ، إلّا أنّها أسفرت عن أفدح الخسائر التي مُني بها المسلمون ، فقد فتحت باب الحرب بين المسلمين ، ومهَّدت الطريق إلى معاوية أن يُعلن تمرّده على الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ، ويناجزه أعنف الحروب وأشدَّها ضراوة .

وأخذت الأحداث الجسام يتصل بعضها ببعض ، ويتفرّع بعضها على بعض حتّى

انتهت بمقتل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ، وخذلان ولده الحسن ، وانتصار القوى الحاقدة على الإسلام . وكانت من أفجع الأحداث و أقساها كارثة كربلاء التي استشهد فيها سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانته .

ويعرض هذا الكتاب إلى تفصيل ذلك بصورة موضوعية بما لا تحيّز فيه .

٣

ونجحت الزمرة الأُمويّة بأساليبها الماكرة ، وبما استخدمته من وسائل دبلوماسيتها الغادرة في الاستيلاء على السلطة في البلاد ، وظهرت على الصعيد الإسلامي دولةُ الأُمويين بقيادة زعيمهم معاوية بن أبي سفيان ، وأبوه كان القائد الأوّل لجميع عمليات الحروب التي ناهضت الإسلام حينما فجّر المعلّم والقائد الرسول صلى الله عليه وآله دعوته الخلّاقة الهادفة لتطوير الوعي الاجتماعي ، وتأسيس مجتمع يقوم على العدل والمساواة .

ووقعت الأُمة فريسة تحت أنياب الأُمويين ، واستسلمت لحكم إرهابي عنيف تتصاعد فيه الأحقاد والأضغان على قيم الأُمة ومكوناتها الفكريّة والاجتماعية ، وإزالة ما حققه الإسلام من المكاسب على الصعيد الاقتصادي والسياسي والتربوي .

واتجهت السياسة الأُمويّة تضع المخططات الرهيبة للقضاء على مقومات الأُمة ، واستئصال أرصدتها الروحية والفكريّة ، وكان من أفجع وأقسى ما اتخذته من المقررات السياسية ، ما يلي :

١ ـ الحطّ من قيمة أهل البيت عليهم السلام الذين هم مركز الوعي الاجتماعي في الإسلام ، والعصب الحسّاس في جسم الأُمة الذي يمدّها بالنهوض والارتقاء ، وقد سخَّرت السلطة جميع أجهزتها السياسية والاقتصاديّة ، وسائر إمكانياتها الأُخرى لتحويل قلوب المسلمين عن أهل البيت عليهم السلام وفرض بغضهم على واقع الحياة الإسلامية ، وجعله جزءاً لا يتجزأ من الإسلام ، وقد استخدمت في هذا السبيل أجهزة التربية والتعليم ، وأجهزة الوعظ والإرشاد وغيرها ، واتخذت سبَّ العترة على المنابر فرضاً واجباً

تحاسب عليه وتنزل أقصى العقوبات على من يتهاون في أدائه .

٢ ـ إبادة العناصر الواعية في الإسلام والتي تربَّت على هديه وواقعه ، فقد ساقت إلى ساحات المجازر أعلام الإسلام كحُجْر بن عَدي ، وميثم التمّار ، ورُشيد الهجري ، وعمرو بن الحَمِق الخُزاعي ، وأمثالهم من الذين يملكون القدرة على التوجيه الاجتماعي ، والقابلية على صيانة الأُمة من الانحراف والسلوك في المنعطفات ، وتذَّرعت السلطة في سفك دمائهم بأنَّهم خلعوا يد الطاعة وفارقوا الجماعة ، ولم يكن لذلك أيّ نصيب من الصحة ، وإنّما رأوا الاتجاه السياسي يتصادم مع الدين ، ويتصادم مع مصالح الأُمة ، فأمروا السلطة بالاستقامة والخلود إلى التوازن ، ومجافاة الإضرار بمصالح المجتمع ، فاستباحت من أجل ذلك دماءهم .

٣ ـ تغيير الواقع المشرق للإسلام ، وقلب جميع مفاهيمه ومقوماته ، وتدنيسه بالخرافات والأوهام حتّى تشلَّ طاقاته ، ويصبح عاجزاً عن مسايرة الحياة ، والانطلاق مع الإنسان لتنمية ملكاته ، وقدراته وتطوير وسائل حياته .

ووضعت الحكومة لجان الوضع ، ورصدت لها الأموال الهائلة لتضع الأحاديث على لسان المنقذ العظيم الرسول صلى الله عليه وآله ؛ لتكون من بنود التشريع وتلحق بقافلة السنة التي هي من مدارك الأحكام ، وقد راح الوضّاعون يلفِّقون الأكاذيب وينسبونها للنبي صلى الله عليه وآله ، وكثير ممّا وضعوه يتنافى مع منطق العقل ، ويتجافى مع سنن الحياة ، ومن المؤسف أنّها دُوِّنت في كتب السنة ، وأُدرِجت في كتب الأخبار ، ممّا اضطر بعض الغيارى من علماء المسلمين أن يألّفوا بعض الكتب التي تدلل على بعض تلك الموضوعات .

وفيما أحسب أنّ هذا المخطط الرهيب من أفجع ما رُزئَ به المسلمون ، فإنّه لم يكن الابتلاء به آناً من الزمن ، وإنّما ظلَّ مستمراً مع امتداد التاريخ ، فقد تفاعلت تلك الموضوعات مع حياة الكثيرين من المسلمين ، وظلُّوا متمسكين بها على أنّها جزء من دينهم ، وقد وضعت الحواجز في نمو المواهب وانطلاق الفكر ، كما بقيت حَجَر عثرة في طريق التطور والإبداع الذي يريده الإسلام لأبنائه .

٤ وعانى الإنسان المسلم في عهد معاوية ضروباً شاقَّة وعسيرة من المحن والبلوى ، فقد جهدت حكومة معاوية على نشر الظلم والجور في جميع أرجاء البلاد ، وعهدت بأُمور المسلمين إلى الجلّادين والجزّارين أمثال زياد بن أبيه ، وبُسر بن أبي أرطاة ، وسَمرة بن جندب ، والمُغيرة بن شعبة ، وأمثال هؤلاء من أرجاس البشريّة ، وقد صبُّوا على الناس وابلاً من العذاب الأليم لم تشهد له الإنسانية مثيلاً في كثير من مراحل تاريخها .

لقد كانت المظالم الاجتماعية ـ في عهد معاوية ـ بمرأىً من الإمام الحسين عليه السلام ومسمع ، فروَّعته و أفزعته إلى حدّ بعيد ، فقد كان بحكم قيادته الروحية لأُمة جدِّه يحسّ بأحاسيسها ، ويتألم لآلامها ، ويحيا بحياتها ، وكان من أعظم ما عاناه من المحن والخطوب تتبّع الجزّارين والجلّادين من ولاة معاوية لشيعة أهل البيت إمعاناً في قتلهم ، وحرقاً لبيوتهم ، ومصادرة لأموالهم ، لا يألون جهداً في ظلمهم بكلّ طريق . وقد قام الإمام بدوره في شجب تلك السياسة الظالمة ، فبعث المذكرات الصارخة لطاغية دمشق يشجب فيها الإجراءات الظالمة التي اتخذها عماله وولاته لإبادة محبِّي أهل البيت والعارفين بفضلهم ، وقد جاء في بعض بنودها أنّه نفى أن يكون معاوية من هذه الأُمة ، وإنّما هو عنصر غريب ، ومعادٍ لها ، والحقّ أنّه كذلك فقد أثبتت تصرفاته السياسية أنّه من ألدّ أعدائها ، وأنّه كان يبغي لها الغوائل ، ويكيد لها في غلس الليل ، وفي وضح النهار ، قد جهد في إذلالها وإرغامها على الجور .

وكان من أفجع ما رزأ به معاوية الأُمة ، ومن أقذر مخلفاته ومتاركه أنّه فرض خليعه المتهتك يزيد القرود والفهود ـ كما يسميه المؤرخون ـ خليفة عليها يعيث في دينها ودنياها ، ويجرّ لها الويلات والخطوب .

٥ وفقدت الأُمة في عهد معاوية وخليعه يزيد جميع عناصرها ومقوماتها ، ولم تعد خير أُمة أُخرجت للناس ـ حسب ما يريده الله لها ـ فقد عاث فيها معاوية فربّاها على الوصولية والانتهازيّة ، وربّاها على الذلّ والعبوديّة ، وسلب عنها

صفاتها ، وجرَّد عنها أخلاقها القويمة ، فلم تعد تهتم بتحقيق أهدافها وآمالها ، ولا بما يضمن لها الحياة الكريمة ، فقد استسلمت للحكم الأُموي ، وقبعت ذليلة مُهانة تحت وطأة سياطه ، وهو يسفك دماءها ، ويستنزف ثرواتها ، ويشيع فيها الجور والفساد . فقد تخدَّرت بشكل فظيع ، وأصبحت جثّة هامدة لا وعي فيها ولا حراك ، فلم تهبّ للدفاع عن كرامتها وعزتها ، ولم تنطلق في ميادين الشرف والتضحية لتحمي نفسها من الظلم والاعتداء .

فرأى الإمام الحسين عليه‌السلام ـ وهو سبط الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ، وأمله الباسم الذي تجسَّدت فيه جميع طاقاته ـ حالة المسلمين ، وما هم فيه من الذلّ والهوان ، وأنّهم لم يعودوا تلك الأُمة العظيمة التي تبنَّت رسالة الإسلام ، وحملت مشعل الهداية والنور إلى جميع شعوب الأرض .

واستوعب الألم القاسي مشاعر الإمام الحسين عليه‌السلام وعواطفه ، وراح يُطيل التفكير ، ويُنفق الليل ساهراً في إنقاذ دين جدِّه العظيم ، وحمايته من الردَّة الجاهلية ، فعقد المؤتمرات تارةً في مكة ، وأُخرى في يثرب ، وعرض على الصحابة وأبنائهم الحالة الراهنة التي مُني بها المسلمون ، وأخذ يُدلي بمنكرات معاوية وموبقاته ، وقد استبان له أنّ هذه الطريقة لا تُجدي بأيّة حال في ميادين الإصلاح الاجتماعي ، ولا يمكن أن تردَّ شوارد الأهواء وترجع للأُمة ما فقدته من معنوياتها ، فرأى أنّه بين أمرين لا ثالث لهما ، وهما :

الأوّل : أن يسالم الأُمويين ويبايع ليزيد ، ويغضَّ الطرف عمّا تقترفه السلطة من الظلم والجور ، وما تعانيه الأُمة من الأزمات في مجالاتها العقائديّة والاجتماعية ، ويكون بذلك ـ على سبيل الاحتمال لا القطع ـ قد ضمن سلامته وحياته . ولكن هذا ممّا يأباه الله له ، ويأباه ضميره الحيّ المترع بتقوى الله ، فهو بحسب مكانته من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله مسؤول أمام الله عن صيانة الأُمة وحماية أهدافها ومبادئها ، ومسؤول أمام جدِّه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله عن رعاية الإصلاح الاجتماعي ، وصيانة الإسلام من عبث

العابثين ، وكيد الفاجرين ، وقد أعلن ـ سلام الله عليه ـ هذه المسؤولية الخطيرة وما يفرضه الواجب عليه في خطابه الذي ألقاه على الحر وأصحابه من شرطة ابن زياد ، قائلاً : «أَيُّها النّاسُ ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله قالَ : مَنْ رَأَى سُلْطاناً جائِراً ، مُسْتَحِلّاً لِحُرَمِ اللهِ ، ناكِثاً عَهْدَهُ ، مُخالِفاً لِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله ، يَعْمَلُ فِي عِبادِ اللهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ ، فَلَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهِ بِفِعْلٍ وَلَا قَوْلٍ كانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ مَدْخَلَهُ . . .»(١) .

لقد كان الواجب الشرعي حسبما أدلى به ممّا يحتّم عليه القيام في مقارعة الظلم ومناهضة الجور ، والضرب على أيدي المعتدين والظالمين .

الثاني : أن يعلن الثورة ويضحّي بنفسه وأهل بيته وشيعته ، وهو على يقين بعدم نجاح الثورة ، فقد درس أوضاع المجتمع وعرف أنّ الدين لَعِق على ألسنة الناس ، إلّا أنّه أيقن أنّ تضحيته ستعود على المسلمين بالخير العميم ، فستتحرر إرادتهم ويهبّون إلى ميادين الجهاد ، ويرفعون أعلام الحريّة وينزلون الجبابرة الطغاة من بني أمية من عروشهم إلى قبورهم ، واختار هذا الطريق المشرق على ما فيه من مآسٍ وخطوب لا يطيقها أيّ كائن حيّ .

٦ ودرس الإمام الحسين عليه السلام أبعاد التضحية بعمق وشمول ، فرأى أن يزجّ بجميع ثقله في المعركة ، ويقدّم أروع التضحيات التي تهزّ الضمير الإنساني على امتداد التاريخ ، وتعيد للأُمة أصالتها ووعيها عبر أجيالها الصاعدة .

لقد خطط الإمام الحسين عليه السلام فصول مأساته ، وفصول تضحيته على أُسس عميقة من الوعي والإدراك بحيث تؤدي إلى النتائج المشرقة التي منها انتصار القضية الإسلامية وإعادة الحياة الدينية إلى شرايين الأُمة ، وإزالة التخدير الذي بسطه الأُمويون على جميع أجزائها .

---

(١) وقعة الطفّ / أبو مِخنف : ١٧٢ . بحار الأنوار : ٤٤ : ٣٨٢ . تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٦٠٥ . مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ٢٣٤ و ٢٣٥ .

وقد أعلن ـ سلام الله عليه ـ ما صمّم عليه ، وأذاع فصول مأساته الخالدة في كثير من المناسبات ، وهذه بعضها :

١ ـ أدلى بمصرعه ـ وهو بمكة ـ في خطابه الذي أعلن فيه الثورة على بني أُمية ، فقد جاء فيه : « وَخِيرَ لِي مَصْرَعٌ أَنا لاقِيهِ ، كَأَنِّي بِأَوْصالِي تُقَطِّعُها عُسْلَانُ الْفَلَواتِ بَيْنَ النَّواوِيسِ وَكَرْبَلَاءَ . . . »[١] .

أليس في هذا الكلام دلالة على روعة العزم والتصميم على التضحية ؟ !

أليس فيه إخبار جازم عن مصرعه الكريم ، وأنّه في كربلاء ؟ ! فهي التي تحظى بمواراة جثمانه الطاهر كما أذاع ذلك جدُّه وأبوه من قبل .

٢ ـ أعلن الإمام العظيم المآسي الأليمة ، والخطوب المفجعة التي تحل بأهل بيته من القتل والسبي والأسر ، وذلك حينما أشار عليه ابن عباس بألّا يحمل معه مخدرات النبوة وعقائل الوحي إلى العراق ، ويتركهن في يثرب حتّى تستقيم له الأُمور ، فأجابه الإمام الحسين عليه‌السلام قائلاً : « إِنَّ اللهَ شاءَ أَنْ يَراهُنَّ سَبايا »[٢] .

لقد صحب معه عياله وهو يعلم ما سيجري عليهم من الأسر والسبي ؛ لأنّ بأسرهم وسلبهم سوف تستكمل رسالته ، وتؤدي فعاليتها في القضاء على العرش الأُموي وإعادة الحياة الإسلامية إلى واقعها المضيء .

٣ ـ كان الإمام الحسين عليه‌السلام يتحدث وهو في طريقه إلى العراق من أنّ رأسه الشريف سوف يرفع على الحراب ، فيطاف به في الأقطار والأمصار ، ويهدى إلى بغي من بغايا بني أُمية كما صنع برأس أخيه يحيى بن زكريا ، حيث أُهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل .

لقد استهان بجميع ما يعانيه في سبيل إحقاق الحقّ ، وإعلاء كلمة الله في الأرض .

---

(١) اللهوف : ٣٨ . بحار الأنوار : ٤٤ : ٣٦٧ .

(٢) اللهوف : ٢٧ . بحار الأنوار : ٤٤ : ٣٦٤ . ينابيع المودّة : ٣ : ٦٠ .

٧ وفجّر الإمام الحسين عليه السلام ثورته الكبرى التي أوضح الله بها الكتاب ، وجعلها عبرة لأُولي الألباب ، وهي بجميع مخططاتها جزء من رسالة الإسلام ، وامتداد مشرق لثورة الرسول الأعظمّ صلى الله عليه وآله ، وتجسيد حيّ لأهدافه وآماله ، ولولاها لذهبت جهود النبيّ صلى الله عليه وآله ، وضاعت آماله ، ولم يبقَ للإسلام أثر ولا عين .

لقد انتصر الإمام الحسين عليه السلام وفتح الله له الفتح المبين ، فقد أشرقت سماء الإسلام بثورته الخالدة ، وتفاعلت تضحيته مع مشاعر الناس وعواطفهم ، وامتزجت بقلوبهم ، وأصبحت أعظم مدرسة للإيمان بالله ، تبثّ روح العقيدة والفداء في سبيل الحقّ والعدل ، وتغذّي الناس بالقِيم الكريمة والمُثل العليا ، وتعمل على توجيههم نحو الخير وتهديهم إلى سواء السبيل .

لقد أقبل الناس بلهفة على مأساة أبي الأحرار عليه السلام ، وهم يمعنون النظر في فصولها ، ويقتبسون منها أروع الدروس عن الكرامة والتضحية ، والبطولات الخارقة والعزّة التي لا يلويها الظلم والجور .

إنّ الانسانية لتنحني إجلالاً وإكباراً للإمام العظيم الذي رفع راية الحق عالية خفاقة ، وتبنّى حقوق المظلومين ، ودافع عن مصالح المضطهدين ، وإنّها لتمجّد ذكره أكثر ممّا تمجّد ذكرى أيّ مصلح اجتماعي في الأرض ، وقد أحرز الإمام العظيم بذلك من النصر ما لم يحرزه غيره من المصلحين في العالم .

لقد كان من أوليات النصر الذي حققه الإمام الحسين عليه السلام تحطيم الكيان الأُموي ، فقد وضعت ثورته الخالدة العبوات الناسفة في قصور الأُمويين ، وألغمت طريقهم ، فلم يمضِ قليل من الزمن حتّى تفجّرت فأطاحت برؤوس الأُمويين واكتسحت نشوة نصرهم ، وجعلتهم أثراً بعد عين ، ويعرض هذا الكتاب بصورة موضوعية إلى بعض ما قدمته الثورة من المعطيات المشرقة على الصعيد الفكري والاجتماعي للعالم الإسلامي .

٨ ولن يستطيع التاريخ الإسلامي أن يأخذ حظّه من الحياة إذا كان مثقلاً بالقيود والأغلال ، ولم يخضع للدراسة والنقد ، فلا بدّ أن تتسلط مجاهر البحث العلمي النزيه على أحداثه ، وتُدرس بدقّة وتجرّد شأن غيرها من تاريخ الأُمم الحيّة التي تتناول أحداثه أقلام المفكرين والباحثين بكثير من العمق والتحليل ، فإنّ دراسة التاريخ عندهم تحتل الصدارة في دراساتهم الثقافية والعلمية .

إنّا إذا أردنا للتاريخ الإسلامي أن يزدهر ويساير النهضة الفكريّة والتطور العلمي في هذه العصور ،فلا بدّ من دراسته دراسة واعية تعتمد على المناهج العلمية ، وعلى التجرّد من النزعات المذهبية والتقليديّة ، فننظر بدقّة إلى الأحداث الجسام التي دهمت المسلمين في عصورهم الأُولى فإنّها ـ فيما نعتقد ـ مصدر الفتنة الكبرى التي أخلدت لهم المصاعب ، وجرّت لهم الفتن والخطوب على امتداد التاريخ .

إنّ البحث عن التاريخ الإسلامي في تلك الحقبة الخاصة من الزمن إذا لم يعرض لتلك الأحداث بالبسط والتحليل ، ولم يلقِ الأضواء على دوافعها ومجرياتها ، فإنّه يكون بحثاً تقليدياً لا روح فيه ، ولا ثمرة تعود فيه على القرّاء .

وقد أشرنا في الجزء الأوّل من هذا الكتاب إلى الكثير من الأحداث ، وعرضنا الأنظمة السياسية والاقتصاديّة التي وضع برامجها الخلفاء في العصر الأوّل ، وقد تأملنا في كثير منها بتحفّظ وتجرّد شأن الباحث الذي يهمه الوصول إلى الواقع مهما استطاع إليه سبيلاً ، وإنّي ـ فيما اعتقد ـ أنّ من الإثم وتعمّد الجهل أن نتكلف إخفاء أيّة ناحية من النواحي السياسية أو الاجتماعية في ذلك العصر ، فإنّ إخفاء ذلك من ألوان التضليل والدجل على القرّاء .

وليس في دراسة التاريخ دراسة منهجية تغيير له ، أو قلب لمفاهيمه ، أو خروج عن موازين البحث العلمي المجرد ، وإنّما هي من صميمه كما هي من متطلبات الحياة الثقافية في هذا العصر .

وعلى أيّة حال فإنّ هذه الدراسة ترتبط ارتباطاً ذاتياً وموضوعياً بحياة الإمام

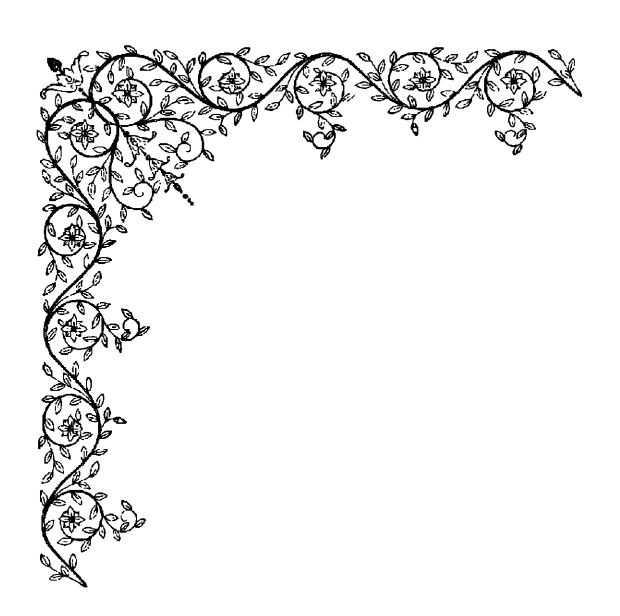
الحسين عليه السلام ، فقد عاش تلك الحقبة الخاصة من الزمن المليئة بالأحداث ، وقد نظر إليها بعمق وشمول ووقف على أهدافها ، وهي ـ من دون شكّ ـ قد ساهمت مساهمة إيجابية في كثير من الأحداث التي فزع منها المسلمون ، والتي كان منها كارثة كربلاء ، فإنّها كانت إحدى النتائج المباشرة لذلك التخدير الذي منيت به الأُمة من جرّاء الحكم الأُموي الذي جهد على شلّ الحياة الفكريّة والاجتماعية ، وإشاعة الانتهازيّة بين المسلمين .

وأنا آمل أن أكون في هذه الدراسة قد واكبت الواقع ، وابتعدت عن العواطف التقليديّة ، وآثرت الحقّ في جميع ما كتبته ، لا أبتغي بذلك إلّا إبراز التاريخ الإسلامي على واقعه من دون تحيّز .

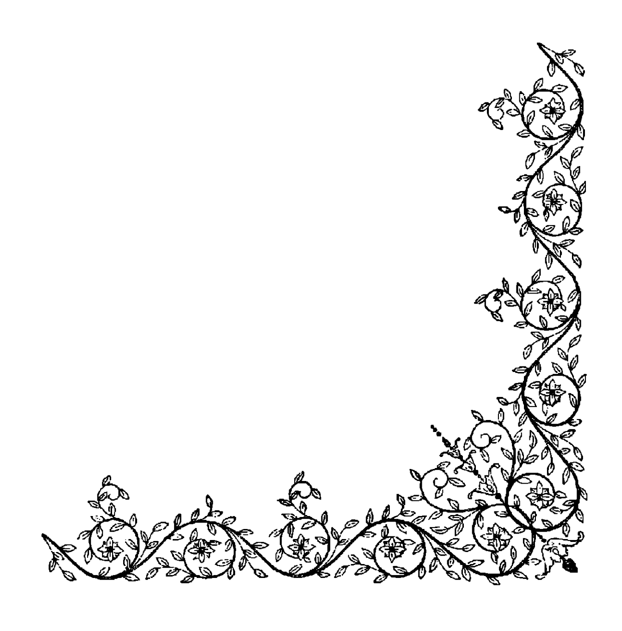
والله ولي التوفيق

مكتبة الإمام الحسن العامة
النجف الأشرف

باقر شريف القرشي
١٣٩٤ / 1974



مَعَ النّاكِثين وَالقاسِطين وَالمارِقين



وفزعت القبائل القرشية أشدّ ما يكون الفزع هولاً من حكومة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وأيقنت أنّ جميع مخططاته السياسية والاقتصاديّة إنّما هي امتداد ذاتي للاتجاهات الفكريّة والاجتماعية عند الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله الذي أطاح بغلوائهم وكبريائهم ، وحطّم حياتهم الاقتصاديّة القائمة على الربا والاحتكار والاستغلال ، وممّا زاد في فزعهم القرارات الحاسمة التي أعلنها الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فور انتخابه للحكم ، والتي كان منها إقصاء ولاة عثمان عن جميع مراكز الدولة ، ومصادرة جميع ما نهبوه من الخزينة المركزيّة ، كما اضطربوا من إعلانه للمساواة العادلة بين جميع الشعوب الإسلامية ، ومن مساواته في الحقوق والواجبات ، ومساواته في كلّ شيء ، وقد هالهم ذلك ، فكانوا يرون أنّ لهم التفوق على بقية الشعوب ، ولهم امتيازات خاصة على بقية الناس .

لقد ورمت آناف القرشيّين وسائر القوى المنحرفة عن الحقّ من حكومة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، فأجمع رأيهم على إعلان العصيان المسلّح ، وإشعال نار الحرب في البلاد للإطاحة بحكومته التي اتخذت الحكم وسيلة للإصلاح الاجتماعي ، وتطوير حياة الإنسان ، وأوّل الحروب التي أُثيرت على الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام هي حرب الجمل ، وأعقبتها حرب صفين ، ثمّ حرب النهروان ، وقد وضعت تلك الحروب الحواجز والسدود أمام حكمه الهادف إلى رفع مستوى القِيم الإنسانية ، والقضاء على جميع ألوان التأخر في البلاد .

ويقول الرواة : إنّ الرسول صلى الله عليه وآله قد أحاط الإمام علماً بما يُمنى به في عهد خلافته من تمرّد بعض الفئات عليه ، وقد عهد إليه بقتالهم ، وقد أسماهم الناكثين والقاسطين والمارقين[١] ، ولابدّ لنا أن نعرض بإيجاز لهذه الحروب التي تصوّر لنا الحياة السياسية والفكريّة في ذلك العصر ، الذي أترعت فيه عواطف الكثيرين بحبّ الملك والسلطان ، كما تصوّر لنا الأحقاد التي تكنُّها القبائل القرشية للإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، ومن المقطوع به أنّ هذه الأحداث قد ساهمت مساهمة إيجابية في خلق كارثة كربلاء ، فقد نشرت الأوبئة الاجتماعية ، وخلقت جيلاً انتهازياً ، لا ينشد إلّا مطامعه الخاصة ، وفيما يلي ذلك :

---

(١) المستدرك على الصحيحين : ٣ : ١٣٩ . تاريخ بغداد : ٨ : ٣٤١ . أُسد الغابة : ٤ : ٣٣ . مجمع الزوائد : ٦ : ٢٣٥ . كنز العمّال : ١١ : ٢٩٢ ، ٣٢٧ .

الناكثون

وهم الذين نكثوا بيعتهم، وخاسوا ما عاهدوا عليه الله في التضحية والطاعة للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، فانسابوا في ميادين الباطل وساحات الضلال، وتمرّسوا في الإثم. وقد أجمع فقهاء المسلمين على تأثيمهم إذ لم يكن لهم أيّ مبرر في الخروج على السلطة الشرعية التي تبنّت المصالح العامة، وأخذت على عاتقها أن تسير بين المسلمين بالحق المحض والعدل الخالص، وتقضي على جميع أسباب التخلّف في البلاد.

أمّا أعلام الناكثين فهم: طلحة، والزبير، والسيدة عائشة بنت أبي بكر (١)، ومروان ابن الحكم، وسائر بني أُمية، وغيرهم من الذين ضاقوا ذرعاً من عدله ومساواته.

دوافع التمرّد

والشيء المحقّق أنّه لم تكن للناكثين أيّة أهداف اجتماعية، وإنّما دفعتهم

---

(١) وقد أحاط النبيّ صلى الله عليه وآله الإمام عليّ عليه السلام بما يقع بينه وبين عائشة، بما ورد عن أبي رافع قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: **سَيَكُونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عائِشَةَ أَمْرٌ**.

قال عليه السلام: **أَنا يا رَسولَ اللهِ ؟**

قال صلى الله عليه وآله: **نَعَمْ**.

قال عليه السلام: **أَنا مِنْ بَيْنِ أَصْحابِي ؟**

قال صلى الله عليه وآله: **نَعَمْ**.

قال عليه السلام: **فَأَنا أَشْقاهُمْ ؟!**

قال صلى الله عليه وآله: **لا، ولٰكِنْ إِذا كانَ ذلِكَ فَارْدُدْها إِلىٰ مَأْمَنِها**» ـ المعجم الكبير / الطبراني: ١: ٣٣٢ و ٣٣٣، الحديث ٩٩٥.

مصالحهم الخاصة لنكث بيعة الإمام ، فطلحة والزبير قد خفّا إليه بعد أن تقلد الخلافة يطلبان منحهما ولاية البصرة والكوفة[١] ، فلما خاب أملهما أظهرا السخط ، ومضيا مع الهوى إلى الغاية ، وخرجا من لدنه إلى السادة ورؤوس الناس يحرضانهم عليه ، وينقمان منه أنّه خالف سنة عمر في التقسيم ، أكان عمر حرياً أن يصيب دون رسول الله ؟!

ولقد لقيتْ دعوتهما هذي صدىً في النفوس الصاغية للدنيا ، فالتفّ بهما قوم ميّزهم التوزيع العمري ووضعهم العلوي حيثما أرادت شرعة المساواة. ووقفوا جميعاً يتحينون اللحظات عساهم يستطيعون أن يزيلوا دولة هذا الرجل ـ أي أميرالمؤمنين عليه السلام ـ الذي لا يأبه في حكمه بعراقة الأنساب أو مفاخرة الأحساب ، والذي نزل بأقدارهم إلى مثل الدرك الذي كانت عليه أقدار الفُرس والمصريين من الأجناس الدنيا حتّى الأمس القريب.

وقد أدلى الزبير بتصريح أعرب فيه عن أهدافه ، فقد أقبل إليه وإلى طلحة رجل فقال لهما : إنّ لكما صحبة وفضلاً فأخبراني عن مسيركما وقتالكما ، أشيء أمركما به رسول الله صلى الله عليه وآله ، أم رأي رأيتما ؟!

وسكت طلحة ، وأمّا الزبير فقال : حُدّثنا أنّ هاهنا بيضاء وصفراء ـ يعني دراهم ودنانير ـ فجئنا لنأخذ منها[٢].

من أجل الظفر بالمنافع الماديّة أعلن الشيخان تمردهما على حكومة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام .

وأمّا السيدة عائشة فإنّها كانت تروم إرجاع الخلافة إلى أُسرتها ، فهي أوّل مَن قدح زناد الثورة على عثمان ، وأخذت تُلهب المشاعر والعواطف ضده ، وكانت تقول :

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ٥١ و ٥٢. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١١ : ١٠.

(٢) أنساب الأشراف : ٣ : ٦٢.

« اقتلوا نعثلاً فقد كفر »[١].

وقد جهدت على ترشيح طلحة للخلافة ، وكانت تشيد به في كل مناسبة إلّا أنّها أخيراً استجابت لعواطفها الخاصّة المترعة بالود والحنان لابن أُختها عبدالله بن الزبير فرشّحته لإمارة الصلاة وقدّمته على طلحة[٢].

وأمّا بنو أُمية فقد طلبوا من الإمام علي عليه السلام أن يضع عنهم ما أصابوه من المال في أيام عثمان ، فرفض عليه السلام أن يضع عنهم ما اختلسوه من أموال الأُمة فأظهروا له العداء ، وعملوا على إثارة الفتنة والخلاف.

وعلى أيّة حال فإنّه لم تكن للناكثين نزعة إصلاحية أو دعوة إلى الحق ، وإنّما كانت بواعثهم الأنانية والأطماع والأحقاد على الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ؛ الذي هو نفس رسول الله صلى الله عليه وآله ، وباب مدينة علمه.

خديعة معاوية للزبير

وأيقن معاوية بأهداف الزبير وطلحة ، فقام بدوره في خديعتهما وإغرائهما ؛ ليتخذهما سلّماً يعبر عليهما لتحقيق أهدافه ومآربه ، فقد كتب إلى الزبير رسالة جاء فيها : « لعبدالله الزبير أميرالمؤمنين من معاوية بن أبي سفيان ، سلام عليك . أمّا بعد ، فإنّي قد بايعت لك أهل الشام ، فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الجَلَب ، فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليها ابن أبي طالب فإنّه لا شيء بعد هذين المصرين ، وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك ، فاظهرا الطلب بدم عثمان ، وادعوا الناس إلى ذلك ، وليكن منكما الجدّ والتشمير ، أظفركما الله وخذل مناوئكما ... ».

---

(١) بحار الأنوار : ٣٢ : ١٤٣ . الغدير : ٩ : ٨٠ . الإمامة والسياسة : ١ : ٥٢ . الكامل في التاريخ : ٣ : ١٠٥ .

(٢) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ١٧٦ . الكامل في التاريخ : ٣ : ١٠٧ .

ولمّا وصلت هذه الرسالة إلى الزبير لم يملك صوابه من الفرح والسرور، وخفّ إلى طلحة، فأخبره بذلك، فلم يشكّا في صدق نيته وإخلاصه لهما، وتحفّزا إلى إعلان الثورة عليه عليه السلام، واتخذا دم عثمان شعاراً لهما [١].

مؤتمر مكّة

وخفّ المتآمرون إلى مكة فاتخذوها وكراً لدسائسهم التخريبية الهادفة لتقويض حكم الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، وقد وجدوا في هذا البلد الحرام تجاوباً فكرياً مع الكثيرين من أبناء القبائل القرشية التي كانت تكن في أعماق نفسها الكراهية والحقد على الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام؛ لأنّه قد وتر الكثيرين منهم في سبيل الإسلام.

وعلى أيّة حال فقد تداول زعماء الفتنة الآراء في الشعار الذي يتبنونه، والبلد الذي يغزونه، وسائر الشؤون الأُخرى التي تضمن لثورتهم النجاح.

قرارات المؤتمر

واتخذ أعضاء المؤتمر بالإجماع القرارات التالية، وهي:

الأوّل: أن يكون شعار المعركة دم عثمان والمطالبة بثأره؛ لأنّه قُتل مظلوماً، واستباح الثوّار دمه بعد توبته بغير حقّ، لقد رفعوا قميص عثمان شعاراً لهم فكان شعاراً للتمرّد، وشعاراً للرأسمالية القرشية التي طغت في البلاد [٢].

الثاني: تحميل الإمام علي عليه السلام المسؤولية في إراقة دم عثمان؛ لأنّه آوى قتلته ولم يقتص منهم [٣].

الثالث: الزحف إلى البصرة واحتلالها، واتخاذها المركز الرئيسي للثورة؛ لأنّ لهم

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١: ٢٣١.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ١٧٢. الكامل في التاريخ: ٣: ١٠٦.

(٣) مروج الذهب: ٢: ٣٦٣ و ٣٦٤. تاريخ الخلفاء: ١٧٤.

بها حزباً وأنصاراً، وقد أعرضوا عن الزحف إلى يثرب؛ لأنّ فيها الخليفة الشرعي، وهو يتمتع بالقوى العسكريّة التي لا قابلية لهم عليها، كما أعرضوا عن النزوح إلى الشام؛ لأنّ الأُمويين لم يستجيبوا لهم؛ لأنّها كانت تحت قبضتهم، فخافوا عليها من التصدّع والاحتلال[١].

تجهيز الجيش بالأموال المنهوبة

وجهّز يعلى بن أُمية جيش عائشة بالأموال التي نهبها من بيت المال حينما كان والياً على اليمن أيام عثمان، ويقول المؤرخون: إنّه أمدّ الجيش بستمائة بعير، وستمائة ألف درهم[٢]. وأمدّهم عبد الله بن عامر والي عثمان على البصرة بمال كثير كان قد اختلسه من بيت المال[٣]، ولم يتحرّج أعضاء القيادة العسكريّة العامة في جيش عائشة من هذه الأموال المحرّمة.

الخطاب السياسي لعائشة

وخطبت عائشة في مكة خطاباً سياسياً حمّلت فيه المسؤولية في إراقة دم عثمان على الغوغاء، فهم الذين سفكوا الدم الحرام في الشهر الحرام، وقد قتلوا عثمان بعد ما أقلع عن ذنوبه وأخلص في توبته، ولا حجّة لهم فيما اقترفوه من سفك دمه[٤].

وقد كان خطابها ـ فيما يقول المحققون: ـ حافلاً بالمغالطات السياسية، فإنّ الغوغاء لم يسفكوا دمه، وإنّما سفك دمه الذين رفعوا علم الثورة عليه، وفي

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ١٧٢ و ١٧٤. الكامل في التاريخ: ٣: ١٠٦.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ١٧٢. الكامل في التاريخ: ٣: ١٠٦.

(٣) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ١٧٤. الكامل في التاريخ: ٣: ١٠٦.

(٤) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ١٧١. الكامل في التاريخ: ٣: ١٠٦.

طليعتهم كبار الصحابة كعمّار بن ياسر، وأبي ذر، وعبدالله بن مسعود، وطلحة، والزبير، وكانت هي بالذات من أشدّ الناقمين عليه، فقد اشتدت في معارضته، وأفتت في قتله وكفره، فقالت: «اقتلوا نعثلاً فقد كفر»(١)، فأيّة علاقة للغوغاء بإراقة دمه؟!

وأمّا توبته فإنّ عثمان أعلن غير مرة عن تراجعه عن أحداثه إلّا أنّ بني أُمية كانوا يزجّونه في مخططاتهم السياسية فيعود إلى سياسته الأُولى، ولم يقلع عنها حتّى قتل.

وعلى أيّة حال فقد كان خطابها أوّل بادرة لإعلان العصيان المسلح على حكومة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، وكان الأولى بعائشة ـ بحسب مكانتها الاجتماعية ـ أن تدعو إلى وحدة الصفّ وجمع كلمة المسلمين، وأن تقوم بالدعم الكامل لحكومته عليه السلام التي تمثّل أهداف النبيّ صلى الله عليه وآله وما تصبوا إليه الأُمة من العزّة والكرامة.

عائشة مع أُم سلمة

ومن الغريب حقاً أن تخفّ عائشة إلى أُم سلمة تطلب منها القيام بمناجزة الإمام علي عليه السلام، مع علمها بما تكنّه من الولاء والتقدير له، الأمر الذي دلّ على عدم خبرتها بالاتجاهات الفكريّة لضرّاتها من أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله، ولمّا قابلتها خاطبتها بناعم القول، قائلة: يا بنت أبي أُمية، أنتِ أوّل مهاجرة من أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنت كبيرة أُمهات المؤمنين، وكان رسول الله يقسم لنا من بيتك، وكان جبرئيل أكثر ما يكون في منزلك.

ورمقتها أُم سلمة بطرفها، وقالت لها بريبة: لأمر ما قلت هذه المقالة؟!

فأجابتها عائشة مخادعة: إنّ القوم استتابوا عثمان، فلمّا تاب قتلوه صائماً في

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢: ١٤٣. الغدير: ٩: ٨٠. الإمامة والسياسة: ١: ٥٢. الكامل في التاريخ: ٣: ١٠٥.

الشهر الحرام ، وقد عزمت على الخروج إلى البصرة ، ومعي الزبير وطلحة فاخرجي معنا لعلّ الله يُصلح هذا الأمر على أيدينا .

وأسدت لها أُم سلمة النصيحة ، وذكّرتها بمواقفها مع عثمان ونقمتها عليه ، وحذّرتها من الخروج على ابن عم رسول اللهﷺ قائلة : يا بنت أبي بكر ، بدم عثمان تطلبين ؟ ! والله لقد كنت من أشدّ الناس عليه ، وما كنت تسمينه إلّا نعثلاً ، فمالكِ ودم عثمان ؟ وعثمان رجل من بني عبد مناف ، وأنتِ امرأة من بني تيم بن مرّة ، ويحك يا عائشة ، أعلى عليٍّ وابن عمّ رسول اللهﷺ تخرجين ، وقد بايعه المهاجرون والأنصار ؟ !

وجعلت أُم سلمة تذكّر عائشة فضائل عليّ ومآثره وقرب منزلته من رسول الله ، وكان عبد الله بن الزبير يسمع حديثها فغاظه ذلك ، وخاف أن تصرف عائشة عن عزمها ، فصاح بها : يا بنت أبي أُمية ، إنّنا قد عرفنا عداوتك لآل الزبير .

فنهرته أُم سلمة وصاحت به : والله لتوردنّها ثمّ لا تصدرنّها أنت ولا أبوك ، أتطمع أن يرضى المهاجرون والأنصار بأبيك الزبير وصاحبه طلحة ، وعليّ بن أبي طالب حيّ وهو وليّ كلّ مؤمن ومؤمنة .

فقال لها ابن الزبير : ما سمعنا هذا من رسول اللهﷺ ساعة قطّ .

فقالت أُم سلمة : إن لم تكن أنت سمعته ، فقد سمعته خالتك عائشة ، وها هي فاسألها قد سمعتهﷺ يقول : **عَلِيٌّ خَلِيفَتِي عَلَيْكُمْ فِي حَياتِي وَمَماتِي ، مَنْ عَصاهُ فَقَدْ عَصانِي** أتشهدين يا عائشة بهذا أم لا ؟

فلم يسع عائشة الإنكار ، وراحت تقول : اللهم نعم .

ومضت أُم سلمة في نصيحتها لعائشة قائلةً : اتقي الله يا عائشة في نفسك ، واحذري ما حذّرك الله ورسوله ، ولا تكوني صاحبة كلاب الحوأب ، ولا يغرّنكِ الزبير وطلحة فإنّهما لا يغنيان عنكِ من الله شيئاً ....

ولم تعِ عائشة نصيحة أُم سلمة، واستجابت لعواطفها، وأصرّت على مناجزة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام. وكتبت أُم سلمة بجميع الأحداث التي جرت في مكة إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وأحاطته علماً بأعضاء الفتنة(١).

الزحف إلى البصرة

وتحركت كتائب عائشة صوب البصرة، ودقّ طبل الحرب، ونادى المتمردون بالجهاد، وقد تهافت ذوو الأطماع والحاقدون على الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام إلى الالتحاق بجيش عائشة، قد رفعوا أصواتهم بالطلب بدم عثمان الذي سفكه طلحة والزبير وعائشة، واتجهت تلك الجيوش لتشق كلمة المسلمين، وتغرق البلاد بالثُّكْل والحزن والحِداد.

عسكر

وسار موكب عائشة في البيداء يجدُّ السير، فصادفهم العرني صاحب عسكر، فعرض له راكب فقال له: يا صاحب الجمل، أتبيع جملك؟

- نعم.
- بكم؟
- بألف درهم.
- ويحك!! أمجنون أنت، جمل يباع بألف درهم؟
- نعم، جملي هذا، فما طلبت عليه أحداً قط إلّا أدركته، ولا طلبني وأنا عليه أحد قط إلّا فتّه...

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢: ١٦٨. الفتوح: ٢: ٤٥٤ ـ ٤٥٥. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٦: ٢١٧ و ٢١٨.

- لو تعلم لمن نريده لأحسنت بيعنا.
- لمن تريده؟
- لأُمك.
- لقد تركت أُمي في بيتها قاعدة ما تريد براحاً.
- إنّما أريده لأُم المؤمنين عائشة.
- هو لك خذه بغير ثمن.
- ارجع معنا إلى الرحل فلنعطكَ ناقة مَهْريّة[١]، ونزيدك دراهم.

فقفل معهم فأعطوه الناقة وأربعمائة درهم أو ستمائة درهم، وقُدِّم عسكر إلى عائشة فاعتلت عليه[٢]، وقد أصبح كعجل بني إسرائيل فقُطِّعت الأيدي، وأُزهقت الأنفس وأُريقت الدماء من حوله.

الحَوأبُ

وسارت قافلة عائشة، فاجتازت على مكان يقال له: (الحوأب)[٣]، فتلقَّت الركب كلاب الحيّ بهرير وعواء، فذعرت عائشة، فالتفتت إلى محمّد بن طلحة فقالت له: أي ماء هذا يا محمّد؟

- ماء الحوأب يا أُم المؤمنين.

فهتفت وهي تلهث: ما أراني إلّا راجعة.

- لِمَ يا أُم المؤمنين؟

---

(١) **ناقة مَهْريّة**: منسوبة إلى حي وقبيلة مَهْرَة بن حَيْدان ـ لسان العرب: ١٣: ٢٠٨ ـ مهر.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ١٧٨. الكامل في التاريخ: ٣: ١٠٧. تذكرة الخواص: ٦٧ و ٦٨.

(٣) **الحَوأبُ** ـ بالفتح ثم السكون ـ: موضع في طريق البصرة من مياههم ـ معجم البلدان: ٢: ٣٦٠.

- سمعت رسول الله يقول لنسائه: **كَأَنِّي بِإِحْداكُنَّ قَدْ نَبَحَتْها كِلَابُ الْحَوْأَبِ، وَإِيّاكِ أَنْ تَكُونِي أَنْتِ يا حُمَيْراءُ**[١].

- تقدَّمي رحمك الله ودعي هذا القول.

فلم تبرح من مكانها، وطافت بها الهموم والآلام، وأيقنت بضلالة قصدها، وذعرت القيادة العسكريّة من توقف عائشة التي اتخذوها قبلة لهم يغرّون بها السذَّج والبسطاء، فخفّوا إليها في دهشة قائلين: يا أُمه.

فقطعت عليهم الكلام، وراحت تقول بنبرات ملؤها الأسى والحزن: أنا والله صاحبة كلاب الحوأب، ردّوني، ردّوني.

وأسرع إليها ابن أُختها عبد الله بن الزبير كأنّه ذئب فانهارت أمامه، واستجابت لعواطفها، ولولاه لارتدت على عقبيها إلى مكة، فجاء لها بشهود اشترى ضمائرهم، فشهدوا عندها أنّه ليس بماء الحوأب، وهي أوّل شهادة زور تُقام في الإسلام[٢]، فأقلعت عن فكرتها، وأخذت تقود الجيوش لحرب وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وباب مدينة علمه.

في ربوع البصرة

ودهمت جيوش عائشة أهل البصرة، فمُلئت قلوبهم ذعراً وفزعاً وخوفاً،

---

(١) روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال يوماً لنسائه وهنّ جميعاً عنده: «**أَيَّتُكُنَّ صاحِبَةُ الْجَمَلِ الْأَدَبِّ تَنْبَحُها كِلَابُ الْحَوْأَبِ؟ يُقْتَلُ عَنْ يَمِينِها وَشِمالِها قَتْلَىٰ كَثِيرَةٌ كُلُّهُمْ فِي النّارِ، وَتَنْجُو بَعْدَ ما كادَتْ**» ـ تاريخ اليعقوبي: ٢: ٧٩. تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ١٧٨. الاستيعاب: ٤: ١٨٨٥. وجاء فيه: «وهذا الحديث من أعلام نبوّته صلى الله عليه وآله». الكامل في التاريخ: ٣: ١٠٧. تذكرة الخواص: ٦٨. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٩: ٣١١. البداية والنهاية: ٧: ٢٤٢. الخصائص الكبرى: ٢: ١٣٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢: ٧٩. مروج الذهب: ٢: ٣٥٨.

فقد أحاطت ببلدهم القوات العسكريّة التي تُنذر باحتلال بلدهم ، وجعلها منطقة حرب ، وعصيان على الخليفة الشرعي ، وانبرى حاكم البصرة عثمان بن حنيف وهو من ذوي الإدارة والحزم والحريجة في الدين ، فبعث أبا الأسود الدؤلي إلى عائشة يسألها عن سبب قدومها إلى مصرهم ، ولمّا مَثُل عندها قال لها :

- ما أقدمك يا أُم المؤمنين ؟

- أطلب بدم عثمان .

- ليس في البصرة من قتلة عثمان أحد .

- صدقت ، ولكنّهم مع عليّ بن أبي طالب بالمدينة ، وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله ، أنغضب لكم من سوط عثمان ، ولا نغضب لعثمان من سيوفكم ؟!

وردّ عليها أبو الأسود قائلاً :

- ما أنتِ من السوط والسيف ؟! إنّما أنتِ حبيسة رسول الله صلى الله عليه وآله ، أمرك أن تقرّي في بيتك وتتلي كتاب ربّك ، وليس على النساء قتال ، ولا لهنّ الطلب بالدماء ، وإنّ عليّاً لأوْلى منك ، وأمسّ رحماً ، فإنّهما ابنا عبد مناف .

ولم تذعن لقوله ، وراحت مصرّة على رأيها قائلةً :

- لست بمنصرفة حتّى أمضي لما قدمت إليه ، أفتظن أبا الأسود أنّ أحداً يقدم على قتالي ؟!

وحسبت أنّها تتمتع بحصانة لعلاقتها الزوجية من النبيّ صلى الله عليه وآله ، فلا يقدم أحد على قتالها ، ولم تعلم أنّها أهدرت هذه الحرمة ولم ترعَ لها جانباً ، فأجابها أبو الأسود بالواقع قائلاً : أما والله لتقاتلن قتالاً أهونه الشديد .

ثمّ انعطف أبو الأسود صوب الزبير فذكّره بماضي ولائه للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وقربه منه ، قائلاً : يا أبا عبد الله ، عهد الناس بك وأنت يوم بويع أبو بكر آخذاً بقائم سيفك تقول : لا أحد أولى بهذا الأمر من ابن أبي طالب ، وأين هذا المقام من ذاك ؟

فأجابه الزبير بما لم يؤمن به قائلاً: نطلب بدم عثمان.

قال: أنت وصاحبك وليتماه فيما بعد.

وَلَانَ الزبيرُ واستجاب لنصيحة أبي الأسود، إلّا أنّه طلب منه مواجهة طلحة وعرض الأمر عليه، فأسرع أبو الأسود تجاه طلحة، وعرض عليه النصيحة فأبى من الاستجابة وأصرّ على الغيّ والعدوان.

ورجع أبو الأسود من وفادته التي أخفق فيها، فأحاط ابن حنيف علماً بالأمر، فجمع أصحابه وخطب فيهم، وقال: أيّها الناس، إنّما بايعتم الله، ﴿ **يدُ اللهِ فَوْقَ أَيدِيهِم فَمَنْ نَكَثَ فإنَّما يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَمَن أوفَىٰ بِما عاهدَ عَلَيهُ اللهَ فَسَيُؤتِيهِ أجْراً عَظِيماً** ﴾[١].

والله لو علم عليٌّ أحداً أحقّ بهذا الأمر منه ما قبله، ولو بايع الناس غيره لبايع وأطاع، وما به إلى أحد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله حاجة، وما بأحد عنه غنى، ولقد شاركهم في محاسنهم، وما شاركوه في محاسنه، ولقد بايع هذان الرجلان، وما يريدان الله، فاستحلا الفطام قبل الرضاع، والرضاع قبل الولادة، والولادة قبل الحمل، وطلبا ثواب الله من العباد، وقد زعما أنّهما بايعا مستكرهين، فإن كانا استكرها قبل بيعتهما وكانا رجلين من عرض قريش لهما أن يقولا ولا يأمرا ألا وإنّ الهدى ماكانت عليه العامة، والعامة على بيعة عليٍّ، فما ترون أيّها الناس[٢].

فقام إليه الفذّ النبيل حكيم بن جبلة، فخاطبه بمنطق الإيمان والحقّ والإصرار على الحرب[٣].

وجرت مناظرات بين الفريقين إلّا أنّها لم تنتهِ إلى خير، وخطب طلحة والزبير،

---

(١) الفتح ٤٨: ١٠.

(٢) بحار الأنوار: ٣٢: ١٣٩. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٦: ٢٢٦ و ٢٢٧.

(٣) الإمامة والسياسة: ١: ٦٣ و ٦٤.

وكان خطابهما الطلب بدم عثمان ، فردّ عليهما أهل البصرة ممّن كانت تأتيهم رسل طلحة بالتحريض على قتل عثمان ، وحمّلوه المسؤولية في إراقة دمه ، وخطبت عائشة خطابها الذي كانت تكرره في كل وقت وهو التحريض على المطالبة بدم عثمان ؛ لأنّه قد خلص من ذنوبه وأعلن توبته ، ولكنها لم تُثنِ خطابها حتّى ارتفعت الأصوات ، فقوم يصدقونها وقوم يكذبونها ، وتسابّوا فيما بينهم وتضاربوا بالنعال .

واقتتل الفريقان أشدّ القتال وأعنفه ، وأسفرت الحرب عن عقد هدنة بينهما حتّى يقدم الإمام عليّ عليه السلام ، وكتبوا بينهم كتاباً وقّعه عثمان بن حنيف ، وطلحة والزبير ، وقد جاء فيه بإقرار عثمان بن حنيف على الإمرة ، وترك المسلحة وبيت المال له ، وأن يباح للزبير وطلحة وعائشة ومَن انضم إليهم أن ينزلوا حيث شاءوا من البصرة .

ومضى ابن حنيف يُقيم بالناس الصلاة ، ويُقسم المال بينهم ، ويعمل على نشر الأمن وإعادة الاستقرار في المصر ، إلّا أنّ القوم قد خاسوا بعهدهم ومواثيقهم ، فأجمعوا على الفتك بابن حنيف .

ويقول المؤرخون : إنّ حزب عائشة انتهزوا ليلة مظلمة شديدة الريح ، فعدوا على ابن حنيف وهو يصلي بالناس صلاة العشاء ، فأخذوه ، ثمّ عدوا إلى بيت المال فقتلوا من حرسه أربعين رجلاً واستولوا عليه ، وزجّوا بابن حنيف في السجن ، وأسرفوا في تعذيبه بعد أن نتفوا لحيته وحاجبيه(١) .

وغضب قوم من أهل البصرة ، ونقموا على ما اقترفه القوم من نقض الهدنة ، والنكاية بحاكمهم ، واحتلال بيت المال ، فخرجوا يريدون الحرب ، وكانت هذه الفئة من ربيعة يرأسها البطل العظيم حكيم بن جبلة ، فقد خرج في ثلاثمائة رجل من بني عبد القيس ، وخرج أصحاب عائشة ، وحملوها معهم على جمل ، وسمّي ذلك

---

(١) الكامل في التاريخ : ٣ : ١١٠ . شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٩ : ٣١٩ ـ ٣٢١ .

اليوم يوم الجمل الأصغر[١]، والتحم الفريقان في معركة رهيبة، وقد أبلى ابن جبلة بلاءً حسناً.

ويقول المؤرخون: إنّ رجلاً من أصحاب طلحة ضربه ضربة قطعت رجله، فجثا حكيم وأخذ رجله المقطوعة فضرب بها الذي قطعها فقتله، ولم يزل يقاتل حتّى قتل[٢].

لقد أضاف القوم إلى نقض بيعتهم للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام نكثهم للهدنة التي وقّعوا عليها مع ابن حنيف، وإراقتهم للدماء بغير حقّ، ونهبهم ما في بيت المال، وتنكيلهم بابن حنيف.

ويقول المؤرخون: إنّهم قد همّوا بقتله لولا أنّه هددهم بأخيه سهل بن حنيف الذي يحكم المدينة من قِبَل الإمام عليّ عليه السلام، وأنّه سيضع السيف في بني أبيهم إن أصابوه بمكروه، فخافوا من ذلك وأطلقوا سراحه، فانطلق حتّى التحق بالإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في بعض طريقه إلى البصرة، فلمّا دخل عليه قال له مداعباً: أرسلتني إلى البصرة شيخاً فجئتك أمرد[٣].

وأوغرت هذه الأحداث الصدور، وزادت الفرقة بين أهل البصرة، فقد انقسموا على أنفسهم، فطائفة منهم تسللوا حتّى التحقوا بالإمام، وقوم انضموا إلى جيش عائشة، وطائفة ثالثة اعتزلت الفتنة، ولم يطب لها الانضمام إلى أحد الفريقين.

النزاع على الصلاة

وليس من الغريب في شيء أن يتنازع كلّ من طلحة والزبير على إمامة الصلاة،

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٩: ٣٢٢. حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام: ١: ٣٨٤.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٩: ٣٢٢. أسد الغابة: ١: ٥٢١، الحديث ١٢٣٣.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢: ٨٠. الكامل في التاريخ: ٣: ١١٦. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٩: ٣٢١.

فإنّهما إنّما نكثا بيعة أميرالمؤمنين عليه السلام طمعاً بالحكم وسعياً وراء المصالح الماديّة.

ويقول المؤرخون: إنّ كل واحد منهما كان يروم التقدّم على صاحبه لإمامة الناس، والآخر يمنعه حتّى فات وقت الصلاة، فخافت عائشة من تطور الأحداث، فأمرت أن يصلي بالناس يوماً محمّد بن طلحة، ويوماً عبد الله بن الزبير[1]، فذهب ابن الزبير ليصلي فجذبه محمّد وتقدّم للصلاة فمنعه عبد الله.

ورأى الناس أنّ خير وسيلة لقطع حبل النزاع القرعة، فاقترعا فخرج محمّد بن طلحة، فتقدم وصلى بالناس وقرأ في صلاته ﴿**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**﴾[2]، وأثارت هذه الصور الهزيلة السخرية عليهم بين الناس، واندفعوا إلى نقدهم، وفي ذلك يقول الشاعر:

تَبارَى الغُلامانِ إذْ صَلَّيا ... وَشَحَّ عَلَى المُلْكِ شَيخاهُما
وَمالِي وَطَلْحَةَ وَابْنِ الزُّبيرِ ... وَهَذا بِذِي الجِزْعِ مَولاَهُما[3]
فَأُمُّهُما اليَومَ غَرَّتْهُمَا ... وَيَعلَى بْنُ أُمَيَّةَ دَلَّاهُما[4]

إنّ هذه البادرة تصوّر مدى تهالك القوم على الأُمرة والسلطان، وهم بعدُ في بداية الطريق، فلو كُتب لهم النجاح في القضاء على حكم الإمام علي عليه السلام؛ لفتح بعضهم على بعض باب الحرب للاستيلاء على زمام الحكم.

رسل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام إلى الكوفة

وأوفد الإمام عليّ عليه السلام رسله إلى أهل الكوفة يستنجد بهم، ويدعوهم إلى نصرته،

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢: ٧٩.

(٢) المعارج ٧٠: ١.

(٣) **جِزْع الوادي**: جانبه ومنعطفه ـ لسان العرب: ٢: ٢٧٤ ـ جزع.

(٤) الأغاني: ١٢: ٢٧٠.

والقيام معه لإخماد نار الفتنة التي أشعلها المتمرّدون، وأقبل الرسل إلى الكوفة، فوجدوا عاملها أبا موسى الأشعري يدعو إلى الفتنة، ويخذّل الناس عن نصرة إمامهم، ويدعوهم إلى التمرّد، ويحبب لهم العافية، ولم تكن لأبي موسى حجّة في ذلك، وإنّما كان يعبّر عن حقده وأضغانه على الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، وكان - فيما أجمع عليه المؤرخون - عثمانيّ الهوى.

وأقبلت رسله عليه السلام على أبي موسى يعنّفونه ويلومونه، إلّا أنّه لم يُعنَ بهم، فبعثوا إلى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام رسالة ذكروا فيها تمرّده وعدم استجابته لنداء الحقّ، وأرسل إليه الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام هاشم المرقال وهو من خيرة أصحابه، وزوّده برسالة يطلب فيها مجيء أبي موسى إليه.

ولمّا انتهى إليه هاشم وعرض عليه رسالة الإمام علي عليه السلام لم يستجب له، وبقي مصمّماً على عناده وعصيانه، فأرسل هاشم رسالة يخبره فيها بموقف أبي موسى وتمرده، فبعث ولده الحسن عليه السلام وعمّار بن ياسر ومعهما رسالة بعزله، وتعيين قرظة بن كعب الأنصاري مكانه.

ولمّا وصل الإمام الحسن عليه السلام إلى الكوفة التأم الناس حوله زمراً، وهم يظهرون له الطاعة والولاء، وأعلن لهم عزل الوالي المتمرّد، وتعيين قرظة في منصبه، إلّا أنّ أبا موسى بقي مصمّماً على غيّه يثبّط عزائم الناس، ويدعوهم إلى التخاذل والخروج عن الطاعة، ولم يستجب للإمام الحسن عليه السلام، ورأى الزعيم الكبير مالك الأشتر أنّ الأمر لا يتم إلّا بإخراج أبي موسى مهان الجانب، فجمع نفراً من قومه أُولي بأس شديد، فأغار بهم على قصر الإمارة، وأخذ الناس ينهبون أمتعته وأمواله، فاضطر الجبان إلى الاعتزال عن عمله، ومكث ليلته في الكوفة، ثمّ خرج هارباً حتّى أتى مكة فأقام مع المعتزلين.

ودعا الإمام الحسن عليه السلام الناس إلى الخروج لنصرة أبيه، وقد نفر معه آلاف كثيرة، فريق منها ركب السفن، وفريق آخر ركب المطي، وهم مسرورون أشدّ ما يكون

السرور بنصرتهم للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام.

وطوت الجيوش البيداء تحت قيادة الإمام الحسن عليه السلام فانتهوا إلى ذي قار حيث كان الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام مقيماً هناك، وقد سرّ بنجاح ولده، وشكر له مساعيه وجهوده، وانضمّت جيوش الكوفة إلى الجيش الذي كان معه والبالغ عدده أربعة آلاف، وكان فيهم أربعمائة ممّن شهد بيعة الرضوان مع النبيّ صلى الله عليه وآله، وقد أسند قيادة ميمنة جيشه إلى الإمام الحسن عليه السلام، وقيادة ميسرته إلى الحسين عليه السلام[1] كما كانت جيوشه مزوّدة بأحسن السلاح. ويقول المؤرخون: إنّ الحسين عليه السلام كان قد ركب فرس جدّه صلى الله عليه وآله المسمى بـ(المرتجز)[2].

التقاء الجيشين

وتحركت قوات الإمام علي عليه السلام من ذي قار، وهي على بيّنة من أمرها، فلم تكن مترددة ولا شاكّة في أنّها على الهدى والحق، وقد انتهت إلى مكان يسمى بـ(الزاوية)[3] يقع قريباً من البصرة، فأقام فيه الإمام، وقد بادر إلى الصلاة وبعدما فرغ منها أخذ يبكي ودموعه تسيل على سحنات وجهه الشريف وهو يتضرع إلى الله في أن يحقن دماء المسلمين، ويجنّبه ويلات الحرب، ويجمع كلمة المسلمين على الهدى والحقّ.

رسل السلام

وأوفد الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام رسل السلام للقاء عائشة، وهما: زيد بن صوحان، وعبيدالله بن العباس، ولمّا مَثُلا عندها ذكّراها بما أمرها الله أن تقرّ في بيتها،

---

(١) جواهر المطالب: ٢: ١٣.

(٢) وقعة الجمل / محمّد بن زكريا: ٣٥.

(٣) مروج الذهب: ٢: ٣٦١.

وألاّ تسفك دماء المسلمين، وبالغا في نصيحتها، ولو أنّها وعت نصيحتهما لعادت على الناس بالخير العميم، وجنبتهم كثيراً من المشاكل والفتن، إلّا أنّها جعلت كلامهما دبر أُذنيها وراحت تقول لهما: فإنّي لا طاقة لي بحجج عليّ بن أبي طالب[1].

وبذل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قصارى جهوده في الدعوة إلى السلم وعدم إراقة الدماء، إلّا أنّ هناك بعض العناصر لم تَرُقْ لها هذه الدعوة، وراحت تسعى لإشعال نار الحرب وتقويض دعائم السلم.

الدعوة إلى القرآن

ولمّا باءت بالفشل جميع الجهود التي بذلها الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام من أجل حقن الدماء ندب الإمام عليه السلام أصحابه لرفع كتاب الله العظيم، ودعوة القوم إلى العمل بما فيه، وأخبرهم أنّ مَن يقوم بهذه المهمة فهو مقتول، فلم يستجب له أحد سوى فتىً نبيل من أهل الكوفة، فانبرى إليه، وقال: أنا له يا أمير المؤمنين[2].

فأدار الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بوجهه عنه، وطاف في أصحابه ينتدبهم لهذه المهمة فلم يستجب له أحد سوى ذلك الفتى، فناوله عليه السلام المصحف، فانطلق الفتى مزهوّاً لم يختلج في قلبه خوف ولا رعب، وهو يلوّح بالكتاب أمام عسكر عائشة، قد رفع صوته بالدعوة إلى العمل بما فيه، ولكن القوم قد دفعتهم الأنانية إلى الفتك به، فقطعوا يمينه فأخذ المصحف بيساره، وهو يناديهم بالدعوة إلى العمل بما فيه، فاعتدوا عليه وقطعوا يساره، فأخذ المصحف بأسنانه وقد نزف دمه، وراح يدعوهم إلى السلم وحقن الدماء، قائلاً: الله في دمائنا ودمائكم.

---

(١) الفتوح: ٢: ٤٦٧.

(٢) الفتوح: ٢: ٤٧٣.

وانثالوا عليه يرشقونه بنبالهم، فوقع على الأرض جثّة هامدة، فانطلقت إليه أُمّه تبكيه وترثيه بذوب روحها قائلة:

يـا رَبِّ إنَّ مُسلِماً أَتـاهُمُ   يَتلُو كِتَابَ اللهِ لاَ يَخشَاهُمُ
فَخَضَّبُوا مِنْ دَمِهِ لِحاهُمُ   وَأُمُّـهُ قـائِمَةٌ تَـرَاهُـمُ

ورأى الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام بعد هذا الإعذار أن لا وسيلة له سوى الحرب فقال لأصحابه: **الْآنَ حَلَّ قِتالُهُمْ، وَطابَ لَكُمُ الضِّرابُ**[١].

ودعا الإمام عليه‌السلام حُضَين بن المنذر وكان شاباً، فقال له: **يا حُضَيْنُ، دَونَكَ هٰذِهِ الرّايَةُ، فَوَاللهِ ما خَفَقَتْ قَطُّ فِيما مَضىٰ، وَلَا تَخْفِقُ فِيما بَقِيَ رايَةٌ أَهْدىٰ مِنْها إلّا رايَةٌ خَفَقَتْ عَلىٰ رَسولِ اللهِ** صلى‌الله‌عليه‌وآله.

وفي ذلك يقول الشاعر:

لِـمَنْ رايَـةٌ حَـمْراءُ يَـخفِقُ ظِـلُّها   إذا قِـيلَ قَـدِّمْها حُـضَينُ تَـقَدَّما
وَيَدْنو بِها فـي الصَّـفِّ حَـتّىٰ يُـديرَها   حِمامَ المَنايا يَقطُرُ المَوتُ وَالدَّما[٢]

الحرب العامّة

ولمّا استيأس الإمام أميرالمؤمنين عليه‌السلام من السلم عبّأ جيشه تعبئة عامة، وكذلك فعل أصحاب عائشة، وقد حملوها على جملها (عسكر) وأُدخلت هودجها المصفّح بالدروع، والتحم الجيشان التحاماً رهيباً.

ويقول بعض المؤرخين: إنّ الإمام الحسين عليه‌السلام قد تولى قيادة فرقة من فرق الجيش، وأنّه كان على الميسرة، وخاض المعركة ببسالة وصمود[٣]. وكان جمل

---

(١) مروج الذهب: ٢: ٣٦١.

(٢) أنساب الأشراف: ٣: ٦١.

(٣) دعائم الإسلام: ١: ٤٠١، الحديث ١٥٦٧. سير أعلام النبلاء: ٣: ٢٨٨.

عائشة ـ فيما يقول بعض من شهد المعركة ـ هو راية أهل البصرة يلوذون به كما يلوذ المقاتلون براياتهم ، وقد حمل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام عليهم فرفع العلم بيسراه ، وشهر في يمينه ذا الفقار الذي طالما ذبّ به عن دين الله ، وحارب به المشركين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله .

واقتتل الفريقان أشدّ ما يكون القتال ضراوة ، يريد أصحاب عائشة أن يحرزوا النصر ويحموا أُمهم ، ويريد أصحاب الإمام عليّ عليه السلام أن يحموا إمامهم ويموتوا دونه .

مصرع الزبير

وكان الزبير رقيق القلب شديد الحرص على مكانته من النبيّ صلى الله عليه وآله إلّا أنّ حبّ الملك هو الذي أغراه ودفعه إلى الخروج على الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ، يضاف إلى ذلك ولده عبدالله فهو الذي زجّ به في هذه المهالك ، وباعد ما بينه وبين دينه ، وقد عرف الإمام علي عليه السلام رقّة طبع الزبير فخرج إلى ميدان القتال ورفع صوته : **أَيْنَ الزُّبَيْرُ ؟**

فخرج الزبير وهو شاكٍ في سلاحه ، فلما رآه الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بادر إليه واعتنقه ، وقال له بناعم القول : **يا أَبا عَبْدِاللهِ ، ما جاءَ بِكَ هاهُنا ؟ !**

- جئت أطلب دم عثمان.

فرمقه الإمام عليه السلام بطرفه ، وقال له : **تَطْلُبُ دَمَ عُثْمانَ ؟ !**

- نعم.

- **قَتَلَ اللهُ مَنْ قَتَلَ عُثْمانَ .**

وأقبل عليه يحدّثه برفق ، قائلاً : **أَنْشُدُكَ اللهَ يا زُبَيْرُ ، هَلْ تَعْلَمُ أَنَّكَ مَرَرْتَ بِي وَأَنْتَ مَعَ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَىٰ يَدِكَ ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ رَسولُ اللهِ وَضَحِكَ إِلَيَّ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْكَ ، فَقالَ لَكَ : يا زُبَيْرُ ، إِنَّكَ تُقاتِلُ عَلِيّاً وَأَنْتَ لَهُ ظالِمٌ ؟**

وتذكّر الزبير ذلك وقد ذهبت نفسه أسىً وحسرات ، وندم أشدّ ما يكون الندم

على موقفه هذا، والتفت إلى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وهو يصدّق مقالته: اللّهمّ نعم.

- **فَعَلَامَ تُقاتِلُنِي؟**
- نسيتها والله، ولو ذكرتها ما خرجت إليك ولا قاتلتك[١].
- **ارجِعْ.**
- كيف أرجع؟! وقد التقت حلقتا البطان، هذا والله العار الذي لا يغسل.
- **ارْجِعْ قَبْلَ أَنْ تَجْمَعَ الْعارَ وَالنّارَ.**

وألوى عنان فرسه، وقد ملكت الحيرة والقلق نفسه، وراح يقول:

اخْـتَرتُ عـاراً عَـلَى نـارٍ مُـؤَجَّجةٍ ... مـا إنْ يَـقُومُ لَـها خَـلقٌ مِـنَ الطِّـينِ
نـادَى عَـلِيٌّ بِـأَمرٍ لَستُ أَجْـهَلَهُ ... عارٌ لَعَمرُكَ فِـي الدُّنـيا وَفِـي الدِّيـنِ
فَقُلتُ حَسبُكَ مِنْ عَـذْلٍ أَبـا حَسَـنٍ ... فَبَعْضُ هٰذَا الَّذِي قَد قُلتَ يَكفِينِي[٢]

وقفل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام راجعاً إلى أصحابه، فقالوا له: تبرز إلى الزبير حاسراً، وهو شاك السلاح، وأنت تعرف شجاعته!

فقال عليه السلام: **إنَّهُ لَيسَ بِقاتِلِي، إنَّما يَقْتُلُنِي رَجُلٌ خامِلُ الذِّكْرِ، ضَئِيلُ النَّسَبِ، غِيلَةً فِي غَيْرِ مَأْقَطِ[٣]، حَرْبٍ وَلَا مَعْرَكَةِ رِجَالٍ. وَيلُ أُمِّهِ؛ أَشْقَى الْبَشَرِ لَيَوَدُّ أَنَّ أُمَّهُ هَبِلَتْ[٤] بِهِ، أَما إنَّهُ وَأَحْمَرَ ثَمُودَ لَمَقْرُونانِ فِي قَرْنٍ...[٥].**

واستجاب الزبير لنداء الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فاتجه صوب عائشة فقال لها:

---

(١) الإمامة والسياسة: ١: ٧٢.
(٢) مروج الذهب: ٢: ٣٦٣.
(٣) **المأقط**: ساحة القتال ـ لسان العرب: ١: ١٦٩ ـ أقط.
(٤) **هَبِلت**: ثكلت، والثكل فقد الولد ـ لسان العرب: ١٥: ٢٠ ـ هبل.
(٥) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١: ٢٣٥.

يا أُمّ المؤمنين ، إنّي والله ما وقفت موقفاً قط إلّا عرفت أين أضع قدمي فيه إلّا هذا الموقف ، فإنّي لا أدري أمُقبل أنا فيه أم مدبر ؟

وعرفت عائشة تغيير فكرته وعزمه على الانسحاب من حومة الحرب ، فقالت له باستهزاء وسخرية مثيرة عواطفه : يا أبا عبد الله ، خفت سيوف بني عبد المطلب ؟!

وعاثت هذه السخرية في نفسه ، فالتفت إليه ولده عبد الله فعيّره بالجبن قائلاً : إنّك خرجت على بصيرة ، ولكنّك رأيت رايات ابن أبي طالب ، وعرفت أنّ تحتها الموت فجبنت .

إنّه لم يخرج على بصيرة ولا بيّنة من أمره ، وإنّما خرج من أجل الملك والسلطان .

والتاع الزبير من حديث ولده فقال له : ويحك إنّي قد حلفت له ألّا أُقاتله .

فقال له : كفّر عن يمينك بعتق غلامك سَرْجِس .

قال الأميني رحمه الله : « إنّما حلف الزبير على ترك القتال ؛ لأنّه وجده ـ بعد تذكير الإمام عليه السلام له الحديث النبوي ، وبعد إتمام الحجة عليه بذلك ـ محرماً عليه في الدين ، وإنّه من الظلم الفاحش الذي استقلّ العقل بتحريمه فهل التكفير بعتق الغلام يبيح ذلك المحرم بالعقل والشريعة ؟ ويسوّغ الخروج على الإمام المفترض طاعته ؟ لا ، لكن تسويل عبدالله هو الذي فرّق بين الزبير وبين آل عبدالمطلب »[١] .

فأعتق غلامه ، وراح يجول في ميدان الحرب ليُري ولده شجاعته ، ويوضح له إنّه إنّما فرّ بدينه لا جبناً ولا خوراً .

ومضى منصرفاً على وجهه حتّى أتى وادي السباع ، وكان الأحنف بن قيس مع قومه مقيمين هناك ، فتبعه ابن جرموز فأجهز عليه وقتله غيلة ، وحُمل نبأ مقتله إلى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ، فحزن عليه أشدّ ما يكون الحزن ، ويقول الرواة :

---

(١) الغدير : ٩ : ١٠٢ .

إنَّهُ أخذ سيفه وهو يقول: **سَيْفٌ طالَما جَلَا الْكُرُوبَ عَنْ وَجهِ رَسولِ اللهِ** صلى الله عليه وآله[(١)].

وعلى أيّة حال لقد كانت النهاية الأخيرة للزبير تدعو إلى الأسف والأسى، فقد تمرّد على الحق، وأعلن الحرب على وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وباب مدينة علمه.

مصرع طلحة

وخاض طلحة المعركة، وهو يحرّض جيشه على الحرب، فبصر به مروان بن الحكم، فرماه بسهم طلباً بثأر عثمان، فوقع على الأرض يتخبّط بدمه[(٢)]، وكان مروان يقول لبعض ولد عثمان: لقد كفيتك ثأر أبيك من طلحة. وأمر طلحة مولاه أن يأوي به إلى مكان ينزل فيه، فأوى به بعد مشقّة إلى دار خربة من دور البصرة، فهلك فيها بعد ساعة.

قيادة عائشة للجيش

وتولّت عائشة قيادة الجيش بعد هلاك الزبير وطلحة، وقد تفانت بنو ضبّة والأزد، وبنو ناجية في حمايتها، ويقول المؤرخون: إنّهم هاموا بحبّها فكانوا يأخذون بعر جملها ويشمونه، ويقولون: بعر جمل أُمنا ريحه ريح المسك[(٣)]، وكانوا محدقين به لا يريدون فوزاً ولا انتصاراً سوى حمايتها، وإنّ راجزهم يرتجز:

يـا مَـعشرَ الأَزدِ عَـلَيكُمْ أُمُّكُـمْ ... فَـإنَّها صَـلَاتُكُمْ وَصَـومُكُمْ

والحُـرمَةُ العُـظمَى الَّتِي تَـعمُّكُمْ ... فَأَحـضِرُوها جِـدَّكُـمْ وَحَـزمَكُمْ

---

(١) الإمامة والسياسة: ١: ٧٣ و ٧٤. الأخبار الطوال: ١٤٨ و ١٤٩. مروج الذهب: ٢: ٣٦٤. الكامل في التاريخ: ٣: ١٢٢ و ١٢٣. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١: ٢٣٥.

(٢) الجمل / المفيد: ٣٧٣ ـ ٣٨٤. بحار الأنوار: ٣٠: ١٩. الغدير: ٩: ٩٧ و ٩٨.

(٣) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٢٣٤. الكامل في التاريخ: ٣: ١٢٦.

لاَ يَغلِبَنْ سَمُّ العَدُوِّ سَمَّكُمْ   إنَّ العَدوَّ إنْ عَلاكُمُ زَمَّكُمْ
وَخَصَّكُم بِجَورِهِ وَعَمَّكُمْ   لا تُفضَحُوا اليَومَ فِداكُمْ قَومُكُمْ[١]

وكانت تُحرّض على الحرب وهي تهيب بهم إلى المقاومة كأنّها تصور أمام عيونهم أبواب الجنة، فيندفعون إلى الموت سراعاً يبتغون الخلود.

فالتفتت يسرة وسألت حُماتها: مَن القوم؟

قال صبرة بن شيمان: بنوكِ الأزد يا أُم المؤمنين.

فردّت تبثّ فيهم النخوة، وتثير من أمجاد الماضي بأنفسهم ما يشترون بمثله الموت سلعة ثمينة، يا آل غسان، حافظوا اليوم جلادكم الذي كنا نسمع به، وتمثلت:

وَجالَدَ مِنْ غَسّانَ أَهْلُ حِفاظِها   وَهِنْبٌ وَأَوسٌ جالَدَتْ وَشَبِيبُ

ونظرت يمنة، وسألت: مَن القوم؟ قالوا: بكر بن وائل، فهتفت: لكم يقول الشاعر:

وَجاءُوا إِلَينا فِي الحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ   مِنَ العِزَّةِ القَعساءِ بَكرُ بنُ وَائِلِ

فما كان لأحد فيهم يسمع هذا الحديث منها وأمثاله إلاّ استبسل، وثبت ثباتاً لا يتزحزح عنه أو يهلك[٢].

وكان أصحاب الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يلحّون على أصحاب عائشة بالتخلّي عنها وراجزهم يرتجز:

يـا أُمَّنا أعَقَّ أُمٍّ نَعلَمُ   والأُمُّ تَغذُو وُلدَها وَتَرحَمُ

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣: ١٥٩. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١: ٢٥٥ و ٢٥٦.
(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٢٢٨.

أَما تَرَيْنَ كَـمْ شُـجاعٍ يُكْـلَمُ وَتُختَلَى مِنهُ يَدٌ وَمِعصَمُ[١]

وكان أصحاب عائشة يردّون عليهم ويقولون:

نَحنُ بَنُو ضَبَّةَ أَصحابُ الجَمَلْ نُـنازِلُ القَـرْنَ إذا القَـرنُ نَـزَلْ
وَالقَتلُ أَشهَى عِندَنا مِنَ العَسَلْ نَبغِي ابنَ عَفَّانَ بأَطرَافِ الأَسَلْ
رُدُّوا عَلَينا شَيخَنا ثُمَّ بَجَلْ[٢]

واشتد القتال أشدّ وأعنف ما يكون القتال، وكَثُرَ الجرحى وملأت أشلاء القتلى وجه الأرض.

عقر الجمل

ورأى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّ الحرب لا تنتهي ما دام الجمل موجوداً، فصاح بأصحابه: **اعْقُرُوا الْجَمَلَ، فَإِنَّ فِي بَقائِهِ فَناءَ الْعَرَبِ**[٣].

وانعطف عليه الإمام الحسن عليه السلام، فقطع يده اليمنى، وشدّ عليه الإمام الحسين عليه السلام فقطع يده اليسرى[٤]، فهوى إلى جنبه وله عجيج منكر لم يسمع مثله، وفرّ حُماة الجمل في البيداء، فقد تحطّم صنمهم الذي قدّموا له هذه القرابين، وأمر الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بحرقه وتذرية رماده في الهواء لئلا تبقى منه بقية يفتتن بها

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٢٣٠. مناقب آل أبي طالب: ٣: ١٦٠. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١: ٢٦٤.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٢٣٠. مروج الذهب: ٢: ٣٦٦. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١: ٢٥٤.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ٣: ١٦١. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١: ٢٥٣. بحار الأنوار: ٣٢: ١٨٢.

(٤) وقعة الجمل / محمّد بن زكريا: ٤٤.

السذّج والبسطاء، وبعد الفراغ من ذلك قال: **لَعَنَهُ اللهُ مِنْ دابَّةٍ، فَما أَشبَهَهُ بِعِجْلِ بَنِي إِسْرائِيلَ**(١).

ومدَّ بصره نحو الرماد الذي تناهبه الهواء، فتلا قوله تعالى: ﴿**وَانظُرْ إِلَىٰ إِلٰـهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً**﴾(٢).

وبذلك فقد وضعت الحرب أوزارها، وكتب النصر للإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وباءت القوى الغادرة بالخزي والخسران.

وأوفد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لُلقيا عائشة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام ومحمّد ابن أبي بكر(٣)، فانطلقوا إليها، فمدّ محمّد يده في هودجها، فجفلت منه، وصاحت به: مَن أنت؟

- أبغض أهلكِ إليكِ.
- ابن الخثعميّة؟
- نعم، أخوك البَرُّ.
- عقوق.
- هل أصابكِ مكروه؟
- سهم لم يضرني.

فانتزعه منها، وأخذ بخطام هودجها وأدخلها في الهزيع الأخير من الليل إلى دار عبد الله بن خلف الخزاعي على صفية بنت الحارث فأقامت فيه أياماً(٤).

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١: ٢٦٦.

(٢) طه ٢٠: ٩٧.

(٣) وقعة الجمل / محمّد بن زكريا: ٤٥.

(٤) مروج الذهب: ٢: ٣٦٧. الكامل في التاريخ: ٣: ١٣٠.

العفو العامّ

وسار الإمام عليّ عليه السلام في أهل البصرة سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله في أهل مكة كما قال عليه السلام ، فآمن الأسود والأحمر ـ على حدّ تعبير اليعقوبي(١) ـ ولم ينكّل بأيّ أحد من خصومه ، وجلس للناس فبايعه الصحيح منهم والجريح ، ثمّ عمد إلى بيت المال فقسّم ما وجد فيه على الناس بالسواء(٢).

وسار عليه السلام إلى عائشة فبلغ دار عبدالله بن خلف الخزاعي الذي أقامت فيه عائشة ، فاستقبلته صفية بنت الحارث شرّ لقاء ، فقالت له : يا عليّ ، يا قاتل الأحبة ، أيتم الله بنيك كما أيتمت بني عبد الله ، وكانوا قد قتلوا في المعركة مع عائشة فلم يجبها ، ومضى حتّى دخل على عائشة ، فأمرها أن تغادر البصرة وتمضي إلى يثرب لتقرّ في بيتها كما أمرها الله .

ولمّا انصرف أعادت عليه صفية القول الذي استقبلته به ، فقال لها : **لَوْ كُنْتُ قاتِلَ الْأَحِبَّةِ ، لَقَتَلْتُ مَنْ فِي هـٰذَا الْبَيْتِ** ، وهو يشير إلى أبواب الحجرات المقفلة ، وكان فيها كثير من الجرحى ، وغيرهم من أعضاء المؤامرة ، قد آوتهم عائشة ، فسكتت صفية . وأراد من كان مع الإمام عليه السلام أن يبطشوا بهم فزجرهم زجراً عنيفاً ، وبذلك فقد منح العفو لأعدائه وخصومه(٣).

وسرّح الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام عائشة تسريحاً جميلاً ، وأرسل معها جماعة من النساء بزيّ الرجال لتقر في بيتها حسبما أمرها الله ، وقد رحلت عائشة من البصرة وأشاعت في بيوتها الثكل والحزن والحداد .

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢ : ٨٢.

(٢) الجمل : ٤٠١.

(٣) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٢٤٨ و ٢٤٩. مروج الذهب : ٢ : ٣٦٨ و ٣٦٩.

يقول عمير بن الأهلب الضبّي وهو من أنصارها :

لَقَد أَوْرَدَتْنا حَومَةَ المَوتِ أُمُّنا　　فَلَم تَنصَرِفْ إلّا وَنَحنُ رِواءُ
أَطَعنا بَنِي تَيمٍ لِشِقوةِ جَدِّنا　　وَما تَيمُ إلّا أَعبُدٌ وَإِماءُ[١]

لقد أوردت أُم المؤمنين أبناءها حومة الموت ، فقد كان عدد الضحايا من المسلمين ـ فيما يقول بعض المؤرخين ـ عشرة آلاف نصفهم من أصحابها ، والنصف الآخر من أصحابه[٢] وكان من أعظم الناس حسرة الإمام علي عليه السلام ؛ لعلمه بما تجر هذه الحرب من المصاعب والمشاكل .

متارك الحرب

وأعقبت حرب الجمل أفدح الخسائر ، وأعظم الكوارث التي ابتلي بها المسلمون ، ومن بينها ما يلي :

١ ـ إنّها مهّدت السبيل لمعاوية لمناجزة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والتصميم على قتاله ، فقد تبنّى شعار معركة الجمل وهو المطالبة بدم عثمان ، ولولا حرب الجمل لما استطاع معاوية أن يعلن العصيان والتمرّد على حكم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

٢ ـ إنّها أشاعت الفرقة والاختلاف بين المسلمين ، فقد كانت روح المودة والأُلفة سائدة فيهم قبل حرب الجمل ، وبعدها انتشرت البغضاء بين أفراد الأُسر العربية ، فقبائل ربيعة واليمن في البصرة أصبحت تكن أعمق البغض والكراهية لإخوانهم من ربيعة وقبائل اليمن في الكوفة ، وتطالبها بما أُريق من دماء أبنائها ، بل أصبحت الفرقة ظاهرة شائعة حتّى في البيت الواحد ، فبعض أبنائه كانوا شيعة

---

(١) مروج الذهب : ٢ : ٣٧٠ .
(٢) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٢٤٨ .
وفي أنساب الأشراف : ٣ : ٥٩ : « أنّ عدد الضحايا عشرون ألفاً » .

لعليّ عليه السلام والبعض الآخر كانوا شيعة لعائشة.

ويقول المؤرخون: إنّ البصرة بقيت محتفظة بولائها لعثمان حفنة من السنين، وإنّ الإمام الحسين عليه السلام إنّما لم ينزح إليها لما عُرفت به من الولاء لعثمان.

٣ ـ إنّها أسقطت هيبة الحكم وجرّأت على الخروج عليه، فقد تشكّلت الأحزاب النفعية التي لا همّ لها إلّا الاستيلاء على السلطة والظفر بخيرات البلاد، حتّى كان التطاحن على الحكم من أبرز سمات ذلك العصر.

٤ ـ إنّها فتحت باب الحرب بين المسلمين، وقبلها كان المسلمون يتحرّجون أشدّ ما يكون التحرّج في سفك دماء بعضهم بعضاً.

٥ ـ إنّها عملت على تأخير الإسلام وشلّ حركته وإيقاف نموّه، فقد انصرف الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بعد حرب الجمل إلى مقاومة التمرّد والعصيان الذي أعلنه معاوية وغيره من الطامعين في الحكم ممّا أدى إلى أفدح الخسائر التي مُني بها الإسلام.

يقول الفيلسوف ولز: «إنّ الإسلام كاد أن يفتح العالم أجمع لو بقي سائراً سيرته الأُولى ولو لم تنشب في وسطه من أوّل الأمر الحرب الداخلية، فقد كان همّ عائشة أن تقهر علياً قبل كل شيء»[(١)].

٦ ـ واستباحت هذه الحرب حرمة العترة الطاهرة التي قرنها النبيّ صلى الله عليه وآله بمحكم التنزيل وجعلها سفن النجاة وأمن العباد، فمنذ ذلك اليوم شهرت السيوف في وجه عترة النبيّ صلى الله عليه وآله، واستحل الأوغاد إراقة دمائهم، وسبي ذراريهم، فلم يرعَ بنو أُمية في وقعة كربلاء أيّة حرمة للنبي صلى الله عليه وآله في أبنائه، وانتهكوا معهم جميع الحرمات.

هذه بعض متارك حرب الجمل التي جرّت للمسلمين أفدح الخسائر في جميع فترات التاريخ.

---

(١) نقلاً عن كتاب شيخ المضيرة أبو هريرة: ١٧٣.

القاسطون

ولم يكد يفرغ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام من حرب الناكثين كما أسماهم رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى جعل يتأهب لحرب القاسطين الذين أسماهم النبيّ صلى الله عليه وآله بذلك. ورأى الإمام عليه السلام أن يغادر البصرة إلى الكوفة؛ ليستعدّ لحرب عدو عنيف هو معاوية بن أبي سفيان ـ فوالده ـ الذي حارب رسول الله صلى الله عليه وآله وأبلى في حربه أشدّ البلاء وأقواه، ولم يكن معاوية بأقلّ تنكراً للإسلام وبغضاً لأهله من أبيه، وكان المسلمون الأولون ينظرون إليهما نظرة ريبة وشكّ في إسلامهما، وقد استطاع بمكره ودهائه أن يغزو قلب الخليفة الثاني، ويحتل المكانة المرموقة في نفسه فجعله والياً على الشام، وظل يبالغ في تسديده وتأييده، وبعد وفاته أقرّه عثمان وزاد في رقعة سلطانه.

وظل معاوية في الشام يعمل عمل من يريد الملك والسلطان، فأحاط نفسه بالقوة، واشترى الضمائر، وسخّر اقتصاد بلاده في تدعيم سلطانه، وبعد الأحداث التي ارتكبها عثمان علم معاوية أنّه مقتول لا محالة، فاستغاث به عثمان حينما حوصر فأبطأ في نصره وظل متربّصاً حتّى قتل؛ ليتّخذ من قميصه ودمه وسيلة للتشبّث بالملك، وقد دفعه إلى ذلك حرب الجمل التي كان شعارها المطالبة بدم عثمان، فاتخذه خير وسيلة للتذرّع لنيل الملك.

ويقول المؤرخون: إنّه استعظم قتل عثمان وهوّل أمره، وراح يبني ملكه على المطالبة بدمه.

وكان الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام محتاطاً في دينه أشدّ ما يكون الاحتياط فلم يُصانع ولم يُحابِ، وإنّما سار على الطريق الواضح، فامتنع أن يستعمل معاوية على الشام لحظة واحدة؛ لأنّ في إقراره على منصبه تدعيماً للظلم وتركيزاً للجور.

وعلى أيّة حال فإنّ الإمام علي عليه السلام بعد حرب الجمل قد غادر البصرة مع قواته

المسلحة ، واتجه إلى الكوفة ليتخذها عاصمة ومقرّاً له ، واتجه فور قدومه إليها يعمل على تهيئة وسائل الحرب لمناهضة عدوه العنيف الذي يتمتع بقوى عسكريّة هائلة أجمعت على حبه ونصرته ، وكان الشّنّيُّ يحرّض الإمام عليعليه‌السلام ويحفّزه على حرب أهل الشام بعد ما أحرزه من النصر في وقعة الجمل ، وقد قال له :

قُل لِهـٰذَا الإمامِ قَدْ خَبَتِ الحَر ... بُ وَتَـمَّتْ بِـذَلِكَ النَّـعماءُ
وَفَرَغنا مِنْ حَربِ مَنْ نَكَثَ العَهـ ... ـدَ وبِـالشَّامِ حَـيَّةٌ صَـمَّاءُ
تَـنفُثُ السُّـمَّ مـا لِـمَن نَـهَشَتهُ ... فارْمِها قَبلَ أَنْ تَـعَضَّ شِـفاءُ[1]

إيفاد جرير

وقبل أن يعلن الإمام أميرالمؤمنينعليه‌السلام الحرب على غول الشام أوفد للقياه جرير بن عبد الله البجلي يدعوه إلى الطاعة والدخول فيما دخل فيه المسلمون من مبايعته ، وقد زوّده برسالة[2] دعاه فيها إلى الحقّ من أقصر سبيله ، وبأوضح أساليبه ، وفيها الحكمة الهادية لمن أراد الهداية ، وشرح الله صدره ، وفجّر في فؤاده ينبوع النور ، وانتهى جرير إلى معاوية فسلّمه رسالتهعليه‌السلام ، وألحّ عليه في الوعظ والنصيحة ، وكان معاوية يسمع منه ولا يقول له شيئاً ، وإنّما أخذ يطاوله ويسرف في مطاولته ، لا يجد لنفسه مهرباً سوى الإمهال والتسويف .

معاوية مع ابن العاص

ورأى معاوية أنّه لن يستطيع التغلّب على الأحداث إلّا إذا انضم إليه داهية العرب عمرو بن العاص ، فيستعين به على تدبير الحِيَل ووضع المخططات التي تؤدي إلى

(١) الأخبار الطوال : ١٥٢.
(٢) وقعة صفّين : ٢٩.

نجاحه في سياسته ، فراسله طالباً منه الحضور إلى دمشق[١] ، وكان ابن العاص ـ فيما يقول المؤرخون ـ قد وَجَد على عثمان حينما عزله عن مصر ، فكان يؤلّب الناس عليه ، ويحرّضهم على الوقيعة به ، وهو ممّن مهّد للفتنة والثورة عليه ، ولمّا أيقن بحدوث الانقلاب عليه خرج إلى أرض كان يملكها بفلسطين فأقام فيها ، وجعل يتطلّع الأخبار عن قتله .

ولمّا انتهت رسالة معاوية إلى ابن العاص تحيّر في أمره ، فاستشار ولديه عبدالله ومحمّداً ، أمّا عبد الله فكان رجل صدق وصلاح ، فأشار عليه أن يعتزل الناس ولا يجيب معاوية إلى شيء حتّى تجتمع الكلمة ويدخل فيما دخل فيه المسلمون .

وأمّا ابنه محمّد فقد طمع فيما يطمع فيه فتيان قريش من السَّعَة والتقدّم وذيوع الاسم ، فقد أشار عليه بأن يلحق بمعاوية لينال من دنياه .

فقال عمرو لولده عبد الله : أمّا أنت فأمرتني بما هو خير لي في ديني ، وقال لولده محمّد : أمّا أنت فأمرتني بما هو خير لي في دنياي ، وأنفق ليله ساهراً يفكّر في الأمر هل يلتحق بعليّ فيكون رجلاً كسائر المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم من دون أن ينال شيئاً من دنياه ، ولكنّه يضمن أمر آخرته ، أو يكون مع معاوية ، فيظفر بتحقيق ما يصبو إليه في الدنيا من الثراء العريض ؟ وهو لم ينسَ ولاية مصر فكان يحنّ إليها حنيناً متّصلاً ، وقد أُثر عنه تلك الليلة من الشعر ما يدلّ على الصراع النفسي الذي خامره تلك الليلة .

ولم يُسفر الصبح حتّى آثر الدنيا على الآخرة ، فاستقرّ رأيه على الالتحاق بمعاوية ، فارتحل إلى دمشق ومعه ابناه ، فلمّا بلغها جعل يبكي أمام أهل الشام كما تبكي المرأة وهو يقول : واعثماناه ، أنعى الحياء والدين[٢] .

---

(١) وقعة صفّين : ٣٤.

(٢) الكامل في التاريخ : ٣ : ١٤٠.

قاتلك الله يابن العاص ، أأنت تبكي على عثمان ؟ ! وأنت الذي أوغرت عليه الصدور وأثرت عليه الأحقاد ، وكنت تلفي الراعي فتحرّضه عليه حتّى سُفك دمه .

لقد بلغ التهالك على السلطة في ذلك العصر مبلغاً أنسى الناس دينهم ، فاقترفوا في سبيل ذلك كلّ ما حرّمه الله .

ولمّا التقى ابن العاص بمعاوية فتح معه الحديث في حربه مع الإمام علي عليه السلام ، فقال ابن العاص : أمّا عليٌّ ، فوالله لا تساوي العرب بينك وبينه في شيء من الأشياء ، وإنّ له في الحرب لحظّاً ما هو لأحد من قريش إلّا أن تظلمه .

واندفع معاوية يبيّن دوافعه في حربه له قائلاً : صدقت ، ولكنّا نقاتله على ما في أيدينا ، ونلزمه قتلة عثمان .

واندفع ابن العاص ساخراً منه قائلاً : واسوأتاه ، إنّ أحقّ الناس ألّا يذكر عثمان أنت !

- ولِمَ ويحك ؟ !

- أمّا أنت فخذلته ومعك أهل الشام حتّى استغاث بيزيد بن أسد البجلي فسار إليه ، وأمّا أنا فتركته عياناً وهربت إلى فلسطين[١] .

واستيقن معاوية أنّ ابن العاص لا يخلص له ، ورأى أنّ من الحكمة أن يستخلصه ويعطيه جزاءه من الدنيا ، فصارحه قائلاً : أتحبني يا عمرو ؟

- لماذا للآخرة ؟ ! فوالله ما معك آخرة ، أم للدنيا ؟ ! فوالله لا كان حتّى أكون شريكك فيها .

- أنت شريكي فيها .

- اكتب لي مصر وكورها .

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢ : ٨٥ .

- لك ما تريد.

فسجّل له ولاية مصر، وجعلها ثمناً لانضمامه إليه[١] في مناهضته لوصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد ظفر بداهية من دواهي العرب وبشيخ من شيوخ قريش قد درس أحوال الناس، وعرف كيف يتغلّب على الأحداث.

ردّ جرير

ولمّا اجتمع لمعاوية أمره وأحكم وضعه ردّ جرير، وأرسل معه إلى الإمام علي عليه السلام رسالة حمّله فيها المسؤولية في إراقة دم عثمان، وعرّفه بإجماع أهل الشام على حربه إن لم يدفع له قتلة عثمان، ويجعل الأمر شورى بين المسلمين[٢].

وارتحل جرير إلى الكوفة، فأنبأ علياً بامتناع معاوية عليه، وعظّم له أمر أهل الشام، ورأى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أن يقيم عليه الحجّة مرة أُخرى، فبعث له سفراء آخرين يدعونه إلى الطاعة والدخول فيما دخل فيه المسلمون، إلّا أنّ ذلك لم يُجدِ شيئاً فقد أصرّ معاوية على غيّه وعناده حينما أيقن أنّ له القدرة على مناجزته ومناهضته.

قميص عثمان

وألهب معاوية بمكره وخداعه قلوب السذّج والبسطاء من أهل الشام حزناً وأسىً على عثمان، فكان ينشر قميصه الملطّخ بدمائه على المنبر فيضجّون بالبكاء والعويل، واستخدم الوعّاظ فجعلوا يهوّلون أمره، ويدعون الناس إلى الأخذ بثأره، وكان كلّما فتر حزنهم عليه يقول له ابن العاص بسخرية واستهزاء: حَرِّكْ لَها

---

(١) الأخبار الطوال: ١٥٩. تاريخ اليعقوبي: ٢: ٨٥. العقد الفريد: ٤: ٣٤٥.

(٢) الإمامة والسياسة: ١: ١٠١. العقد الفريد: ٤: ٣٣٣.

حُوارَها تَحِنُّ[١].

فيُخرج إليهم قميص عثمان فيعود لهم حزنهم ، وقد أقسموا ألّا يمسهم الماء إلّا من الاحتلام ، ولا يأتون النساء ، ولا ينامون على الفراش حتّى يقتلوا قتلة عثمان[٢] ، وكانت قلوبهم تتحرق شوقاً إلى الحرب للأخذ بثأره ، وقد شحن معاوية أذهانهم بأنّ علياً هو المسؤول عن إراقة دمه ، وأنّه قد آوى قتلته ، وكانوا يستنهضون معاوية للحرب ، ويستعجلونه أكثر منه .

زحف معاوية لصفين

وعلم معاوية أنّه لابدّ من الحرب ؛ لأنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام لا يحابي ولا يداهن في دينه ، فلا يُقرّه على ولاية الشام ، ولا يُسند له أيّ منصب من مناصب الدولة ، وإنّما يُقصيه عن جميع أجهزة الحكم ؛ لما يعرفه عنه من الالتواء في دينه .

وسار معاوية في جموع أهل الشام وقدّم بين يديه الطلائع ، وقد أنزل أصحابه أحسن منزل ، وأقربه إلى شريعة الفرات ، وقد احتلّ الفرات ، وعدّ هذا أوّل الفتح ؛ لأنّه حبس الماء على عدوه ، وبقيت جيوشه رابضة هناك تصلح أمرها ، وتنظّم قواها استعداداً للحرب[٣].

تهيؤ الإمام عليّ عليه السلام للحرب ، وخطاب الإمام الحسين عليه السلام

وتهيأ الإمام علي عليه السلام للحرب ، وقام الخطباء في الكوفة يحفّزون الناس للجهاد ويحثونهم على مناجزة معاوية بعدما أحرزوه من النصر الكبير في معركة الجمل ،

---

(١) **الحُوار**: ولد الناقة . ومعنى المثل : ذكّره بعض أشجانه يَهج له ـ مجمع الأمثال : ١ : ١٩١ ، المثل ١٠١٦ .

(٢) الكامل في التاريخ : ٣ : ١٤١ .

(٣) وقعة صفّين : ١٥٧ ـ ١٦١ .

وقد خطب فيهم الإمام الحسين عليه السلام خطاباً رائعاً ومثيراً ، قال فيه بعد حمد الله والثناء عليه : **يا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، أَنْتُمُ الْأَحِبَّةُ الْكُرَماءُ ، وَالشِّعارُ دُونَ الدِّثارِ**[١] **، جِدُّوا فِي إِطْفاءِ ما دَثَرَ بَيْنَكُمْ ، وَتَسْهِيلِ ما تَوَعَّرَ عَلَيْكُمْ ، أَلَا إِنَّ الْحَرْبَ شَرُّها ذَرِيعٌ ، وَطَعْمُها فَظِيعٌ ، فَمَنْ أَخَذَ لَها أُهْبَتَها وَاسْتَعَدَّ لَها عُدَّتَها ، وَلَمْ يَأْلَمْ كُلُومَها قَبْلَ حُلُولِها فَذاكَ صاحِبُها ، وَمَنْ عاجَلَها قَبْلَ أَوانِ فُرْصَتِها ، وَاسْتِبْصارِ سَعْيِهِ فِيها ، فَذاكَ قَمِنٌ**[٢] **أَلّا يَنْفَعَ قَوْمَهُ ، وَأَنْ يُهْلِكَ نَفْسَهُ ، نَسْأَلُ اللهَ بِقُوَّتِهِ أَنْ يَدْعَمَكُمْ بِالْفَيْئَةِ**[٣] .

وحفل هذا الخطاب بالدعوة إلى استعجال الحرب ، والاستعداد الشامل لها ، والإمعان في وسائلها ، فإنّ ذلك من موجبات النصر ، ومن وسائل التغلب على الأعداء ، وإنّ إهمال ذلك وعدم الاعتناء به ممّا يوجب الهزيمة والاندحار ، ودلّ هذا الخطاب على خبرة الإمام عليه السلام الواسعة في الشؤون العسكريّة والحربية .

وتهيأ الناس بعد خطاب سبط النبيّ صلى الله عليه وآله إلى الحرب ، وأخذوا يجدّون في تنظيم قواهم ، ولمّا تمّت عدّتهم زحف بهم الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام لحرب ابن أبي سفيان ، وقد قدّم طلائعه ، وأمرهم ألّا يبدأوا أهل الشام بقتال حتّى يدركهم .

وزحفت كتائب الجيش العراقي كأنّها السيل ، وهي على يقين أنّها إنّما تحارب القوى الباغية على الإسلام والمعادية لأهدافه ، وقد جرت في أثناء مسيرة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أحداث كثيرة لا حاجة إلى إطالة الكلام بذكرها ، فإنّا لا نقصد بهذه البحوث أن نلمّ بها ، وإنّما نشير إليها بإيجاز .

---

(١) **الدِّثار**: الثوب الذي يُستدفأ به فيكون فوق الشعار ، فالشعار أقرب للبدن من الدثار ـ لسان العرب : ٤ : ٢٩٠ ـ دَثَرَ .

(٢) **قَمِن** : حَرٍ وخليق وجدير ـ لسان العرب : ١١ : ٣١٠ ـ قمن .

(٣) وقعة صفّين : ١١٤ . بحار الأنوار : ٣٢ : ٤٠٥ .

احتلال الفرات

ولم يجد أصحاب الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام شريعة على الفرات يستقون منها الماء إلّا وهي محاطة بالقوى المكثّفة من جيش معاوية، يمنعونهم أشدّ المنع من الاستسقاء من الماء، ولمّا رأى ذلك أوفد رسله إلى معاوية يطلبون منه أن يُخلّي بينهم وبين الماء ليشربوا منه، فلم تُسفر مباحثتهم معه أيّ شيء، وإنّما وجدوا منه إصراراً على المنع، يريد أن يحرمهم منه كما حرموا عثمان من الماء، وأضرّ الظمأ بأصحابه.

وانبرى الأشعث بن قيس يطلب الإذن من الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أن يفتح باب الحرب ويقهر القوى المعادية على التخلي عن الفرات، فلم يجد عليه السلام بُدّاً من ذلك فأذن له، فاقتتل الفريقان أشدّ ما يكون القتال، وكُتب النصر لقواته، فاحتلّت الفرات. وأراد أصحاب الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أن يقابلوهم بالمثل فيحرمونهم منه كما صنعوا ذلك معهم، ولكنّه عليه السلام لم يسمح لهم بذلك، وعمل معهم عمل المحسن الكريم، فخلّى بينهم وبين الماء[1].

لقد كان اللؤم والخبث من عناصر الأُمويين وذاتياتهم، فقد أعادوا على صعيد كربلاء ما اقترفوه من الجريمة في صفين، فحالوا بين الإمام الحسين عليه السلام وبين الماء وتركوا عقائل الوحي ومخدرات الرسالة، وصبية أهل البيت قد صرعهم العطش، ومزّق الظمأ قلوبهم، فلم يستجيبوا لأيّة نزعة إنسانية، ولم ترق قلوبهم فيعطفوا عليهم بقليل من الماء.

رسل السلام

وكان الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام متحرّجاً أشدّ ما يكون التحرّج في سفك دماء

---

(١) وقعة صفّين: ١٦٠ ـ ١٦٧.

المسلمين ، فقد جهد على نشر السلام والوئام ، فأوفد إلى معاوية عَدِيَّ بن حاتم ، وشَبَثَ بن ربعي ، ويزيد بن قيس ، وزياد بن خصفة ، يدعونه إلى حقن دماء المسلمين ، ويذكّرونه الدار الآخرة ، ويحذّرونه أن ينزل به ما نزل بأصحاب الجمل ، ولكن ابن هند لم يستجب لذلك وأصرّ على الغيّ والتمرّد ، وقد حمّل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام المسؤولية في قتل عثمان بن عفان ، وقد دفعه إلى العصيان ما يتمتع به من القوى العسكريّة واتفاق كلمتها وإصرارها على الطلب بدم عثمان .

ورجعت رسل السلام وقد أخفقت في سفارتها ، واستبان لها أنّ معاوية مصمّم على الحرب ، ولا رغبة له في الصلح ، وأحاطوه علماً بذلك ، فجعل يتهيأ للحرب ، ويدعو الناس إلى القتال .

الحرب

وعبّأ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أصحابه على راياتهم ، واستعدّ للقتال ، وقد أمر أصحابه ألّا يبدأوهم بقتال كما عهد لهم في حرب الجمل ، وألّا يقتلوا مدبراً ولا يُجهزوا على جريح ، ولا يمثّلوا بقتيل ، ولا يهيّجوا امرأة ، إلى غير ذلك من الوصايا التي تمثّل شرف القيادة العسكريّة في الإسلام .

وجعلت فرق من جيش الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام تخرج إلى فرق من جيش معاوية ، فيقتتل الفريقان نهاراً كاملاً أو طرفاً منه ، ثمّ يتحاجزان من دون أن تقع حرب عامة بينهما ، وقد رجا بذلك أن يثوب معاوية إلى الصلح وحقن الدماء ، ودام الأمر على هذا حفنة من الأيام من شهر ذي الحجّة ، فلمّا أطلّ شهر المحرم ـ وهو من الأشهر التي يحرم فيها القتال في الجاهلية والإسلام ـ توادعوا شهرهم كلّه ، وأُتيح للفريقين أن يلتقوا آمنين ، وقد أمن بعضهم بعضاً ولم تقع بينهم أيّة حرب ، وقد سعت بينهم سفراء السلم ، إلّا أنّها أخفقت في سعيها ، وقد احتدم الجدال بين الفريقين ، فأهل العراق يدعون أهل الشام إلى جمع الكلمة ، وحقن الدماء ، ومبايعة

وصيّ رسول اللهصلى الله عليه وآله ، والدخول فيما دخل فيه المسلمون ، وأهل الشام يدعون العراقيّين إلى الطلب بدم عثمان ، ورفض بيعته ، وإعادة الأمر شورى بين المسلمين[١] .

ولمّا انقضى شهر محرم مضى القوم على الحرب ، ولكنّها لم تكن عامة ، وإنّما كانت متقطّعة تخرج الكتيبة للكتيبة ، والفرقة للفرقة .

وسئم الفريقان هذه الحرب المتقطعة ، وتعجّلوا الحرب العامة ، فعبأ الإمام أميرالمؤمنينعليه السلام جيوشه تعبئة عامة ، وكذلك فعل معاوية ، والتحم الجيشان التحاماً رهيباً ، واقتتلوا أبرح قتال وأعنفه ، وانكشفت ميمنة جيشه انكشافاً بلغ الهزيمة ، فقاتل الإمام أميرالمؤمنين ومعه الحسن والحسينعليهما السلام[٢] وانحازو إلى ميسرة جيشه من ربيعة ، فاستماتت ربيعة دون الإمام عليعليه السلام ، وكان قائلهم يقول : لا عذر لكم بعد اليوم عند العرب إن أُصيب أميرالمؤمنينعليه السلام وهو فيكم ، وتحالفت ربيعة على الموت ، وصمدت في الحرب ، ورجعت ميمنة الإمام عليعليه السلام إلى حالها بفضل الزعيم مالك الأشتر ، واستمرت الحرب بأعنف ما يتصوّر ، وقد ظهر الضعف وبان الانكسار في جيش معاوية ، وهمّ معاوية بالفرار لولا أنّه تذكّر قول ابن الأطنابة :

أَبَتْ لِـيَ هِـمَّتِي وَأَبـى بَـلاَئِي ... وَإقدامِي عَلَى البَـطَلِ المُشِـيحِ
وَإِعطائِي عَـلَى المَكـرُوهِ مـالِي ... وَأَخذِي الحَمدَ بِـالثَّمنِ الرَّبِـيحِ
وَقَولِي كُلَّما جَشَـأَتْ وَجـاشَتْ ... مَكانَكِ تُـحمَدِي أَوْ تَسـتَرِيحِي

وقد ردّه هذا الشعر إلى الصبر والثبات ، كما كان يتحدّث بذلك أيام المُلك والسلطان[٣] .

---

(١) وقعة صفّين : ١٩٦ .

(٢) أنساب الأشراف : ٣ : ٨٦ .

(٣) وقعة صفّين : ٣٩٥ . أنساب الأشراف : ١ : ٨٦ . الفتوح : ٣ : ١٨٨ .

منع الحسنين عليهما السلام من الحرب

ومنع الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام سبطي رسول الله صلى الله عليه وآله من الاشتراك في عمليات الحروب ، فقال عليه السلام : **اِمْلِكُوا عَنِّي هـٰذَينِ الْغُلَامَينِ** ـ يعني الحسن والحسين عليهما السلام ـ **لِئَلّا يَنْقَطِعَ بِهِما نَسْلُ رَسُولِ اللهِ** صلى الله عليه وآله[(١)]. لقد حرص الإمام علي عليه السلام على ريحانتي رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ لأنّ بهما امتداداً لنسله وإبقاءً لذريته.

مصرع عمّار رضي الله عنه

وعمّار بن ياسر رضي الله عنه من ألمع أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وأكثرهم جهاداً وبلاءً في الإسلام ، وقد شايع علياً ولازمه بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله ، فقد أيقن أنّه مع الحقّ والحقّ معه كما قال فيه النبيّ صلى الله عليه وآله ، وكان في أيام صفين شيخاً قد نيف على التسعين عاماً ، ولكن قلبه وبصيرته كانا بمأمن من الشيخوخة ، فقد كان في تلك المعركة كأنّه في ريعان الشباب ، وكان يحارب راية ابن العاص ، وهو يشير إليها قائلاً : والله إنّ هـذه الراية قاتلتها ثلاث عركات وما هذه بأرشدهن[(٢)].

وكان يقول لأصحابه لمّا رأى انكشافهم في المعركة : والله لو ضربونا حتّى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا أنّا على الحقّ ، وأنّهم على الباطل[(٣)].

ويقول الرواة : إنّه جلس مبكراً في يوم من أيام صفين ، وقد ازداد قلبه شوقاً إلى ملاقاة رسول الله صلى الله عليه وآله وملاقاة أبويه ، فخفّ إلى الإمام علي عليه السلام مسرعاً يطلب منه الإذن في أن يلج الحرب لعلّه يرزق الشهادة ، فلم يسمح له بذلك ، وظلّ يعاوده

---

(١) نهج البلاغة : ٢ : ١٨٦ ، الخطبة ٢٠٧ . بحار الأنوار : ٣٢ : ٥٦٢ .

(٢) وقعة صفّين : ٣٤٠ . شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٨ : ٢٤ .

(٣) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٨ : ٢٤ . المستدرك على الصحيحين : ٣ : ٣٨٦ . مجمع الزوائد : ٩ : ٢٩٤ .

مستأذناً ، فلم تطب نفس الإمام عليه السلام بذلك ، وراح يلحّ عليه فأذن له ، وأجهش الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالبكاء حُزناً وموجدة عليه .

وانطلق عمّار إلى ساحات الحرب وهو موفور القوى ، قد استردّ نشاطه وهو جذلان فرح بما يصير إليه من الشهادة ، وقد رفع صوته عالياً :

اليَومَ أَلقَى الأَحِبَّهْ مُحَمَّداً وَحِزبَهْ

وكان صاحب الراية في الكتيبة التي يقاتل فيها عمّار هو هاشم بن عتبة المرقال ، وكان من فرسان المسلمين وخيارهم وأحبهم للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وأخلصهم له ، وكان أعور ، فاتجه نحوه عمّار فجعل تارة يدفعه بعنف إلى الحرب ويقول له : تقدّم يا أعور ، وأُخرى يرفق به أشدّ الرفق ويقول له : احمل فداك أبي وأُمّي ، وهاشم يقول له : رحمَك الله يا أبا اليقظان ، إنّك رجل تستخف الحرب ، وإنّي إنّما أزحف زحفاً لعلّي أبلغ ما أُريد ، وضجر هاشم فحمل ، وهو يرتجز :

قَد أَكثَروا لَومِي وَما أَقَلَّا إِنّي شَرَيتُ النَّفسَ لَنْ أَعتَلَّا
أَعوَرُ يَبْغِي نَفسَهُ مَحَلَّا لابُدَّ أن يَفُلَّ أو يُفَلَّا
قَد عالَجَ الحَياةَ حَتَّى مَلَّا أَشُلُّهُم بِذِي الكُعُوبِ شَلَّا(١)

وقد دلّ هذا الرجز على تصميمه على الموت ، وسأمه من الحياة ، وجال في ميدان القتال ، وعمّار معه يقاتل ويرتجز :

نَحنُ ضَرَبناكُمْ عَلَى تَنزِيلِهِ وَاليَومَ نَضرِبُكُم عَلَى تَأْوِيلِهِ
ضَرْباً يُزِيلُ الْهامَ عَن مَقِيلِهِ وَيذهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ
أو يَرجِعَ الحَقُّ إلىٰ سَبيلِهِ(٢)

---

(١) وقعة صفّين : ٣٢٧ . مروج الذهب : ٢ : ٣٨٢ و ٣٨٣ . الكامل في التاريخ : ٣ : ١٥٩ .

(٢) الفتوح : ٣ : ١٥٩ . مروج الذهب : ٢ : ٣٨١ .

لقد قاتل عمّار ـ بإيمان وإخلاص ـ المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وناضل أشدّ ما يكون النضال دفاعاً عن كلمة التوحيد، وقاتل أعنف القتال مع أخي رسول الله صلى الله عليه وآله دفاعاً عن تأويل القرآن ودفاعاً عن إمام المسلمين، فما أعظم عائدة عمّار وألطافه على الإسلام.

والتحم عمّار مع القوى الغادرة التحاماً رهيباً، وحمل عليه رجس من أرجاس البشريّة يسمى أبو الغادية فطعنه برمحه طعنة قاتلة، فهوى إلى الأرض ذلك الصرح الشامخ من العقيدة والإيمان يتخبّط بدمائه الزكيّة، وقد أضرّ به العطش، فبادرت إليه امرأة بلبن، فلمّا رآه تبسّم، وأيقن بدنو أجله، وراح يقول بنبرات هادئة مطمئنة: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: **آخِرُ شَرابِكَ مِنَ الدُّنْيا ضِياحٌ مِنْ لَبَنٍ، وَتَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْباغِيَةُ**(١).

ولم يلبث قليلاً حتّى لفظ أنفاسه الأخيرة، وانطوت بموته أروع صفحة مشرقة من الإيمان والجهاد، وارتفعت روح ذلك العملاق الذي أضاء الحياة الفكريّة بإخلاصه واندفاعه نحو الحقّ.

وكان الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام برحاً(٢) لم يقرّ له قرار حينما برز عمّار إلى ساحة الجهاد، فكان يقول: **فَتِّشُوا لِي عَنِ ابْنِ سُمَيَّةَ**.

وانطلقت فصيلة من الجند تبحث عنه، فوجدوه قتيلاً مضمّخاً بدم الشهادة، فانبروا مسرعين إليه فأخبروه بشهادته، فانهدّ ركنه، وانهارت قواه، وسرت موجات من الألم القاسي في محيّاه، فقد غاب عنه الناصر والأخ والمُدافع، فمشى الإمام علي عليه السلام لمصرعه كئيباً حزيناً، وعيناه تفيضان دموعاً، وسار معه قادة الجيش،

---

(١) وقعة صفّين: ٣٤١. الفتوح: ٣: ١٥٩. العقد الفريد: ٤: ٣٤٢. الكامل في التاريخ: ٣: ١٢٣.

(٢) **البُرَحاءُ**: الشدّة والمشقّة ـ لسان العرب: ١: ٣٦٢ ـ برح.

وقد أخذتهم المائقة[١] حزناً على البطل العظيم.

ولمّا انتهى إليه ألقى بنفسه عليه وجعل يوسعه تقبيلاً، وقد انفجر بالبكاء، وجعل يؤبنه بحرارة قائلاً: **إنَّ امْرَءاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَعْظُمْ عَلَيْهِ قَتْلُ ابْنِ ياسِرٍ، وَتَدْخُلْ عَلَيْهِ الْمُصِيبَةُ الْمُوجِعَةُ لَغَيْرُ رَشِيدٍ. رَحِمَ اللهُ عَمّاراً يَوْمَ أَسْلَمَ.**

رَحِمَ اللهُ عَمّاراً يَوْمَ قُتِلَ. رَحِمَ اللهُ عَمّاراً يَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً.

لَقَدْ رَأَيْتُ عَمّاراً وَما يُذْكَرُ مِنْ أَصْحابِ رَسولِ اللهِ أَرْبَعَةٌ إلّاكانَ رابِعاً، وَلَا خَمْسَةٌ إلّا كانَ خامِساً، وَمَا كَانَ أَحَدٌ مِنْ قُدَماءِ أَصْحابِ رَسولِ اللهِ يَشُكُّ أَنَّ عَمّاراً قَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ في غَيْرِ مَوْطِنٍ وَلَا اثْنَيْنِ، فَهَنِيئاً لِعَمّارٍ بِالْجَنَّةِ...[٢].

وأخذ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام رأسه فجعله في حجره ودموعه تتناثر على خديه.

وانبرى الإمام الحسن عليه السلام وغيره، فأبّنوا الشهيد العظيم بقلوب مذابة من الحزن، ثمّ قام الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فواراه في مقرّه الأخير.

ويقول المؤرخون: إنّ الفتنة وقعت في جيش معاوية حينما أُذيع مقتل عمّار فقد سمعوا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال في فضل عمّار: **إنَّ الْفِئَةَ الْباغِيَةَ تَقْتُلُهُ**[٣]، وقد اتضح لهم أنّهم الفئة الباغية التي عناها رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن ابن العاص استطاع أن يزيل الخلاف، فقال لهم: إنّ الذي أخرج عمّاراً هو الذي قتله، وأذعن بسطاء أهل الشام لما قاله ابن العاص[٤].

---

(١) **المأق**: هو ما يعتري الصبيّ بعد البكاء ـ كتاب العين: **٥: ٢٣٤** ـ مأق.

(٢) الطبقات الكبرى: **٣: ٢٦٢**. تاريخ مدينة دمشق: **٤٣: ٤٧٦**.

(٣) معاني الأخبار: **٣٥**. عوالي اللئالي: **١: ٤١٢**. بحار الأنوار: **٣٣: ٧**. الفتوح: **٣: ١٥٩**.

(٤) شرح الأخبار: **١: ٤٠٨**، وكان صاحب هذا القول هو معاوية عند ما أخبره ابن العاص. معاني الأخبار: **٣٥**. الاحتجاج: **١: ٤٣٠** و **٤٣١**. بحار الأنوار: **٣٣: ٧** و **٨**. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: **٢٠: ٣٣٤**، الحديث **٨٣٥**.

واشتدّ القتال بأعنفه بعد مقتل عمار ، وقد تفللت جميع قوى معاوية ، وبان الضعف في جيشه .

مكيدة ابن العاص

لعل أبشع مهازل التاريخ البشري في جميع فترات التاريخ هي مكيدة ابن العاص في رفع المصاحف ، وقد وصفها (راو حوست ميلر) بأنّها من أشنع المهازل وأسوئها في التاريخ البشري[1] ، وأكاد أعتقد أنّ هذه المكيدة لم تكن وليدة المصادفة أو المفاجأة ، فقد حيكت أُصولها ، ووضعت مخططاتها قبل هذا الوقت ، فقد كان ابن العاص على اتصال دائم ـ أُحيط بكثير من الكتمان ـ مع جماعة من قادة الجيش العراقي في طليعتهم الأشعث بن قيس ، فهما اللذان دبّرا هذا الأمر .

وقد ذهب إلى هذا الرأي الدكتور طه حسين ، فقال : « فما أستبعد أن يكون الأشعث بن قيس ـ وهو ماكر أهل العراق وداهيتهم ـ قد اتصل بعمرو بن العاص ماكر أهل الشام وداهيتهم ، ودبّرا هذا الأمر بينهم تدبيراً ، ودبّروا أن يقتتل القوم فإن ظهر أهل الشام فذاك ، وإن خافوا الهزيمة أو أشرفوا عليها رفعوا المصاحف ، فأوقعوا الفرقة بين أصحاب عليّ ، وجعلوا بأسهم بينهم شديداً »[2] .

وعلى أيّة حال فإنّ الهزيمة لمّا بدت بأهل الشام ، وتفللت جميع قواعدهم ، فزع معاوية إلى ابن العاص يطلب منه الرأي ، فأشار عليه برفع المصاحف .

فأمر بالوقت برفعها ، فرفعت زهاء خمسمائة مصحف على أطراف الرماح وتعالت الأصوات من أهل الشام بلهجة واحدة : هذا كتاب الله بيننا وبينكم من فاتحته إلى خاتمته ، من لثغور أهل الشام بعد أهل الشام ؟ ومن لثغور أهل العراق بعد

---

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام : ١٩٠ .

(٢) الفتنة الكبرى : ٢ : ٨٩٦ ، الحديث ٢٢ .

أهل العراق ؟ ومن لجهاد الروم ؟ ومن للترك ؟ ومن للكفار ؟[١].

وكانت هذه الدعوى كالصاعقة على رؤوس الجيش العراقي ، فقد انقلب رأساً على عقب ، فتدافعوا كالموج نحو الإمام أميرالمؤمنين عليه‌السلام وهم ينادون : لقد أعطاك معاوية الحقّ ، دعاك إلى كتاب الله فاقبل منه ...[٢].

ودلّهم الإمام أميرالمؤمنين عليه‌السلام على زيف هذه الحيلة ، وإنّها جاءت نتيجة فشلهم في العمليات العسكريّة ، وإنّها لم يُقصد بها إلّا خداعهم ، وإنّهم إنّما رفعوا المصاحف لا إيماناً بها ، وإنّما هو من الخداع والمكر . وممّا يؤسف له أنّهم لم يقرروا حقّ مصيرهم ، ومصير الأُمة في تلك الفترات الحاسمة من تاريخهم التي أشرفوا فيها على الفتح والنصر ، ولم يبقَ من دكّ حصون الظلم ونسف قواعد الجور إلّا لحظات .

يا للمصيبة والأسف ، لقد أصرّوا على التمرد والعناد ، فانحاز منهم اثنا عشر ألفاً وهم أهل الجباه السود ، فخاطبوه باسمه الصريح قائلين : يا عليّ ، أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت له ، وإلّا قتلناك كما قتلنا ابن عفان ، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم ...[٣].

فكلّمهم الإمام أميرالمؤمنين عليه‌السلام برقّة ولطف ليقلع روح التمرّد منهم ، إلّا أنّ كلامه عليه‌السلام ذهب هباءً ، وراح القوم في غيّهم يعمهون ، وهم يُصرّون على إرغام الإمام أميرالمؤمنين عليه‌السلام على إيقاف القتال ، وكان الأشعث بن قيس هو الذي يدفعهم إلى ذلك وينادي بأعلى صوته بالرضاء والقبول لدعوة أهل الشام .

ولم يَرَ الإمام علي عليه‌السلام بُداً من إجابتهم ، فأصدر أوامره بإيقاف عمليات الحروب ، وقلبه الشريف يتقطع ألماً وحزناً ، فقد أيقن أنّ الباطل قد انتصر على الحقّ ،

---

(١) وقعة صفّين : ٤٧٨ . تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٣١٣ . الكامل في التاريخ : ٣ : ١٦١ .

(٢) وقعة صفّين : ٤٧٨ و ٤٧٩ .

(٣) وقعة صفّين : ٤٨٩ و ٤٩٠ . تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٣١٤ .

وأنّ جميع متاعبه ودماء جيشه قد ذهبت سُدىً.

وأصرّ المتمرّدون عليه بسحب مالك الأشتر من ساحة الحرب، وكان قد أشرف على الانتصار، ولم يبقَ بينه وبين الفتح إلّا حلْبة شاة، فأرسل إليه الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بالقدوم إليه، فلم يعنَ بما أُمر به، وقال لرسوله: قل لسيدي: ليست هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي إنّي قد رجوت الله أن يفتح لي، فلا تعجلني.

ورجع الرسول فأخبر الإمام عليه السلام بمقالة القائد العظيم، فارتفعت أصوات أُولئك الوحوش بالإنكار عليه قائلين: والله ما نراك إلّا أمرته أن يقاتل.

وامتحن الإمام علي عليه السلام في أمرهم أشدّ ما تكون المحنة، فقال لهم: **أَرَأَيْتُمُونِي سارَرْتُ رَسُولِي؟ أَلَيْسَ إِنَّما كَلَّمْتُهُ عَلىٰ رُؤُوسِكُمْ عَلَانِيَةً وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ؟**[(١)].

وأصروا على الغي قائلين: فابعث إليه فليأتيك، وإلّا فوالله اعتزلناك.

وأجمعوا على الشر، وأوشكوا أن يفتكوا بالإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، فأصدر أوامره المشددة بانسحاب مالك الأشتر من ساحة الحرب، واستجاب الأشتر لأمره عليه السلام، فقفل راجعاً وقد تحطّمت قواه، وقال ليزيد بن هانئ السبيعي الذي كان رسول الإمام علي عليه السلام: ألرفع هذه المصاحف؟ يعني حدثت هذه الفتنة.

قال: نعم.

وعرف الأشتر مكيدة ابن العاص، فقال: أما والله لقد ظننت أنّها حين رفعت ستوقع اختلافاً وفرقة، إنّها مشورة ابن العاهرة. ألا ترى إلى الفتح؟! ألا ترى إلى ما يلقون؟! ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا؟! أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه؟!

وأحاطه يزيد علماً بحراجة الموقف والأخطار الهائلة التي تحفّ بالإمام علي عليه السلام

---

(١) تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٣١٤.

قائلاً: أتحب أنّك أن ظفرت هاهنا، وأنّ أميرالمؤمنينعليه‌السلام بمكانه الذي هو به يُفرج عنه ويُسلّم إلى عدوه؟

فقال الأشتر مقالة المؤمن: سبحان الله! لا والله ما أحب ذلك.

قال: فإنّهم قالوا: لترسلن إلى الأشتر فليأتينك، أو لنقتلنك بأسيافنا كما قتلنا ابن عفان، أو لنسلمنّك إلى عدوك(١).

وقفل الأشتر راجعاً قد استولى عليه الحزن، فقد ذهبت آماله أدراج الرياح، فتوجه نحوهم يلومهم ويعنّفهم، ويطلب منهم أن يُخلّوا بينه وبين عدوهم، فقد أشرف على النصر والفتح.

ولم يُذعن أُولئك الممسوخون لمقالة الأشتر، فقد أصرّوا على الذل والوهن قائلين له: لا، لا.

فقال: أمهلوني عَدْوَةَ فرس، فإنّي قد طمعت في النصر.

فقالوا له: إذاً ندخل معك في خطيئتك.

وانبرى الأشتر يحاججهم، وينقد ما ذهبوا إليه قائلاً: حدّثوني عنكم ـ وقد قُتل أماثلكم وبقي أراذلكم ـ متى كنتم محقّين أحين كنتم تقتلون أهل الشام، فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون، أم أنتم الآن في إمساككم عن القتال محقّون؟ فقتلاكم إذاً الذين لا تنكرون فضلهم، وكانوا خيراً منكم في النار(٢).

ولم يُجْدِ معهم هذا الكلام المشرق، فقالوا له: دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم في الله، إنّا لسنا نطيعك فاجتنبنا.

وردّ عليهم الأشتر بعنف حينما يئس من إصلاحهم، وأخذ يحذّرهم من مغبّة

---

(١) وقعة صفّين: ٤: ٤٩١. تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٣١٤.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٣١٤ و ٣١٥.

هذه الفتنة ، وأنّهم لا يرون بعدها عزّاً أبداً(١).

وحقاً إنّهم لم يروا عزّاً ، فقد أفلتْ من أُفقهم دولة الحقّ ، وآل أمرهم إلى معاوية فأخذ يسومهم سوء العذاب.

وطلب مالك الأشتر من الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أن يناجزهم الحرب فأبى ؛ لأنّ المعارضين كانوا يمثّلون الأكثريّة الساحقة في جيشه ، وفتح باب الحرب يؤدي إلى أفظع النتائج ، فإنّ الأُمة تقع فريسة سائغة بأيدي الأُمويين.

وأطرق الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام برأسه ، وقد طافت به موجات من الآلام ، وأخذ يطيل التفكير في العاقبة المرّة التي جرّها هؤلاء العصاة للأُمة.

ويقول المؤرخون : إنّهم قد اتخذوا سكوته رضاً منه بالتحكيم فهتفوا : إنّ علياً أميرالمؤمنين قد رضي الحكومة ، ورضي بحكم القرآن.

وكان عليه السلام غارقاً في الهموم ، فقد أفلتَ منه الأمر ، وتمرّد عليه جيشه ، وليس باستطاعته أن يعمل شيئاً ، وقد أدلى بما مُنيَ به ، بقوله عليه السلام : **لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً ، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً ، وَكُنْتُ أَمْسِ ناهِياً فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيّاً**(٢).

التحكيم

ولم تقف محنة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وبلاؤه في جيشه المتمرّد إلى هذا الحدّ من العصيان والخذلان ، وإنّما تجاوز الأمر إلى أكثر من هذا ، فقد أصرّ المتمردون بقيادة الأشعث بن قيس على انتخاب أبي موسى الأشعري الذي هو من ألدّ أعدائه ، وأكثرهم حقداً عليه(٣) ، وإنّما ألحّوا على انتخابه لعلمهم بأنّه سيعزل الإمام

---

(١) وقعة صفّين : ٤٩١ و ٤٩٢. تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٣١٣ ـ ٣١٥.

(٢) وقعة صفّين : ٤٨٤.

(٣) كان أبو موسى من فقراء الصفّة ، وهو القائل : كان يشبه رائحتنا رائحة الشاة من ⇦

أميرالمؤمنينعليه السلام عن الحكم وينتخب غيره ممّن يحقق أطماعهم.

وقد احتفّ هؤلاء العصاة بالإمام أميرالمؤمنينعليه السلام ، وهم يهتفون: إنّا رضينا بأبي موسى الأشعري.

وزجرهم الإمام عليعليه السلام ونهاهم عن انتخابه، قائلاً: **إِنَّكُمْ قَدْ عَصَيْتُمُونِي فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، فَلَا تَعْصُونِي الْآنَ، إِنِّي لَا أَرىٰ أَنْ أُوَلِّيَ أَبا مُوسَىٰ.**

وأصرّوا على غيّهم وعنادهم قائلين: لا نرضى إلّا به، فماكان يحذّرنا وقعنا فيه.

وأخذ الإمام أميرالمؤمنينعليه السلام يُدلي عليهم واقع أبي موسى وانحرافه عنه، قائلاً: **إِنَّهُ لَيْسَ لِي بِثِقَةٍ، قَدْ فَارَقَنِي، وَخَذَّلَ النّاسَ عَنِّي، ثُمَّ هَرَبَ عَنِّي حَتّىٰ آمَنْتُهُ بَعْدَ أَشْهُرٍ، وَلٰكِنْ هٰذَا ابْنُ عَبّاسٍ نُوَلِّيهُ.**

وامتنعوا من ترشيح ابن عباس، فأرشدهم ثانياً إلى انتخاب مالك الأشتر، فرفضوه، وأصرّوا على انتخاب الأشعري، ولم يجد بعد هذا بُدّاً من الرضا والإذعان[1].

وثيقة التحكيم

واتفق الفريقان على أن يحكّموا ابن العاص من قبل أهل الشام، وأبا موسى

⇦ لبس العباءة. اللمع: ١٨٤.

وكان فيما يبدو من بعض المؤرخين حجّاماً، فقد التقى الفرزدق بابنه أبي بردة، وكان يفخر بأبيه، فقال له الفرزدق: لو لم يكن لأبي موسى منقبة إلّا أنّه حجم رسول اللهصلى الله عليه وآله لكفاه.

فامتعض أبو بردة من هذا التعريض، وقال: صدقت، ولكنّه ما حجم أحداً قبله ولا بعده.

فقال الفرزدق: كان أبو موسى أفضل من أن يجرب الحجامة في رسول اللهصلى الله عليه وآله . فسكت أبو بردة على غيض ـ سير أعلام النبلاء: ٥: ٧.

(١) وقعة صفّين: ٤٩٩. تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٣١٥.

الأشعري من قبل العراقيّين ، وقد كتبوا صحيفة سجّلوا فيها ما اتفقوا عليه من الأخذ بما يتفق عليه الحكمان ، وهذا نصها كما رواها الطبري :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ـ قاضى عليّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين ـ.

إنّا ننزل عند حكم الله عزّ وجلّ وكتابه ، ولا يجمع بيننا غيره ، وإنّ كتاب الله عزّ وجلّ بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا ، ونميت ما أمات ، فما وجد الحكمان في كتاب الله عزّ وجلّ ـ وهما : أبو موسى الأشعري عبدالله بن قيس ، وعمرو بن العاص القرشي ـ عملا به ، وما لم يجدا في كتاب الله عزّ وجلّ فالسنة العادلة الجامعة غير المفرّقة ، وأخذ الحكمان من عليّ ومعاوية ومن الجندين من العهود والميثاق والثقة من الناس أنّهما آمنان على أنفسهما وأهلهما ، والأُمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه ، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه ، العمل على ما في هذه الصحيفة ، وإن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين ، فإنّ الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم ، وأهليهم ، وأموالهم ، وشاهدهم ، وغائبهم .

وعلى عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأُمة ، ولا يردّاها في حرب ولا فرقة حتّى يعصيا ، وأجل القضاء إلى رمضان ، وإن أحبّا أن يؤخّرا ذلك أخّراه على تراض منهما ، وإن توفي أحد الحكمين فإنّ أمير الشيعة يختار مكانه ، ولا يألوا من أهل المعدلة والقسط ، وإنّ مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام ، وإن رضيا وأحبّا فلا يحضرهما فيه إلّا من أرادا ، ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثمّ يكتبان شهادتهما على

ما في هذه الصحيفة ، وهم أنصار على من ترك ما في هذه الصحيفة ، وأراد فيه إلحاداً وظلماً ، اللهم إنّا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة[١] .

ووقّع عليها طائفة من الفريقين ، وأصبحت نافذة المفعول ، وقد حقّقت آمال معاوية ، وأنقذته من الأخطار التي كادت أن تطوي حياته ، وتقضي على أتباعه .

والشيء المهم في هذه الوثيقة أنّها أهملت المطالبة بدم عثمان ، فلم تعرض لا بقليل ولا بكثير وإنّما كانت تنشد إيقاف الحرب ، ونشر السلم والعافية بين الفريقين ، وفيما اعتقد أنّها كتبت ولم يكن للإمام علي عليه السلام فيها أيّ رأي ، فقد خلّى بين جيشه وبين ما يريدون .

رجوع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام للكوفة

وغادر الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام صفين متجهاً إلى الكوفة ، ولا أعتقد أن يلمّ كاتب بتصوير المحنة الكبرى التي ألمّت به ، فقد رجع مثقلاً بالهموم يرى باطل معاوية قد استحكم ، وأمره قد تمّ ، وينظر إلى جيشه أصبح متمرّداً يدعوه فلا يستجيب ، ويأمره فلا يطيع ، قد مزّقت الفتنة جميع كتائبه ، فقد كانوا ـ فيما يقول المؤرخون ـ يتشاتمون ، ويتضاربون بالسياط ، ويبغي بعضهم على بعض ، وأخطر ما حدث فيه انبثاق الفكرة الحروريّة التي سنتحدث عنها ، فإنّها كانت سوسة تنخر في المعسكر العراقي ، وأهم من أيّ خطر داهم عليه ، فقد أخذت تعمل على تفلل وحدة جيشه ، وتذيع الفتنة والخوف بين صفوفه .

ودخل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام الكوفة ، فرأى لوعة وبكاءً قد سادت في جميع أرجائها ، حزناً على من قتل منها في صفين ، فإنّ قتلى صفين بالقياس إلى قتلى الجمل كانوا أضعافاً .

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٣١٧ و ٣١٨ .

المارقون

ويقول الرواة : إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله سمّى أهل النهروان بالمارقين[١] ، وإنّه قد عهد إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقتالهم كما عهد إليه بقتال الناكثين والقاسطين من بعده[٢] .

والظاهرة البارزة في اتجاهات الخوارج هي الالتواء في السلوك والإصرار على الجهل والعناد ، فقد بنوا واقعهم على التعصب ، وعدم التدبّر والإمعان في حقائق الأُمور ، وقد كان شعارهم الذي تفانوا في سبيله وقدموا له المزيد من الضحايا : «لا حكم إلّا لله»[٣] ، ولكنهم لم يلبثوا أن جعلوا الحكم للسيف ، فنشروا الإرهاب والخوف والفساد في الأرض كما سنذكر ذلك .

وعلى أيّة حال فإنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لمّا نزح من صفين إلى الكوفة لم يدخلوا إليها ، وإنّما انحازوا إلى (حروراء) فنُسبوا إليها ، وكان عددهم ـ فيما يقول المؤرخون ـ اثني عشر ألفاً ، وقد جعلوا أميرهم على القتال شَبَث بن ربعي ، وعلى الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري ، وخلعوا الإمام علي عليه السلام عن الخلافة ، وجعلوا الأمر شورى بين المسلمين .

والتاعَ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من تمرّدهم ، فأوفد للقياهم عبد الله بن عباس ، وأمره ألّا يخوض معهم في ميدان الخصومة والنزاع حتّى يأتيه ، إلّا أنّه لم يجد بُداً

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١ : ٢٠١ . المستدرك على الصحيحين : ٣ : ١٣٩ . تاريخ مدينة دمشق : ٤٢ : ٤٧٠ و ٤٧١ .

(٢) ينابيع المودّة : ١ : ٣٨٥ . تاريخ مدينة دمشق : ٤٢ : ٤٦٨ . مجمع الزوائد : ٥ : ١٨٦ . كنز العمّال : ١١ : ٣٢٧ ، الرقم ٣١٦٤٩ .

(٣) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٣٢٠ .

من الحوار معهم، وبينما هو يحاورهم؛ إذ أطلّ عليهم فنهى ابن عباس عن مناظرتهم، وأقبل عليهم، فقال لهم عليه السلام: **اللّٰهُمَّ إنَّ هٰذا مُقامٌ مَنْ أُفْلِجَ فِيهِ كانَ أَوْلىٰ بِالْفَلَجِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَمَنْ نَطَقَ وَأَوْعَثَ فِيهِ فَهُوَ في الْآخِرَةِ أَعْمىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً.**

ثمّ قال لهم: **مَنْ زَعِيمُكُمْ؟**

قالوا: ابن الكواء.

قال عليّ عليه السلام: **فَما أَخْرَجَكُمْ عَلَيْنا؟**

قالوا: حكومتكم يوم صفين.

قال عليه السلام: **أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ حَيثُ رَفَعُوا الْمَصاحِفَ، فَقُلْتُمْ: نُجِيبُهُمْ إِلىٰ كِتابِ اللهِ، قُلتُ لَكُمْ: إِنِّي أَعْلَمُ بِالْقَومِ مِنْكُمْ، إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَصْحابِ دِينٍ، وَلَا قُرْآنٍ. إِنِّي صَحِبْتُهُمْ وَعَرَفْتُهُمْ أَطْفالاً وَرِجالاً، فَكانُوا شَرَّ أَطْفالٍ، وَشَرَّ رِجالٍ، أُمْضُوا عَلىٰ حَقِّكُمْ وَصِدْقِكُمْ، فَإِنَّما رَفَعَ الْقَوْمُ هٰذِهِ الْمَصاحِفَ خَدِيعَةً وَدَهْناً وَمَكِيدَةً.**

فَرَدَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي، وَقُلْتُمْ: لَا، بَلْ نَقْبَلُ مِنْهُمْ.

فَقُلْتُ لَكُمْ: اُذْكُرُوا قَوْلِي لَكُمْ، وَمَعْصِيَتُكُمْ إِيّايَ.

فَلَمّا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْكِتابَ، اشْتَرَطْتُ عَلَى الْحَكَمَيْنِ أَنْ يُحْيِيا ما أَحْيا الْقُرْآنُ، وَأَنْ يُمِيتا ما أَماتَ الْقُرْآنُ، فَإِنْ حَكَما بِحُكْمِ الْقُرْآنِ فَلَيْسَ لَنا أَنْ نُخالِفَ حُكْماً يَحْكُمُ بِما فِي الْقُرآنِ، وَإِنْ أَبَيا فَنَحْنُ مِنْ حُكْمِهِما بُراءُ؟!! [1].

وأبطلت هذه الحجّة النيرة جميع أوهامهم، فهم المسؤولون عن التحكيم، كما هم مسؤولون عن كلّ ما حدث من الفتنة والفساد، وليس للإمام أمير المؤمنين عليه السلام ضلع في ذلك، وأيقنوا أنّ الذنب ذنبهم، وليس عليه أيّة تبعة في ذلك، فقالوا له:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٣٢٧. الكامل في التاريخ: ٣: ١٦٦.

أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء ؟!

فقال عليه السلام : **لَسْنا حَكَّمْنا الرِّجالَ إِنَّما حَكَّمْنا الْقُرْآنَ ، وَهـٰذَا الْقُرْآنُ إِنَّما هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ دَفَّتَيْنِ لَا يَنْطِقُ وَإِنَّما يَتَكَلَّمُ بِهِ الرِّجالُ .**

فقالوا له : خبّرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم ؟

فقال عليه السلام : **لِيَعْلَمَ الْجاهِلُ ، وَيُثْبِتَ الْعالِمُ ، وَلَعَلَّ اللهَ يُصْلِحُ في هـٰذِهِ الْهِدْنَةِ هٰذِهِ الْأُمَّةَ .**

وسدّ عليهم الإمام علي عليه السلام كلّ نافذة ينفذون منها ، ووجد منهم تقارباً وإذعاناً لمقالته فخاطبهم بناعم القول : **أُدْخُلوا مِصْرَكُمْ رَحِمَكُمُ اللهُ .**

فأجابوه إلى ذلك ، ورحلوا عن آخرهم معه إلى الكوفة ، إلّا أنّهم بقوا مصرّين على فكرتهم يذيعونها بين البسطاء ، حتّى شاع أمرهم ، وقويت شوكتهم وأخذوا ينشرون الخوف والإرهاب ، ويدعون إلى البغي وعزل الإمام عليه السلام ، وجعل الأمر شورى بين المسلمين (١) .

اجتماع الحكمين

وانتهت المدة التي عيّنها الفريقان للتحكيم ، وقد استردّ معاوية قواه التي فقدها أيام صفين ، واستحكم أمره ، وقد أرسل إلى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يطلب منه الوفاء بالتحكيم ، وإنّما سارع إلى ذلك لعلمه بما مُني به جيشه من الفرقة والخلاف .

ثمّ هو على علم بأنّ النتيجة ستكون من صالحه ؛ لأنّ المنتخب للتحكيم هو أبو موسى الأشعري ، وهو على علم بانحرافه عنه .

وأشخص الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أبا موسى الأشعري إلى التحكيم ، وأرسل أربعمائة من أصحابه جعل عليهم شريح بن هاني ، وعبد الله بن عباس يصلي بهم .

---

(١) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام : ١ : ٤٦٩ ـ ٤٧٢ .

والتقى الحكمان الضالّان ـ على حدّ تعبير النبيّ صلى الله عليه وآله[١] ـ في دُومَة الجندل[٢] أو في أذْرُح[٣].

ويقول المؤرخون: إنّ ابن العاص لم يفتح الحديث مع الأشعري ثلاثة أيام، فقد أفرد له مكاناً خاصاً، وجعل يقدّم له أطائب الطعام والشراب حتّى استبطنه وأرشاه، ولمّا أيقن أنّه صار العوبة بيده أخذ يضفي عليه النعوت الحسنة والألقاب الكريمة، حتّى ملك مشاعره وعواطفه، فقد قال له: يا أبا موسى، إنّك شيخ أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله وذو فضلها، وذو سابقتها، وقد ترى ما وقعت فيه هذه الأُمة من الفتنة العمياء التي لا بقاء معها، فهل لك أن تكون ميمون هذه الأُمة فيحقن الله بك دماءها فإنّه يقول في نفس واحدة: ﴿**وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعَاً**﴾[٤]، فكيف بمن أحيا هذا الخلق كله؟!

ومتى كان الأشعري شيخ صحابة النبيّ صلى الله عليه وآله، ومن ذوي الفضائل والسوابق في

---

(١) روى سويد بن غفلة، قال: «كنت مع أبي موسى الأشعري على شاطئ الفرات في خلافة عثمان فروى لي خبراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: سمعته يقول: **إنَّ بَنِي إِسْرائِيلَ اخْتَلَفُوا، فَلَمْ يَزَلِ الْإِخْتِلَافُ بَيْنَهُمْ حَتّىٰ بَعَثُوا حَكَمَيْنِ ضالَّين ضَلَّا وَأَضَلَّا مَنِ اتَّبَعَهُما، وَلَا يَنفَكُّ أَمْرُ أُمَّتِي حَتَّىٰ يَبْعَثُوا حَكَمَيْنِ يَضِلَّانِ وَيُضَلَّانِ مَنِ اتَّبَعَهُما**.

فقلت له: احذر يا أبا موسى أن تكون أحدهما.

قال: فخلع قميصه وقال: أبرأ إلى الله من ذلك كما أبرأ من قميصي هذا ـ شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١٣: ٣١٥. تاريخ اليعقوبي: ٢: ٩١.

(٢) **دُومة الجندل**: بضمّ أوّله وفتحه، حصن وقرى بين الشام والمدينة ـ معجم البلدان: ٢: ٥٥٤.

(٣) **أذْرُحُ**: هو اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة، ثم من نواحي البلقاء وعمّان مجاورة لأرض الحجاز ـ معجم البلدان: ١: ١٥٧.

(٤) المائدة ٥: ٣٢.

الإسلام ؟! وانخدع الأشعري بهذه الكلمات المعسولة ، فطفق يسأل ابن العاص عن سبل الإصلاح وحقن الدماء ، فأجابه ابن العاص : تخلع أنت عليَّ بن أبي طالب ، وأخلع أنا معاوية بن أبي سفيان ونختار لهذه الأُمة رجلاً لم يحضر في شيء من الفتنة ، ولم يغمس يده فيها (١).

فبادر أبو موسى يسأل عن الرجل الذي لم ينغمس في الفتنة قائلاً : من يكون ذلك ؟

وكان ابن العاص قد عرف ميول الأشعري واتجاهاته نحو عبد الله بن عمر فقال له : إنّه عبد الله بن عمر .

وسرّ الأشعري بذلك ، واندفع يطلب منه العهود على الالتزام بما قاله : كيف لي بالوثيقة منك ؟

يا أبا موسى ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ، خُذ من العهود والمواثيق حتّى ترضى .

ولم يبقَ يميناً إلّا أقسم به على الالتزام بما قاله ، وأيقن الأشعري بمقالة ابن العاص ، فأجابه بالرضا والقبول ، وعيّنا وقتاً خاصاً يذيعان فيه ما اتفقا عليه .

وأقبلت الساعة الرهيبة التي كانت تنتظرها الجماهير بفارغ الصبر ، وأقبل الماكر ابن العاص مع زميله الأشعري إلى منصّة الخطابة ليعلنا للناس ما اتفقا عليه ، واتجه ابن العاص نحو الأشعري فقال له : قم فاخطب الناس يا أبا موسى .

فقال له : قم أنت فاخطبهم .

وراح ابن العاص يُخادع الأشعري قائلاً له : سبحان الله ، أنا أتقدمك ! وأنت شيخ أصحاب رسول الله ؟! والله لا فعلت ذلك أبداً .

---

(١) وقعة صفّين : ٥٤٤ ـ ٥٤٦ . تاريخ اليعقوبي : ٢ : ٩٠ . تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٣٢٨ ـ ٣٣١ . الكامل في التاريخ : ٣ : ١٦٨ .

وداخل الأشعري العجب بنفسه من هذه الألقاب الفخمة التي أضفاها عليه ابن النابغة، وطلب الخامل المخدوع من ابن العاص الأيمان أن يفي له بما قال، فأقسم له على الوفاء بما اتفقا عليه[١]، ولم تخفَ هذه الخديعة على حبر الأُمة عبد الله بن عباس، فالتفت إلى الأشعري يحذره من مكيدة ابن العاص قائلاً له: ويحك، والله إنّي لأظنه قد خدعك، إن اتفقتما على أمر فقدّمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك، ثمّ تكلم أنت بعده، فإنّ عَمْراً رجل غادر لا آمن من أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت في الناس خالفك.

ولم يُعنَ الغبي بابن عباس، وإنّما راح يشتد نحو منصة الخطابة، فلمّا استوى عليها حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبيّ صلى الله عليه وآله ثم قال: أيها الناس إنّا قد نظرنا في أمرنا، فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن، والصلاح، ولمّ الشعث، وحقن الدماء، وجمع الأُلفة، خلعنا علياً ومعاوية، وقد خلعت علياً كما خلعت عمامتي هذه ـ وأهوى إلى عمامته فخلعها ـ واستخلفنا رجلاً قد صحب رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه، وصحب أبوه النبيّ صلى الله عليه وآله فبرز في سابقته، وهو عبد الله بن عمر[٢].

أُفٍ للزمان وتعساً للدهر أن يتحكّم في المسلمين أمثال هؤلاء الصعاليك الذين ران الجهل على قلوبهم.

لقد عزل الأشعري الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حكيم هذه الأُمة، ورائد العدالة الكبرى في الأرض، الذي طوّق الدنيا بعبقرياته ومواهبه، لقد جعل الأشعري قيادة الأُمة بيد عبد الله بن عمر وهو لا يحسن طلاق زوجته ـ على حدّ تعبير أبيه ـ إنّها من مهازل الزمن التي تمثّلت على مسرح الحياة العامّة في ذلك العصر الذي أُخمدت فيه أضواء العقل، وراح الإنسان يسير خلف رغباته وميوله.

---

(١) العقد الفريد: ٤: ٣٤٧.

(٢) الإمامة والسياسة: ١: ١٣٦ و ١٣٧.

وعلى أيّة حال فقد انبرى الخاتل الماكر ابن العاص إلى منصّة الخطابة فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أيها الناس، إنّ أبا موسى عبد الله بن قيس خلع علياً، وأخرجه من هذا الأمر الذي يطلب، وهو أعلم به، ألا وإنّي خلعت علياً معه، وأثبتُّ معاوية عليَّ وعليكم، وإنّ أبا موسى، قد كتب في الصحيفة[١] إنّ عثمان قد قتل مظلوماً شهيداً وإنّ لوليه أن يطلب بدمه حيث كان، وقد صحب معاوية رسول الله بنفسه، وصحب أبوه النبيّ صلى الله عليه وآله، ثمّ أخذ يُثني على معاوية، ويصفه بما هو ليس أهلاً له ثمّ قال: هو الخليفة علينا، وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان[٢].

واشتد الأشعري نحو ابن العاص بعدما غدر به ونكث عهده فصاح به: ما لَكَ عليك لعنة الله؟! ما أنت إلّا كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث، وإن تتركه يلهث.

فزجره ابن العاص: لكنّك مثل الحمار يحمل أسفاراً.

وصدق كلّ منهما في وصف صاحبه، فتعساً لك يا زمان! كيف يؤول أمر المسلمين إلى مائق وماكر؟! وهما الحاكمان في أُمور المسلمين.

لقد جرّ هذا التحكيم إلى الأُمة كثيراً من المصاعب والفتن، وأخلد لها الخطوب والويلات.

وماج العراقيون في الفتنة، وأيقنوا بضلال ما أقدموا عليه، وانهزم الأشعري نحو مكة يصحب معه العار والخزي له ولذريته[٣]، فقد غدر بالمسلمين غدرة منكرة،

---

(١) وهي غير الصحيفة التي تمّ عليها إيقاف القتال.

(٢) أنساب الأشراف: ٣: ١٢٣ ـ ١٢٥. الإمامة والسياسة: ١: ١٣٦ و ١٣٧.

(٣) لقد كان الناس يحقّرون ذريّة أبي موسى ويسخرون منهم، فقد سمع الفرزدق أبا بردة بن أبي موسى يقول: كيف لا أتبختر، وأنا ابن أحد الحكمين؟!

فرد عليه الفرزدق قائلاً: أمّا أحدهما فمائق، وأمّا الآخر ففاسق، فكن ابن أيّهما شئت ـ شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١٩: ٣٥٣.

⇦

وأكثر شعراء ذلك العصر في هجاء الكوفيّين وهجاء الأشعري ، يقول أيمن ابن خريم الأسدي :

لَـوْ كـانَ لِلقَومِ رَأيٌ يُعصَمُونَ بِـهِ ... مِـنَ الضَّـلَالِ رَمَوكُمْ بِـابنِ عَـبّاسِ
لِلّهِ درُّ أَبِـــيهِ أيُّـــما رَجُـــلٍ ... ما مِثْلُهُ لِفصالِ الخَطْبِ فِي النَّـاسِ
لَكِنْ رَمَوكُمْ بِشَيخٍ مِنْ ذَوِي يَـمَنٍ ... لَم يَدرِ ما ضَرْبُ أَخْماسٍ لِأَسْداسِ
إنْ يَخْلُ عَمرٌو بِهِ يَقْذِفْهُ فِي لُـجَجٍ ... يَهوِي بِهِ النَّـجْمُ تَـيساً بَـينَ أَتـياسِ
أَبْــلِغْ لَـدَيكَ عَـلِيّاً غَـيرَ عـاتِبِهِ ... قَولُ امرِئٍ لاَ يَرَى بِالْحَقِّ مِن بـاسِ
مــا الأشـعَرِيُّ بِـمَأمُونٍ أبـا حَسَـنٍ ... فَاعْلَم هُدِيتَ وَلَيسَ العَجْزُ كالرَّاسِ
فاصدِمْ بِصاحِبِكَ الأدْنَى زَعِـيمَهُمُ ... إنَّ ابنَ عَمِّكَ عَبّاسٌ هُوَ الآسِـي[(١)]

لقد نجح ابن أبي سفيان بإمرة الدولة بعد أن كان قد أعياه أن يظل والياً على الشام ، فقد عاد إليه أهل الشام يسلّمون عليه بإمرة المؤمنين . وأمّا الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فقد أُغرق جيشه في الفتنة والفرقة والخلاف ، فجعل بعضهم يتبرأ من بعض ، وقد شاع فيهم الخلاف ، وعرفوا وبال ما جنت أيديهم ، فخطب الإمام الحسن عليه السلام خطاباً مسهباً دعاهم فيه إلى الأُلفة والمودة ، وكذلك خطب فيهم عبدالله ابن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وقد شجبا في خطابهما التحكيم ، ودَعَوَا الناس إلى الطاعة ونبذ الخلاف[(٢)] ، وقد استجاب لهم بعض الناس ، وأصرّ آخرون على التمرد والعصيان .

⇦ ونظر رجل إلى بعض ولد أبي موسى يختال في مشيته ، فقال : أَلا ترون مشيته ؟! كأنّ أباه خدع عمرو بن العاص .

(١) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام : ١ : ٤٧٨ .

(٢) الإمامة والسياسة : ١ : ١٣٨ و ١٣٩ .

ولمّا انتهى خبر التحكيم إلى الإمام أميرالمؤمنينعليه السلام بلغ به الحزن أقصاه، فجمع الناس وخطبهم خطاباً مؤثراً صعّد فيه آلامه وأحزانه على مخالفة أوامره في إيقاف القتال، والاستجابة لنداء عدوّه الذي قضى فيه على ما أحرزوه من الفتح والنصر، يقولعليه السلام: **الْحَمْدُ لِلّهِ، وَإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفادِحِ، وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلـهَ إِلَّا اللّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَيْسَ مَعَهُ إِلـهٌ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.**

أَمّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعالِمِ الْمُجَرِّبِ تُورِثُ الْحَسْرَةَ، وَتُعْقِبُ النَّدامَةَ، وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ في هٰذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، وَهٰذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ رَأْيِي لَوْ كانَ يُطاعُ لِقَصيرٍ أَمْرٌ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِباءَ الْمُخالِفِينَ الْجُفاةِ، وَالْمُنابِذِينَ الْعُصاةِ؛ حَتَّى ارْتابَ النّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ أَنا وَإِيّاكُمْ كَما قالَ أَخُو هَوازِنَ:

أَمَــرْتُكُمْ أَمْــرِي بِــمُنْعَرَجِ اللِّــوَى فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلّا ضُحَى الْغَدِ

أَلا إِنَّ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ اخْتَرْتُمُوهُما حَكَمَيْنِ قَدْ نَبَذا حُكْمَ الْكِتابِ وَراءَ ظُهُورِهِما، وَارْتَأَيا الرَّأْيَ مِنَ قِبَلِ أَنْفُسِهِما، فَأَماتا مَا أَحْيا الْقُرْآنُ، وَأَحْيَيا مَا أَماتَ الْقُرْآنُ، ثُمَّ اخْتَلَفا فِي حُكْمِهِما، فَكِلاهُما لاَ يَرْشُدُ وَلاَ يُسَدَّدُ فَبَرِئَ اللّهُ مِنْهُما وَرَسُولُهُ، وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، فَاسْتَعِدُّوا لِلْجِهادِ، وَتَأَهَّبُوا لِلْمَسِيرِ، وَأَصْبِحُوا في مُعَسْكَرِكُمْ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ إِنْ شاءَ اللّهُ»[١].

وتهيأت قواته المسلحة إلى السفر في الموعد الذي ضربه لها، وكتب إلى أهل البصرة يدعوهم إلى نصرته، فالتحقت به كتائب من الجيش.

تمرد المارقين

وسافر الإمام أميرالمؤمنينعليه السلام بأصحابه يريد الشام، ولكنه لم يلبث حتّى وافته

---

(١) نهج البلاغة: ١: ٨٦، الخطبة ٣٥. أنساب الأشراف: ٣: ١٤٠ و ١٤١.

الأنباء بتمرد الخوارج وفسادهم، وأنّهم عادوا إلى فكرتهم.

ويقول المؤرخون: إنّ جماعة منهم خرجوا من الكوفة والتحق بهم إخوانهم من أهل البصرة، وساروا جميعاً إلى النهروان فأقاموا فيها وأخذوا يعيثون في الأرض فساداً، فأستحلوا دماء المسلمين، وقالوا بكفرهم، واجتاز عليهم الصحابي عبد الله ابن خبّاب بن الأرت، فتصدوا له، فسألوه عن اسمه، فأخبرهم به، ثمّ سألوه عن انطباعاته الخاصة عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، فاثنى عليه، فاستشاطوا غضباً، فانبروا إليه وأوثقوه كتافاً، وأقبلوا به وبامرأته وكانت حبلى قد أشرفت على الولادة، فجاءوا بهما تحت نخل، فسقطت رطبة منها فبادر بعضهم إليها فوضعها في فيه، فأنكروا عليه، فألقاها من فمه، واخترط بعضهم سيفاً فضرب به خنزيراً لأهل الذمّة فقتله، فصاح به بعضهم إنّ هذا من الفساد في الأرض، فبادر الرجل إلى الذمي فأرضاه.

فلمّا نظر عبد الله إلى احتياطهم في الأموال قال لهم: لئن كنتم صادقين فيما أرى ما عليَّ منكم بأس، والله ما أحدثت حدثاً في الإسلام وإنّي لمؤمن، وقد آمنتموني وقلتم لا روع عليك.

فلم يعنوا به، وعمدوا إليه فاقبلوا به إلى الخنزير الذي قتلوه فوضعوه عليه، وذبحوه، وأقبلوا على امرأته وهي ترتعد من الخوف، فقالت لهم مسترحمة: إنّما أنا امرأة أما تتقون الله؟

ولم تلن قلوبهم التي طبع عليها الزيغ فذبحوها وبقروا بطنها، وعمدوا إلى ثلاثة نسوة فقتلوهن[1]، وفيهن أُم سنان الصيداويّة، وكانت قد صحبت النبيّ صلى الله عليه وآله، وجعلوا يذيعون الذعر، وينشرون الفساد في الأرض.

وأوفد الإمام لهم الحرث بن مرّة العبدي يسألهم عن هذا الفساد الذي أحدثوه،

(١) أنساب الأشراف: ٣: ١٤٢.

ويطلب منهم أن يسلّموا إليه الذين استحلوا قتل الأنفس التي حرّم الله إزهاقها بغير الحق، ولم يكد الرسول يدنو منهم حتّى قتلوه ولم يدعوه يدلي بما جاء به[1].

قتال المارقين

وكره أصحاب الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أن يسيروا إلى الشام ويتركوا من ورائهم الخوارج يستبيحون أموالهم وأعراضهم من بعدهم، فطلبوا منه أن ينهض بهم لمناجزتهم فإذا فرغوا منهم تحولوا إلى حرب معاوية، فأجابهم عليه السلام إلى ذلك وسار بهم حتّى أتى النهروان، فلمّا صار بإزاء الخوارج أرسل إليهم يطلب منهم قتلة عبد الله ابن خبّاب ومن كان معه من النسوة، كما طلب منهم قتلة رسوله الحرث ابن مرّة، ليكف عنهم ويمضي إلى حرب معاوية، ثمّ ينظر في أُمورهم فأجابوه: ليس بيننا وبينك إلّا السيف إلّا أن تقرّ بالكفر، وتتوب كما تبنا.

فالتاع منهم، وانطلق يقول عليه السلام: **أَبَعْدَ جِهادِي مَعَ رَسولِ اللهِ، وَإِيْمانِي أَشْهَدُ عَلىٰ نَفْسِي بِالْكُفْرِ؟! لَـ ﴿قَد ضَلَلْتُ إذاً وَما أَنا مِنَ المُهْتَدِينَ﴾**[2].[3]

وجعل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يعظهم تارةً ويراسلهم أُخرى، فجعل كثير منهم يتسللون ويعودون إلى الكوفة، وقسم منهم التحق بالإمام، وفريق ثالث اعتزل الحرب، ولم يبقَ إلّا ذو الثفنات عبد الله بن وهب الراسبي زعيم الخوارج ومعه ثلاثة آلاف.

ولمّا يئس الإمام من إرشادهم عبّأ جيشه، وأمر بألّا يبدأوهم بقتال حتّى يقاتلوهم، ولمّا نظر الخوارج إلى تهيئة الإمام تهيّأوا للحرب، وكانت قلوبهم تتحرّق

---

(١) أنساب الأشراف: ٣: ١٤٢ و ١٤٣. الكامل في التاريخ: ٣: ١٧٣.

(٢) الأنعام ٦: ٥٦.

(٣) أنساب الأشراف: ٣: ١٤٤.

شوقاً إلى القتال تحرّق الظمآن إلى الماء ، وهتف بعضهم : هل من رائح إلى الجنة ؟

فتصايحوا جميعاً : الرواح إلى الجنة .

ثمّ حملوا حملة منكرة على جيش الإمامعليه‌السلام وهم يهتفون بشعارهم : « لا حكم إلّا لله » ، فانفرجت لهم خيل الإمام أميرالمؤمنينعليه‌السلام فرقتين ، فرقة تمضي إلى الميمنة ، وفرقة تمضي إلى الميسرة ، والخوارج يندفعون بين الفرقتين ، ولم تمضِ إلّا ساعة حتّى قُتلوا عن آخرهم ، ولم يفلت منهم إلّا تسعة(١) .

ولمّا وضعت الحرب أوزارها طلب الإمام عليعليه‌السلام من أصحابه أن يلتمسوا له (ذا الثدية) في القتلى ، ففتّشوا عنه فلم يظفروا به ، فعادوا إليه يُخبرونه بعدم ظفرهم به ، فأمرهم ثانياً أن يبحثوا عنه قائلاً : **وَاللهِ ما كَذَبْتُ وَلا كُذِّبْتُ ، وَيْحَكُمُ الْتَمِسوا الرَّجُلَ فَإِنَّهُ فِي الْقَتْلىٰ** ، فانطلقوا يبحثون عنه فظفر به رجل من أصحابه ، وكان قد سقط قتيلاً في ساقية ، فمضى يُهرول فأخبره به ، فلمّا سمع النبأ خرّ ساجداً هو ومن معه من أصحابه ، ثمّ رفع رأسه وهو يقول : **ما كَذَبْتُ وَلاَ كُذِّبْتُ ، وَلَقَدْ قَتَلْتُمْ شَرَّ النّاسِ** .

وأخذ الإمام أميرالمؤمنينعليه‌السلام يحدّث أصحابه بما سمعه من النبيّصلى‌الله‌عليه‌وآله فيه ، أنّه قال : **سَيَخْرُجُ قَوْمٌ يَتَكَلَّمونَ بِكَلامِ الْحَقِّ لا يُجاوِزُ حُلُوقَهُمْ ، يَخْرُجُونَ مِنَ الْحَقِّ خُرُوجَ السَّهْمِ ـ أَوْ مُرُوقَ السَّهْمِ ـ إِنَّ فِيهِمْ رَجُلاً مُخْدَجَ الْيَدِ ، في يَدِهِ شَعَراتٌ سُودٌ ، فَإِنْ كَانَ فِيهِمْ فَقَدْ قَتَلْتُمْ شَرَّ النّاسِ . . .**(٢) .

وأمر الإمام أميرالمؤمنينعليه‌السلام بإحضار جثته ، فأُحضرت له ، فكشف عن يده

---

(١) أنساب الأشراف : ٣ : ١٤٦ و ١٤٧ . تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٣٤٤ . الملل والنحل / الشهرستاني : ١ : ١٠٧ . الكامل في التاريخ : ٣ : ١٧٤ و ١٧٥ .

(٢) أنساب الأشراف : ٣ : ١٥٠ . الكامل في التاريخ : ٣ : ١٧٥ .

ولا يخفى على القارئ اللبيب أنّ كلام النبيّصلى‌الله‌عليه‌وآله ينتهي بكلمة « شعرات سود » ، وما تلاه فهو من كلام أميرالمؤمنينعليه‌السلام .

فإذا على منكبه ثدي كثدي المرأة ، وعليها شعرات سود ، تمتد حتّى تحاذي بطن يده الأُخرى ، فإذا تركت عادت إلى منكبه ، فلمّا رأى ذلك خرّ لله ساجداً ، ثمّ عمد إلى القتلى من الفريقين فدفنهم ، وقسّم بين أصحابه سلاح الخوارج ودوابهم وردّ الأمتعة والعبيد إلى أهليهم ، كما فعل ذلك بأصحاب الجمل .

وانتهت بذلك حرب النهروان التي تفرعت من واقعة صفين ، وقد أسفرت عن تشكيل حزب ثوري عنيف ظهر في الإسلام ، وهو حزب الحروريّة[١] الذي أخذ على نفسه التمرد على الحكومات القائمة في البلاد الإسلامية ومحاربتها بشكل سافر ، ممّا أدى إلى إراقة الدماء ، وإشاعة الفتنة والخلاف في كثير من تلك العصور .

لقد كان البارز في الأنظمة الدينية للخوارج هو الحكم بكفر كل من لا يدين بفكرتهم من المسلمين ، واستباحة دمائهم وأموالهم ، وفيما أحسب أنّ أكثر الجرائم المريعة التي صدرت في معركة كربلاء تستند إلى هؤلاء الممسوخين الذين سلبت عنهم كل نزعة إنسانية ، فقد تأثر الكثيرون من ذلك الجيش بأخلاقهم فاندفعوا إلى الجريمة بأبشع صورها وألوانها .

مخلّفات الحرب

وأعقبت تلك الحروب أعظم المحن وأشدها هولاً ، ولم يُمتحن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بها وحده ، وإنّما امتُحن بها العالم الإسلامي ، فقد أخلدت له الفتن ، وجرّت له الكثير من الويلات والخطوب ، ولعلّ أعظم ما عاناه منها ما يلي :

١ ـ انتصار معاوية

وأتاحت الفرص لمعاوية بعد تلك الأحداث أن يُعلن نفسه لأوّل مرة بأنّه المرشح

---

(١) **حروراء** ـ بالمد ـ : قرية بقرب الكوفة تُنسب إليها فرقة الخوارج الحروريّة ، فقد كان اجتماعهم فيها ، فتعمقوا بأمر الدين حتّى مرقوا فيه ـ معجم البلدان : ٢ : ٢٨٣ .

للخلافة ، بعد أن كان حاكماً على إقليم الشام ، وراح يُعلن انتصاره وتغلبه عليه ، بقوله : لقد حاربت علياً بعد صفين بغير جيش ولا عناء ، أو قال : ولا عتاد(١) .

وأمّا الإمام علي عليه السلام فقد أصبح بمعزل عن السلطات السياسية والعسكريّة ، فكان يدعو فلا يسمع لدعوته ، ويقول فلا يلتفت إلى قوله .

لقد أدّت تلك الحروب إلى تحوّل الخلافة الإسلامية إلى حكم قيصري لا ظل فيه لحكم الإسلام ومنطق القرآن ، فقد آل الأمر إلى معاوية ، فاتخذ مال الله دولاً ، وعباد الله خولاً ، وأرغم المسلمين على ما يكرهون .

٢ ـ تفلل جيش الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام

وتفللت جميع القوات العسكريّة في جيشه ، وشاعت الفرقة والاختلاف فيما بينها ، خصوصاً بعد واقعة النهروان ، فقد انحطت معنويات الجيش .

يقول البلاذري : إنّ معاوية أرسل عمارة بن عقبة إلى الكوفة ليتجسس له عن حالة جيش الإمام ، فكتب له : خرج على عليّ أصحابه ونسّاكهم ، فسار إليهم فقتلهم ، فقد فسد عليه جنده وأهل مصره ، ووقعت بينهم العداوة ، وتفرقوا أشدّ الفرقة .

فقال معاوية للوليد بن عقبة : أترضى أخوك بأن يكون لنا عينا ـ وهو يضحك ـ فضحك الوليد وقال : إنّ لك في ذلك حظّاً ونفعاً ، وقال الوليد لأخيه عمارة :

إنْ يَكُ ظَنِّي بِابْنِ أُمِّيَ صادِقاً ... عُمارةُ لَا يَطْلُبْ بِذَحْلٍ وَلَا وَتْرِ
مُقِيمٌ وَقَتّالُ ابْنَ عَفّانَ حَولَهُ ... يَمشِي بِها بَينَ الخَورَنَقِ وَالجِسْرِ
وَتَمشِي رَخِيَّ البالِ مُنَتشِرَ القِوَى ... كَأَنَّكَ لَمْ تَشْعُرْ بِقَتلِ أبي عَمْرِو(٢)

لقد مُني جيش الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بالفتنة والخلاف ، ولم يكن باستطاعته

---

(١) أنساب الأشراف : ٣: ١٥٦ .

(٢) أنساب الأشراف : ٢: ٣٨٤ .

بما يملك من طاقات خطابية هائلة أن يرجع إليهم حوازب أحلامهم، ويقضي على عناصر الشغب والتمرد التي أصبحت من أبرز ذاتياتهم.

وممّا زاد في تمرّد الجيش أنّ معاوية راسل جماعة من زعماء العراق البارزين ـ كالأشعث بن قيس ـ فمنّاهم بالأموال، ووعدهم بالهبات والمناصب إذا قاموا بعمليات التخريب في جيشه وشعبه، فاستجابوا إليه فقاموا بدورهم في إشاعة الأراجيف، وتضليل الرأي العام، وبثّ روح التفرقة والخلاف بين الناس، وقد أثّرت دعايتهم تأثيراً هائلاً في أوساط ذلك الجيش، فقد خلعوا طاعة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، وعمدوا إلى عصيانه[١].

لقد كانت الأكثريّة الساحقة في معسكره لهم رغباتهم الخاصة التي تتنافى مع مصلحة الدولة وغايات رئيسها، في حين أنّ شعب الشام كان على العكس من ذلك. يقول الحجاج بن خزيمة لمعاوية: إنّك تقوى بدون ما يقوى به عليّ؛ لأنّ معك قوماً لا يقولون إذا سكتّ، ويسكتون إذا نطقت، ولا يسألون إذا أمرت، ومع علي قوم يقولون إذا قال، ويسألون إذا سكت[٢].

٣ـ احتلال مصر

ولم تقف محنة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وبلاؤه عند حدّ، وإنّما أخذت تتتابع عليه المحن، وهي أشدّ ما تكون هولاً، فإنّه لم يكد ينتهي من مناجزة المارقين حتّى ابتلى في أمر دولته، فقد أخذ معاوية يحتل أطرافها، ويغير على بعضها، ويشيع فيها الخوف والإرهاب، فقد أيقن بتخاذل جيشه، وما مُني به من الفرقة والاختلاف، وقد أجمع رأيه على احتلال مصر التي هي قلب البلاد العربية، وقد جعلها طعمة إلى

---

(١) أنساب الأشراف: ٣: ١٥٦.

(٢) الأخبار الطوال: ١٥٥.

وزيره وباني دولته عمرو بن العاص ليتمتع وحده بخيراتها.

وكان الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قد ولّى على مصر الزعيم الكبير قيس بن سعد الأنصاري الذي كان من ألمع الشخصيات الإسلامية في حسن سياسته وعمق تفكيره وبُعد نظره، وقد ساس المصريين أيام المحنة سياسة عدل وحق، وقضى على الاضطرابات الداخلية، ونشر المحبة والأُلفة فيها، وقد عزله عنها وولّى مكانه الطيب محمّد بن أبي بكر، فاضطرب أمر مصر، وظهرت الدعوة العثمانية فيها، فعزل الإمام علي عليه السلام محمّداً عنها وولّى مكانه مالك الأشتر النخعي الذي هو من أنصح الناس إليه وأكثرهم إخلاصاً له، إلّا أنّه لم يكد ينتهي إلى (القَلْزم) حتّى مات.

وأجمع المؤرخون على أنّ معاوية قد أغوى صاحب الخراج في القلزم فدسّ إليه سماً في شربة من عسل فمات بها، وكان معاوية وصاحبه ابن العاص يتحدثان بعد ذلك، ويقولان: إنّ لله جنوداً من عسل[١].

وجهّز معاوية جيشاً لاحتلال مصر، وأمّر عليه ابن العاص، ولمّا علم الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ذلك أقرّ محمّداً على مصر، ووعده بأن يمدّه بالجيش والمال، وأخذ يدعو أهل الكوفة لنجدة إخوانهم في مصر، فلم يستجيبوا له، وجعل يلحّ عليهم ويطلب منهم النجدة، فاستجاب له جند ضئيل كأنّما يساقون إلى الموت[٢]، فأرسلهم إلى مصر، ولكنّه لم يلبث أن وافته الأنباء بأنّ ابن العاص قد احتل مصر، وأنّ عامله محمّداً قد قُتل وأُحرقت جثته في النار، فردّ جنده، وخطب أهل الكوفة خطاباً مثيراً ندد بهم، ونعى عليهم تخاذلهم وخور عزائمهم.

وعلى أيّة حال فإنّ احتلال مصر قد قوّى شوكة معاوية، ودفعه إلى أن يغزو أهل العراق في عقر دارهم.

---

(١) أنساب الأشراف: ٣: ١٦٨.

(٢) أنساب الأشراف: ٣: ١٧٢ و ١٧٣.

٤ـ الغارات

ولم يقنع معاوية بما أحرزه من النصر في احتلاله لمصر، وإنّما راح يشيع الذعر والهلع في البلاد الخاضعة لحكم الإمام علي عليه السلام؛ ليشعر أهلها بأنّ علياً قد ضعف سلطانه وأنّه لا يتمكن من حمايتهم وردّ الاعتداء عنهم، وقد شكّل قطعاً من جيوشه وعهد إليها أن تتوغل في البلاد وتشيع فيها الفساد والقتل، وقد ولّى عليها جماعة من السفاكين الذين تمرّسوا في الجرائم، وتجرّدوا من كل نزعة إنسانية، وعهد لكل واحد منهم أن يقتل كل من كان شيعة له، ويغير على جهة خاصة بسرعة خاطفة، ونعرض بإيجاز إلى بعض تلك الغارات:

الأُولى: الغارة على العراق

وشكّل معاوية أربع قطع للغارة على أطراف العراق وداخله؛ ليملأ قلوب العراقيّين فزعاً وخوفاً حتّى لا يستجيبوا للجهاد إذا دعاهم الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام إليه، وهذه بعض المناطق العراقية التي أغار عليها:

١ـعين التمر

وأرسل معاوية النعمان بن بشير الأنصاري في ألف رجل إلى عين التمر، وكان فيها مالك بن كعب، ومعه كتيبة من الجيش تبلغ ألف رجل إلّا أنّه لم يعلم بغزو أهل الشام له، فأذن لجنده بإتيان أهلهم في الكوفة وبقي في مائة رجل، ولمّا دهمه جيش معاوية قاومه مقاومة باسلة، وتوجهت له نجدة تبلغ خمسين رجلاً فلمّا رآهم النعمان فزع وولّى هارباً، فقد ظن أنّ لهم مدداً.

ولمّا بلغت الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنباء هذه الغارة قام خطيباً في جيشه يدعوهم إلى نجدة عامله، فقال عليه السلام: **عَجَباً لَكُمْ عَجَباً لَكُمْ يَا أَهلَ الْكُوفَةِ، كُلَّما أَطَلَّتْ عَلَيْكُمْ**

سَرِيَّةٌ وَأَتاكُمْ مَنْسِرٌ[١] مِنْ مَناسِرِ أَهْلِ الشّامِ أَغْلَقَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ بابَهُ ، قَدِ انْجَحَرَ في بَيْتِهِ انْجِحارَ الضَّبِّ فِي جُحْرِهِ ، وَالضَّبُعِ فـي وِجـارِها ، وَالذَّلِـيلُ وَاللهِ مَـنْ نَـصَرْتُمُوهُ ، وَمَنْ رَمىٰ بِكُم رَمَىٰ بِأَفْوَقِ ناصِلٍ[٢] ، فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً ، وَقَـد نـادَيْتُكُمْ ، وَنـاجَيْتُكُمْ فَلَا أَحْرارٌ عِنْدَ النِّداءِ ، وَلَا إِخْوانٌ عِنْدَ النَّجاءِ ، قَدْ مُنِيتُ مِنْكُمْ بِصُمٍّ لَا يَسْمَعونَ ، وَبُكْمٍ لَا يَعْقِلُونَ ، وَكُمْهٍ لَا يُبْصِرُونَ »[٣] .

٢ ـ هيت

ووجّه معاوية للغارة على هيت سفيان بن عوف وضمّ إليه ستة آلاف ، وأمره أن يأتي بعد الغارة عليها إلى الأنبار والمدائن فيوقع بأهلها ، وسار بجيشه إلى هيت فلم يجد بها أحداً ، فانعطف نحو الأنبار فوجد بها مسلحة للإمام أميرالمؤمنين عليه‌السلام تتكون من مائتي رجل ، فقاتلهم وقتل أشرس بـن حسّـان البكـري مـع ثـلاثين رجـلاً مـن أصحابه ، ثمّ نهبوا ما في الأنبار من أموال وتوجهوا إلى معاوية وهم مسرورون بما أحرزوه من النصر ، وبما نهبوه من الأموال[٤] .

وبلغت أنباء الأنبار الإمام علياً عليه‌السلام فأثارته إلى حدّ بعيد ، وبلغ به الغيظ أقصاه ، وكان عليلاً لا يمكنه الخطاب ، فكتب كتاباً قُرِئ على الناس ، وقد أُدني من السدّة ليسمع القراءة[٥] ، وهذا نصه :

---

(١) **المَنْسِر** : قطعة من الجيش تمرّ قدام الجيش الكثير ـ القاموس المحيط : ٦٢٠ ـ نسر .

(٢) **الفوق** : مشق رأس السهم حيث يقع الوتر ، وإذا كان في الفُوق ميل أو انكسار فذلك السهم أفوق ـ لسان العرب : ١٠ : ٣٥٣ ـ فَوَقَ .

الناصل : السهم المنكسر الفُوق الذي لا نصل فيه ـ لسان العرب : ١٤ : ١٦٨ ـ نَصَلَ .

(٣) أنساب الأشراف : ٣ : ٢٠٧ . تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٣٨٥ .

(٤) الكامل في التاريخ : ٣ : ١٨٩ .

(٥) أنساب الأشراف : ٣ : ٢٠١ و ٢٠٢ .

«أمّا بَعْدُ ، فَإنَّ الْجِهادَ بابٌ مِنْ أَبْوابِ الْجَنَّةِ ، فَتَحَهُ اللهُ لِخاصَّةِ أَوْلِيائِهِ ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ ، وَشَمِلَهُ الْبَلاءُ ، ودُيِّثَ بِالصَّغارِ ، وَسِيْمَ الْخَسْفَ ، وَمُنِعَ النَّصَفَ ، وَقَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلىٰ جِهادِ هٰؤلاءِ الْقَوْمِ لَيْلاً وَنَهاراً ، وَعلانِيَةً وَسِرّاً ، وَأَمَرْتُكُمْ أَنْ تَغْزُوهُمْ قَبْلَ أَن يَغْزُوكُمْ ، فإِنَّهُ ما غُزِيَ قَوْمٌ في عُقْرِ دارِهِمْ إلّا ذَلُّوا ، فَتَواكَلْتُمْ وَتَخاذَلْتُمْ وَثَقُلَ عَلَيْكُمْ قَوْلِي ، وَعَصَيْتُمْ أَمْرِي وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيّاً ، حَتّىٰ شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغاراتُ مِنْ كُلِّ ناحِيَةٍ ، هٰذا أَخُو غامِدٍ قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبارَ ، فَقَتَلَ حَسّانَ بْنَ حَسّانٍ الْبَكْرِيَّ ، وَأَزالَ مَسالِحَكُمْ عَنْ مَواضِعِها ، وَقَتَلَ مِنْكُمْ رِجالاً صالِحِينَ ، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الشّامِ كانَ يَدْخُلُ بَيْتَ الْمُسْلِمَةِ وَالْأُخْرَى الْمُعاهِدَةِ فَيَأْخُذُ حِجْلَها وقُلْبَها [١] وَقِلادَتَها .

فَيا عَجَباً يُمِيتُ القَلْبَ ، وَيَجْلِبُ الْهَمَّ ، وَيُسْعِرُ الْأَحزانَ مِنْ جِدِّ هٰؤلاءِ الْقَوْمِ في باطِلِهِم ، وَفَشَلِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ ، فَقُبْحاً وَتَرْحاً حَيْثُ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمىٰ ، يُغارُ عَلَيْكُمْ فَلاتَغِيرُونَ ، وَيُعْصَى اللهُ فَتَرْضَوْنَ ، إذا قُلْتُ لَكُمُ اغزوا عَدُوَّكُمْ في الْحَرِّ ، قُلْتُمْ هٰذِهِ حَمارَّةُ الْقَيْظِ مَنْ يَغْزُو فِيها ؟ ! أَمْهِلْنا يَنْسَلِخُ عَنّا الْحَرُّ ! وَإِذا قُلْتُ اغْزُوهُمْ في أَنْفِ الشِّتاءِ ، قُلْتُمُ الصِّرُّ وَالْقُرُّ [٢] ، فَكُلُّ هٰذا مِنْكُمْ فِراراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ ؟ فَأَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ .

يا أَشْباهَ الرِّجالِ ، وَحُلومَ الْأَطْفالِ ، وَعُقولَ رَبّاتِ الْحِجالِ ، لَوَدَدْتُ أَنِّيَ لَمْ أَرَكُمْ ، وَأَنَّ اللهَ أَخْرَجَنِي مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ ، فَلَقَدْ مَلَأْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمامِ [٣] أَنْفاساً ، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيانِ ، حَتّىٰ قالَتْ قُرَيْشٌ : إِنَّ ابْنَ أَبِي طالِبٍ

(١) **القُلْب** : سِوارُ المرأة ـ لسان العرب : ١١ : ٢٧٢ ـ قلب .

(٢) **الصِّرُّ** : شدة البرد ـ لسان العرب : ٧ : ٣٢١ ـ صرر .

القُرّ : البرد عامّة ـ لسان العرب : ١١ : ٩٧ ـ قرر .

(٣) **النغب** : هو الابتلاع للريق والماء ـ لسان العرب : ١٤ : ٢١٨ ـ نغب .

⇦

رَجُلٌ شُجاعٌ ، وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ ، للهِ أَبوهُمْ ، وَهَلْ مِنْهُمْ أَحَدٌ أَشَدُّ لَها مِراساً وَقِعاساً[1] مِنِّي ، لَقَدْ نَهَضْتُ فِيها وَقَد بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ[2] فَها أَنا ذا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ ، وَلٰكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطاعُ »[3].

وقد صوّر هذا الخطاب ما في نفس الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام من غيظ ممضّ ، ويأس شديد من أصحابه الذين امتلأت قلوبهم خوفاً وذلّاً من أهل الشام ، فتخاذلوا وقبعوا في بيوتهم يطاردهم الفزع حتّى فسد عليه أمره .

٣ـ واقصة

ووجه معاوية الضحاك بن قيس الفهري إلى واقصة[4] ؛ ليغير على كل من كان فيها من شيعة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ، وضمّ إليه ثلاثة آلاف رجل ، فسار الضحاك فنهب أموال الناس ، وقتل كل من ظنّ أنّه على طاعته عليه السلام ، وسار حتّى انتهى إلى القطقطانة[5] وهو يشيع القتل والإرهاب ثمّ سار إلى السماوة ، وبعدها ولّى إلى الشام .

ولمّا وافت الأنباء الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قام خطيباً في جيشه ، وقد دعاهم إلى صدّ هذا الاعتداء ، فلم يستجب له أحد ، فقال عليه السلام : **وَدَدْتُ ـ وَاللهِ ـ أَنَّ لِي بِكُلِّ عَشَرَةٍ مِنْكُمْ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الشّامِ ، وَأَنِّي صَرَفْتُكُمْ كَما يُصرَفُ الذَّهَبُ ، وَلَوَدَدْتُ أَنِّي لَقِيتُهُمْ**

⇦ وفي شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٢ : ٨٠ : **النُّغَب** : جمع نَغبة وهي الجرعة ، والتَّهمام بفتح التاء : الهمّ .

(١) **المِراس** : المُمارسة وشدة العلاج ـ لسان العرب : ١٣ : ٧٧ ـ مرس .

القَعَس : الثبات ـ لسان العرب : ١١ : ٢٤٣ ـ قعس .

(٢) في رواية : « وما بلغت العشرين » .

(٣) أنساب الأشراف : ٣ : ٢٠١ و ٢٠٢ . العقد الفريد : ٤ : ٧٠ .

(٤) **واقصة** : منزل بطريق مكة ـ معجم البلدان : ٥ : ٤٠٧ .

(٥) **القُطْقُطانة** : موضع قرب الكوفة من جهة البرّيّة بالطفّ ـ معجم البلدان : ٤ : ٤٢٤ .

عَلىٰ بَصِيرَتِي فَأَراحَنِيَ اللهُ مِن مُقاساتِكُمْ وَمُداراتِكُمْ ».

وسار الإمام علي عليه السلام وحده نحو الغريّين لصدّ هذا الاعتداء، فلحقه عبدالله ابن جعفر بدابّة فركبها، ولمّا رأى الناس ذلك خفّ إليه بعضهم، فسرّح أميرالمؤمنين عليه السلام لطلب الضحاك حُجْرَ بن عدي في أربعة آلاف، وسار في طلبه فلم يدركه فرجع[١].

لقد أخذت غارات معاوية تتوالى على العراق، من دون أن تتعرض لأيّة مقاومة تذكر، وقد أيقن معاوية بالنصر والظفر لما مني به أصحاب الإمام عليه السلام من التخاذل.

الثانية: الغارة على الحجاز واليمن

وبعث معاوية بسر بن أبي أرطاة في ثلاثة آلاف للغارة على الحجاز واليمن، فاتجه نحو يثرب فلم يجد من أهلها أيّة مقاومة، فصعد المنبر ورفع عقيرته يندب عثمان وينشر الرعب والإرهاب بين الناس.

وأخذ البيعة من أهلها لمعاوية، ثمّ سار إلى اليمن، وكان عليها عبيد الله بن عباس عاملاً للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، فهرب منه حتّى أتى الكوفة، فاستخلف الإمام علي عليه السلام عليها عبد الله الحارثي فقتله بُسر، وقتل ابنه، وعمد إلى طفلين لعبيد الله فقتلهما، ولمّا انتهى خبرهما إلى أُمهما فقدت وعيها وراحت ترثيهما بذوب روحها بأبياتها المشهورة[٢].

لقد قام سلطان معاوية على قتل الأبرياء، وذبح الأطفال، وإشاعة الرعب والفزع في البلاد.

ولمّا انتهت الأنباء الأليمة إلى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام مزّق الأسى قلبه، وراح يخطب في جيشه يذكر ما عاناه من الخطوب والكوارث منهم قائلاً: **أُنْبِئْتُ بُسْراً**

---

(١) أنساب الأشراف: ٣: ١٩٧ ـ ١٩٩.

(٢) أنساب الأشراف: ٣: ٢١٤. الفتوح: ٣: ٢٣٣ و ٢٣٤. الكامل في التاريخ: ٣: ١٩٣.

قدِ أطَّلَعَ الْيَمَنَ(١) **وَإِنّي ـ واللهِ ـ لَأَظُنُّ أنَّ هٰؤلَاءِ الْقَوْمَ سَيُدالونَ**(٢) **مِنْكُمْ بِاجْتِماعِهِمْ عَلىٰ باطِلِهِمْ ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إمامَكُمْ في الْحَقِّ وَطاعَتِهِمْ إمامَهُمْ في الْباطِلِ ، وَبِأَدائِهِمُ الْأَمانَةَ إِلَىٰ صاحِبِهِمْ وَخِيانَتِكُمْ ، وَبِصَلَاحِهِمْ في بِلَادِهِمْ وَفَسادِكُمْ ، فَلَوِ ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلىٰ قَعْبٍ**(٣) **لَخَشِيْتُ أَن يَذْهَبَ بِعِلَاقَتِهِ**(٤) **. اللّٰهُمَّ إنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّوني ، وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُوني ، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي . اللّٰهُمَّ مِثْ في قُلُوبِهِمْ كَما يُماثُ**(٥) **الْمِلحُ في الْماءِ ، أَما وَاللهِ لَوَدَدْتُ أَنَّ لِي أَلْفَ فارِسٍ مِنْ بَنِي فِراسِ بْنِ غُنْمٍ**(٦)**:**

هُنالِكَ لَوْ دَعَوتَ أَتاكَ مِنهُمْ   فَوارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الحَمِيمِ(٧)

ثمّ نزل عن المنبر وهو غارق بالهموم والأحزان قد استولى اليأس على نفسه من أصحابه الذين أصبحوا أعصاباً رخوة خالية من الشعور والإحساس .

هذه بعض الغارات التي شنّها معاوية على العراق وخارجه من الأقاليم الإسلامية الخاضعة لحكمه ، وكان المقصود منها زعزعة هذه المناطق من إيمانها بمقدرة الإمام علي عليه‌السلام على حمايتها من الاعتداء ، وإذاعة مقدرة معاوية وقوته العسكرية ، وتقوية الروح المعنوية في جيشه وحزبه المنتشر في تلك البلاد .

وعلى أيّة حال فقد صوّرت هذه الغارات جانباً كبيراً من الضعف والتمرد في

---

(١) **اطّلع اليمن** : بلغها واحتلّتها قوّاته .

(٢) **سيدالون** : أي ستكون لهم الدولة بسبب اجتماع كلمتهم ، واختلاف رأي العراقيّين .

(٣) **القعب** ـ بالفتح ـ : القدح الكبير ـ لسان العرب : ١١ : **٢٣٥** ـ قعب .

(٤) **علاقته** ـ بكسر العين ـ : ما يعلق به القعب من ليف ونحوه .

(٥) **ماث الشيء** : أي ذاب في الماء ـ مجمع البحرين : **٢** : **٢٦٥** ـ موث .

(٦) **بنو فراس** : قبيلة عربيّة مشهورة بالشجاعة والإقدام .

(٧) شرح نهج البلاغة / محمّد عبده : ١ : **٦٤ ـ ٦٦** .

جيش الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ، حتّى طمع معاوية في شنّ هجوم عام على العراق ؛ لاحتلاله والقضاء على حكومته عليه السلام ، ومن المؤكد أنّه لو فعل ذلك لوجد الطريق سهلاً ، ولم يجد أيّة صعوبة أو مقاومة تذكر ، فقد خلد القوم إلى الراحة وسئموا من الجهاد .

عبث الخوارج

وتواكبت المحن الشاقة على الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يقفو بعضها بعضاً ، فغارات معاوية متصلة على العراق وخارجه ، وهي تنشر الرعب والهلع في قلوب المواطنين ، وهو لا يتمكن على حماية الأمن وصيانة الناس من الاعتداء ، قد خلع جيشه يد الطاعة وأعلن العصيان والتمرد ، ولم يعد له أي نفوذ أو سلطان عليه .

ومن تلك المحن الشاقة التي ابتلي بها الإمام علي عليه السلام هي فتنة الخوارج ، فإنّه لم يقضِ عليهم في النهروان ، وإنّما قضى على جماعة منهم ، وبقي أكثرهم يعيشون معه ، وهم يكيدون له ، ويتربصون به الدوائر ، ويحوّلون قلوب الناس عنه ، قد أمنوا من بطشه ، واستيقنوا أنّه لن يبسط عليهم يداً ، ولا ينزل بهم عقوبة ، وقد أطمعهم عدله ، وأغراهم لينه ، فراحوا يجاهرون بالردّ والإنكار عليه ، فقد قطع بعضهم عليه خطبته تالياً قوله تعالى : ﴿ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ** ﴾[1] .

فأجابه عليه السلام بآية أُخرى : ﴿ **فاصْبِرْ إنّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يُسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ** ﴾[2] .

وجاءه الخرّيت بن راشد السامي في ثلاثين من أصحابه فقال له : يا علي ، والله

---

(١) الزمر ٣٩: ٦٥.

(٢) الروم ٣٠: ٦٠.

لا أُطيع أمرك، ولا أُصلي خلفك، وإنّي غداً مفارق لك. فلطف به وحاجه، وخلّى بينه وبين حريته فلم يسجنه، وإنّما ترك له الطريق مفتوحاً، وولّى الرجل إلى قومه من بني ناجية فأخبرهم بما كان بينه وبين الإمام علي عليه السلام، ثمّ خرج في الليل يريد الحرب، وجرت أحداث كثيرة في خروج الخرّيت وتمرده ذكرها المؤرخون بالتفصيل[١].

وعلى أية حال، فإنّ المسؤولية الكبرى في كثير من الأحداث المفزعة التي مُني بها العالم الإسلامي تقع على الخوارج، فهم الذين قضوا على مصير الأُمة في أهم الفترات الحاسمة من تاريخها، حينما كتب النصر للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وباءَ معاوية بالهزيمة والفشل، بحيث لم يبقَ من حياته إلّا فترة يسيرة من الزمن، قدّرها قائد القوات العسكرية في جيشه ـ وهو مالك الأشتر ـ بحلْبة شاة أو بعدوة فرس، فأضاعوا ذلك النصر الكبير، وأرغموه على قبول التحكيم.

دعاء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على نفسه

وطافت بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام موجات رهيبة ومذهلة من الأحداث والأزمات، فهو يرى باطل معاوية قد استحكم وأمره قد تمّ، ويرى نفسه في أرباض الكوفة قد احتوشته ذئاب العرب الذين كرهوا عدله، ونقموا عليه مساواته، وعملوا جاهدين على الحيلولة بينه وبين تحقيق آماله من القضاء على الأثرة والاستعلاء والطغيان.

والشيء الوحيد الذي أقضّ مضجعه هو تمزّق جيشه، وتفلل جميع وحداته، فقد أصبح بمعزل عن جميع السلطات، وقد نظر إلى المصير المؤلم الذي سيلاقي فيه القطعات الشعبية من بعده، فقال عليه السلام: **أَما إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلّاً شامِلاً، وَسَيْفاً**

---

(١) أنساب الأشراف: ٣: ١٧٧.

قاطِعاً، وَأَثَرَةً يَتَّخِذُها الظّالِمونَ فِيكُمْ سُنَّةً، فَيُفَرِّقُ جَماعَتَكُمْ، وَيُبْكِي عُيُونَكُمْ، وَيُدْخِلُ الْفَقْرَ بُيُوتَكُمْ، وَتَتَمَنَّوْنَ عَنْ قَلِيلٍ أَنَّكُمْ رَأَيْتُمُونِي فَنَصَرْتُمُونِي، فَسَتَعْلَمونَ حَقَّ ما أَقُولُ لَكُمْ، وَلَا يُبْعِدُ اللهُ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ»[(١)].

ولم يُجدِ نصح الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام معهم شيئاً، فقد تمادوا في الغي، وعادت لهم جاهليتهم الرعناء.

وقد سئم منهم وراح يتمنى مفارقة الدنيا، فكان كثيراً ما يقول في خطبه: **مَتَىٰ يُبْعَثُ أَشْقاها؟!** وأخذ يلح بالدعاء ويتوسل إلى الله بقلب منيب أن يريحه منهم، فقد روى البلاذري عن أبي صالح قال: شهدت علياً، وقد وضع المصحف على رأسه حتّى سمعت تقعقع الورق وهو يقول: **اللّهُمَّ إِنِّي سَأَلْتُهُمْ مَا فِيهِ فَمَنَعُونِي ذلِكَ، اللّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَلْتُهُمْ وَمَلُّونِي، وَأَبْغَضْتُهُمْ وَأَبْغَضُونِي، وَحَمَلُونِي عَلىٰ غَيْرِ خُلُقِي، وَعَلىٰ أَخْلَاقٍ لَمْ تَكُنْ تُعْرَفُ لِي، فَأَبْدِلْنِي خَيْراً لِي مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً، وَمِثْ قُلُوبَهُمْ مَيْثَ الْمِلْحِ**[(٢)].

واستجاب الله دعاء وليّه العظيم، فنقله بعد قليل إلى حظيرة القدس مع النبيّين والصديقين وأراحه من ذلك المجتمع الذي كره الحق، ونقم على العدل، وقد سلّط الله عليهم من بعده أرجاس البشرية، فأخذوا يمعنون في ظلمهم وإذلالهم، فيأخذون البريء بالسقيم، والمقبل بالمدبر، ويقتلون على الظنة والتهمة، فاستيقظوا عند ذلك، وأخذوا يندمون أشد الندم على ما اقترفوه من الإثم تجاهه، وما فرّطوا به من عصيانه وخذلانه.

---

(١) الأمالي / الطوسي: ١٨٠ و ١٨١، الحديث ٣٠٢. شرح الأخبار: ٢: ٧٤، الحديث ٤٤١. أنساب الأشراف: ٣: ١٥٥.

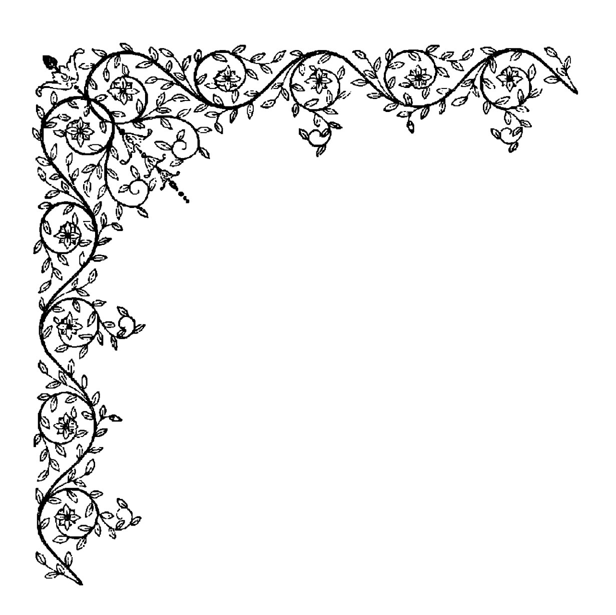
(٢) نهج البلاغة: ٦٧، خطبة ٢٥. أنساب الأشراف: ٣: ١٥٦. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١: ٣٣٢ و ٣٣٣.

هذه بعض مخلفات تلك الحروب التي امتحن بها الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أشدّ ما يكون الامتحان قسوة وإرهاقاً ، ولم يمتحن بها وحده وإنّما امتحن بها العالم الإسلامي بأسره ، فقد أخلدت للمسلمين المشاكل والخطوب والقتهم في شرّ عظيم .

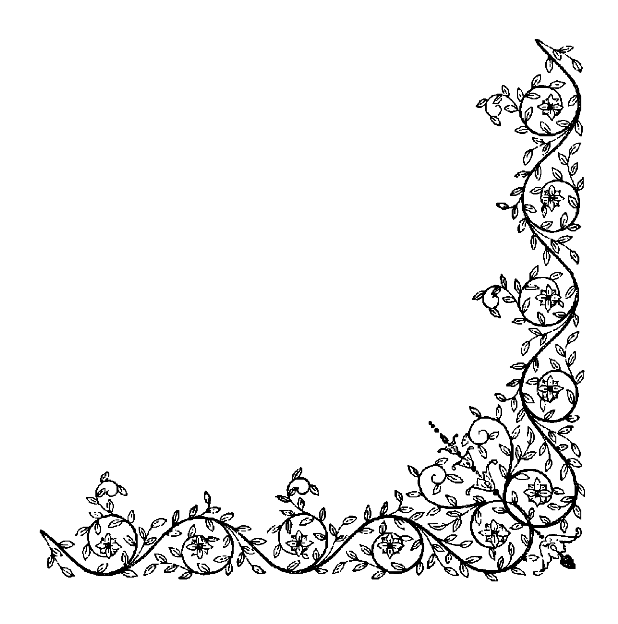
لقد واكب الإمام الحسين عليه السلام هذه الأحداث المفزعة التي جرت على أبيه ، ووقف على واقعها ، وقد استبان له كراهية القوم لأبيه ؛ لأنّه لم يداهن في دينه ، وأراد أن يحمل الناس على الحق المحض والعدل الخالص ، ولا يدع محروماً ، ولا مظلوماً في البلاد .

وعلى أيّة حال فإنّ هذه الحروب قد ساهمت مساهمة إيجابية في خلق كارثة كربلاء التي لم تأتِ إلّا بعد انهيار الأخلاق ، وإماتة الوعي الديني والاجتماعي ، وإشاعة الانتهازية والتحلل بين أفراد المجتمع ، فقد سيطرت الرأسمالية القرشية على الشؤون الاجتماعية ، فأخذت تعيث فساداً في الأرض ، وتنقض جميع ما أقامه الإسلام من صروح للفضيلة والأخلاق ، وكان من أسوأ ما قامت به أنّها عملت جاهدة على إشاعة العداء والكراهية لأهل البيت عليهم السلام الذين هم مصدر الوعي والإحساس في هذه الأُمة .

فقد عمدت بشكل سافر إلى تقطيع أوصالهم على صعيد كربلاء ، وإبادتهم إبادة جماعية بصورة رهيبة لم يحدث لها نظير في تاريخ الإنسانية .



أفول دولة الحق



وليس في تاريخ هذا الشرق ولا في غيره حاكم كالإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في عدله ونزاهته وإيثاره للحق على كل شيء ، فقد كان ـ فيما أجمع عليه المؤرخون ـ لم يخضع لأيّة نزعة عاطفية ، ولم يستجب لأيّ هوى مطاع ، وإنّما سار على الطريق الواضح ، والمنهج السليم الذي سلكه رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلم يحابِ ، ولم يداهن في دينه ، وتبنى النصح الخالص لجميع المسلمين ، وقد حاول جاهداً أيام حكومته أن يرفع راية الإسلام ، ويحقق مبادئه التي كان منها رفع الحيف والظلم ، ومنع الاستغلال ، وإزالة الفوارق بين أبناء المسلمين .

وكان من أعظم ما عنى به وضع أموال الدولة في مواضعها ، فلم ينفق أيّ شيء منها إلّا على مرافقها التي عينها الإسلام ، وما تاجر بها ، ولو اشترى بها العواطف والضمائر ـ كما كان يفعل معاوية ـ لما تنكّر عليه النفعيون في جيشه كالأشعث بن قيس وغيره من أقطاب الخيانة والعمالة .

لقد احتاط في أموال الدولة أشدّ ما يكون الاحتياط ، وأجهد نفسه وحمّلها من أمره رهقاً من أجل أن يبسط العدل الاقتصادي بين الناس .

يقول عبد الله بن رزين : « دخلت على عليّ عليه السلام يوم الأضحى ، فقرّب إلينا حريرة ، فقلت له : أصلحك الله ، لو قرّبت إلينا من هذا البط فإنّ الله قد أكثر الخير .

فقال : **يابْنَ رَزِينٍ ، سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقولُ : لَا يَحِلُّ لِخَلِيفَةٍ مِن مالِ اللهِ**

إلّا قِصْعَتانِ ، قَصْعَةٌ يَأْكُلُها هُوَ وَأَهْلُهُ ، وَقَصْعَةٌ يَضَعُها بَيْنَ يَدَي النّاسِ [١] .

وقد نقم على سياسته كل من استسلم لدوافع المادة وشهواتها ، فراحوا يعملون جاهدين للإطاحة بحكومته عليه السلام ، وتشكيل حكومة تضمن مصالحهم الاقتصاديّة والسياسيّة .

ومن المؤكد أنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام كان يعلم كيف يجلب له الطاعة ، وكيف يبسط سلطانه ونفوذه على أُولئك الذين نقموا عليه ، ولكن ذلك لا يتم إلّا بأن يداهن في دينه فيوارب ويخادع ويعطي المال في غير حقه ، فيكون كبقية عشّاق الملك والسلطان ، ومن الطبيعي أنّ الانحراف عن الحق والمتاجرة بمصالح الأُمة ممّا يأباه عليّ وتأباه مُثُلُه العليا ، فلا السلطة تغريه ، ولا اجتماع الناس حوله يزيده عزّة ، ولا تفرقهم عنه يزيده وحشة كما كان يقول .

لقد كان الإمام يؤمن إيماناً خالصاً بالدين ، ويرى من الضرورة أن يكون هو المسيطر على قلوب الناس وتفكيرهم ، وألّا يكون هناك أيّ ظل للمنافع والأهواء ، وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا النوع الخالص من الإيمان لم يتحقق إلّا للقلّة القليلة من أصحابه كحُجْر بن عدي ، ومالك الأشتر ، وعدي بن حاتم ، وميثم التمّار ونظرائهم ممّن تغذّوا بهديه ، وهم الذين قرأوا القرآن فأحكموه ، وتدبّروا الفرض فأقاموه ، أحيوا السنة وأماتوا البدعة على حدِّ تعبيره . أمّا الأكثرية الساحقة من جيشه وشعبه ، فإنّهم لم يعوا أهدافه ومبادئه ، وجهلوا القيم العليا في سياسته المشرقة ، التي كانت تهدف إلى ضمان حقوق المظلومين والمضطهدين .

لقد تحرّج الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في سلوكه السياسي ، فأخضع سياسته العامة للقيم الدينية والخلقية ، فبسط الحق بجميع رحابه ومفاهيمه ، ولم يعد أيّ نفوذ

---

(١) تذكرة الخواص : ١٠٧ . جواهر المطالب : ١ : ٢٨٣ .

للأقوياء ، ولا سلطان للرأسمالية القرشية التي كانت تعتبر السواد بستاناً لقريش[١] .

وقد هبّت القوى المنحرفة عن الحق في وجه الإمام ، فأشعلت نار الحرب ، وأوقفت مسيرته في تطبيق العدل الاجتماعي ، ووضعت السدود والحواجز في طريقه ، وقد وقف الإمام العظيم ملتاعاً حزيناً قد احتوشته ذئاب الأثرة والاستغلال ، وتناهبت مشاعره الأحداث المفزعة التي تواكبت عليه ، وكان من أفجعها الفتن الداخلية التي يثيرها الخوارج الذين كانوا يعيشون معه وهم يجاهرونه بالعداء ، وينشرون الفتن والاختلاف ، ويتربصون الفرص للخروج عليه .

مؤتمر مكّة

ونزح فريق من الخوارج إلى مكة فعقدوا فيها مؤتمراً عرضوا فيه مصارع إخوانهم الذين قتلوا في النهروان ، كما عرضوا فيه الأحداث الجسام التي يواجهها العالم الإسلامي ، والتي أدّت إلى اختلافه وتفككه ، وعزوها إلى ثلاثة ـ حسبما يزعمون ـ الإمام عليّ عليه السلام ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص ، وقد عقدوا النية بعد تبادل الرأي على القيام باغتيالهم ، وانبرى لتنفيذ هذا المخطط كل من :

أوّلاً : عبد الرحمن بن ملجم ، تعهد بقتل الإمام عليّ عليه السلام .

ثانياً : الحجّاج بن عبد الله التميمي الصريمي ، تعهد بقتل معاوية .

ثالثاً : عمرو بن بكر السهمي السعدي ، التزم بقتل ابن العاص .

وقد اتفقوا على القيام بعملية الاغتيال في ليلة الثامن عشر من رمضان ، ساعة خروج هؤلاء الثلاثة إلى صلاة الصبح ، وقد أقاموا بمكة أشهراً ، واعتمروا في رجب ، ثمّ تفرّقوا وقصد كل واحد لتنفيذ ما عهد إليه[٢] .

---

(١) الكامل في التاريخ : ٣ : ٧٠ .

(٢) الكامل في التاريخ : ٣ : ١٩٤ و ١٩٥ . تذكرة الخواص : ١٦٠ و ١٦١ .

رأي رخيص

من الآراء الزائفة التي تحملها بعض الكتب ما ذهب إليه الدكتور بديع شريف من اتهام الفرس بقتل عليّ[١]، وهل وقف الدكتور على نسب ابن ملجم، وأنّه كان فارسياً؟ أليس هو من مراد[٢] إحدى القبائل العربية التي كانت تقطن في الكوفة؟!

وعلّق الدكتور نوري جعفر على هذا الرأي بقوله: «ومن يدري فلعل حبّ الفرس لعلي هو الذي جعل هؤلاء الكتّاب يبغضونهم، ويكيلون لهم التهم بغير حساب»[٣].

اشتراك الأُمويين في المؤامرة

وذكر المؤرخون هذا الحادث الخطير بشيء كثير من التحفّظ، فلم يكشفوا النقاب عن أبعاده، والذي نراه في كثير من الترجيح أنّ المؤامرة لم تكن مقتصرة على الخوارج، وإنّما كان للحزب الأُموي ضلع كبير فيها، والذي يدعم ذلك ما يلي:

أوّلاً: أنّ أبا الأسود الدُّؤَلي ألقى تبعة مقتل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام على بني أُمية، وذلك في مقطوعته التي رثاه بها، فقد جاء فيها:

أَلَا أَبـلِغْ مُـعاوِيةَ بـنَ حَـرْبٍ ... فَـلَا قَـرَّتْ عُـيُونُ الشّـامِتِينا
أَفِـي شَـهرِ الصِّـيامِ فَـجَعتُمُونا ... بِـخَيرِ النّـاسِ طُـرّاً أَجـمَعِينا
قَتَلتُم خَيرَ مَـنْ رَكِـبَ المَـطايا ... وَرَحَّلَها وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينا[٤]

ومعنى هذه الأبيات أنّ معاوية هو الذي فجع المسلمين بقتل الإمام أمير

---

(١) الصراع بين الموالي والعرب: ٣٢ و ٣٣.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ٤٢: ٥٥٨.

(٣) الصراع بين الموالي ومبادئ الإسلام: ١٠٣.

(٤) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٣٩٩. الكامل في التاريخ: ٣: ١٩٨.

المؤمنين عليه السلام الذي هو خيرالناس، فهو المسؤول عن إراقة دمه، ومن الطبيعي أنّ أبا الأسود لم ينسب هذه الجريمة لمعاوية إلّا بعد التأكد من اشتراكه فيها، فقد كان الرجل متحرّجاً أشدّ التحرّج فيما يقول.

ثانياً: أنّ القاضي النعمان المصري ـ وهو من المؤرخين القدامى ـ قد ذكر قولاً في أنّ معاوية هو الذي دسَّ ابن ملجم لاغتيال الإمام علي عليه السلام، قال ما نصه: وقيل: إنّ معاوية أمره بذلك ودسَّ إليه فيه، وجعل له مالاً عليه[١].

ثالثاً: وممّا يؤكد اشتراك الحزب الأُموي في المؤامرة هو أنّ الأشعث بن قيس قد ساند ابن ملجم، ورافقه أثناء عملية الاغتيال، فقد قال له: النجا فقد فضحك الصبح.

ولما سمعه حُجْر بن عدي صاح به: قتلته يا أعور، وكان الأشعث من أقوى العناصر المؤيدة للحزب الأُموي، فهو الذي أرغم الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام على قبول التحكيم، وهدّده بالقتل قبل قتله بزمان قليل، كما كان عيناً لمعاوية بالكوفة[٢].

إنّ المؤامرة ـ كما يقول الرواة ـ قد أُحيطت بكثير من السر والكتمان، فما الذي أوجب فهم الأشعث ودعمه لها؟ لولا الإيعاز إليه من الخارج.

رابعاً: أنّ مؤتمر الخوارج قد انعقد في مكة أيام موسم الحج، وهي حافلة ـ من دون شك ـ بالكثيرين من أعضاء الحزب الأُموي الذين نزحوا إلى مكة لإشاعة الكراهية والنقمة على حكومة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، وأغلب الظن أنّهم تعرفوا على الخوارج الذين كانوا من أعدى الناس عليه، فقاموا بالدعم الكامل لهم على اغتياله؛ إذ لو كانت الفكرة لهم وحدهم لأسندوا هذه المهمة لفرسانهم الأقوياء وأبطالهم الشجعان، أما أن يسندوها إلى هؤلاء الأذناب، فذلك ما لا تسكن إليه

---

(١) المناقب والمثالب / القاضي النعمان المصري: ٢٢٦.

(٢) مروج الذهب: ٢: ٤١٢. تذكرة الخواص: ١٦٢.

النفس ولايطمئن إليه القلب.

وممّا يساعد على ذلك أنّ الخوارج بعد انقضاء الموسم أقاموا بمكة إلى رجب، فاعتمروا في البيت ثمّ نزحوا إلى تنفيذ مخططهم، فمن المحتمل أن يكونوا في طيلة هذه المدة على اتصال دائم مع الحزب الأُموي، وسائر الأحزاب الأُخرى المناهضة لحكم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

خامساً: والذي يدعو إلى الاطمئنان في أنّ الحزب الأُموي كان له الضلع الكبير في هذه المؤامرة هو أنّ ابن ملجم كان معلِّما للقرآن(١)، وكان يأخذ رزقه من بيت المال، ولم تكن عنده أيّة سعة مالية، فمن أين له الأموال التي اشترى بها سيفه الذي اغتال به الإمام بألف وسمّه بألف؟! ومن أين له الأموال التي أعطاها مهراً لقطام وهو ثلاثة آلاف وعبد وقينة؟ كل ذلك يدعو إلى الظن أنّه تلقّى دعماً مالياً من الأُمويين إزاء قيامه باغتياله عليه السلام.

سادساً: وممّا يؤكد أنّ ابن ملجم كان عميلاً للحزب الأُموي هو أنّه كان على اتصال وثيق بعمرو بن العاص وزميلاً له منذ عهد بعيد، فإنّه لمّا فتح ابن العاص مصر كان ابن ملجم معه، وكان أثيراً عنده فقد أمره بالنزول بالقرب منه(٢).

وأكبر الظن أنّه أحاط ابن العاص علماً بما اتفق عليه مع زميليه من عملية الاغتيال له وللإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ومعاوية، ولذا لم يخرج ابن العاص إلى الصلاة وإنّما استناب غيره، فلم تكن نجاته وليدة مصادفة وإنّما جاءت وليدة مؤامرة حيكت أُصولها مع ابن العاص.

هذه بعض الأُمور التي توجب الظن باشتراك الحزب الأُموي في تدبير المؤامرة ودعمها.

---

(١) لسان الميزان: ٣: ٤٤٠.

(٢) لسان الميزان: ٣: ٤٤٠.

اغتيال الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام

وأطلّ على المسلمين شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن، وقد كان علي يقين بانتقاله عليه السلام إلى حظيرة القدس في هذا الشهر العظيم، فكان يجهد نفسه ويرهقها على أن يفطر على خبز الشعير وجريش الملح، وألّا يزيد على ثلاث لقم حسب ما يقوله المؤرخون، وكان يحيي ليالي هذا الشهر بالعبادة.

ولمّا أقبلت ليلة الثامن عشر أحسّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بنزول الرزء القاصم، فكان برماً تساوره الهموم والأحزان، وجعل يتأمل في الكواكب وهي مرتعشة الضوء كأنّها ترسل أشعة حزنها إلى الأرض، وطفق يقول: **ما كَذَبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ، إنّها اللَّيْلَةُ الَّتِي وُعِدْتُ فِيها**.

وأنفق ليله ساهراً، وقد راودته ذكريات جهاده وعظيم عنائه في الإسلام، وزاد وجيبه وشوقه لملاقاة ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وآله ليشكو إليه ماعاناه من أُمته من الأود[١].

وتوجه بمشاعره وعواطفه إلى الله يطلب منه الفوز والرضوان، وقبل أن تشرق أنوار ذلك الفجر الذي دام في ظلامه على البؤساء والمحرومين انطلق الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فأسبغ الوضوء، وتهيأ إلى الخروج من البيت، فصاحت في وجهه الإِوَزُّ كأنها ملتاعة حزينة تنذر بالخطر العظيم الذي سيدهم أرض العرب والمسلمين، وتنبأ من لوعتهن بنزول القضاء، فقال عليه السلام: **لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللهِ، صَوائِحُ تَتْبَعُها نَوائِحُ**[٢].

وخرج عليه السلام إلى بيت الله فجعل يوقظ الناس على عادته إلى عبادة الله ثمّ شرع في صلاته وبينما هو ماثل بين يدي الله وذكره على شفتيه إذ هوى عليه المجرم

---

(١) **آدَهُ الأمر**: بلغ منه المجهود والمشقّة ـ لسان العرب: ١: ٢٥٩ ـ أود.

(٢) مروج الذهب: ٢: ٤١٢ و ٤١٣.

الخبيث عبد الرحمن بن ملجم، وهو يهتف بشعار الخوارج «الحكم لله لا لك يا عليّ»[١] فعلا رأس الإمام أميرالمؤمنين عليه‌السلام بالسيف فقدّ جبهته الشريفة التي طالما عفرها بالسجود لله، وانتهت الضربة الغادرة إلى دماغه المقدّس الذي ما فكّر فيه إلّا في سعادة الناس، وجمعهم على صعيد الحق.

ولمّا أحسّ الإمام علي عليه‌السلام بلذع السيف انفرجت شفتاه عن ابتسامة، وانطلق صوته يدوّي في رحاب الجامع قائلاً: **فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ**[٢].

لقد كنتَ ـ يا أميرالمؤمنين ـ أوّل الفائزين، وأعظم الرابحين بمرضاة الله تعالى، فقد سايرت الحقّ منذ نعومة أظفارك، فلم تداهن في دينك، ولم تؤثر رضا أحد على طاعة الله، قد جاهدت وناضلت من أجل أن تعلو كلمة الله في الأرض، ووقيت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله بنفسك ومهجتك.

لقد فُزْت، وانتصرت مبادؤك، وبقيت أنت وحدك حديث الدهر بما تركته من سيرة مشرقة أضاءت سماء الدنيا، وغذّت الأجيال بجوهر الحقّ والعدل.

وخفّ الناس مسرعين إلى الجامع حينما أُذيع مقتل الإمام أميرالمؤمنين عليه‌السلام فوجدوه طريحاً في محرابه وهو يلهج بذكر الله قد نزف دمه، ثمّ حمل إلى داره والناس تعجّ بالبكاء، وهم يهتفون بذوب الروح: قتل إمام الحق والعدل، قُتل أبو الضعفاء وأخو الغرباء.

واستقبلته عائلته بالصراخ، فأمرهم عليه‌السلام بالخلود إلى الصبر، واغرورقت عينا الإمام الحسن عليه‌السلام بالبكاء، فالتفت إليه الإمام أميرالمؤمنين عليه‌السلام قائلاً: **يا بُنَيَّ، لَا تَبْكِ فَأَنْتَ تُقْتَلُ بِالسُّمِّ، وَيُقْتَلُ أَخوكَ الْحُسَيْنُ بِالسَّيْفِ**[٣].

---

(٢) شرح الأخبار: ٢: ٤٤٢. بحار الأنوار: ٤١: ٢. أنساب الأشراف: ٣: ٢٥٩. تاريخ مدينة دمشق: ٤٢: ٥٦١. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٩: ٢٠٧.

(٣) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما‌السلام: ١: ٥١٣.

وتحقق تنبؤ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ، فلم تمضِ حفنة من السنين وإذا بالإمام الحسن عليه السلام اغتاله معاوية بالسمّ ، فذابت أحشاؤه ، وأمّا الإمام الحسين عليه السلام فتناهبت جسمه السيوف والرماح ، وتقطّعت أوصاله على صعيد كربلاء .

ويقول المؤرخون : إنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن حاضراً بالكوفة حينما اغتيل أبوه ، وإنّما كان في معسكر النخيلة قائداً لفرقة من الجيش الذي أعدّه لمناجزة معاوية ، وقد أرسل إليه الإمام الحسن عليه السلام رسولاً يعرّفه بما جرى على أبيه ، فقفل راجعاً إلى الكوفة ، وهو غارق بالأسى والشجون ، فوجد أباه على حافّة الموت ، فألقى بنفسه عليه يوسعه تقبيلاً ودموعه تتبلور على خدّيه(١) .

وأخذ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام العظيم يوصي أولاده بالمُثُل الكريمة والقيم الإنسانية ، وعهد إليهم ألّا يقتلوا غير قاتله ، وألّا يتخذوا من قتله سبباً لإثارة الفتنة وإراقة الدماء بين المسلمين كما فعل بنو أُمية حينما قتل عميدهم عثمان(٢) .

إلى الرفيق الأعلى

وأخذ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يعاني آلام الاحتضار وهو يتلو آيات الذكر الحكيم ، وكان آخر ما نطق به قوله تعالى : ﴿ **لِمِثْلِ هَذا فَلْيَعْمَلِ العامِلُونَ** ﴾(٣) ، ثمّ فاضت روحه الزكية تحفّها ملائكة الرحمن ، فمادت أركان العدل في الأرض ، وانطمست معالم الدين ، لقد مات ملاذ المنكوبين والمحرومين ، الذي جهد نفسه أن يقيم في ربوع هذا الكون دولة تكتسح الأثرة والاستغلال ، وتقيم العدل والحق بين الناس .

وقام سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله بتجهيز أبيهما ، فغسّلا جسده الطاهر ، وأدرجاه في

---

(١) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام : ٢ : ٧٧ .

(٢) كشف الغمّة : ١ : ٤١١ ـ ٤١٣ . مقاتل الطالبيّين : ٥١ ـ ٥٣ .

(٣) الصافّات ٣٧ : ٦١ .

أكفانه، وفي الهزيع الأخير من الليل حملوه إلى مقرّه الأخير، فدفنوه في النجف الأشرف، وقد واروا معه العدالة الاجتماعية، والقيم الإنسانية.

ويقول المؤرخون: إنّ معاوية لمّا وافاه النبأ بمقتل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فرح، واتخذ يوم قتله عيداً رسمياً في دمشق، فقد تمّت بوارق آماله، وتمّ له اتخاذ الملك وسيلة لاستعباد المسلمين وإرغامهم على ما يكرهون.

متارك حكومة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

وتركت حكومته آثاراً بالغة الأهمية والخطورة في المجتمع الإسلامي، ولعلّ من أهمها ما يلي:

أوّلاً: إنّها أبرزت الواقع الإسلامي بجميع طاقاته في عالم السياسة والحكم، فقد كان الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يهدف في حكمه إلى إزالة الفوارق الاجتماعية بين الناس، وتحقيق الفرص المتكافئة بينهم على اختلاف قومياتهم وأديانهم، ومعاملة جميع الطوائف بروح المساواة والعدالة فيما بينهم من دون أن تتمتّع أيّة طائفة بامتياز خاص. وقد أوجدت سياسة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام هذه رصيداً شعبياً هائلاً، فقد ظلّ عليٌّ قائماً في قلوب الجماهير الشعبية بما تركه من صنوف العدل والمساواة، وقد هام بحبه الأحرار، ونظروا إليه كأعظم مصلح اجتماعي في الأرض، وقدّموه على جميع أعلام تلك العصور.

يقول أيمن بن خُريم الأسدي مخاطباً بني هاشم وعلى رأسهم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

نَهارُكُمُ مُكابَدَةٌ وَصَوْمٌ ... وَلَيْلُكُمُ صَلاَةٌ وَاقْتِراءُ
وَلِيتُمْ بِالْقُرانِ وَبِالتَّزَكّي ... فَأَسْرَعَ فِيكُمُ ذاكَ الْبَلاءُ
بَكىٰ نَجْدٌ غَداةَ غَدٍ عَلَيكُمُ ... وَمَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَالْجِواءُ

وَحَقَّ لِكُلِّ أَرْضٍ فارَقُوها عَلَيكُمْ لَا أَبا لَكُمُ الْبُكاءُ
أَأَجْعَلُكُمْ وَأقواماً سَواءً وَبَينَكُمْ وَبَينَهُمُ الهَواءُ
وَهُمْ أَرضٌ لِأَرْجُلِكُمْ وَأَنتُمْ لِأَرؤُسِهِمْ وَأَعيُنِهمْ سَماءُ[(١)]

ثانياً: إنّ مبادئ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وآراءه النيّرة ظلّت تطارد الأُمويين وتلاحقهم في قصورهم فكانوا ينظرون إليها شبحاً مخيفاً يهدد سلطانهم، ممّا جعلهم يفرضون سبَّه على المنابر للحطّ من شأنه، وصرف الناس عن قيمه ومبادئه.

ثالثاً: أنّ حكومة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام التي رفعت شعار العدالة الاجتماعية الكبرى قد جرّت لأبنائه كثيراً من المشاكل والمصاعب، وألحقت بهم التنكيل والقتل من حكام عصرهم، وقد تنبأ النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله بذلك.

فقد روى أبو جعفر الإسكافي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله دخل على فاطمة فوجد علياً نائماً فذهبت لتوقظه، فقال صلى الله عليه وآله: **دَعِيهِ، فَرُبَّ سَهَرٍ لَهُ بَعْدِي طَوِيلٌ، وَرُبَّ جَفْوَةٍ لِأَهلِ بَيْتِي مِنْ أَجْلِهِ** فبكت فاطمة، فقال لها: **لَا تَبْكِي فَإِنَّهُ مَعَي، وَفِي مَوْقِفِ الْكَرامَةِ عِنْدِي**[(٢)].

لقد أمعن الحكم الأُموي والعباسي في ظلم أبناء الإمام علي عليه السلام؛ لأنّهم تبنّوا حقوق المظلومين والمضطهدين، وتبنّوا المبادئ العليا التي رفع شعارها الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، فناضلوا أشدّ ما يكون النضال في سبيل تحقيقها على مسرح الحياة.

وكان من أشدّ أبناء الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حماساً واندفاعاً في حماية مبادئ أبيه الإمام الحسين عليه السلام، فقد انطلق إلى ساحات الجهاد عازماً على الموت آيساً من الحياة ليحمي مبادئ جده وأبيه، ويرفع راية الإسلام عالية خفّاقة، وينكّس أعلام الشرك

---

(١) الأغاني: ٢٠: ٢٣٩ و ٢٤٠.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٤: ١٠٧.

والإلحاد ، ويحطّم قيود العبودية والذلّ .

رابعاً : وأوجد الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في أثناء حكمه القصير وعياً أصيلاً في مقارعة الظلم ، ومناهضة الجور ، فقد هبَّ في وجه الحكم الأُموي أعلام أصحابه كحُجْربن عدي ، وعمرو بن الحَمِق الخزاعي ، وعبد الله بن عفيف الأزدي ، وأمثالهم من الذين تربّوا بهداه ، فدوّخوا أُولئك الظالمين بثورات متلاحقة أطاحت بزهوهم وجبروتهم ، لقد كان حكمه حقاً مدرسة للنضال والثورة ، ومدرسة لبثّ الوعي الديني والإدراك الاجتماعي . وبهذا ينتهي بنا الحديث عن مخلّفات حكومته عليه السلام .

خلافة الإمام الحسن عليه السلام

وتقلّد الإمام الحسن عليه السلام أزمّة الخلافة الإسلاميّة بعد أبيه ، فتسلّم قيادة حكومة شكلية عصفت بها الفتن ، ومزّقت جيشها الحروب والأحزاب ، ولم تعد هناك أيّة قاعدة شعبية تستند إليها الدولة ، فقد كان الاتجاه العام الذي يمثله الوجوه والأشراف مع معاوية ، فقد كانوا على اتصال وثيق به قبل مقتل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وبعده ، كما كان لهم الدور الكبير في إفساد جيشه حينما مُني جيش معاوية بالهزيمة والفرار .

وعلى أيّة حال فإنّ الإمام الحسن عليه السلام بعد أن تقلد الخلافة أخذ يتهيّأ للحرب ، وقد أمر بعقد اجتماع عام في جامع الكوفة ، وقد حضرته القوات المسلحة وغيرها ، فألقى خطاباً رائعاً ومؤثراً دعا فيه إلى تلاحم القوى ووحدة الصف ، وحذّر فيه من الدعايات التي تبثّها أجهزة الحكم الأُموي ، ثمّ ندب الناس لحرب معاوية ، فلمّا سمعوا ذلك وجلت قلوبهم وكمّت أفواههم ، ولم يستجب منهم أحد سوى البطل الملهم حُجْر بن عدي فانبرى يعلن دعمه الكامل له ، ووجّه أعنف اللوم والتقريع لأهل الكوفة على موقفهم الانهزامي . واستبان للإمام الحسن عليه السلام وغيره أنّ جيشه لا يريد الحرب ، فقد خلع يد الطاعة ، وانساب في ميادين العصيان والتمرد .

وبعد جهود مكثّفة قام بها بعض المخلصين له نفر للحرب أخلاط من الناس ـ على حدّ تعبير الشيخ المفيد[١] ـ كان أكثرهم من الخوارج ، والشكّاكين ، وذوي الأطماع ، وهذه العناصر لم تؤمن بقضية الإمام عليه السلام ، وقد تطعّمت بالخيانة والغدر.

ويقول الرواة : إنّ الإمام الحسن عليه السلام أسند قيادة مقدمة جيشه لعبيد الله بن العباس الذي وتره معاوية بابنيه ؛ ليكون ذلك داعية إخلاص له ، وحينما التقى جيشه بجيش معاوية ، مدّ إليه معاوية أسلاك مكره ، فمنّاه بمليون درهم يدفع نصفه في الوقت والنصف الآخر إذا التحق به[٢] ، وسال لعاب عبيد الله فاستجاب لدنيا معاوية ومال عن الحق فالتحق بمعسكر الظلم والجور ومعه ثمانية آلاف من الجيش[٣] غير حافل بالخيانة والعار ، ولا بالأضرار الفظيعة التي ألحقها بجيش ابن عمه ، فقد تفلّلت جميع وحداته وقواعده.

ولم تقتصر الخيانة على عبيد الله بن العباس ، وإنّما خان غيره من كبار قادة ذلك الجيش ، فالتحقوا بمعاوية ، وتركوا الإمام الحسن عليه السلام في أرباض ذلك الجيش المنهزم يصعّد آهاته وآلامه.

ولم تقتصر محنة الإمام الحسن عليه السلام وبلاؤه في جيشه على خيانة قادة فرقه ، وإنّما تجاوز بلاؤه إلى ما هو أعظم من ذلك ، فقد قامت فصائل من ذلك الجيش بأعمال رهيبة بالغة الخطورة ، وهي :

أوّلاً : الاعتداء على الإمام الحسن عليه السلام

وقام الرجس الخبيث الجرّاح بن سنان بالاعتداء عليه فطعنه في فخذه بمِغْول[٤]

---

(١) الإرشاد / المفيد : ٢ : ١٠.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١٦ : ٤٢.

(٣) تاريخ اليعقوبي : ٢ : ١٢١ و ١٢٢.

(٤) **المِغول** : آلة تشبه السيف ـ لسان العرب : ١٠ : ١٤٨ و ١٤٩ ـ غول.

فهوى الإمام الحسن عليه السلام جريحاً، وحُمِل إلى المدائن لمعالجة جرحه[١].

وطعنه شخص آخر بخنجر في أثناء الصلاة، كما رماه شخص بسهم في أثناء الصلاة إلّا أنّه لم يؤثّر فيه شيئاً[٢].

وأيقن الإمام الحسن عليه السلام أنّ أهل الكوفة جادّون في قتله واغتياله.

ثانياً: الحكم عليه بالكفر

وأُصيب ذلك الجيش بدينه وعقيدته فقد رموا حفيد نبيهم صلى الله عليه وآله وريحانته بالكفر والمروق من الدين، فقد جابهه الجرّاح بن سنان رافعاً عقيرته قائلاً: أشركت يا حسن كما أشرك أبوك[٣].

وكان هذا رأي جميع الخوارج الذين كانوا يمثّلون الأكثرية الساحقة في ذلك الجيش.

ثالثاً: الخيانة العظمى

والخيانة العظمى التي قام بها بعض زعماء ذلك الجيش أنّهم راسلوا معاوية، وضمنوا له تسليم الإمام الحسن عليه السلام أسيراً، أو اغتياله متى رغب وشاء[٤]، وأقضّ ذلك مضجعه فخاف أن يؤسر ويسلّم إلى معاوية فَيَمُنَّ عليه، ويسجّل بذلك يداً لبني أُمية على الأُسرة النبوية، كما كان عليه السلام يتحدث بذلك بعد إبرام الصلح.

---

(١) الإرشاد / المفيد: ٢: ١٢.

(٢) حياة الإمام الحسن بن علي عليهما السلام: ٢: ١٠٢ ـ ١٠٥.

(٣) الإرشاد / المفيد: ٢: ١٢. حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام: ٢: ١٠٣. الأخبار الطوال: ٢١٧. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١٥: ٤١.

(٤) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام: ٢: ١٠٠. تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٤٠٦. تذكرة الخواص: ١٧٩.

رابعاً: نهب أمتعة الإمام الحسن عليه السلام

وعمد أجلاف أهل الكوفة إلى نهب أمتعة الإمام الحسن عليه السلام وأجهزته، فنزعوا بساطاً كان جالساً عليه كما سلبوا منه رداءه[١].

هذه بعض الأحداث الرهيبة التي قام بها ذلك الجيش الذي تمرّس في الخيانة والغدر.

الصلح بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية

ووقف الإمام الحسن عليه السلام من هذه الفتن السود موقف الحازم اليقظ الذي تمثّلت فيه الحكمة بجميع رحابها ومفاهيمها، فرأى أنّه أمام أمرين:

الأوّل: أن يفتح باب الحرب مع معاوية، وهو على يقين لا يخامره أدنى شكّ أنّ الغلبة ستكون لمعاوية، فأمّا أن يقتل هو وأصحابه وأهل بيته الذين يمثّلون القيم الإسلامية، ويخسر الإسلام بتضحيتهم قادته ودعاته من دون أن تستفيد القضية الإسلامية أيّ شيء، فإنّ معاوية بحسب قابلياته الدبلوماسية يحمّل مسؤولية ذلك على الإمام الحسن عليه السلام ويلقي على تضحيته ألف حجاب، أو أنّه يؤسر فيَمُنَّ عليه معاوية فتكون سُبّة على بني هاشم وفخراً لبني أُمية.

الثاني: أن يصالح معاوية فيحفظ للإسلام رجاله ودعاته، ويبرز في صلحه واقع معاوية، ويكشف عنه ذلك الستار الصفيق الذي تستّر به، وقد اختار عليه السلام هذا الأمر على ما فيه من قذىً في العين وشجاً في الحلق.

ويقول المؤرخون: إنّه جمع جيشه فعرض عليهم الحرب أو السلم فتعالت الأصوات من كل جانب وهم ينادون: البقية البقية[٢].

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢: ١٢٢. تاريخ مدينة دمشق: ١٣: ٢٦٤.

(٢) حماة الإسلام: ١: ١٢٣. المجتبى / ابن دريد: ٣٦.

لقد استجابوا للذل ، ورضوا بالهوان ، ومالوا عن الحق ، وقد أيقن الإمام الحسن عليه السلام أنّهم قد فقدوا الشعور والإحساس ، وأنّه ليس بالمستطاع أن يحملهم على الطاعة ويكرههم على الحرب ، فاستجاب ـ على كره ومرارة ـ إلى الصلح .

لقد كان الصلح أمراً ضرورياً يحتمه الشرع ، ويلزم به العقل ، وتقضي به الظروف الاجتماعية الملبّدة بالمشاكل السياسية ، فإنّ من المؤكد أنّه لو فتح باب الحرب لمُني جيشه بالهزيمة ، ومُنيت الأُمة من جرّاء ذلك بكارثة لا حدّ لأبعادها .

أمّا كيفية الصلح وشروطه وأسبابه وزيف الناقدين له ، فقد تحدثنا عنها بالتفصيل في كتابنا (حياة الإمام الحسن بن علي عليهما السلام) .

موقف الإمام الحسين عليه السلام

والشيء المحقق أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد تجاوب فكرياً مع أخيه في أمر الصلح ، وأنّه تمّ باتفاق بينهما ، فقد كانت الأوضاع الراهنة تقضي بضرورته ، وأنّه لابُدَّ منه ، وهناك بعض الروايات الموضوعة تعاكس ما ذكرناه ، وأنّ الإمام الحسين عليه السلام كان كارهاً للصلح ، وقد همّ أن يعارضه فأنذره أخوه بأن يقذفه في بيتٍ فيطينه عليه حتّى يتمَّ أمر الصلح ، فرأى أنّ من الوفاء لأخيه أن يطيعه ولا يخالف له أمراً ، فأجابه إلى ذلك ، وقد دللنا على افتعال ذلك ، وعدم صحته إطلاقاً في كتابنا (حياة الإمام الحسن بن علي عليهما السلام)[١] .

حُجْر بن عدي مع الإمام الحسين عليه السلام

ولمّا أبرم أمر الصلح خفّ حُجْر بن عدي ومعه عبيدة بن عمر إلى الإمام الحسين عليه السلام وقلبه يلتهب ناراً فدعاه إلى إثارة الحرب ، قائلاً : يا أبا عبد الله ، شريتم

---

(١) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام : ٢ : ٢٤١ ـ ٢٤٤ .

الذلّ بالعز، وقبلتم القليل، وتركتم الكثير، أطعنا اليوم، واعصنا الدهر، دع الحسن وما رأى من هذا الصلح، واجمع إليك شيعتك من أهل الكوفة وغيرها وولني وصاحبي هذه المقدمة، فلا يشعر ابن هند إلّا ونحن نقارعه بالسيوف.

فقال الحسين عليه السلام: **إنّا قَدْ بايَعْنا وَعاهَدْنا، وَلَا سَبِيلَ لِنَقْضِ بَيْعَتِنا** [١].

ولو كان الحسين عليه السلام يرى مجالاً للتغلب على الأحداث لخاض الحرب وناجز معاوية، ولكن قد سدّت عليه وعلى أخيه جميع النوافذ والسبل، فرأوا إنّه لا طريق لهم إلّا الصلح.

تحوّل الخلافة

وتحوّلت الخلافة الإسلامية من طاقتها الأصيلة ومفاهيمها البناءة إلى ملك عضوض مستبد لا ظلّ فيه للعدل، ولا شبح فيه للحق، قد تسلّطت الطغمة الحاكمة من بني أُمية على الأُمة وهي تمعن في إذلالها ونهب ثرواتها، وإرغامها على العبودية.

يقول بعض الكتّاب: «ونجم عن زوال الخلافة الراشدة وانتقال الخلافة إلى بني أُمية نتائج كبيرة، فقد انتصرت أُسرة بني أُمية على الأُسرة الهاشمية، وهذا كان معناه انتصار الأرستقراطية القرشية وأصحاب رؤوس المال والمضاربات التجارية على أصحاب المبادئ والمثل، لقد كان نصر معاوية هزيمة لكل الجهود التي بذلت للحدّ من طغيان الرأسمالية القرشية، هزيمة لحلف الفضول، وهزيمة للدوافع المباشرة لقيام الإسلام وحربه على الاستغلال والظلم، هزيمة للمثل والمبادئ، ونجاح للحنكة والسياسة المدعومة بالتجربة والمال، ولقد كان لهذه الهزيمة وقع مفجع على الإسلام وأجيال المسلمين».

---

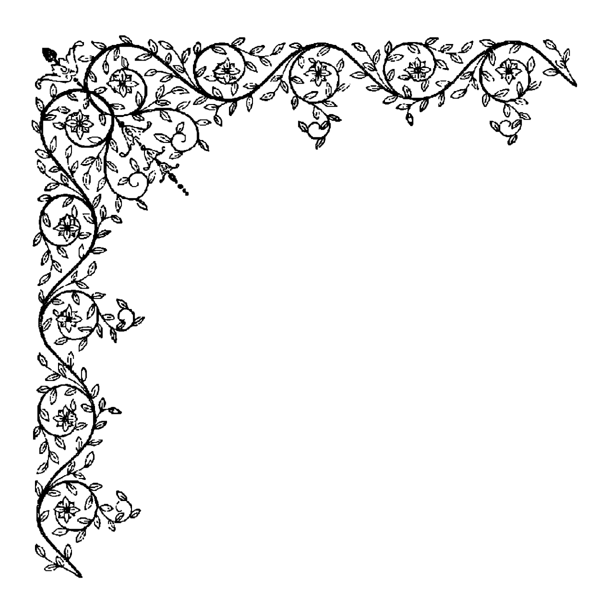
(١) الأخبار الطوال: ٢٢٠.

ويقول نيكلسون : « واعتبر المسلمون انتصار بني أُمية وعلى رأسها معاوية انتصاراً للأرستقراطية الوثنية التي ناصبت الرسول وأصحابه العداء ، والتي جاهدها رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى قضى عليها ، وصبر معه المسلمون على جهادها ومقاومتها حتّى نصرهم الله ، وأقاموا على أنقاضها دعائم الإسلام ذلك الدين السمح الذي جعل الناس سواسية في السرّاء والضرّاء ، وأزال سيادة رهط كانوا يحتقرون الفقراء ، ويستذلّون الضعفاء ، ويبتزّون الأموال » .

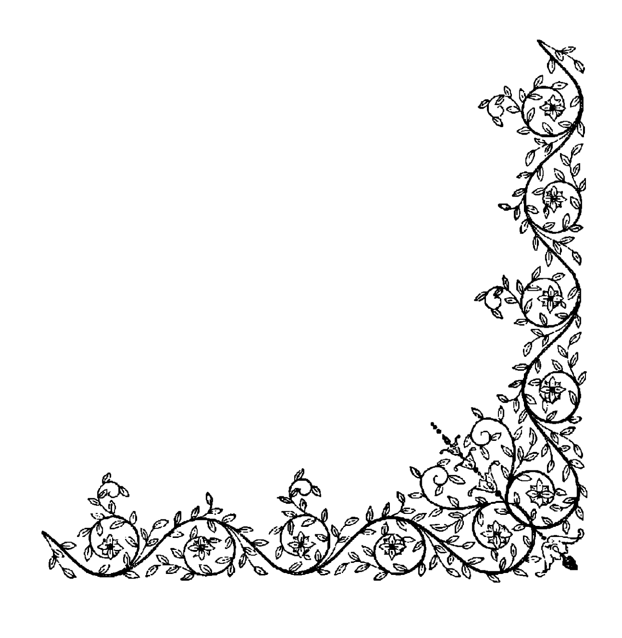
وعلى أيّة حال ، فقد فجع العالم الإسلامي ـ بعد الصلح ـ بكارثة كبرى فخرج من عالم الدعة والأمن والاستقرار إلى عالم مليء بالظلم والجور ، فقد أسرع الأُمويون بعد أن استتب لهم الأمر إلى الاستبداد بشؤون المسلمين ، وإرغامهم على ما يكرهون .

وعانى الكوفيون من الظلم ما لم يعانه غيرهم ، فقد أخذت السلطة تحاسبهم حساباً عسيراً على وقوفهم مع الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في أيام صفين ، وعهدت في شؤونهم إلى الجلّادين أمثال المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه فصبّوا عليهم وابلاً من العذاب الأليم ، وأخذ الكوفيون يندبون حظهم التعيس على ما اقترفوه من عظيم الأثم في خذلانهم للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وولده الحسن عليه السلام ، وجعلوا يلحّون على الإمام الحسين عليه السلام بوفودهم ورسائلهم لينقذهم من ظلم الأُمويين وجورهم ، إلّا أنّ من المدهش حقاً أنّه لمّا استجاب لهم شهروا في وجهه السيوف ، وقطّعوا أوصاله وأوصال أبنائه على صعيد كربلاء !!

وبهذا ينتهي بنا المطاف عن أفول دولة الحق .



حُكُومَةُ مُعَاوِيَة



واستقبل المسلمون حكومة معاوية ـ بعد الصلح ـ بكثير من الذعر والفزع والخوف ، فقد عرفوا واقع معاوية ، ووقفوا على اتجاهاته الفكرية والعقائدية ، فخافوه على دينهم ، وعلى نفوسهم وأموالهم ، وقد وقع ما خافوه ، فإنّه لم يكد يستولي على رقاع الدولة الإسلامية حتّى أشاع الظلم والجور والفساد في الأرض. ويقول المؤرخون : إنّه ساس المسلمين سياسة لم يألفوها من قبل ، فكانت سياسته تحمل شارات الموت والدمار ، كما كانت تحمل معول الهدم على جميع القيم الأخلاقية والإنسانية ، وقد انتعشت في عهده الوثنية بجميع مساوئها التي نفر منها الناس.

يقول السيد مير علي الهندي : « ومع ارتقاء معاوية الخلافة في الشام عاد حكم التوليغارشية الوثنية السابقة ، فاحتل موقع ديمقراطية الإسلام ، وانتعشت الوثنية بكل ما يرافقها من خلاعات ، وكأنّها بعثت من جديد ، كما وجدت الرذيلة والتبذّل الخلقي لنفسها متّسعاً في كل مكان ارتادته رايات حكّام الأُمويين من قادة جند الشام »[١].

والشيء المؤكد أنّ حكومة معاوية لم تستند إلى رضى الأُمة أو مشورتها ، وإنّما فرضت عليها بقوة السلاح ، وقد اعترف معاوية بذلك اعترافاً رسمياً بتصريح أدلى به

---

(١) روح الإسلام : ٢٩٦.

أمام جمهور غفير من الناس ، فقال : والله ما وليتها ـ أي الخلافة ـ بمحبّة علمتها منكم ولا مسرّة بولايتي ، ولكن جالدتكم بسيفي هـذا مـجالدة ، فـإن لم تـجدوني أُقـوّم مجتمعكم كله فاقبلوا مني بعضه[١] .

ولمّا وقعت الأُمة فريسة تحت أنيابه ـ بعد الصلح ـ خطب في (النخيلة) خطاباً قاسياً أعلن فيه عن جبروته وطغيانه على الأُمة واستهانته بحقوقها ، فقد جاء فيه : « والله إنّي ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ، ولا لتحجوا ولا لتزكّوا ، إنّكـم لتـفعلون ذلك ، وإنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم ، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون »[٢] .

ومثّل هذا الخطاب الاتجاهات الشرّيرة التي يحملها معاوية ، فمن أجل الإمـرة والسيطرة على العباد أراق دماء المسلمين ، وأشاع في بيوتهم الثكل والحزن والحداد .

ولابدّ لنا من دراسة موجزة للمخططات السياسية التـي تـبنتها حكـومة مـعاوية وما رافقها من الأحداث الجسام ، فإنّها ـ فيما نعتقد ـ من أهم الأسباب في ثورة الإمام الحسين عليه السلام ، فقد رأى ما مُني به المسلمون في هذا العهد من الحرمان والاضطهاد ، وما أُصيبوا به من الانحراف والتذبذب من جرّاء النقائص الاجتماعية التي أوجدها الحكم الأُموي ، فهبّ ـ سلام الله عليه ـ بعد هلاك معاوية إلى تفجير ثورته الكبرى التي أدَّت إلى إيقاظ الوعي الاجتماعي الذي اكتسح الحكم الأُموي وأزال جـميع معالمه وآثاره . وهذه بعض معالم سياسة معاوية .

سياسته الاقتصاديّة

ولم تكن لمعاوية أيّة سياسة اقتصادية في المال حسب المعنى المصطلح لهذه

---

(١) العقد الفريد : ٤ : ٨١ و ٨٢ .

(٢) بحار الأنوار : ٤٤ : ٥٣ . حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام : ٢ : ٢٥٤ . شرح نهج البلاغة : ١٦ : ٤٦ . سير أعلام النبلاء : ٣ : ٤٦ ـ ١٤٧ .

الكلمة، وإنّما كان تصرّفه في جباية الأموال وإنفاقها خاضعاً لرغباته وأهوائه فهو يهب الثراء العريض للقوى المؤيدة له، ويحرم العطاء للمعارضين له، ويأخذ الأموال ويفرض الضرائب كل ذلك بغير حق.

إنّ من المقطوع به أنّه لم يعد في حكومة معاوية أيّ ظل للاقتصاد الإسلامي الذي عالج القضايا الاقتصادية بأروع الوسائل وأعمقها، فقد عنى بزيادة الدخل الفردي، ومكافحة البطالة، وإذابة الفقر، واعتبر مال الدولة ملكاً للشعب يصرف على تطوير وسائل حياته، وازدهار رخائه، ولكن معاوية قد أشاع الفقر والحاجة عند الأكثرية الساحقة من الشعب، وأوجد الرأسمالية عند فئة قليلة راحت تتحكم في مصير الناس وشؤونهم: وهذه بعض الخطوط الرئيسية في سياسته الاقتصادية:

الحرمان الاقتصادي

وأشاع معاوية الحرمان الاقتصادي في بعض الأقطار التي كانت تضم الجبهة المعارضة له، فنشر فيها البؤس والحاجة حتّى لا تتمكن من القيام بأيّة معارضة له، وهذه بعض المناطق التي قابلها بالاضطهاد والحرمان:

الأُولى: يثرب

وسعى معاوية لإضعاف يثرب، فلم ينفق على المدنيّين أيّ شيء من المال، وجهد على فقرهم وحرمانهم؛ لأنّهم من معاقل المعارضة لحكمه، وفيهم كثير من الشخصيات الحاقدة على الأُسرة الأُموية والطامعة في الحكم، ويقول المؤرخون: إنّه أجبرهم على بيع أملاكهم فاشتراها بأبخس الأثمان، وقد أرسل القيِّم على أملاكه لتحصيل وارداتها، فمنعوه عنها، وقابلوا حاكمهم عثمان بن محمّد، وقالوا له: إنّ هذه الأموال لنا كلّها، وإنّ معاوية آثر علينا في عطائنا، ولم يعطنا درهماً فما فوقه حتّى مضّنا الزمان ونالتنا المجاعة، فاشتراها بجزء من مائة من ثمنها، فردَّ عليهم

حاكم المدينة بأقسى القول وأمرِّه.

ووفد على معاوية الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري فلم يأذن له تحقيراً وتوهيناً له فانصرف عنه، فوجَّه له معاوية بستمائة درهم فردَّها جابر وكتب إليه:

وَإِنِّي لَأَختارُ القُنوعَ عَلَى الغِنَى ... إِذَا اجتَمَعا والماءُ بِالبارِدِ المَحْضِ
وَأَقضِي عَلى نَفسِي إِذَا الأَمْرُ نابَني ... وَفِي النّاسِ مَن يُقضىٰ عَلَيهِ وَلَا يَقْضِي
وَألبسُ أثْوابَ الحَياءِ وَقَدْ أرىٰ ... مَكانَ الغِنَى أَلَّا أُهينَ لَهُ عِرضِي

وقال لرسول معاوية: قل له: والله يابن آكلة الأكباد لا تجد في صحيفتك حسنة أنا سببها أبداً.

وانتشر الفقر في بيوت الأنصار، وخيَّم عليهم البؤس حتّى لم يتمكن الرجل منهم من شراء راحلة يستعين بها على شؤونه.

ولمّا حجَّ معاوية واجتاز على يثرب استقبله الناس، ومنهم الأنصار وكان أكثرهم مشاة، فقال لهم: ما منعكم من تلقيَّ كما يتلقاني الناس ؟!

فقال له سعيد بن سعد بن عبادة: منعنا من ذلك قِلّة الظهر، وخِفّة ذات اليد بإلحاح الزمان علينا، وإيثارك بمعروفك غيرنا.

فقال له معاوية باستهزاء وسخرية: أين أنتم عن نواضح المدينة ؟

فسدد له سعيد سهماً من منطقه الفيّاض قائلاً: نحرناها يوم بدر، يوم قتلنا حنظلة بن أبي سفيان[١].

لقد قضت سياسة معاوية بنشر المجاعة في يثرب، وحرمان أهلها من الصلة والعطاء.

---

(١) الاحتجاج: ٢: ٨١. أنساب الأشراف: ٥: ١٢٤.

يقول عبد الله بن عباس في رسالته إلى يزيد: «فلعمري ما تؤتينا ممّا في يدك من حقنا إلّا القليل، وإنّك لتحبس عنّا منه العريض»[١].

وقد أوعز معاوية إلى الحكومة المركزية في يثرب برفع أسعار المواد الغذائية فيها حتّى تعمّ فيها المجاعة، وقد ألمع إلى ذلك يزيد في رسالته التي بعثها للمدنيّين ووعدهم فيها بالإحسان إن خضعوا لسلطانه، وقد جاء فيها: «ولهم عليَّ عهد أن أجعل الحنطة كسعر الحنطة عندنا، والعطاء الذي يذكرون أنّه احتبس عنهم في زمان معاوية فهو عليَّ لهم وفراً كاملاً»[٢].

وقد جعل معاوية الولاة على الحجاز تارةً مروان بن الحكم، وأُخرى سعيد بن العاص، وكان يعزل الأوّل ويولّي الثاني، وقد جهدا في إذلال أهل المدينة وفقرهم.

الثانية: العراق

أمّا العراق فقد قابله معاوية بالمزيد من العقوبات الاقتصادية باعتباره المركز الرئيسي للمعارضة، والقطر الوحيد الساخط على حكومته، وكان قد عهد بولايته وحكمه إلى الانتهازي المعروف المغيرة بن شعبة، فأخذ يحبس العطاء والأرزاق عن أهل الكوفة، وقد سار حكّام الأُمويين من بعد معاوية على هذه السيرة في اضطهاد العراق وحرمان أهله، فإنّ عمر بن عبد العزيز أعدلهم لم يساوِ بين العراقيّين والشاميّين في العطاء، فقد زاد في عطاء الشاميّين عشرة دنانير، ولم يزد في عطاء أهل العراق[٣].

لقد عانى العراق في عهد الحكم الأُموي أشدّ ألوان الضيق ممّا جعل العراقيّين

---

(١) بحار الأنوار: ٤٥: ٣٢٣. تاريخ اليعقوبي: ٢: ١٦٢.

(٢) الإمامة والسياسة: ١: ٢٠٧.

(٣) العقد الفريد: ٤: ٢٥٩.

يقومون بثورات متّصلة ضد حكمهم.

الثالثة: مصر

ونالت مصر المزيد من الاضطهاد الاقتصادي، فقد كتب معاوية إلى عامله: «أن زد على كل امرئ من القبط قيراطاً»، فأنكر عليه عامله، وكتب إليه: «كيف أزيد عليهم وفي عهدهم ألّا يزاد عليهم؟!»[١].

وشمل الضيق الاقتصادي سائر الأقطار الإسلامية ليشغلها عن معارضة حكمه.

الرفاه على الشام

وبينما كانت البلاد الإسلامية تعاني الجهد والحرمان نجد الشام في رخاء شامل وأسعار موادها الغذائية منخفضة جداً؛ لأنّها أخلصت للبيت الأُموي، وعملت على تدعيم حكمه، فكان الرفاه فيها شائعاً، أمّا ما يؤيد ذلك فهو رسالة يزيد التي ذكرناها قبل قليل.

وقد حملوا أهل الشام على رقاب الناس كما أشار إلى ذلك مالك بن هبيرة في حديثه مع الحصين بن نمير، يقول له: هلمّ فلنبايع لهذا الغلام ـ أي خالد بن يزيد ـ الذي نحن ولدنا أباه وهو ابن أُختنا، فقد عرفت منزلتنا من أبيه، فإنّه كان يحملنا على رقاب العرب[٢].

استخدام المال في تدعيم ملكه

واستخدم معاوية الخزينة المركزية لتدعيم ملكه وسلطانه، واتخذ المال سلاحاً يمكنه من قيادة الأُمة ورئاسة الدولة، وكان يقول: والله لأستميلنّ بالأموال ثقات

---

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ١: ٣٠٢. فتوح البلدان: ٢١٩.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٥: ٥١ و ٥٢.

عليّ ، ولأقسمنّ فيهم المال حتّى تغلب دنياي آخرته[١] .

يقول السيد مير علي الهندي : « وكانت الثروات التي جمعها معاوية من عمّاله على الشام يبذّرها هو وبطانته على جنوده المرتزقة الذين ساعدوه بدورهم على وإسكات كلّ همسة ضدهم . . . »[٢] .

وكانت هذه السياسة غريبة على المسلمين لم يفكّر فيها أحد من الخلفاء السابقين ، وقد سار عليها من جاء بعده من خلفاء الأُمويين ، فاتخذوا المال وسيلة لدعم سلطانهم .

يقول الدكتور محمّد مصطفى : « وكان من عناصر سياسة الأُمويين استخدام المال سلاحاً للإرهاب ، وأداة للتقريب ، فحرموا منه فئة من الناس ، وأغدقوه أضعافاً مضاعفة لطائفة أُخرى ثمناً لضمائرهم ، وضماناً لصمتهم »[٣] .

وجعل شكري فيصل المال أحد العاملَين الأساسيَّين اللذين خضع لهما المجتمع الإسلامي خضوعاً عجيباً ، وكان من جملة الأسباب في فتن السياسة ، وسيطرة الطبقة الحاكمة من قريش ، كما إنّه أحد الأسباب في وقوع الخلاف ما بين العرب والعجم بل وما بين العرب أنفسهم[٤] .

المِنَح الهائلة لأُسرته

ومنح معاوية الأموال الهائلة لأُسرته ، فوهبهم الثراء العريض[٥] ؛ وذلك لتقوية

(١) الغدير : ١٠ : ٦٢ . وقعة صفّين : ٤٣٦ . شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٨ : ٧٧ .

(٢) روح الإسلام : ٢٩٦ .

(٣) اتّجاهات الشعر العربي : ٢٧ .

(٤) المجتمعات الإسلاميّة في القرن الأوّل : ٥٠ .

(٥) الفخري : ١٤٥ .

مركزهم، وبسط نفوذهم على العالم الإسلامي، في حين أشاع البؤس والحرمان عند أغلب فئات الشعب.

مَنْح خراج مصر لعمرو

ووهب معاوية خراج مصر لابن العاص، وجعله طعمة له ما دام حيّاً[١]؛ وذلك لتعاونه معه على مناجزة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام رائد الحق والعدالة في الأرض، وقد أشرنا إلى تفصيل ذلك في البحوث السابقة.

هبات الأموال للمؤيدين

وأغدق معاوية الأموال الهائلة على المؤيدين له والمنحرفين عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، وقد أسرف في ذلك إلى حدّ بعيد. ويقول الرواة: إنّ يزيد بن مُنْية قدم عليه من البصرة يشكو له ديناً قد لزمه، فقال معاوية لخازن بيت المال: إعطه ثلاثين ألفاً، ولمّا ولّى قال: وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أُخرى[٢]. لقد وهب له هذه الأموال الضخمة جزاءً لمواقفه ومواقف أخيه الذي أمدّ المتمردين في حرب الجمل بالأموال التي نهبها من بيت مال المسلمين، وقد حفل التاريخ ببوادر كثيرة من هبات معاوية للقوى المنحرفة عن الإمام، والمؤيدة له.

شراء الأديان

وفتح معاوية باباً جديداً في سياسته الاقتصادية وهي شراء الأديان وخيانة الذمم، فقد وفد عليه جماعة من أشراف العرب فأعطى كل واحد منهم مائة ألف وأعطى الحتات عم الفرزدق سبعين ألفاً، فلمّا علم الحتات بذلك رجع مغضباً إلى

---

(١) مروج الذهب: ٢: ٣٥٤.

(٢) العقد الفريد: ١: ٢٥٨.

معاوية فقال له : فضحتني في بني تميم ، أمّا حسبي فصحيح ؟ أولست ذا سنٍّ ؟ أولست مطاعاً في عشيرتي ؟

قال : بلى . قال : فما بالك خسستَ بي دون القوم ، وأعطيت مَن كان عليك أكثر ممّن كان لك ؟ !

فقال معاوية بلا حياء ولا خجل : إني اشتريت من القوم دينهم ، ووكلتك إلى دينك .

فقال : وأنا ، فاشترِ مني ديني .

فأمر له بإتمام الجائزة[١] . لقد خسرت هذه الصفقة التي كشفت عن مسخ الضمائر وتحولها إلى سلعة تباع وتشرى .

عجز الخزينة المركزية

ومنيت الخزينة المركزية بعجز ماليّ خطير نتيجة الإسراف في الهبات لشراء الذمم والأديان ، ولم تتمكن الدولة من تسديد رواتب الموظفين ممّا اضطر معاوية إلى أن يكتب لابن العاص راجياً منه أن يسعفه بشيء من خراج مصر الذي جعله طعمة له ، فقد جاء في رسالته : « أمّا بعد ، فإنّ سؤال أهل الحجاز ، وزوّار أهل العراق قد كثروا عليّ ، وليس عندي فضل من أُعطيات الجنود ، فأعنّي بخراج مصر هذه السنة » . ولم يستجب له ابن العاص ، وراح ينكر عليه ، ويذكره بأياديه التي أسداها عليه ، وقد أجابه بهذه الأبيات :

مُعاوِيَ إنْ تُدرِكْكَ نَفسٌ شَحِيحَةٌ ... فَما وَرَّثَتْنِي مِصرَ أُمِّي وَلَا أَبِي
وَما نِلتُها عَفواً وَلٰكِنْ شَرَطتُها ... وَقَد دارَتِ الحَربُ العَوانُ عَلىٰ قُطبِ
وَلَولَا دِفاعِي الأَشعَرِيَّ وَصَحبَهُ ... لَأَلفَيتَها تَرغُو كَراغِيَةِ السَّقْبِ

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٤٦٩ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٣١ .

ولما قرأ معاوية الأبيات تأثر منه، ولم يعاوده بشيء من أمر مصر[١].

مصادرة أموال المواطنين

واضطر معاوية بعد إسرافه وتبذيره إلى مصادرة أموال المواطنين ليسدّ العجز المالي الذي منيت به خزينة الدولة، وقد صادر مواريث الحتات عم الفرزدق فأنكر عليه الفرزدق، وقال يهجوه:

أَبُـوكَ وَعَـمِّي يـا مُـعاوِيَ أَورَثـا ... تُـراثـاً فَأَولَـى بِـالتُّراثِ أَقـارِبُهْ
فَـما بـالُ مِيراثِ الحُتاتِ أَخَـذْتَهُ ... وَمِـيراثُ صَـخْرٍ جـامدٌ لَكَ ذائِـبُهْ
فَلَوْ كـانَ هٰـذا الحُكْمُ فِـي جـاهِلِيَّةٍ ... عَـلِمتَ مِـنَ المَـرءِ القَـلِيلِ حَـلَائِبُهْ
وَلَو كانَ هٰـذَا الأَمْرُ فِي غَيرِ مُـلْكِكُمْ ... لَأَودَيْـتَهُ أَوْ غَـصَّ بِـالماءِ شـارِبُهْ
أَلَسْتُ أعَـزَّ النّـاسِ قَـوماً وَأُسـرَةً ... وَأمـنَعهُم جـاراً إِذا ضِـيمَ جـانِبُهْ
وَمـا وَلَـدتْ بَـعدَ النَّـبيِّ وَآلِـهِ ... كَمِثْلِي حَـصانٌ فـي الرِّجـالِ يُـقارِبُهْ
وَبَـيتِي إِلى جَـنبِ الثُّـرَيّا فِـناؤُهُ ... وَمِن دُونِهِ البَـدرُ المُـضِيءُ كَـواكِـبُهْ
أنا ابنُ الجِبالِ الشُّمِّ في عَدَدِ الحَصىٰ ... وَعِرقُ الثَّرىٰ عِرقِي فَمَن ذا يُحاسِبُهْ
وَكَمْ مِنْ أَبٍ لِي يا مُعاويَ لَـم يَـزلْ ... أَغَـرَّ يُـباري الرِّيـحَ ما ازْوَرَّ جانِبُهْ
نَـمَتهُ فُـرُوعُ المـالِكينَ وَلَـمْ يَكُـنْ ... أَبُوكَ الَّذي مِنْ عَبدِ شَمسٍ يُـقارِبُهْ[٢]

ومعنى هذه الأبيات أنّ الأموال التي خلَّفها صخر جدّ معاوية قد انتقلت إلى ورّاثه في حين أنّ ميراث عمّ الفرزدق قد صادره معاوية، ولو كان ذلك في الجاهلية لكان

---

(١) الأخبار الطوال: ٢٢٢.

(٢) ديوان الفرزدق: ١: ٦٤ ـ ٦٦. تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٤٦٩ و ٤٧٠. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٣٢.

معاوية أقصر باعاً من أن تمتد يده إليه ، فإنّ الفرزدق ينتمي إلى أُسرة هي من أعزّ الأُسر العربية وأمنعها .

ضريبة النيروز

وفرض معاوية على المسلمين ضريبة النيروز ليسدّ بها نفقاته ، وقد بالغ في إرهاق الناس واضطهادهم على أدائها ، وقد بلغت ـ فيما يقول المؤرخون ـ عشرة ملايين درهم[١] ، وهي من الضرائب التي لم يألفها المسلمون ، وقد اتخذها الخلفاء من بعده سنة ، فأرغموا المسلمين على أدائها .

نهب الولاة والعمّال

وأصبحت الولاية في عهد معاوية مصدراً من مصادر النهب والسرقة ، ومصدراً للثراء وجمع الأموال . يقول أبو الأسود الدؤلي لحارثة الغداني صاحب زياد بن أبيه حينما ولّي على (سُرّق) وهي إحدى كُور الأهواز :

أَحـارُ بـنُ بَـدرٍ قَـد وَليتَ إِمـارةً   فَكُن جُـرذاً مِـمَّن يَـخُونُ وَيَسـرِقُ
وَبـاهِ تَـمَيماً بِـالغِنَىٰ إنَّ لِـلغِنىٰ   لِسـاناً بِـهِ المَـرءُ الهَـيُوبَةُ يَـنطِقُ
وَلَا تَـحقِرَنَّ يـا حـارُ شَـيئاً أَصَـبْتَهُ   فَحَظُّكَ مِن مُلكِ العِراقَينِ سُرَّقُ[٢]

ويصف عقبة بن هبيرة الأسدي ظلم الولاة واستصفاءهم أموال الرعيّة بقوله :

مُـعاويَ إِنَّـنا بَشَـرٌ فَأسـجِحْ   فَلَسنا بِالجِبالِ وَلَا الحَـدِيدِ[٣]

---

(١) الحركات الفكريّة في الإسلام : ٤٢ . تاريخ التمدّن الإسلامي : ٢ : ٢٢ .

(٢) ديوان أبي الأسود الدؤلي : ١٧٧ . تاريخ مدينة دمشق : ١١ : ٣٩١ و ٣٩٢ . فتوح البلدان : ٣٧٢ . معجم البلدان : ٣ : ٢٤٢ .

(٣) **السجح** : السهولة واللِّين ـ لسان العرب : ٦ : ١٧٤ ـ سَجَحَ .

فَـهَبنا أُمــةً ذَهَــبَتْ ضَــياعاً　　يَـــزِيدُ أَمِــيرُها وَأَبــو يَــزِيدِ
أَكَــلتُمْ أرضَــنا فَــجَرَدْتُمُوها　　فَهَلْ مِن قـائمٍ أَوْ مِـنْ حَـصِيدِ
أَتَطمَعُ فِي الخِـلافةِ إذْ هَـلكْنا　　وَلَيسَ لَـنا وَلاً لَكَ مِـن خُـلُودِ
ذَرُوا خَونَ الخِلَافَةِ وَاسْتَقِيمُوا　　وَتَــــأْمِيرَ الأَراذِلِ والعَـــبِيدِ
وأَعْــطونا السَّـوِيَّةَ لَا تَـزُرْكُـمْ　　جُــنُودٌ مُـردِفاتٌ بِـالجُنُودِ[١]

وقد عانى المسلمون ضروباً شاقّة وعسيرة من جور الولاة وظلم الجباة ، فقد تمرَّسوا بالسلب والنهب ، ولم يتركوا عند أحد من الناس فضلاً من المال إلّا صادروه .

جباية الخراج

أمّا جباية الخراج فكانت خاضعة لرغبات الجباة وأهوائهم ، وقد سأل صاحب (إخْنا)[٢] عمرو بن العاص عن مقدار ما عليه من الجزية ، فنهره ابن العاص وقال له : لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك ، إنّما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم ، وإن خفف عنّا خففنا عنكم[٣] .

وهدمت هذه الإجراءات الظالمة جميع قواعد العدل والمساواة التي جاء بها الإسلام .

اصطفاء الذهب والفضة

وأوعز معاوية إلى زياد بن أبيه أن يصطفي له الذهب والفضة ، فقام زياد مع عمّاله بإجبار المواطنين على مصادرة ما عندهم من ذلك وإرساله إلى دمشق[٤] ، وقد ضيَّق

---

(١) خزانة الأدب : ٢ : ٢٦٠ .

(٢) **إخنا** : مدينة قديمة ، وهي كورة قرب الإسكندرية ـ معجم البلدان : ١ : ١٥١ .

(٣) تاريخ التمدّن الإسلامي : ٢ : ٧٩ و ٨٠ .

(٤) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام : ١ : ٣٠١ .

بذلك على الناس، وترك الفقر آخذاً بخناقهم.

شلّ الحركة الاقتصادية

وشلّت الحركة الاقتصادية في جميع أنحاء البلاد، فخربت الزراعة والتجارة، وأُصيب الاقتصاد العام بنكسة شاملة نتيجة تبذير معاوية وإسرافه، وقد أعلن ذلك عبد الله بن همّام السلولي، فقد كتب شعراً في رقاع وألقاها في المسجد الجامع يشكو فيها الجور الهائل، والمظالم الفظيعة التي صبّها معاوية وعمّاله على الناس، وهذه هي الأبيات:

أَلَا أَبلِغْ مُعاوِيةَ بنَ صَخرٍ ... فَقد خَرِبَ السَّوادُ فَلَا سَوادا
أرَى العُمّالَ أَقساءً عَلَينا ... بِعاجِلِ نَفعِهِمْ ظَلَمُوا العِبادا
فَهَل لَكَ أَن تَدارَكَ ما لَدَينا ... وَتَدفَعَ عَن رَعِيَّتِكَ الفَسادا
وَتَعزِلَ تابِعاً أَبَداً هَواهُ ... يُخَرِّبُ مِنْ بَلَادَتِهِ البِلَادا
إِذَا ما قُلْتُ: أَقصِرْ عَنْ هَواهُ ... تَمادىٰ فِي ضَلَالَتِهِ وَزادا (١)

وقد صوّر السلولي بهذه الأبيات سوء الحالة الاقتصادية وتسلّط الولاة على ظلم الرعية ودعا السلطة إلى عزلهم وإقصائهم عن وظائفهم، فقد جهدوا في خراب السواد وامتصوا الدماء، واتبعوا الهوى، وضلّوا عن الطريق القويم.

حجّة معاوية

ويرى معاوية أنّ أموال الأُمة وخزينتها المركزية ملك له يتصرف فيها حيثما شاء، يقول: الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركته

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ٣٥: ٥١ و ٥٢. أُسُد الغابة: ٣: ٣٣٤، الحديث ٣٢٨٤. الإسلام والحضارة العربيّة: ٢: ١٤٩ و ١٥٠.

كان جائزاً لي[١].

وهذا المنطق بعيد عن روح الإسلام، وبعيد عن اتجاهاته، فقد قنّن الإسلام أُسسه الاقتصادية على أساس أنّ المال مال الشعب، وأنّ الدولة ملزمة بتنميته وتطويره، وليس لرئيس الدولة وغيره أن يتلاعب باقتصاد الأُمة، وينفقه على رغباته وأهوائه فإنّ ذلك يؤدي إلى إذاعة الحاجة، ونشر البطالة، ويعرّض البلاد للأزمات الاقتصادية.

لقد اعتبر الإسلام الفقر كارثة اجتماعية ووباءً شاملاً يجب مكافحته بكل الطرق والوسائل، وليس لرئيس الدولة أن يصطفي من مال الأُمة أيّ شيء، هذا هو رأي الإسلام، ولكن معاوية ـ بصورة لا تقبل الجدل ـ لم يعِ ذلك، فتصرف بأموال المسلمين حسب رغباته وأهوائه.

هذه بعض معالم سياسة معاوية الاقتصادية التي فقدت روح التوازن وأشاعت البؤس والحرمان في البلاد.

سياسة التفريق

وبنى معاوية سياسته على تفريق كلمة المسلمين، وتشتيت شملهم، وبثّ روح التفرقة والبغضاء بينهم، إيماناً منه بأنّ الحكم لا يمكن أن يستقر له إلّا في تفلل وحدة الأُمة، وإشاعة العداء بين أبنائها.

يقول العقاد: «وكانت له ـ أي لمعاوية ـ حيلته التي كرَّرها وأتقنها وبرع فيها، واستخدمها مع خصومه في الدولة من المسلمين وغير المسلمين، وكان قوام تلك الحيلة العمل الدائب على التفرقة والتخذيل بين خصومه بإلقاء الشبهات بينهم، وإثارة الإحن فيهم، ومنهم من كانوا من أهل بيته وذوي قرباه.... كان لا يطيق أن

---

(١) الغدير: ٨: ٣٤٩ و: ١٠: ١٧٦. حياة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام: ١: ٣٠١.

يرى رجلين ذوي خطر على وفاق، وكان التنافس الفطري بين ذوي الأخطار ممّا يعينه على الإيقاع بهم»[١].

لقد شتَّت كلمة المسلمين، وفَصَم عُرى الأُخوَّة الإسلامية التي عقد أواصرها الرسول الكريم، وبنى عليها مجتمعه.

اضطهاد الموالي

وبالغ معاوية في اضطهاد الموالي وإذلالهم، وقد رام أن يبيدهم إبادة شاملة، يقول المؤرخون: إنّه دعا الأحنف بن قيس، وسمرة بن جندب، وقال لهما: إنّي رأيت هذه الحمراء قد كثرت، وأراها قد قطعت على السلف، وكأنّي أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت أن أقتل شطراً منهم، وأدَعَ شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق، ولم يرتضِ الأحنف وسمرة هذا الإجراء الخطير، فأخذا يلطفان به حتّى عدل عن رأيه[٢].

لقد سنّ معاوية اضطهاد الموالي، وأخذت الحكومات التي تلت من بعده تشيع فيهم الجور والحرمان، بالرغم من اشتراكهم في الميادين العسكرية وغيرها من أعمال الدولة.

يقول شاعر الموالي شاكياً ممّا ألمّ بهم من الظلم:

أَبْلِغْ أُمَيَّةَ عَنِّي إِنْ عَرَضتَ لَها ... وَابنَ الزُّبيرِ وَأَبلِغْ ذَلِكَ العُرُبا

إِنَّ المَوالِيَ أَضحَتْ وَهيَ عاتِبَةٌ ... عَلَى الخَلِيفَةِ تَشكُو الجُوعَ وَالحَرَبا

وانبرى أحد الخراسانيّين إلى عمر بن عبد العزيز يطالبه بالعدل فيهم قائلاً له: يا أمير المؤمنين، عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء، ولا رزق، ومثلهم

---

(١) المجموعة الكاملة، العبقريات الإسلاميّة / العقّاد: ٤: ٢٣٥. معاوية في الميزان: ٦٤.

(٢) العقد الفريد: ٣: ٤١٣.

قد أسلموا من أهل الذمّة يؤدون الخراج[١].

وكان الشعبي قاضي عمر بن عبد العزيز قد بغض المسجد حتّى صار أبغض إليه من كناسة داره ـ حسب ما يقول ـ لأنّ الموالي كانت تصلي فيه[٢]، وقد اضطر الموالي إلى تأسيس مسجد خاصّ لهم أسموه (مسجد الموالي) كانوا يقيمون الصلاة فيه.

ويميل (خُدَابخش) إلى الظن أنّهم إنّما اضطروا إلى تأدية صلاتهم فيه بعدما رأوا تعصب العرب ضدهم، وأنّهم لم يكونوا يسمحون لهم بالعبادة معهم في مسجد واحد[٣]، وكان الموالي يلطفون بالردّ على العرب ويدعونهم إلى الهدى قائلين: « إنّنا لا ننكر تباين الناس، ولا تفاضلهم، ولا السيد منهم والمسود، والشريف والمشروف، ولكنّنا نزعم أنّ تفاضل الناس فيما بينهم هو ليس بآبائهم، ولا بأحسابهم، ولكنّه بأفعالهم وأخلاقهم، وشرف أنفسهم، وبعد هممهم، فمن كان دنيء الهمّة، ساقط المروءة لم يشرف وإن كان من بني هاشم في ذؤابتها، إنّما الكريم مَن كرمت أفعاله، والشريف من شرفت همّته »[٤].

ولم يعِ الأُمويون ومَن سار في ركابهم هذا المنطق المشتق من واقع الإسلام وهديه الذي أمر ببسط المساواة والعدل بين جميع الناس من دون فرق بين قومياتهم.

وعلى أية حال فقد أدّت هذه السياسة العنصرية إلى إشاعة الأحقاد بين المسلمين واختلاف كلمتهم، كما أدّت إلى تجنيد الموالي لكل حركة ثورية تقوم

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٥: ٥٩٥ و ٥٩٦. الكامل في التاريخ: ٤: ١٥٨.

(٢) الطبقات الكبرى: ٦: ٢٥١.

(٣) الحضارة الإسلاميّة: ١: ٤٣.

(٤) العقد الفريد: ٣: ٤١٠.

ضد الحكم الأُموي ، وكانوا بالأخير هم القوة الفعّالة التي أطاحت بالأُمويين وطوت معالمهم وآثارهم .

العصبية القبليّة

وتبعاً لسياسة التحزب والتفريق التي سار عليها الأُمويون فقد أحيوا العصبيات القبلية ، وقد ظهرت في الشعر العربي صوراً مريعة ومؤلمة من ألوان ذلك الصراع الذي كانت تخلقه السلطة الأُموية لإشغال الناس بالصراع القبلي عن التدخل في الشؤون السياسية ، وإبعادهم عمّا يقننه معاوية من الظلم والجور .

ويقول المؤرخون : إنّه عمد إلى إثارة الأحقاد القديمة ما بين الأوس والخزرج محاولاً بذلك التقليل من أهميتهم ، وإسقاط مكانتهم أمام العالم العربي والإسلامي ... كما تعصّب لليمنيّين على المضريين ، وأشعل نار الفتنة فيما بينهم حتّى لا تتَّحد لهم كلمة تضرّ بمصالح دولته .

وسار عمّال معاوية على وفق منهج سياسته التخريبية ، فكان زياد بن أبيه يضرب القبائل بعضها ببعض ، ويؤجج نار الفتنة فيما بينها حتّى تكون تحت مناطق نفوذه .

يقول ولهاوزن : « وعرف زياد كيف يخضع القبائل بأن يضرب إحداها بالأُخرى ، وكيف يجعلها تعمل من أجله ، وأفلح في ذلك ؟ ! »(١) .

وحفلت مصادر التاريخ ببوادر كثيرة من ألوان التناحر القبلي الذي أثاره معاوية وعمّاله ممّا أدّى إلى انتشار الضغائن بين المسلمين ، وقد عانى الإسلام من جرّاء ذلك أشدّ ألوان المحن ، فقد أوقف كلّ نشاط مثمر له ، وخولف ما كان يدعو له النبيّ صلى الله عليه وآله من التآخي والتعاطف بين المسلمين .

---

(١) الدولة العربيّة : ٢٠٧ .

سياسة البطش والجبروت

وساس معاوية الأُمة سياسة بطش وجبروت فاستهان بمقدراتها وكرامتها، وقد أعلن ـ بعد الصلح ـ أنّه إنّما قاتل المسلمين وسفك دماءهم ليتأمّر عليهم، وأنّ جميع ما أعطاه للإمام الحسن عليه السلام من شروط فهي تحت قدميه لا يفي بشيء منها، وقد أدلى بتصريح عبّر فيه عن كبريائه وجبروته فقال: نحن الزمان، من رفعناه ارتفع، ومن وضعناه اتّضع(١).

وسار عمّاله وولاته على هذه الخطة الغادرة، فقد خطب عتبة بن أبي سفيان بمصر فقال: يا حاملي ألْأَم أُنوف ركّبت بين أعين، إنّي قلّمت أظفاري عنكم لِيَلِينَ مسّي إيّاكم، وسألتكم صلاحكم إذا كان فسادكم راجعاً عليكم، فأمّا إذا أبيتم إلّا الطعن على الولاة والتنقّص للسلف، فوالله لأُقطعن على ظهوركم بطون السياط، فإن حسمت داءكم وإلّا فالسيف من ورائكم، ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم لنا بالمعصية(٢).

وخاطب المصريين في خطاب آخر له، فقال: يا أهل مصر، إيّاكم أن تكونوا للسيف حصيداً، فإنّ لله فيكم ذبيحاً لعثمان... فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أُنس الحق بإحياء الفتن، وإماتة السنن فأطأكم والله وطأة لارمق معها حتّى تنكروا ما كنتم تعرفون(٣).

ومثلت هذه القطع من خطابه مدى أحقاده على الأُمة وتنكره لجميع قيمها وأهدافها، ومن أولئك الولاة الذين كفروا بالحق والعدل خالد القسري، فقد خطب في مكة، وهو يهدد المجتمع بالدمار والفناء، فقد جاء في خطابه: «أيّها الناس، عليكم بالطاعة، ولزوم الجماعة، وإيّاكم والشبهات فإنّي ـ والله ـ ما أُوتى بأحد يطعن

---

(١) نهاية الأرب: ٦: ٧.

(٢) و (٣) العقد الفريد: ٤: ١٣٧.

على إمامه إلّا صلبته في الحرم »[١].

وكانت هذه الظاهرة ماثلة عند جميع حكام الأُمويين وولاتهم، يقول الوليد ابن يزيد:

فَدْع عَنكَ ادِّكارَكَ آلَ سُعْدَىٰ ... فَنَحْنُ الْأَكثَرونَ حَصىً وَمالا
وَنَحْنُ المالِكونَ النّاسَ قَسْراً ... نَسُومُهُمُ المَذَلَّةَ وَالنَّكالا
وَنُورِدُهُمْ حِياضَ الخَسْفِ ذُلّاً ... وَما نَأْلُوهُمُ إلّا خَبالا[٢]

وصوّرت هذه الأبيات مدى استهانته بالأُمة، فإنّه مع بقيّة الحكام من أُسرته قد ملكوا الناس بالغلبة والقوة، وإنّهم يسومونهم الذلّ، ويوردونهم حياض الخسف...

ومن أُولئك الملوك عبد الملك بن مروان، فقد خطب في يثرب أمام أبناء المهاجرين والأنصار فقال: ألا وإنّي لا أُداوي أمر هذه الأُمة إلّا بالسيف حتّى تستقيم قناتكم، وإنّكم تحفظون أعمال المهاجرين الأولين، ولا تعملون مثل عملهم، وإنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون أنفسكم، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلّا ضربت عنقه[٣].

وحفل هذا الخطاب بالطغيان الفاجر على الأُمة، فهو لا يرى حلّاً لأزماتها إلّا بسفك الدماء وإشاعة الجور والإرهاب، أمّا بسط العدل ونشر الدعة والرفاهية بين الناس فلم يفكّر به ولا دار بخلده ولا في خلد واحد من حكام الأُمويين.

احتقار الفقراء

وتبنّى الحكم الأُموي في جميع أدواره اضطهاد الفقراء واحتقار الضعفاء، ويقول

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٥: ٥١٨.

(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام: ١: ٣٨٧. الأخبار الطوال: ٣٤٨.

(٣) تاريخ مدينة دمشق: ٣٧: ١٣٥. الكامل في التاريخ: ٤: ٤١.

المؤرخون : إنّ بني أُمية كانوا لا يسمحون للفقراء بالدخول إلى دوائرهم الرسمية إلّا في آخر الناس ، يقول زياد بن أبيه لعجلان حاجبه : كيف تأذن للناس ؟

- على البيوتات ، ثمّ على الأسنان ، ثمّ على الأدب .
- مَنْ تؤخر ؟
- الذين لا يعبأ الله بهم .
- مَنْ هم ؟
- الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف ، وكسوة الصيف في الشتاء[١] .

وهدمت هذه السياسة قواعد العدل والمساواة التي جاء بها الإسلام ، فإنّه لم يفرق بين المسلمين وجعلهم سواسية كأسنان المشط .

سياسة الخداع

وأقام معاوية دولته على المخاتلة والخداع ، فلا ظل للواقع في أيّ تحرك من تحركاته السياسية ، فما كان مثل ذلك الضمير المتحجر أن يعي الواقع أو يفقه الحق ، وقد حفل التاريخ بصور كثيرة من خداعه ، وهذه بعضها :

الأولى : لمّا دسّ معاوية السمّ إلى الزعيم الكبير مالك الأشتر أقبل على أهل الشام فقال لهم : إنّ علياً وجّه الأشتر إلى مصر فادعوا الله أن يكفيكموه[٢] .

فكان أهل الشام يدعون عليه في كل صلاة ، ولمّا أُخبر بموته أنبأ أهل الشام بأنّ موته نتج عن دعائهم لأنّهم حزب الله ، ثمّ همس في أُذُنِ ابن العاص قائلاً : إنّ لله جنوداً من عسل[٣] .

---

(١) نهاية الأرب : ٦ : ٨٦ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك : ٤ : ٣٥٢ .

(٣) تاريخ مدينة دمشق : ٥٦ : ٣٧٦ . شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٦ : ٧٦ .

الثـــانية: ومـن خـداع مـعاوية وأضـاليله أنّ جـرير البـجلي لمّـا أوفـده الإمـام أميرالمؤمنينعليه السلام إلى معاوية يدعوه إلى بـيعته، طـلب مـعاوية حـضور شـرحـبيل الكندي، وهو من أبرز الشخصيات في الشام، وقد عهد إلى جماعة من أصحابه أن ينفرد كلّ واحد منهم به، ويلقي في روعه أنّ علياًعليه السلام هو الذي قتل عثمان بن عفان، ولمّا قدم عليه شرحبيل أخبره معاوية بوفادة جرير، وأنّه يدعوه إلى بـيعته، وقـد حبس نفسه في البيعة حتّى يأخذ رأيه؛ لأنّه قد قتل عثمان، وطلب منه شرحبيل أن يمهله لينظر في الأمر، فلمّا خرج التقى به القوم كل على انفراد، وأخبروه أنّ الإمام عليعليه السلام هو المسؤول عن إراقة دم عثمان، فلم يشك الرجل في صدقهم.

فانبرى إلى معاوية وهو يقول له: يا معاوية، أبى الناس إلّا أنّ علياً قتل عثمان، والله إن بايعت لنخرجنّك من شامنا ولنقتلنك.

فقال معاوية مخادعاًله: ماكنت لأُخالف عليكم، ما أنا إلّا رجل من أهل الشام[١].

بمثل هذا الخداع والبهتان أقام دعائم سلطانه، وبنى عليه عرش دولته.

الثالثة: ومن ألوان خداعه لأهل الشام أنّه لمّـا راسـل الزعـيم قـيس بـن سـعد يستميله ويمنّيه بسلطان العراقين، وبسلطان الحجاز لمن أحبّ من أهل بيته إن صار معه، فردّ عليه قيس بأعنف القول، فأظهر معاوية لأهل الشام أنّه قد بايع، وأمرهم بالدعاء له، واختلق كتاباً نسبه إليه وقد قرأه عليهم وهذا نصه:

«أمّا بعد، إنّ قتل عثمان كان حدثاً في الإسلام عظيماً، وقد نظرت لنفسي وديني فلم أرَ بوسعي مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً محرماً برّاً تقيّاً، فنستغفر الله لذنوبنا، ألا وأنّي قد ألقيت لكم بالسلام، وأحببت قتال قتلة إمام الهدى المظلوم، فاطلب مني ما أحببت مني من الأموال والرجال اعجله إليك»[٢].

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٢: ٧٣.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٦: ٦٢.

وبهذه الأساليب المنكرة خدع أهل الشام وزجّ بهم لحرب وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وباب مدينة علمه.

الرابعة: لقد كان الخداع من ذاتيات معاوية، ومن العناصر المقوّمة لسياسته، وقد بهر ولده يزيد حينما بويع وكان الناس يمدحونه، فقال لأبيه: يا أميرالمؤمنين، ما ندري أنخدع الناس أم يخدعوننا؟

فأجابه معاوية: كل مَنْ أردت خديعته فتخادع لك حتّى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته[١].

لقد جرّ معاوية ذيله على الخداع، وغذّى به أهل مملكته حتّى نشأ جيل كانت هذه الظاهرة من أبرز ما عرف منه.

إشاعة الانتهازية

وعملت حكومة معاوية على إشاعة الانتهازية والوصولية بين الناس، ولم يعد ماثلاً عند الكثيرين منهم ما جاء به الإسلام من إيثار الحق ونكران الذات، ومن مظاهر ذلك التذبذب ما رواه المؤرخون أنّ يزيد بن شجرة الرهاوي قد وفد على معاوية، وبينما هو مقبل على سماع حديثه إذ أصابه حَجَر عاثر فأدماه فأظهر تصنّعاً عدم الاعتناء به، فقال له معاوية: لله أنت، ما نزل بك؟

- ما ذاك يا أميرالمؤمنين؟
- هذا دم وجهك يسيل.
- إنّ حديث أميرالمؤمنين ألهاني حتّى غمز فكري، فما شعرت بشيء حتّى نبهني أميرالمؤمنين.

فبهر معاوية، وراح يقول: لقد ظلمك من جعلك في ألف من العطاء، وأخرجك

---

(١) الكامل في اللغة والأدب: ١: ٤١٦.

من عطاء أبناء المهاجرين، وكماة أهل صفين.

وأمر له بخمسمائة ألف درهم، وزاد في عطائه ألف درهم(١).

وكانت هذه الظاهرة سائدة في جميع أدوار الحكم الأُموي، فقد ذكر المؤرخون أنّ إسماعيل بن يسار كان زبيريّ الهوى، فلمّا ظفر آل مروان بآل الزبير انقلب إسماعيل عن رأيه وأصبح مروانياً، وقد استأذن على الوليد فأخّره ساعة، فلمّا أذن له دخل وهو يبكي، فسأله الوليد عن سبب بكائه، فقال: أخّرتني وأنت تعلم مروانيتي، ومروانية أبي.

وأخذ الوليد يعتذر منه، وهو لا يزداد إلّا إغراقاً في البكاء، فهوّن عليه الوليد وأحسن صلته، فلمّا خرج تبعه شخص ممّن يعرفه فسأله عن مروانيته التي ادعاها متى كانت؟ فقال له: بغضنا لآل مروان.

وهي التي حملت أباه يساراً في حال موته أن يتقرب إلى الله بلعن مروان بن الحكم، وهي التي دعت أُمه أن تلعن آل مروان مكان ما تتقرب به إلى الله من التسبيح(٢).

ونقل المؤرخون بوادر كثيرة من ألوان هذا الخداع الذي ساد في تلك العصور وهو من دون شكّ من مخلّفات سياسة معاوية الذي ربّى جيله على التذبذب والانحراف عن الحق.

الخلاعة والمجون

وعرف معاوية بالخلاعة والمجون، يقول ابن أبي الحديد: «كان معاوية أيام عثمان شديد التهتك موسوماً بكل قبيح، وكان في أيام عمر يستر نفسه قليلاً خوفاً

---

(١) التاج في أخلاق الملوك: ٥٥.

(٢) الأغاني: ٤: ٣١٣ و ٣١٤. تاريخ آداب اللغة العربيّة / جرجي زيدان: ١٣: ٤٣٨.

منه إلّا أنّه كان يلبس الحرير والديباج ، ويشرب في آنية الذهب والفضة ، ويركب البغلات ذوات السروج المحلّاة بها ـ أي بالذهب والفضة ـ وعليها جلال الديباج والوشي ، وكان حينئذٍ شابّاً وعنده نزق الصبا ، وأثر الشبيبة ، وسكر السلطان والإمرة ، ونقل الناس عنه في كتب السيرة أنّه كان يشرب الخمر في أيام عثمان في الشام ... »[١].

ولا خلاف في أنّه سمع الغناء ، وطرب عليه ، ووصل عليه أيضاً .

وتأثر به ولده يزيد فكان مدمناً خليعاً مستهتراً ، وتأثر بهذا السلوك جميع خلفاء بني أُمية .

يقول الجاحظ : « وكان يزيد ـ يعني ابن معاوية ـ لا يمسي إلّا سكراناً ، ولا يصبح إلّا مخموراً ، وكان عبد الملك بن مروان يسكر في كل شهر مرة حتّى لا يعقل في السماء هو أو في الماء ، وكان الوليد بن عبد الملك يشرب يوماً ويدع يوماً ، وكان سليمان بن عبد الملك يشرب في كل ثلاث ليال ليلة ، وكان هشام يشرب في كل جمعة ، وكان يزيد بن الوليد ، والوليد بن يزيد يدمنان اللهو والشراب ، فأمّا يزيد ابن الوليد فكان دهره بين حالتي سكر وخمار ، ولا يوجد أبداً إلّا ومعه إحدى هاتين ، وكان مروان بن محمّد يشرب ليلة الثلاثاء وليلة السبت »[٢] .

وولّى هشام بن عبد الملك الوليد على الحجّ سنة (١١٩هـ) فحمل معه كلاباً في صناديق فسقط منها صندوق وفيه كلب . وحمل معه قبّة عملها على قدر الكعبة ليضعها عليها ، وحمل معه خمراً ، وأراد أن ينصب القبّة على الكعبة ويجلس فيها فخوّفه أصحابه ، وقالوا له : لا نأمن الناس عليك وعلينا فترك[٣] .

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١٦ : ١٦١ .

(٢) التاج في أخلاق الملوك : ١٥١ .

(٣) تاريخ الأُمم والملوك : ٦ : ١٨٠ .

ووفد علي بن عياش على الوليد بن يزيد في خلافته ، وقد أُتي بابن شراعة[١] من الكوفة ، فبادره قائلاً : والله ، ما بعثت إليك لأسألك عن كتاب الله وسنة رسوله .

فضحك ابن شراعة وقال : إنّك لو سألتني عنهما لوجدتني حماراً .

قال : إنّما أنا أرسلت إليك لأسألك عن القهوة ـ أي الخمر ـ ؟ ! قال : دهقانها الخبير ، ولقمانها الحكيم ، وطبيبها العليم .

قال : فكيف علمك بالأشربة ؟

فقال : يسأل أميرالمؤمنين عمّا بدا له ! !

قال : ما تقول في الماء ؟

فقال : لابدّ منه ، والحمار شريكي فيه .

وأخذ يسأله عن المشروبات حتّى انتهى إلى الخمر ، فقال له : ما تقول في الخمر ؟

فقال : أوّاه تلك صديقة روحي .

فقال الوليد : أنت والله صديق روحي[٢] .

وأرسل الوليد إلى عامله على الكوفة يطلب منه أن يبعث إليه الخلعاء والشعراء الماجنين ليستمع منهم ما يلهو به من الفسق والمجون ، وقد سخّر جميع أجهزة دولته للذّاته وشهواته ، وكتب إلى واليه على خراسان أن يبعث إليه ببرابط وطنابير[٣] ، وقال أحد شعراء عصره ساخراً منه :

---

(١) **ابن شراعة** أو **بشراعة** : هو أحد المجّان والندماء ، من أصحاب والبة بن الحباب ، ومطيع بن زياد ، وحمّاد عجرد ـ العقد الفريد : ٤ : ٤٥٦ .

(٢) العقد الفريد : ٤ : ٤٥٧ . الأغاني : ٧ : ٤٢ .

(٣) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : ١ : ١٤٨ .

البرابط ـ جمع بربط ـ : وهو العود ـ لسان العرب : ١ : ٣٥٧ ـ بربط .

⇦

أَبْشِـرْ يـا أَمِـينَ الـ لَّـهِ أَبشِـرْ بِـتَباشِيرْ
بِإِبلٍ يُحْمَلُ المـالُ عَـلَيها كـالأَنابيرْ[١]
بِغالٌ تَحْمِلُ الخَمْرَ حَــقائِبُها طَــنابِيرْ
فَهذَا لَكَ فِي الدُّنيا وَفِي الجَـنَّةِ تَـحبِيرْ

وسادت اللذة واللهو في المجتمع العربي ، وتهالك الناس على الفسق والفجور ، ومن طريف ما ينقل في هذا الموضوع أنّه أُتي بشيخ إلى هشام بن عبد الملك وكان معه قِيان وخمر وبربط ، فقال : اكسروا الطنبور على رأسه فبكى الشيخ ، فقال له أحد الجالسين : عليك بالصبر ، فقال له الشيخ : أتراني أبكي للضرب ؟ إنّما أبكي لاحتقاره البربط إذ سمّاه طنبوراً[٢] .

لقد كانت سيرة الأُمويين في جميع أدوارهم امتداداً لسيرة معاوية الذي أشاع حياة اللهو والخلاعة في البلاد للقضاء على أصالة الأُمة ، وسلب وعيها الديني والاجتماعي .

إشاعة المجون في الحرمين

وعمد معاوية إلى إشاعة الدعارة والمجون في الحرمين للقضاء على قدسيتهما وإسقاط مكانتهما الاجتماعية في نفوس المسلمين .

يقول العلائلي : « وشجّع الأُمويون حياة المجون في مكة والمدينة إلى حدّ الإباحة ، فقد استأجر طوائف من الشعراء والمخنّثين من بينهم عمر بن أبي ربيعة لأجل أن يمسحوا عاصمتي مكة والمدينة بمسحة لا تليق ، ولا تجعلهما صالحتين

⇦ **الطنابير** ـ جمع طنبور ـ : وهو القانون ومن الآلات ذات الأوتار ـ تاج العروس : ٩ : ٣١٥ ـ قَنَّ .

(١) **الأنابير**: أكداس من الطعام ـ لسان العرب : ١٤ : ١٩ ـ نبر .

(٢) تاريخ الأُمم والملوك : ٦ : ١٩٤ .

للزعامة الدينية. وقد قال الأصمعي: دخلت المدينة فما وجدت إلّا المخنّثين، ورجلاً يضع الأخبار والطرف»[١].

وقد شاعت في يثرب مجالس الغناء، وكان الوالي يحضرها ويشارك فيها[٢]، وانحسرت بذلك روح الأخلاق، وانصرف الناس عن المُثل العليا التي جاء بها الإسلام.

الإستخفاف بالقيم الدينية

واستخفّ معاوية بكافة القيم الدينية، ولم يعنِ بجميع ما جاء به الإسلام من الأحكام، فاستعمل أواني الذهب والفضة، وأباح الربا، وتطيّب في الإحرام، وعطّل الحدود[٣]، وقد أُلغيت معظم الأحكام الإسلامية في أغلب أدوار الحكم الأُموي، وفي ذلك يقول شاعر الإسلام الكميت:

وَعُطِّلَتِ الأَحْكامُ حَتّىٰ كَأَنَّنا ... عَلىٰ مِلَّةٍ غَيْرِ الَّتِي نَتَنَحَّلُ
أَأَهْلُ كِتابٍ نَحْنُ فِيهِ وَأَنتُمُ ... عَلَى الحَقِّ نَقضِي بِالكِتابِ وَنَعدِلُ
كَأَنَّ كِتابَ اللهِ يُعْنَى بِأَمرِهِ ... وَبِالنَّهِي فِيهِ الكَودَنِيُّ المُرَكَّلُ[٤]
فَتِلكَ مُلُوكُ السُّوءِ قَد طالَ مُلكُهُمْ ... فَحَتّامَ حَتّامَ العَناءُ المُطَوَّلُ
وَما ضَرَبَ الأَمثالَ فِي الجَورِ قَبلَنا ... لِأَجْوَرَ مِن حُكّامِنا المُتَمَثِّلُ[٥]

---

(١) سموّ المعنى في سموّ الذات: ٣٠.

(٢) العقد الفريد: ٦: ٢٧ و ٢٨.

(٣) ذكرنا مصادر هذه الأحداث في الجزء الثاني من كتابنا (حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام).

(٤) **الكودني**: نسبة إلى الكودن وهو البرذون يشبّه به البليد ـ أقرب الموارد: ٣: ٣٥٩ ـ كدن.

(٥) القصائد الهاشميّات والقصائد العلويّات: ٦١، ٦٣ و ٦٤.

واستخف معاوية بالمقدّسات الإسلامية واحتقرها، يقول الرواة: إنّه لمّا تغلّب قيل له: لو سكنت المدينة، فهي دار الهجرة، وبها قبر النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال: ﴿**قَدْ ضَلَلْتُ إذاً وَما أَنا مِنَ الْمُهْتَدِينَ**﴾[1].

واقتدى به في ذلك جميع بني أُمية، فقد انبرى يحيى بن الحكم إلى عبد الله بن جعفر فقال له: كيف تركت الخبيثة؟ يعني مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله.

فأنكر عليه ابن جعفر وصاح به: سمّاها رسول الله صلى الله عليه وآله طيبة، وتسمّيها خبيثة؟! قد اختلفتما في الدنيا وستختلفان في الآخرة.

قال يحيى: والله لئن أموت وأُدفن بأرض الشام المقدسة أحبّ إليّ من أن أُدفن بها.

فقال له: اخترت مجاورة اليهود والنصارى على مجاورة رسول الله صلى الله عليه وآله والمهاجرين[2].

استلحاق زياد

ومن مظاهر استخفاف معاوية بالقيم الإسلامية استلحاقه زياد بن عبيد الرومي وإلصاقه بنسبه من دون بيّنة شرعية، وإنّما اعتمد على شهادة أبي مريم الخمّار، وهو ممّا لا يثبت به نسب شرعي، وقد خالف بذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الْوَلَدُ لِلْفِراشِ وَلِلْعاهِرِ الْحَجَرُ**»[3].

لقد قام بذلك انطلاقاً وراء أهدافه السياسية، وتدعيماً لحكمه وسلطانه.

ومن طريف ما ينقل في الموضوع أنّ نصر بن الحجّاج خاصم عبد الرحمن بن

---

(١) الأنعام ٦: ٥٦. شرح الأخبار: ٢: ١٦٥. المناقب والمثالب: ٢٢٩.

(٢) أنساب الأشراف: ٢: ٣٠٥ و ٣٠٦.

(٣) أنساب الأشراف: ٥: ٢٠٢ و ٢٠٣.

خالد بن الوليد عند معاوية في عبد الله مولى خالد بن الوليد ، فأمر معاوية حاجبه أن يؤخرهما حتّى يحتفل مجلسه ، فلمّا اكتمل مجلسه ، أمر بحجر فأُدني منه ، وألقى عليه طرفاً من ثيابه ثمّ أذن لهما ، فترافعا عنده في شأن عبد الله ، فقال له نصر : إنّ أخي وابن أبي عهد إليّ أنّه ـ يعني عبد الله ـ منه .

وقال عبد الرحمن : مولاي وابن عبد أبي وأمته ، ولد على فراشه .

وأصدر معاوية الحكم في المسألة ، فقال : يا حرسي ، خذ هذا الحجر فادفعه إلى نصر بن الحجّاج ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **الْوَلَدُ لِلْفِراشِ وَلِلْعاهِرِ الْحَجَرُ** » .

وانبرى نصر فقال : أفلا أجريت هذا الحكم في زياد ؟

فقال معاوية : ذلك حكم معاوية وهذا حكم رسول الله[١] .

إنكار الإمام الحسين عليه السلام

وأنكر الإمام الحسين عليه السلام على معاوية هذا الاستلحاق الذي خالف به قول رسول الله صلى الله عليه وآله ، فكتب إليه مذكرة تضمّنت الأحداث الجسام التي اقترفها معاوية ، وقد جاء فيها : « **أَوَلَسْتَ الْمُدَّعِي زِيادَ ابْنَ سُمَيَّةَ الْمَوْلُودَ عَلىٰ فِراشِ عُبَيدِ ثَقِيفٍ ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ ابْنُ أَبِيكَ ، وَقَدْ قالَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله : الْوَلَدُ لِلْفِراشِ وَلِلْعاهِرِ الْحَجَرُ[٢] ، فَتَرَكْتَ سُنَّةَ رَسولِ اللهِ تَعَمُّداً ، وَاتَّبَعْتَ هَواكَ بِغَيرِ هُدىً مِنَ اللهِ** »[٣] .

لقد أثار استلحاق معاوية لزياد موجة من الغضب والاستياء عند الأخيار والمتحرّجين في دينهم ، وقد بسطنا الكلام في ذلك في كتابنا (حياة الإمام الحسن

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٧ : ١٠٦ . العقد الفريد : ٦ : ١٣٣ و ١٣٤ .

(٢) صحيح البخاري : ٨ : ٢٩٥ و ٢٩٦ .

(٣) رجال الكشيّ : ٥٠ . الاحتجاج : ٢ : ٩١ . الإمامة والسياسة : ١ : ١٨٠ و ١٨١ . جمهرة رسائل العرب : ٢ : ٦٠ و ٦١ .

ابن عليّ عليهما السلام).

الحقد على النبيّ صلى الله عليه وآله

وحقد معاوية على النبيّ صلى الله عليه وآله فقد مكث في أيام خلافته أربعين جمعة لا يصلي عليه، وسأله بعض أصحابه عن ذلك فقال: لا يمنعني عن ذكره إلّا أن تشمخ رجال بآنافها[١].

وسمع المؤذن يقول: أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، فلم يملك صوابه، واندفع يقول: لله أبوك يابن عبد الله، لقد كنت عالي الهمّة، ما رضيت لنفسك إلّا أن يقرن اسمك باسم رب العالمين[٢].

ومن مظاهر حقده على الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ما رواه مطرف بن المغيرة قال: وفدت مع أبي على معاوية، فكان أبي يتحدث عنده ثمّ ينصرف إلي، وهو يذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه، وأقبل ذات ليلة وهو غضبان فأمسك عن العشاء، فانتظرته ساعة، وقد ظننت أنّه لشيء حدث فينا أو في عملنا، فقلت له: مالي أراك مغتمّاً منذ الليلة؟

فقال: يا بني، جئتك من أكفر الناس وأخبثهم.

قلت: ما ذاك؟

قال: خلوت بمعاوية فقلت له: إنّك قد بلغت مناك يا أميرالمؤمنين، فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً فإنّك قدكَبُرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإنّ ذلك ممّا يبقى لك ذكره وثوابه.

فثار معاوية واندفع يقول: هيهات!! هيهات أي ذكر أرجو بقاءه، ملك أخو تيم

---

(١) النصائح الكافية: ٩٧.

(٢) بحار الأنوار: ٣٣: ٢٠٢. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١٠: ١٠١.

فعدل، وفعل ما فعل، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: أبو بكر، ثمّ ملك أخو عدي فاجتهد وشمّر عشر سنين، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: عمر، ثمّ ملك أخونا عثمان فملك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه، فعمل به ما عمل، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، وإنّ أخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرّات: أشهد أنّ محمّداً رسول الله، فأي عمل يبقى بعد هذا لا أُمَّ لك إلّا دفناً دفناً(١).

ودلّت هذه البادرة على مدى تزعزع العقيدة الدينية في نفس معاوية، وأنّها لم تكن إلّا رداءً رقيقاً يشفّ عمّا تحته من حبّ الجاهلية والتأثر بها إلى حدّ بعيد، وكانت النزعة الإلحادية ماثلة عند أغلب ملوك الأُمويين، يقول الوليد في بعض خمرياته منكراً للبعث والنشور:

أَدِرِ الكَأسَ يَمِيناً ... لاَ تَدِرها لِيَسارِ
اسْقِ هٰذا ثُمّ هٰذا ... صاحِبَ العُودِ النُّضارِ
مِن كُمَيتٍ عَتَّقوها ... مُنذُ دَهرٍ في جِرارِ
خَتَموها بِالأَفاوِيـ ... ـهِ وَكافُورٍ وَقارِ(٢)
فَلَقَدْ أَيقَنتُ أنِّي ... غَيرُ مَبعوثٍ لِنارِ
سَأَرُوضُ النّاسَ حَتّىٰ ... يَركَبوا أَيرَ الحِمارِ
وَذَرُوا مَن يَطلُبُ الـ ... ـجَنَّةَ يَسعَىٰ لِتَبارِ(٣)

وتأثر الكثيرون من ولاتهم بهذه النزعة الإلحادية، فكان الحجّاج يخاطب الله أمام الجماهير الحاشدة قائلاً: أرسولك أفضل أم خليفتك؟ يعني أنّ عبد الملك أفضل

---

(١) الأخبار الموفقيات: ٥٧٧. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٥: ١٣٠.

(٢) **الأفاويه**: التوابل، أو ما يعالج به الطيب ـ أقرب الموارد: ٢: ٩٥٣ ـ فَوَهَ.

(٣) الأغاني: ٧: ٤٠. رسالة الغفران: ١٤٥.

من النبيّ العظيم صلى الله عليه وآله[(١)].

وكان ينقم على الذين يزورون قبر رسول الله صلى الله عليه وآله ويقول: تبّاً لهم، إنّما يطوفون بأعواد ورمّة بالية، هلّا طافوا بقصر أميرالمؤمنين عبد الملك، ألا يعلمون أنّ خليفة المرء خير من رسوله[(٢)].

وهكذا كان جهاز الحكم الأُموي في كثير من أدواره قد تنكّر للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وازدرى برسالته.

تغيير الواقع الإسلامي

وعمد معاوية إلى تغيير الواقع الإسلامي المشرق الذي تبنّى الحركات النضالية والقضايا المصيرية لجميع الشعوب، فأهاب بالمسلمين ألّا يقرّوا على كظّة ظالم، ولا سغب مظلوم، وقد تبنّى هذا الشعار المقدّس الصحابيّ العظيم أبو ذر الغفاري الذي فهم الإسلام عن واقعه، فرفع راية الكفاح في وجه الحكم الأُموي، وطالب عثمان ومعاوية بإنصاف المظلومين والمضطهدين، وتوزيع ثروات الأُمة على الفقراء والمحرومين.

لقد أراد معاوية إقبار هذا الوعي الديني، وإماتة الشعور بالمسؤولية، فأوعز إلى لجان الوضع التي ابتدعها أن تفتعل الأحاديث على لسان المحرّر العظيم الرسول صلى الله عليه وآله في إلزام الأُمة بالخضوع للظلم، والخنوع للجور، والتسليم لما تقترفه سلطاتها من الجور والاستبداد، وهذه بعض الأحاديث:

الأوّل: روى البخاري بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال لأصحابه: «إنّكم سترون بعدي أثَرةً، وأُموراً تنْكُرونها.

---

(١) رسائل الجاحظ: ٢٩٧. العقد الفريد: ٥: ٥٢. النزاع والتخاصم / المقريزي: ٦٩.

(٢) العقد الفريد: ٥: ٥١. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١٥: ٢٤٢.

قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟

قال : أدُّوا إليهم حقّهم ، واسألوا الله حقّكم »(١) .

الثاني : روى البخاري بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال : « مَن رأى من أميره شيئاً يكره فليصبر عليه ، فإنّه من فارق الجماعة شِبراً فمات ، ألا مات ميتةً جاهليّةً »(٢) .

الثالث : روى البخاري بسنده عن مسلمة بن زيد الجعفي أنّه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له : يا نبيّ الله ، أرأيت إن قامت علينا أُمراء يسألونا حقّهم ويمنعونا حقّنا ، فما ترى ؟

فأعرض عنه ، فسأله ثانياً وثالثاً والرسول معرض ، فجذبه الأشعث بن قيس ، فقال رسول الله : اسمعوا وأطيعوا ، فإنّ عليهم ما حُمّلوا وعليكم ما حُمّلتم(٣) .

الرابع : روى البخاري بسنده عن عجرفة قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : إنّه ستكون هناتٌ وهناتٌ ، فمَن أراد أن يُفرّق أَمر هذه الأُمّة وهي جمعٌ فاضربوه بالسيف كائناً ما كان »(٤) .

إلى غير ذلك من الموضوعات التي خدّرت الأُمة وشلّت حركتها الثورية ، وجعلتها قابعة ذليلة تحت وطأة الاستبداد الأُموي وجوره ، وقدهبّ الإمام الحسين عليه السلام الثائر الأوّل في الإسلام إلى إعلان الجهاد المقدّس ليوقظ الأُمة من سباتها ، ويعيد للإسلام نضارته وروحه النضالية التي انحسرت في عهد الحكم الأُموي .

مع أهل البيت عليهم السلام

وسخّر معاوية جميع أجهزته للحطّ من قيمة أهل البيت عليهم السلام الذين هم وديعة

---

(١) و (٢) صحيح البخاري : ٩ : ٨٤.

(٣) التاريخ الكبير : ٤ : ٧٣، الرقم ١٩٩٥.

(٤) التاريخ الكبير / البخاري : ٧ : ٦٤، الحديث ٢٩٣.

رسول الله صلى الله عليه وآله ، والعصب الحسّاس في هذه الأُمة ، وقد استخدم أخطر الوسائل في محاربتهم وإقصائهم عن واقع الحياة الإسلامية ، وكان من بين ما استخدمه في ذلك ، ما يلي :

أوّلاً : تسخير الوعّاظ

وسخّر معاوية الوعّاظ في جميع أنحاء البلاد ليحوِّلوا القلوب عن أهل البيت ويذيعوا الأضاليل في انتقاصهم تدعيماً للحكم الأُموي .

ثانياً : استخدام معاهد التعليم

واستخدم معاوية معاهد التعليم وأجهزة الكتاتيب لتغذية النشء ببغض أهل البيت عليهم السلام ، وخَلق جيلٌ معادٍ لهم[(١)] ، وقد قامت تلك الأجهزة بدور خطير في بثّ روح الكراهية في نفوس النشء لعترة النبيّ صلى الله عليه وآله .

ثالثاً : افتعال الأخبار

وأقام معاوية شبكة لوضع الأخبار تعدّ من أخطر الشبكات التخريبية في الإسلام ، فعهد إليها بوضع الأحاديث على لسان النبيّ صلى الله عليه وآله للحطّ من قيمة أهل البيت عليهم السلام ، أمّا الأعضاء البارزون في هذه اللجنة ، فهم :

١ ـ أبو هريرة الدوسي .

٢ ـ سمرة بن جندب .

٣ ـ عمرو بن العاص .

٤ ـ المغيرة بن شعبة .

---

(١) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام : ٢ : ١٦١ و ١٦٢ .

وقد افتعلوا آلاف الأحاديث على لسان النبيّ صلى الله عليه وآله ، وكانت عدّة طوائف مختلفة حسب التخطيط السياسي للدولة ، وهي :

الطائفة الأُولى : وضع الأخبار في فضل الصحابة لجعلهم قبال أهل البيت ، وقد عدّ الإمام الباقر عليه السلام أكثر من مائة حديث ، منها :

الأوّل : أنّ عمر مُحَدَّث ـ بصيغة المفعول ـ أي تُحدِّثه الملائكة[١] .

الثاني : أنّ السَّكِينَةَ تنطق على لسان عمر[٢] .

الثالث : أنّ عمر يلقّنه المَلَك[٣] .

الرابع : أنّ الملائكة لتستحي من عثمان[٤] .

إلى كثير من أمثال هذه الأخبار التي وضعت في فضل الصحابة ، يقول المحدّث ابن عرفة المعروف بـ(نفطويه) : « إنّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أُمية تقرّباً إليهم بما يظنون أنّهم يرغمون به أُنوف بني هاشم»[٥] .

كما وضعوا في فضل الصحابة الأحاديث المماثلة للأحاديث النبوية في فضل العترة الطاهرة ،كوضعهم : « إنّ سيدي كهول أهل الجنّة أبو بكر وعمر » ، وقد عارضوا بذلك الحديث المتواتر : « **الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيّدا شَبابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ** »[٦] .

---

(١) صحيح البخاري : ٥ : ٧٨ و ٧٩ . صحيح مسلم : ٧ : ١١٥ . تاريخ الإسلام ـ عهد الخلفاء الراشدين : ٢٦٠ .

(٢) تاريخ الإسلام ـ عهد الخلفاء الراشدين : ٢٦٠ .

(٣) أنساب الأشراف : ١٠ : ٢٩٦ .

(٤) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام : ٢ : ١٦٢ . صحيح مسلم : ٧ : ١١٧ . تاريخ الإسلام ـ عهد الخلفاء الراشدين : ٤٧١ .

(٥) النصائح الكافية : ٩٩ . شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١١ : ٤٧ .

(٦) بحار الأنوار : ٢ : ٢١٨ و : ٢٧ : ٢١٢ و ٢١٣ . حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام : ٢ : ١٦٢ .

الطائفة الثانية: وضع الأخبار في ذمّ العترة الطاهرة عليهم السلام ، والحطّ من شأنها ، فقد أعطى معاوية سَمُرة بن جندب(١) أربعمائة ألف على أن يخطب في أهل الشام ، ويروي لهم أنّ الآية الكريمة نزلت في عليّ ، وهي قوله تعالى : ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَىٰ ما فِي قَلْبِهِ وَهوَ أَلَدُّ الخِصامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفسِدَ فِيها ويُهلِكَ الحَرثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لايُحِبُّ الفَسادَ**﴾(٢)، فروى لهم سمرة ذلك ، وأخذ العوض الضخم من بيت مال المسلمين(٣).

وممّا رووا أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال في آل أبي طالب : « إنّ آل أبي طالب ليسوا بأولياء لي ، إنّما وليّي الله وصالح المؤمنين »(٤).

وروى الأعمش أنّه لمّا قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة سنة (٤١ هـ) جاء إلى مسجد الكوفة ، فلمّا رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه ثمّ ضرب صلعته مراراً ، وقال : يا أهل العراق ، أتزعمون أنّي أكذب(٥) على رسول الله صلى الله عليه وآله وأُحرق نفسي بالنار ؟ لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : إنّ لكل نبيّ

---

(١) عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال لعشرة أنفس فيهم سمرة بن جندب : « **آخِرُكُمْ يَمُوتُ فِي النّارِ** » ، فكان سمرة آخر العشرة موتاً ـ البداية والنهاية : ٦ : ٢٣٢.

قيل : إنّ سمرة أصابه كزاز شديد ، فكان لا يدفأ فأمر بقدر عظيمة فملئت ماءً وأوقد تحتها ، واتخذ فوقها مجلساً ، وكان يصعد إليه بخارها فيدفئه ، فبينما هو كذلك خسفت به فحصل في النار ، فذلك الذي قال له ، والله العالم.

(٢) البقرة ٢ : ٢٠٤ و ٢٠٥.

(٣) النصائح الكافية : ٢٥٣.

(٤) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٤ : ٦٤.

(٥) علّق على ذلك العلامة فقيد الإسلام الشيخ محمود أبو رية في كتابه أبو هريرة : ٢٣٦ بقوله : « يدلّ هذا القول على أنّ كذب أبي هريرة على النبيّ صلى الله عليه وآله كان قد اشتهر حتّى عمّ الآفاق ، وأصبح الناس يتحدثون به في كل مكان ».

حرماً، وإنّ حرمي بالمدينة ما بين عَير إلى ثور، فمن أحدث فيهما حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وأشهد بالله أنّ علياً أحدث فيها **!!**

فلمّا بلغ معاوية قوله أجازه وأكرمه وولّاه إمارة المدينة(١).

إلى كثير من أمثال هذه الموضوعات التي تقدح في العترة الطاهرة التي هي مصدر الوعي والإحساس في العالم الإسلامي.

الطائفة الثالثة: افتعال الأخبار في فضل معاوية لمحو العار الذي لحقه ولحق أباه وأُسرته في مناهضتهم للإسلام، وإخفاء ما أُثر عن النبيّ صلى الله عليه وآله في ذمّهم، وهذه بعض الأخبار المفتعلة:

أوّلاً: قال صلى الله عليه وآله: «معاوية بن أبي سفيان أحلم أُمّتي وأجودها»(٢).

ثانياً: قال صلى الله عليه وآله: «صاحب سرّي معاوية بن أبي سفيان»(٣).

ثالثاً: قال صلى الله عليه وآله: «اللّهمّ علِّمه ـ معاوية ـ الكتاب، وقه العذاب، وأدخله الجنّة»(٤).

رابعاً: قال صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاقبلوه(٥)، فإنّه أمين هذه الأُمّة»(٦).

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٤: ٦٧.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ٥٩: ٨٨. البداية والنهاية: ٨: ١٢١. تطهير الجنان المطبوع على هامش الصواعق المحرقة: ٢٦.

(٣) تطهير الجنان: ٢٦.

(٤) تطهير الجنان: ٢٦. البداية والنهاية: ٨: ١٢٤.

(٥) وضع هذا الحديث لمعارضة الحديث الصحيح المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله **«إِذَا رَأَيْتُمْ مُعاوِيَةَ يَخْطِبُ عَلَىٰ مِنْبَرِي فاضْرِبُوا عُنُقَهُ»**. تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٤١ ـ ٦٠): ٣١٢. تاريخ بغداد: ١٢: ١٨١. البداية والنهاية: ٨: ١٣٥.

(٦) تاريخ بغداد: ١: ٢٥٩.

إلى غير ذلك من الأحاديث الموضوعة التي تعكس الصراع الفكري ضد الإسلام عند معاوية وأنّه حاول جاهداً محو هذا الدين والقضاء عليه.

حديث مفتعل على الإمام الحسين عليه السلام

من الأحاديث الموضوعة على الإمام الحسين عليه السلام ما روي أنّه وفد على معاوية زائراً في يوم الجمعة وكان قائماً على المنبر خطيباً، فقال له رجل من القوم: ائذن للإمام الحسين عليه السلام يصعد المنبر. فقال له معاوية: ويلك دعني أفتخر، ثمّ حمد الله وأثنى عليه، ووجه خطابه للإمام الحسين عليه السلام قائلاً له: سألتك بالله يا أبا عبد الله: أليس أنا ابن بطحاء مكة؟

فقال الحسين: أي والذي بعث جدّي بشيراً.

ثم قال: سألتك بالله يا أبا عبد الله: أليس أنا خال المؤمنين؟

فقال: أي والذي بعث جدّي نبياً.

ثم قال: سألتك يا أبا عبد الله: أليس أنا كاتب الوحي؟!

فقال: أي والذي بعث جدّي نذيراً.

ثمّ نزل معاوية عن المنبر، فصعد الحسين عليه السلام فحمد الله بمحامد لم يحمده الأولون والآخرون بمثلها، ثمّ قال: حدّثني أبي عن جدّي عن جبرئيل عن الله تعالى: أنّ تحت قائمة كرسي العرش ورقة آس خضراء مكتوب عليها: «لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، يا شيعة آل محمّد لا يأتي أحدكم يوم القيامة إلّا أدخله الله الجنة».

فقال له معاوية: سألتك يا أبا عبد الله: مَنْ شيعة آل محمّد؟

فقال عليه السلام: الذين لا يشتمون الشيخين أبا بكر وعمر، ولا يشتمون عثمان ولا يشتمونك يا معاوية.

وعلّق الحافظ ابن عساكر على هذا الحديث بقوله: «هذا حديث منكر، ولا أرى سنده متصلاً إلى الحسين»[١].

وقد امتُحِن المسلمون امتحاناً عسيراً بهذه الموضوعات التي دوِّنت في كتب السنّة، وظنّ الكثيرون من المسلمين أنّها حقّ، فأضفوا على معاوية ثوب القداسة، وألحقوه بالرعيل الأوّل من الصحابة المتحرّجين في دينهم، وهم ـ من دون شكّ ـ لو علموا واقعها لتبرّأوا منها، كما يقول المدائني[٢].

ولم تقتصر الموضوعات على تقديس معاوية والحطّ من شأن أهل البيت عليهم السلام وإنّما تدخّلت في شؤون الشريعة، فألصقت بها المتناقضات والمستحيلات ممّا شوّهت الواقع الإسلامي وأفسدت عقائد المسلمين.

سبّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

وتمادى معاوية في عدائه للإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فأعلن سبّه ولعنه في نواديه العامة والخاصة، وأوعز إلى جميع عمّاله وولاته أن يذيعوا سبّه بين الناس، وسرى سبّ الإمام علي عليه السلام في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وقد خطب معاوية في أهل الشام فقال لهم: أيّها الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي: إنّك ستلي الخلافة من بعدي، فاختر الأرض المقدسة ـ يعني الشام ـ فإنّ فيها الأبدال، وقد اخترتكم فالعنوا أبا تراب.

وعجّ أهل الشام بسبّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام[٣].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ١٤: ١١٣ و ١١٤.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١١: ٤٤، ٤٦.

(٣) بحار الأنوار: ٣٣: ٢١٥. النصائح الكافية: ٧٢. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٤: ٥٦ و ٥٧.

وخطب في أُولئك الوحوش فقال لهم: ما ظنكم برجل ـ يعني علياً ـ لم يصلح لأخيه ـ يعني عقيلاً ـ ؟ يا أهل الشام، إنّ أبا لهب المذموم في القرآن هو عمّ علي بن أبي طالب[١].

ويقول المؤرخون: إنّه كان إذا خطب ختم خطابه بقوله: «اللّهمّ إنّ أبا تراب ألحد في دينك، وصدَّ عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً، وعذبه عذاباً أليماً».

وكان يشاد بهذه الكلمات على المنابر[٢]، ولمّا ولّى معاوية المغيرة بن شعبة إمارة الكوفة كان أهمّ ما عهد إليه ألّا يتسامح في شتم الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام والترحم على عثمان، والعيب لأصحابه وإقصائهم.

وأقام المغيرة والياً على الكوفة سبع سنين وهو لا يَدَع ذمّ الإمام عليّ عليه السلام والوقوع فيه[٣]، وقد أراد معاوية بذلك أن يصرف القلوب عن الإمام علي عليه السلام، وأن يَحُول بين الناس وبين مبادئه التي أصبحت تطارده في قصوره.

يقول الدكتور محمود صبحي: «لقد أصبح عليّ جثة هامدة لا يزاحمهم في سلطانهم، ويخيفهم بشخصه، ولا يعني ذلك ـ أي سبّ الإمام ـ إلّا أنّ مبادئه في الحكم وآراءه في السياسة كانت تنغّص عليهم في موته كما كانت في حياته»[٤].

لقد كان الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام رائد العدالة الإنسانية، والمثل الأعلى لهذا الدين، يقول الجاحظ: «لا يعلم رجل في الأرض متى ذكر السبق في الإسلام والتقدّم فيه، ومتى ذكر النخوة والذبّ عن الإسلام، ومتى ذكر الفقه في الدين، ومتى ذكر الزهد في الأُمور التي تناصر الناس عليها كان مذكوراً في هذه الخلال كلها

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٢: ١٧٢. الأخبار الموفّقيات: ٣٣٥.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٤: ٥٦ و ٥٧.

(٣) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٤٧٩. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٣٤. أنساب الأشراف: ٥: ٢٥٢.

(٤) نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشريّة: ٢٨٢.

إلّا في عليّ »[١].

ويقول الحسن البصري : « والله ، لقد فارقكم بالأمس رجل كان سهماً صائباً من مرامي الله عزّ وجلّ ، ربّانيّ هذه الأُمة بعد نبيهاصلى‌الله‌عليه‌وآله ، وصاحب شرفها وفضلها ، وذا القرابة القريبة من رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله ، لم يكن بالنُوَمة عن أمر الله ، ولاسروقة لمال الله ، أعطى القرآن عزائمه فأورده رياضاً مونقة ، وحدائق مغدقة ، ذلك علي بن أبي طالب »[٢].

لقد عادت اللعنات التي كان يصبّها معاوية وولاته على الإمام أميرالمؤمنينعليه‌السلام بإظهار فضائله ، فقد برز الإمام عليعليه‌السلام للناس أروع صفحة في تاريخ الإنسانية كلها ، وظهر للمجتمع أنّه المنادي الأوّل بحقوق الإنسان ، والمؤسس الأوّل للعدالة الاجتماعية في الأرض . لقد انطوت السنون والأحقاب ، واندكت معالم تلك الدول التي ناوأَت الإمام أميرالمؤمنينعليه‌السلام ، سواء أكانت من بني أُمية أم من بني العبّاس ، ولم يبقَ لها أثر ، وبقي وحده قد احتل قمة المجد ، فهاهو رائد الإنسانية الأوّل وقائدها الأعلى ، وإذا بحكمه القصير الأمد يصبح طغراءَ في حكّام هذا الشرق ، وإذا الوثائق الرسمية التي أُثرت عنه تصبح مناراً لكلّ حكم صالح يستهدف تحقيق القضايا المصيرية للشعوب ، وإذا بحكم معاوية أصبح رمزاً للخيانة والعمالة ، ورمزاً لاضطهاد الشعوب واحتقارها .

ستر فضائل أهل البيتعليهم‌السلام

وحاول معاوية بجميع طاقاته حجب فضائل آل البيتعليهم‌السلام ، وستر مآثرهم عن المسلمين ، وعدم إذاعة ما أُثر عن النبيّصلى‌الله‌عليه‌وآله في فضلهم .

---

(١) الغدير : ١٠ : ١٧ . ثمار القلوب / الثعالبي : ٦٧ . الإسلام والحضارة العربيّة : ٢ : ١٤٥ .

(٢) الأمالي / المرتضى : ١ : ١٦٢ . بحار الأنوار : ٤٢ : ١٤٤ .

يقول المؤرخون : إنّه بعد عام الصلح حجّ بيت الله الحرام فاجتاز على جماعة ، فقاموا إليه تكريماً ولم يقم إليه ابن عباس ، فبادره معاوية قائلاً : يابن عباس ، ما منعك من القيام كما قام أصحابك ؟ ! إلّا لموجدة عليّ بقتالي إياكم يوم صفين . يابن عباس ، إنّ ابن عمّي عثمان قتل مظلوماً .

فردَّ عليه ابن عباس ببليغ منطقه قائلاً : فعمر بن الخطاب قد قُتِلَ مظلوماً ، فسلِّم الأمر إلى ولده ، وهذا ابنه وأشار إلى عبد الله بن عمر .

أجابه معاوية بمنطقه الرخيص : إنّ عمر قتله مشرك .

فانبرى ابن عباس قائلاً : فمن قتل عثمان ؟

- قتله المسلمون .

وأمسك ابن عباس بزمامه فقال له : فذلك أدحض لحجتك إن كان المسلمون قتلوه وخذلوه فليس إلّا بحق .

ولم يجد معاوية مجالاً للردّ عليه ، فسلك حديثاً آخر أهم عنده من دم عثمان ، فقال له : إنّا كتبنا إلى الآفاق ننهى عن ذكر مناقب عليّ وأهلِ بيته ، فكفف لسانك يابن عباس .

فانبرى ابن عباس بفيض من منطقه وبليغ حجته يسدّد سهاماً لمعاوية قائلاً : فتنهانا عن قراءة القرآن ؟ !

- لا

- فتنهانا عن تأويله ؟

- نعم

- فنقرأه ولا نسأل عمّا عنى الله به ؟

- نعم

- فأيُّهما أوجب علينا قراءته أو العمل به ؟

- العمل به .

- فكيف نعمل به حتّى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا ؟

- سل عن ذلك ممّن يتأوله على غير ما تتأوله أنت وأهل بيتك .

- إنّما نزل القرآن على أهل بيتي ، فأسأل عنه آل أبي سفيان وآل أبي معيط ؟ ! !

- فاقرأوا القرآن ، ولا ترووا شيئاً ممّا أنزل الله فيكم ، وممّا قاله رسول الله صلى الله عليه وآله فيكم ، وارووا ما سوى ذلك .

وسخر منه ابن عباس ، وتلا قوله تعالى : ﴿ **يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأفوَاهِهِم وَيَأبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَو كَرِهَ الكافِرُونَ** ﴾[١] .

وصاح به معاوية : اكفني نفسك ، وكف عني لسانك ، وإن كنت فاعلاً فليكن سرّاً ، ولا تسمعه أحداً علانية[٢] .

ودلّت هذه المحاورة على عمق الوسائل التي اتخذها معاوية في مناهضته لأهل البيت ، وإخفاء مآثرهم .

وبلغ الحقد بمعاوية على الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه لمّا ظهر عمرو بن العاص بمصر على محمّد بن أبي بكر وقتله ، استولى على كتبه ومذكراته وكان من بينها عهده له ، وهو من أروع الوثائق السياسية ، فرفعه ابن العاص إلى معاوية ، فلمّا رآه قال لخاصته : إنّا لا نقول هذا من كتب علي بن أبي طالب ، ولكن نقول : هذا من كتب أبي بكر التي كانت عنده[٣] .

التحرّج من ذكر الإمام عليّ عليه السلام

وأسرف الحكم الأُموي إلى حدّ بعيد في محاربة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ،

---

(١) التوبة ٩ : ٣٢ .

(٢) الاحتجاج : ٢ : ٨٢ و ٨٣ . حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام : ٢ : ٣٤٣ .

(٣) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٦ : ٧٢ .

فقد عهد بقتل كل مولود يسمى علياً ، فبلغ ذلك عليّ بن رباح فخاف ، وقال : لا أجعل في حلّ من سمّاني علياً ، فإنّ اسمي عُليّ بضمّ العين[1] .

ويقول المؤرخون : إنّ العلماء والمحدّثين تحرّجوا من ذكر الإمام عليّ عليه السلام والرواية عنه خوفاً من بني أُمية ، فكانوا إذا أرادوا أن يرووا عنه يقولون : روى أبو زينب[2] .

وروى معمر ، عن الزهري ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : **إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَنَعَ بَنِي إِسْرائِيلَ قَطْرَ السَّماءِ بِسُوءِ رَأْيِهِمْ في أَنْبيائِهِمْ ، وَاخْتِلَافِهِمْ في دِينِهِمْ ، وَإِنَّهُ أَخَذَ عَلَىٰ هـٰذِهِ الْأُمَّةِ بِالسِّنِينَ ، وَمَنَعَهُمْ قَطْرَ السَّماءِ بِبُغْضِهِمْ عَلِيَّ بْنِ أَبِي طالِبٍ** » .

قال معمر : حدثني الزهري في مرضة مرضها ، ولم أسمعه يحدّث عن عكرمة قبلها ولا بعدها ، فلمّا أبل من مرضه ندم على حديثه لي ، وقال : يا يماني ، اكتم هذا الحديث واطوه دوني ، فإنّ هؤلاء ـ يعني بني أُمية ـ لا يعذرون أحداً في تقريظ عليّ وذكره .

قال معمر : فما بالك عبت علياً مع القوم ، وقد سمعت الذي سمعت ؟

قال الزهري: حسبك ياهذا ، إنّهم شركونا في لَهاهم فانحططنا لهم في أهوائهم[3] .

وقد امتُحِنَ المسلمون امتحاناً عسيراً في مودتهم للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ، وتحرّجوا أشدّ التحرج في ذلك ، يقول الشعبي : « ماذا لقينا من عليّ ؟! إن أحببناه ذهبت دنيانا ، وإن أبغضناه ذهب ديننا » .

ويقول الشاعر :

---

(١) تهذيب التهذيب : ٧: ٢٨١.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٤: ٧٣.

(٣) مناقب الإمام علي بن أبي طالب / ابن المغازلي : ١٥٣ و ١٥٤ ، الحديث ١٨٦.

حُبُّ عَـــلِيٍّ كُـلُّهُ ضَـرْبُ   يَرجِفُ مِن تَذكارِهِ القَلْبُ[١]

هذه بعض المحن التي عاناها المسلمون في مودّتهم لأهل البيت عليهم السلام التي هي جزء من دينهم.

مع الشيعة

واضطهدت الشيعة أيام معاوية اضطهاداً رسمياً في جميع أنحاء البلاد، وقوبلوا بمزيد من العنف والشدّة، فقد انتقم منهم معاوية أشدّ ما يكون الانتقام قسوة وعذاباً، فقد قاد مركبة حكومته على جثث الضحايا منهم، وقد حكى الإمام الباقر عليه السلام صوراً مريعة من بطش الأُمويين بشيعة آل البيت عليهم السلام، يقول: **وَقُتِلَتْ شِيعَتُنا بِكُلِّ بَلْدَةٍ، وَقُطِّعَتْ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ عَلَى الظِّنَّةِ، وَكانَ مَنْ يُذْكَرُ بِحُبِّنا وَالْإنْقِطاعِ إِلَيْنا سُجِنَ، أَوْ نُهِبَ مالُهُ، أَو هُدِمَتْ دارُهُ**»[٢].

تحدّث بعض رجال الشيعة إلى محمّد بن الحنفية عمّا عانوه من المحن والخطوب بقوله: «فما زال بنا الشين في حبكم حتّى ضُربت عليه الأعناق، وأُبطلت الشهادات، وشردنا في البلاد، وأُوذينا حتّى لقد هممت أن أذهب في الأرض قفراً فاعبد الله حتّى ألقاه، لولا أن يخفى عليّ أمر آل محمّد صلى الله عليه وآله، وحتّى هممت أن أخرج مع أقوام[٣] شهادتنا وشهادتهم واحدة على أُمرائنا فيخرجون فيقاتلون»[٤].

لقد كان معاوية لا يتهيب من الإقدام على اقتراف أيّة جريمة من أجل أن يضمن ملكه وسلطانه، وقد كانت الشيعة تشكّل خطراً على حكومته، فاستعمل معهم

---

(١) الغدير: ٧: ١٤٨.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١١: ٤٣.

(٣) **الأقوام:** هم الخوارج.

(٤) الطبقات الكبرى: ٥: ٩٥.

أعنف الوسائل وأشدّها قسوة من أجل القضاء عليهم ، ومن بين الإجراءات القاسية التي استعملها ضدّهم ما يلي :

القتل الجماعي

وأسرف معاوية إلى حدّ كبير في سفك دماء الشيعة ، فقد عهد إلى الجلّادين من قادة جيشه بتتبع الشيعة وقتلهم حيثما كانوا ، وقد قتل بسر بن أبي أرطاة ـ بعد التحكيم ـ ثلاثين ألفاً عدا من أحرقهم بالنار[1] ، وقتل سمرة بن جندب ثمانية آلاف من أهل البصرة[2] ، وأمّا زياد بن أبيه فقد ارتكب أفظع المجازر فقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون ، وأنزل بالشيعة من صنوف العذاب ما لا يوصف لمرارته وقسوته .

إبادة القوى الواعية

وعمد معاوية إلى إبادة القوى المفكرة والواعية من الشيعة ، وقد ساق زمراً منهم إلى ساحات الإعدام ، وأسكن الثكل والحِداد في بيوتهم ، وفيما يلي بعضهم :

أولاً : حُجْر بن عدي رضي الله عنه

لقد رفع حُجْر بن عدي علم النضال ، وكافح عن حقوق المظلومين ، وسحق إرادة الحاكمين من بني أُمية الذين تلاعبوا في مقدرات الأُمة وحولوها إلى مزرعة جماعية لهم ولعملائهم وأتباعهم ، لقد استهان حُجْر بالموت وسخر من الحياة ، واستلذّ الشهادة في سبيل عقيدته ، فكان أحد المؤسّسين لمذهب أهل البيت عليهم السلام .

وامتُحن حُجْر أشدّ ما تكون المحنة قسوة حينما رأى السلطة تعلن سبّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ، وترغم الناس على البراءة منه ، فأنكر ذلك وجاهر بالردّ على ولاة

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٢ : ١٧ .

(٢) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٤٦٤ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٢٩ .

الكوفة ، واستحل زياد بن أبيه دمه ، فألقى عليه القبض وبعثه مخفوراً مع كوكبة من إخوانه إلى معاوية ، وأوقفوا في (مرج عذراء)[١] ، فصدرت الأوامر من دمشق بإعدامهم ، ونفّذ الجلّادون فيهم حكم الإعدام ، فخرّت جثثهم على الأرض وهي ملفّعة بدم الشهادة والكرامة ، وهي تضيء للناس معالم الطريق نحو حياة أفضل لا ظلم فيها ولا طغيان .

لقد عامل معاوية شيعة الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره كالملحدين والكافرين الذين لايغسّلون ولايكفنون ولا تجري عليهم المراسيم الإسلامية .

مذكرة الإمام الحسين عليه السلام

وفزع الإمام الحسين عليه السلام حينما وافته الأنباء بمقتل حُجْر ، فرفع مذكّرة شديدة اللهجة إلى معاوية ذكر فيها أحداثه وبدعه ، والتي كان منها قتله لحُجْر والبررة من أصحابه ، وقد جاء فيها :

« أَلَسْتَ الْقاتِلَ حُجْراً أَخا كِنْدَةَ ، وَالْمُصَلِّينَ الْعابِدِينَ الَّذِينَ كانوا يُنكِرونَ الظُّلْمَ وَيَسْتَعْظِمونَ الْبِدَعَ ، وَلَا يَخافونَ في اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ ثُمَّ قَتَلْتَهُمْ ظُلْماً وَعُدْواناً مِنْ بَعْدِ مَا كُنْتَ أَعْطَيْتَهُمُ الْأَيْمانَ الْمُغَلَّظَةَ ، وَالْمَواثِيقَ الْمُؤَكَّدَةَ أَلَّا تَأْخُذَهُمْ بِحَدَثٍ كانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ، وَلَا بِإِحْنَةٍ تَجِدُها في نَفْسِكَ عَلَيْهِمْ . . . »[٢] .

واحتوت هذه المذكرة على ما يلي :

١ ـ الإنكار الشديد على معاوية لقتله حُجْراً وأصحابه من دون أن يقترفوا جرماً ،

---

(١) **عذراء** ـ بالفتح ثمّ السكون والمدّ ، وهو في الأصل ـ: الرملة التي لم توطء ، والدرة العذراء التي لم تسقف ، وقرية بغوطة دمشق وإليها ينسب مرج ، فيقال : مرج عذراء . وقيل : إنّ حُجْر هو الذي فتحها ، فكان جزاؤه أن يُقتل فيها ـ معجم البلدان : ٤ : ٩١ .

(٢) الاحتجاج : ٢ : ٩٠ . بحار الأنوار : ٤٤ : ٢١٢ .

أو يحدثوا فساداً في الأرض.

٢ ـ إنّها أشادت بالصفات البطولية في هؤلاء الشهداء من إنكار الظلم، ومقاومة الجور، واستعظام البدع والمنكرات التي أحدثتها حكومة معاوية، وقد هبّوا إلى ميادين الجهاد لإقامة الحقّ ومناهضة المنكر.

٣ ـ إنّها أثبتت أنّ معاوية قد أعطى حُجْراً وأصحابه عهداً خاصاً في وثيقة وقّعها قبل إبرام الصلح ألّا يعرض لهم بأيّ إحنة كانت بينه وبينهم، ولا يصيبهم بأيّ مكروه، ولكنّه قد خاس بذلك فلم يفِ به، كما لم يفِ للإمام الحسن عليه السلام بالشروط التي أعطاها له، وإنّما جعلها تحت قدميه كما أعلن ذلك في خطابه الذي ألقاه في النخيلة[1].

لقد كان قتل حُجْر من الأحداث الجسام في الإسلام، وقد توالت صيحات الإنكار على معاوية من جميع الأقاليم الإسلامية، وقد ذكرناها بالتفصيل في كتابنا (حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام).

ثانياً: رُشَيد الهجري رضي الله عنه

وفي فترات المحنة الكبرى التي منيت بها الشيعة في عهد ابن سمية تعرّض رشيد الهجري لأنواع المحن والبلوى، فقد بعث زياد شرطته إليه، فلمّا مُثّل عنده صاح به: ما قال لك خليلك ـ يعني علياً ـ إنّا فاعلون بك؟

فأجابه بصدق وإيمان: تقطعون يديّ ورجليّ، وتصلبوني.

وقال الخبيث مستهزئاً وساخراً: أما والله لأكذّبن حديثه، خلّوا سبيله.

وخلّت الجلاوزة سراحه، وندم الطاغية فأمر بإحضاره، فصاح به: لا نجد شيئاً أصلح ممّا قال صاحبك، إنّك لا تزال تبغي لنا سوءً إن بقيت، اقطعوا يديه ورجليه.

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١٦: ٤٧. الفتوح: ٤: ٢٩٤.

وبادر الجلادون فقطعوا يديه ورجليه ، وهو غير حافل بما يعانيه من الآلام ، ويقول المؤرخون : إنّه أخذ يذكر مثالب بني أُمية ، ويدعو إلى إيقاظ الوعي والثورة ، ممّا غاظ ذلك زياداً فأمر بقطع لسانه[١] الذي كان يطالب بالحق والعدل ، وينافح عن حقوق الفقراء والمحرومين .

ثالثاً : عمرو بن الحَمِق الخزاعي رضي الله عنه

ومن شهداء العقيدة الصحابي العظيم عمرو بن الحَمِق الخزاعي الذي دعا له النبيّ صلى الله عليه وآله أن يمتّعه الله بشبابه ، واستجاب الله دعاء نبيه فقد أخذ عمرو بعنق الثمانين عاماً ولم ترَ في كريمته شعرة بيضاء[٢] ، وتأثّر عمرو بهدي أهل البيت وأخذ من علومهم فكان من أعلام شيعتهم .

وفي أعقاب الفتنة الكبرى التي منيت بها الكوفة في عهد الطاغية زياد بن سمية شعر عمرو بتتبع السلطة له ، ففرّ مع زميله رفاعة بن شدّاد إلى الموصل ، وقبل أن ينتهيا إليه كمنا في جبل ليستجمّا فيه ، وارتابت الشرطة فبادرت إلى إلقاء القبض على عمرو ، أمّا رفاعة ففرّ ولم تستطع أن تلقي عليه القبض ، وجيء بعمرو مخفوراً إلى حاكم الموصل عبد الرحمن الثقفي ، فرفع أمره إلى معاوية ، فأمره بطعنه تسع طعنات بمشاقص[٣] ؛ لأنّه طعن عثمان بن عفان[٤] .

وبادرت الجلاوزة إلى طعنه فمات في الطعنة الأُولى ، واحتز رأسه الشريف وأُرسل إلى طاغية دمشق ، فأمر أن يطاف به في الشام . ويقول المؤرخون : إنّه أوّل

---

(١) سفينة البحار : ٣ : ٣٥٧ . شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٢ : ٢٩٤ .

(٢) تاريخ مدينة دمشق : ٤٥ : ٤٩٧ . الإصابة : ٤ : ٢٩٤ . تهذيب التهذيب : ٨ : ٢٢ .

(٣) **المشاقص** ـ جمع مفرده مشقص ـ : النصل العريض ، أو سهم فيه نصل عريض ـ لسان العرب : ٧ : ١٦٤ ـ شقص .

(٤) أنساب الأشراف : ٥ : ٢٨٢ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٣٦ .

رأس طيف به في الإسلام(١)، ثمّ أمر به معاوية أن يحمل إلى زوجته السيدة آمنة بنت سُوَيد وكانت في سجنه(٢)، فلم تشعر إلّا ورأس زوجها قد وضع في حجرها، فذعرت وكادت أن تموت، وحملت من السجن إلى معاوية وجرت بينها وبينه محادثات دلّت على ضعة معاوية واستهانته بالقيم العربية والإسلامية القاضية بمعاملة المرأة معاملة كريمة ولا تؤخذ بأي ذنب يقترفه زوجها أو غيره.

مذكرة الإمام الحسين عليه السلام

والتاع الإمام الحسين عليه السلام أشدّ ما تكون اللوعة حينما علم بمقتل عمرو، فرفع مذكرة إلى معاوية عدد فيها أحداثه وما تعانيه الأُمة في عهده من الاضطهاد والجور، وجاء فيما يخص عمراً:

«أَوَلَسْتَ قاتِلَ عَمْرِو بْنِ الْحَمِقِ صاحِبِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، الْعَبْدِ الصّالِحِ الَّذِي أَبْلَتْهُ الْعِبادَةُ فَنَحِلَ جِسْمُهُ، وَاصْفَرَّ لَوْنُهُ، بَعدَما آمَنْتَهُ، وَأَعْطَيْتَهُ مِنْ عُهُودِ اللهِ وَمَواثِيقِهِ ما لَوْ أَعْطَيْتَهُ طائِراً لَنَزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ، ثُمَّ قَتَلْتَهُ جُرأَةً عَلَىٰ رَبِّكَ وَاسْتِخْفافاً بِذَلِكَ الْعَهْدِ»(٣).

لقد خاس معاوية بما أعطاه لهذا الصحابي الجليل ـ بعد الصلح ـ من العهد والمواثيق بألّا يعرض له بسوء ولا مكروه.

رابعاً: أوفى بن حصن رضي الله عنه

وكان أوفى بن حصن من خيار الشيعة في الكوفة وأحد أعلامهم النابهين، وهو من أشدّ الناقمين على معاوية، فكان يذيع مساوئه وأحداثه، ولمّا علم به

---

(١) و (٢) أنساب الأشراف: ٥: ٢٨٢.

(٣) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام: ٢: ٣٧٤. الإمامة والسياسة: ١: ١٨١.

ابن سميّة أوعز إلى الشرطة بإلقاء القبض عليه ، ولمّا علم أوفى بذلك اختفى ، وفي ذات يوم استعرض زياد الناس ، فاجتاز عليه أوفى فشكّ في أمره فسأل عنه فأُخبر باسمه ، فأمر بإحضاره ، فلمّا مَثُل عنده سأله عن سياسته فعابها وأنكرها ؛ فأمر زياد بقتله ، فهوى الجلّادون عليه بسيوفهم وتركوه جثة هامدة(١) .

خامساً: عبدالله الحضرمي رضي الله عنه مع جماعته

وكان عبد الله الحضرمي من أولياء الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ، ومن خلَّص شيعته كما كان من شرطة الخميس ، وقد قال له يوم الجمل : **أَبْشِرْ يا عَبْدَ اللهِ فَإنَّكَ وَ أَباكَ مِنْ شَرَطَةِ الْخَمِيسِ ، لَقَدْ أَخْبَرَنِي رَسولُ اللهِ بِاسْمِكَ وَاسْمِ أَبِيكَ في شَرَطَةِ الْخَمِيسِ .**

ولمّا قتل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام جزع عليه الحضرمي ، وبنى له صومعة يتعبّد فيها وانضم إليه جماعة من خيار الشيعة ، فأمر ابن سمية بإحضارهم ، ولمّا مثلوا عنده أمر بقتلهم ، فقتلوا صبراً(٢) .

لقد كانت فاجعة عبد الله كفاجعة حُجْر بن عدي ، فكلاهما قتل صبراً وكلاهما أُخذ بغير ذنب سوى الولاء لعترة رسول الله صلى الله عليه وآله .

إنكار الإمام الحسين عليه السلام

وفزع الإمام الحسين عليه السلام أشدّ ما يكون الفزع ألماً ومحنة على مقتل الحضرمي وجماعته الأخيار ، فأنكر على معاوية في مذكرته التي بعثها له ، وقد جاء فيها :

« أَوَلَسْتَ قاتِلَ الْحَضْرَمِيِّ الَّذِي كَتَبَ فِيهِ إِلَيْكَ زِيادٌ أَنَّهُ عَلىٰ دِينِ عَلِيٍّ عليه السلام ، فَكَتَبْتَ إِلَيْهِ أَنِ اقْتُلْ كُلَّ مَنْ كانَ عَلىٰ دِينِ عَلِيٍّ ، فَقَتَلَهُمْ وَمَثَّلَ فِيهِم بِأَمرِكَ ، وَدِينِ عَلِيٍّ هُوَ دِينُ

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٤٦٣ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٢٨ و ٢٢٩ .

(٢) رجال الكشيّ : ١٠/٦ . خلاصة الأقوال : ٥٩٣/١٩١ . بحار الأنوار : ٢٥ : ١٧٦ ، و : ٤٢ : ١٥١ .

ابْنِ عَمِّهِ صلى الله عليه وآله الَّذِي أَجْلَسَكَ مَجْلِسَكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ ، وَلَوْلَا ذلِكَ لَكانَ شَرَفُكَ وَشَرَفُ آبائِكَ تَجَشُّمَ الرِّحْلَتَيْنِ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ »(١) .

ودلّت هذه المذكرة بوضوح على أنّ معاوية قد عهد إلى زياد بقتل كل من كان على دين علي عليه السلام الذي هو دين رسول الله صلى الله عليه وآله ، كما دلّت على أنّ زياداً قد مثّل بهؤلاء البررة بعد قتلهم تشفّياً منهم لولائهم لعترة رسول الله صلى الله عليه وآله .

سادساً : جويرية العبدي رضي الله عنه

ومن عيون شيعة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام جويرية بن مسهر العبدي ، وفي فترات المحنة الكبرى التي امتحنت بها الشيعة أيام ابن سمية ، بعث خلفه فأمر بقطع يده ورجله وصلبه على جذع قصير(٢) .

سابعاً : صيفي بن فسيل رضي الله عنه

ومن أبطال العقيدة الإسلامية صيفي بن فسيل الذي ضرب أروع الأمثلة للإيمان فقد سُعي به إلى الطاغية زياد فلمّا جيء به إليه صاح به : يا عدو الله ، ما تقول في أبي تراب(٣) ؟

- ما أعرف أبا تراب ؟ !
- ما أعرفك به ؟ !
- أما تعرف عليَّ بن أبي طالب ؟

---

(١) الاحتجاج : ٢ : ٩١.

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٢ : ٢٩١.

(٣) كان الأمويّون يرمزون بهذه الكنية إلى جعل الإمام كقاطع طريق ـ التاريخ السياسي للدولة العربيّة : ٢ : ٧٥.

وفي الأغاني : ١٣ : ١٦٨ : « أنّ زياداً كان يحتقر الشيعة ويسمّيهم الترابية ».

- بلى .
- فذاك أبو تراب ؟ !
- كلا ، ذاك أبو الحسن والحسين .

وانبرى أمير شَرَطَة زياد منكراً عليه : يقول لك الأمير : هو أبو تراب ، وتقول أنت : لا !

فصاح به البطل العظيم مستهزئاً منه ومن أميره : وإن كذب الأمير أتريد أن أكذب ؟ وأشهد على باطل كما شهد .

وتحطّم كبرياء الطاغية ، وضاقت به الأرض فقال له : وهذا أيضاً مع ذنبك .

وصاح بشرطته : عليّ بالعصا .

فأتوه بها ، فقال له : ما قولك في عليّ ؟

وانبرى البطل بكل بسالة وإقدام غير حافل به ، قائلاً : أحسن قول أنا قائله في عبد من عباد الله المؤمنين .

وأوعز السفاك إلى جلاديه بضرب عاتقه حتّى يلتصق بالأرض ، فسعوا إليه بهراواتهم فضربوه ضرباً مبرحاً حتّى وصل عاتقه إلى الأرض .

ثمّ أمرهم بالكفّ عنه ، وقال له : إيه ، ما قولك في عليّ ؟

وحَسِبَ الطاغية أنّ وسائل تعذيبه سوف تقلبه عن عقيدته ، فقال له : والله لو شرحتني بالمواسي والمُدى ، ما قلت إلّا ما سمعت مني .

وفقد السفّاك صوابه فصاح به : لتلعنه ، أو لأضربنَّ عنقك .

وهتف صيفي يقول : إذاً تضربها والله قبل ذلك ، فإن أبيت إلّا أن تضربها رضيت بالله ، وشقيت أنت .

وأمر به أن يوقر في الحديد ، ويلقى في ظلمات السجون[١] ، ثمّ بعثه مع حُجْر

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٤٨٩ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٣٦ .

ابن عدي فاستشهد معه[١].

ثامناً: عبدالرحمن العَنَزي رضي الله عنه

وكان عبد الرحمن بن حسّان العَنَزي من خيار الشيعة، وقد وقع في قبضة جلاوزة زياد، فطلب منهم مواجهة معاوية لعلّه أن يعفو عنه فاستجابوا له، وأرسلوه مخفوراً إلى دمشق، فلمّا مَثُل عند الطاغية قال له: إيه أخا ربيعة، ما تقول في علي؟

قال: دعني ولا تسألني فهو خير لك.

قال معاوية: والله لا أدعك.

فانبرى البطل الفذّ يدلي بفضائل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، ويشيد بمقامه قائلاً: أشهد أنّه كان من الذاكرين الله كثيراً، والآمرين بالحق، والقائمين بالقسط، والعافين عن الناس.

والتاع معاوية، فعرّج نحو عثمان لعلّه أن ينال منه فيستحل إراقة دمه، فقال له: ما قولك في عثمان؟

فأجابه عن انطباعاته عن عثمان، فغاظ ذلك معاوية، وصاح به: قتلت نفسك.

قال: بل إياك قتلت، ولا ربيعة بالوادي.

وظن عبد الرحمن أنّ أُسرته ستقوم بحمايته وإنقاذه، فلم ينبرِ إليه أحد، ولمّا أمن منهم معاوية بعثه إلى الطاغية زياد، وأمره بقتله، فبعثه زياد إلى (قُسِّ الناطِف)[٢] فدفنه وهو حيّ[٣].

---

(١) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام: ٢: ٣٦٢.

(٢) **قس الناطف**: موضع قريب من الكوفة ـ معجم البلدان: ٤: ٣٤٩.

(٣) الأغاني: ١٧: ١١١. تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٤٩٧ و ٤٩٨. تاريخ مدينة دمشق: ٣٤: ٣٠١. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٤٢. تاريخ ابن خلدون: ٣: ١٦.

لقد رفع هذا البطل العظيم راية الحق، وحمل معول الهدم على قلاع الظلم والجور، واستشهد منافحاً عن أقدس قضية في الإسلام.

هؤلاء بعض الشهداء من أعلام الشيعة الذين حملوا مشعل الحرية، وأضاءوا الطريق لغيرهم من الثوّار الذين أسقطوا هيبة الحكم الأُموي، وعملوا على نقضه.

المروَّعون من أعلام الشيعة

وروَّع معاوية طائفة كبيرة من الشخصيات البارزة من رؤساء الشيعة، وفيما يلي بعضهم:

١ ـ عبد الله بن هاشم المرقال.

٢ ـ عدي بن حاتم الطائي.

٣ ـ صعصعة بن صوحان.

٤ ـ عبد الله بن خليفة الطائي.

وقد أرهق معاوية هؤلاء الأعلام إرهاقاً شديداً، فطاردتهم شرطته وأفزعتهم أشدّ الفزع، وقد ذكرنا ما عانوه من الخطوب في كتابنا (حياة الإمام الحسن بن علي عليهما السلام).

ترويع النساء

ولم يقتصر معاوية في تنكيله على السادة من رجال الشيعة، وإنّما تجاوز ظلمه إلى السيدات من نسائهم، فأشاع فيهن الذعر والإرهاب، فكتب إلى بعض عمّاله بحمل بعضهن إليه، فحملت له هذه السيدات:

١ ـ الزرقاء بنت عدي.

٢ ـ أمّ الخير البارقية.

٣ ـ سودة بنت عمارة.

٤ ـ أمّ البراء بنت صفوان.

٥ ـ بكارة الهلالية.

٦ ـ أروى بنت الحارث.

٧ ـ عكرشة بنت الأطرش.

٨ ـ الدارمية الحجونية.

وقد قابلهن معاوية بمزيد من التوهين والاستخفاف، وأظهر لهنّ الجبروت والقدرة على الانتقام غير حافل بوهن المرأة وضعفها، وقد ذكرنا ما جرى عليهنّ في مجلسه من التحقير في كتابنا (حياة الإمام الحسن بن علي عليهما السلام).

هدم دور الشيعة

وأوعز معاوية إلى جميع عمّاله بهدم دور الشيعة، فقاموا بنقضها [(١)] وتركوا شيعة آل البيت عليهم السلام بلا مأوىً يأوون إليه، ولم يكن هناك أيّ مبرر لهذه الإجراءات القاسية سوى تحويل الناس عن عترة رسول الله صلى الله عليه وآله.

حرمان الشيعة من العطاء

ومن المآسي الكئيبة التي عانتها الشيعة في أيام معاوية أنّه كتب إلى جميع عمّاله نسخة واحدة جاء فيها: انظروا إلى من قامت عليه البينة أنّه يحب علياً وأهل بيته، فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه [(٢)]. وبادر عمّاله في الفحص في سجلاتهم فمن وجدوه محباً لآل البيت عليهم السلام محوا اسمه، وأسقطوا عطاءه.

عدم قبول شهادة الشيعة

وعمد معاوية إلى إسقاط الشيعة اجتماعياً، فعهد إلى جميع عمّاله بعدم قبول

---

(١) و (٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١١: ٤٥.

شهادتهم في القضاء وغيره[١] مبالغة في إذلالهم وتحقيرهم.

إبعاد الشيعة إلى خراسان

وأراد زياد بن أبيه تصفية الشيعة من الكوفة وكسر شوكتهم، فأجلى خمسين ألفاً منهم إلى خراسان، المقاطعة الشرقية في فارس[٢]، وقد دقّ زياد بذلك أوّل مسمار في نعش الحكم الأُموي، فقد أخذت تلك الجماهير التي أُبعدت إلى فارس تعمل على نشر التشيّع في تلك البلاد، حتّى تحولت إلى مركز للمعارضة ضد الحكم الأُموي، وهي التي أطاحت به تحت قيادة أبي مسلم الخراساني.

هذا بعض ما عانته الشيعة في عهد معاوية من صنوف التعذيب والإرهاب، وكان ما جرى عليهم من المآسي الأليمة من أهم الأسباب في ثورة الإمام الحسين عليه السلام، فقد رفع علم الثورة لينقذهم من المحنة الكبرى التي امتحنوا بها، ويعيد لهم الأمن والاستقرار.

البيعة ليزيد

وختم معاوية حياته بأكبر إثم في الإسلام وأفظع جريمة في التاريخ، فقد أقدم غير متحرّج على فرض خليعه يزيد خليفة على المسلمين يعيث في دينهم ودنياهم، ويخلّد لهم الويلات والخطوب، وقد استخدم معاوية شتى الوسائل المنحطّة في جعل الملك وراثة في أبنائه، ويرى الجاحظ أنّه تشبّه بملوك الفرس والبيزنطيّين، فحوّل الخلافة إلى ملك كسروي، وعصب قيصري.

وقبل أن نعرض إلى تلك البيعة المشومة وما رافقها من الأحداث نذكر عرضاً

---

(١) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام: ٢: ٣٤٨. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١١: ٤٤.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلاميّة: ١: ١٤٧.

موجزاً لسيرة يزيد ، وما يتصف به من القابليات الشخصية التي عجّت بذمها كتب التاريخ من يومه حتّى يوم الناس هذا ، وفيما يلي ذلك :

ولادة يزيد

ولد يزيد سنة(٢٥) أو (٢٦هـ)[١] وقد دهمت الأرض شعلة من نار جهنم وزفيرها ، تحوط به دائرة السوء وغضب من الله ، وهو أخبث إنسان وجد في الأرض ، فقد تربّى على الجرمية والإساءة إلى الناس ، وأصبح علماً للانحطاط الخلقي والظلم الاجتماعي ، وعنواناً بغيضاً للاعتداء على الأُمة وقهر إرادتها في جميع العصور.

يقول الشيخ محمّد جواد مغنية : « أمّا كلمة يزيد فقد كانت من قبل اسماً لابن معاوية ، أمّا هي الآن عند الشيعة فإنّها رمز للفساد والاستبداد والتهتك والخلاعة ، وعنوان للزندقة والإلحاد ، فحيث يكون الشر والفساد فثمّ اسم يزيد ، وحيثما يكون الخير والحق والعدل فثمّ اسم الحسين عليه السلام »[٢].

وقد أُثر عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه نظر إلى معاوية يتبختر في بردة حبرة وينظر إلى عطفيه ، فقال صلى الله عليه وآله : « **أَيُّ يَوْمٍ أَسْوَأُ لِأُمَّتِي مِنْكَ ، وَأَيُّ يَوْمٍ أَسْوَأُ لِذُرِّيَّتِي مِنْ جِرْوٍ يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِكَ يَتَّخِذُ آياتِ اللهِ هُزُواً ، وَيَسْتَحِلُّ مِنْ حُرمَتِي ما حَرَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ** »[٣].

نشأته

نشأ يزيد عند أخواله في البادية من بني كلاب الذين كانوا يعتنقون المسيحية قبل الإسلام ، وكان مرسل العنان مع شبابهم الماجنين ، فتأثر بسلوكهم إلى حد بعيد ،

---

(١) تاريخ مدينة دمشق : ٦٥ : ٣٩٧. المنتظم : ٥ : ٣٢٢. تاريخ الخلفاء / السيوطي : ٢٠٥.

(٢) الشيعة في الميزان : ٤٥٥.

(٣) المناقب والمثالب : ٢٣٢.

فكان يشرب معهم الخمر ويلعب معهم بالكلاب .

يقول العلائلي : « إذا كان يقيناً أو يشبه اليقين أنّ تربية يزيد لم تكن إسلامية خالصة ، أو بعبارة أُخرى كانت مسيحية خالصة ، فلم يبقَ ما يستغرب معه أن يكون متجاوزاً مستهتراً مستخفّاً بما عليه الجماعة الإسلامية ، لا يحسب لتقاليدها واعتقاداتها أيّ حساب ، ولا يقيم لها وزناً ، بل الذي نستغرب أن يكون على غير ذلك »[١].

والذي نراه أن نشأته كانت نشأةً جاهلية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ولا تحمل أيّ طابع من الدين مهما كان ، فإنّ استهتاره في الفحشاء ، وإمعانه في المنكر والإثم ممّا يوحي إلى الاعتقاد بذلك .

صفاته

أمّا صفاته الجسمية فقد كان شديد الأدمة بوجهه آثار الجُدَري[٢] كما كان ضخماً ذا سمنة كثير الشعر[٣] . وأمّا صفاته النفسية فقد ورث صفات جدّه أبي سفيان وأبيه معاوية من الغدر والنفاق ، والطيش والاستهتار .

يقول السيد مير علي الهندي : « وكان يزيد قاسياً غدّاراً كأبيه ، ولكنّه ليس داهية مثله ، كانت تنقصه القدرة على تغليف تصرفاته القاسية بستار من اللباقة الدبلوماسية الناعمة ، وكانت طبيعته المنحلة وخلقه المنحطّ لا تتسرب إليهما شفقة ولا عدل ، كان يقتل ويعذّب نشداناً للمتعة واللذّة التي يشعر بها ، وهو ينظر إلى آلام الآخرين ، وكان بؤرة لأبشع الرذائل ، وهاهم ندماؤه من الجنسين خير شاهد على ذلك ،

---

(١) سموّ المعنى في سموّ الذات : ٥٩ .

(٢) تاريخ الخميس : ٢ : ٢٩٧ .

(٣) تاريخ الإسلام (حوادث ٦١ ـ ٨٠) : ٢٧١ . البداية والنهاية : ٨ : ٢٣٠ .

لقد كانوا من حثالة المجتمع »[١].

لقد كان جافي الخلق مستهتراً، بعيداً عن جميع القيم الإنسانية، ومن أبرز ذاتياته ميله إلى إراقة الدماء، والإساءة إلى الناس، ففي السنة الأُولى من حكمه القصير أباد عترة رسول الله صلى الله عليه وآله، وفي السنة الثانية أباح المدينة ثلاثة أيام وقتل سبعمائة رجل من المهاجرين والأنصار وعشرة آلاف من الموالي والعرب والتابعين.

ولَعه بالصيد

ومن مظاهر صفات يزيد ولعه بالصيد فكان يقضي أغلب أوقاته فيه، ويقول المؤرخون: «كان يزيد بن معاوية كلفاً بالصيد، لاهياً به، وكان يُلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه، ويهب لكل كلب عبداً يخدمه»[٢].

شغفه بالقرود

وكان يزيد ـ فيما أجمع عليه المؤرخون ـ ولعاً بالقرود، فكان له قرد يجعله بين يديه ويكنيه بأبي قيس، ويسقيه فضل كأسه، ويقول: هذا شيخ من بني إسرائيل أصابته خطيئة فمسخ، وكان يحمله على أتان وحشية ويرسله مع الخيل في حلبة السباق، فحمله يوماً فسبق الخيل فسرّ بذلك وجعل يقول:

تَمسَّكْ أَبا قَيسٍ بِفَضلِ زِمامِها   فَلَيسَ عَلَيها إنْ سَقَطْتَ ضَمانُ

فَقَدْ سَبقَتْ خَيلَ الجَماعَةِ كُلَّها   وَخَيلُ أَمِيرِ المُـؤمِنِينَ أَتـانُ[٣]

وأرسله مرة في حلبة السباق فطرحته الريح، فمات فحزن عليه حزناً شديداً وأمر

---

(١) روح الإسلام: ٢٩٦.

(٢) الفخري: ٥٥. البداية والنهاية: ٨: ٢٣٩.

(٣) الأخبار الموفقيّات: ٣٤٦. أنساب الأشراف: ٥: ٣٠٠. مروج الذهب: ٣: ٦٨.

بتكفينه ودفنه كما أمر أهل الشام أن يعزوه بمصابه الأليم، وأنشأ راثياً له:

كَمْ مِن كِرامٍ وَقَومٌ ذُو مُحافَظةٍ   جاءُوا لَنا لِيُعَزُّوا في أبِي قَيسِ
شَيخُ العَشِيرةِ أَمضاها وَأَجمَلَها   عَلَى الرُّؤوسِ وَفِي الأَعناقِ وَالرَّيسِ
لاَ يُبْعِدُ اللهُ قَبراً أَنْتَ ساكِنُهُ   فِيهِ جَمالٌ وَفِيهِ لِحيَةُ التَّيسِ(١)

وذاع بين الناس هيامه وشغفه بالقرود، حتّى لقبوه بها، ويقول رجل من تنوخ هاجياً له:

يَزيدٌ صَدِيقُ القِرْدِ مَلَّ جِوارَنا   فَحَنَّ إلى أرضِ القُرُودِ يَزِيدُ
فَتَبّاً لِمَنْ أَمْسَى عَلَينا خَلِيفَةً   صَحابَتُهُ الأَدْنَوْنَ مِنهُ قُرُودُ(٢)

إدمانه على الخمر

والظاهرة البارزة من صفات يزيد ادمانه على الخمر(٣)، وقد أسرف في ذلك إلى حدّ كبير فلم يرَ في وقت إلّا وهو ثمل لا يعي من السكر.

وقد خطب عبدالله بن الزبير أيام يزيد بن معاوية، فقال في خطبته: يزيد القرود، يزيد الفهود، يزيد الخمور، يزيد الفجور، أما والله لقد بلغني أنّه لا يزال مخموراً يخطب الناس، وهو طافح في سكره(٤).

ومن شعره في الخمر:

أَقُولُ لِصَحْبٍ ضَمَّتِ الكَأسُ شَمْلَهُمْ   وَداعِي صَباباتِ الهَوىٰ يَتَرَنَّمُ
خُذُوا بِنَصِيبٍ مِن نَعيمٍ وَلذَّةٍ   فَكُلٌ وَإنْ طالَ المَدى يَتَصرَّمُ

---

(١) جواهر المطالب: ٢: ٣٠٤.
(٢) أنساب الأشراف: ٥: ٣٠٠.
(٣) مروج الذهب: ٣: ٦٩.
(٤) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ٢٠: ١٣٣.

وَلَا تَـتـرُكُـوا يَـومَ السُّـرُورِ إِلى غَـدٍ   فَرُبَّ غَدٍ يَأْتـي بِـما لَـيسَ يُـعلَمُ[١]

وجلس يوماً على الشراب وعن يمينه ابن زياد بعد قتل الحسين، فقال:

إِسقِنِي شُربَةً تُروِّي مُشـاشِي   ثُمَّ مِلْ فاسْقِ مِثلَها ابْـنَ زِيـادِ
صاحِبُ السِّرِّ وَالأَمانَةِ عِندِي   وَلِتَسدِيدِ مَغنَمِي وَجِهادِي[٢]

وفي عهده طرأ تحوّل كبير على شكل المجتمع الإسلامي، فقد ضعف ارتباط المجتمع بالدين، وانغمس الكثير من المسلمين في الدعارة والمجون ولم يكن ذلك التغيير إقليمياً، وإنّما شمل جميع الأقاليم الإسلامية فقد سادت فيها الشهوات والمتعة والشراب، وقد تغيّرت الاتجاهات الفكرية التي ينشدها الإسلام عند أغلب المسلمين.

قال المسعودي: «كان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب ... وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق. وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب»[٣].

وقد اندفع الأحرار من شعراء المسلمين في أغلب عصورهم إلى هجاء يزيد لإدمانه على الخمر، يقول الشاعر ابن عرادة:

أَبَنِي أُميَّةَ إِنَّ آخِـرَ مُـلكِكُمْ   جَسَدٌ بِـحُوّرايـنَ ثَـمَّ مُـقِيمُ

---

(١) الكنى والألقاب: ٢: ٥٣.

(٢) مروج الذهب: ٣: ٦٧.

وفي أنساب الأشراف: ٥: ٣١١، هكذا:

إِسْقِنِي مُـزَّةً تُـروِّي مُشـاشِي   وَأَدِرْ مِـثلَها عَـلَى ابـنِ زِيـادِ
مَوضِعُ السِّرِّ وَالأَمـانَةِ عِـندِي   وَعَلَى ثَغرِ مَغنَمي وَجِـهادِي

(٣) مروج الذهب: ٣: ٦٧.

طَرَقَتْ مَنِيَّتُهُ وَعِندَ وِسادِهِ | كُوبٌ وَزِقٌّ راعِفٌ مَرثُومُ
ومُرِنَّةٌ تَبكي عَلَى نَشْوانِهِ | بِالصَّنْجِ تَقعدُ تارةً وَتَقومُ[١]

ويقول فيه أنور الجندي :

خُلِقَتْ نَفسُهُ الأَثِيمَةُ بِالمَكرِ | وَهامَتْ عَيناهُ بِالفَحشاءِ
فَهوَ وَالكَأسُ في عِناقٍ طَوِيلٍ | وَهُوَ وَالعارُ وَالخَنا في خِباءِ

ويقول فيه بولس سلامة :

رافِعَ الصَّوتِ داعِياً لِلفَلَاحِ | أخفِضِ الصَّوتَ في أَذانِ الصَّباحِ
وَتَرفَّقْ بِصاحِبِ العَرشِ مَشْ | غُولاً عَنِ اللهِ بِالقِيانِ المِلَاحِ
ألفُ (اللهُ أكبَرُ) لَا تُساوِي | بَينَ كَفَّي يَزِيدَ نَهْلَةَ راحِ
عَنَّسَتْ في الدِّنانِ بِكراً فَ | لَمْ تُدَنَّسْ بِلَثمٍ وَلَا بِماءٍ قِراحِ[٢]

لقد عاقر يزيد الخمر ولقّب بيزيد الخمور ، وبلغه يوماً أنّ المِسْوَرَبن مَخرمَة يرميه بشرب الخمور ، فكتب إلى عامله في المدينة يأمره أن يجلد المِسور حدّ القذف ، ففعل العامل ما أُمر به ، فقال المِسْور :

أَيشْرَبُها صَهباءَ كالمِسكِ رِيحُها | أَبو خالِدٍ وَيُضرَبُ الحَدَّ مِسْوَرُ[٣]

وأسرف في الإدمان ، حتّى أنّ بعض المصادر تعزو سبب وفاته إلى أنّه شرب كمية كبيرة منه فأصابه انفجار فهلك منه[٤].

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٥: ٦٠.

(٢) ملحمة الغدير / بولس سلامة : ٢٢٦.

(٣) أنساب الأشراف : ٥: ٣٣٨.

(٤) وجاء في أنساب الأشراف : ٥: ٣٠٠: «أنّ سبب وفاة يزيد أنّه حمل قرده على أتان وهو سكران ، فركض خلفها ، فاندقت عنقه فانقطع شيء في جوفه ، فمات .

ندماؤه

واصطفى يزيد جماعة من الخلعاء والماجنين فكان يقضي معهم لياليه الحمراء بين الشراب والغناء، وفي طليعة ندمائه الأخطل الشاعر المسيحي الخليع، فكانا يشربان ويسمعان الغناء، وإذا أراد السفر صحبه معه[١].

ولمّا هلك يزيد وآل أمر الخلافة إلى عبد الملك بن مروان قرّبه فكان يدخل عليه بغير استئذان، وعليه جبة خز، وفي عنقه سلسلة من ذهب، والخمر يقطر من لحيته[٢].

نصيحة معاوية ليزيد

ولمّا شاع استهتار يزيد واقترافه لجميع ألوان المنكر والفساد، استدعاه معاوية فأوصاه بالتكتّم في نيل الشهوات لئلا تسقط مكانته الاجتماعية، قائلاً: يا بني، ما أقدرك على أن تصير إلى حاجتك من غير تهتّك يذهب بمروءتك وقدرك، ثمّ أنشده.

انصَبْ نَهاراً في طِلَابِ العُلَىٰ ... وَاصبِرْ عَلىٰ هَجرِ الحَبِيبِ القَرِيبِ
حَتّىٰ إذَا اللَّيلُ أتَىٰ بِالدُّجىٰ ... وَاكتَحَلتْ بِالغَمْضِ عَينُ الرَّقِيبِ
فَباشِرِ اللّيلَ بِما تَشتَهِي ... فَإنَّمَا اللَّيلُ نَهارُ الأرِيبِ
كَم فاسِقٍ تَحسَبُهُ ناسِكاً ... قَد باشَرَ اللَّيلَ بِأَمرٍ عَجِيبِ[٣]

---

(١) الأغاني: ١٧: ٢١٦. الجامع في الأدب العربي / حنّا الفاخوري: ٤٦٥.

(٢) الأغاني: ٨: ٢٣٣. أُدباء العرب / بطرس البستاني: ١: ٣٢١. تاريخ آداب اللغة العربيّة / جرجي زيدان: ١٣: ٣٨٩.

(٣) تاريخ مدينة دمشق: ٦٥: ٤٠٣. البداية والنهاية: ٨: ٢٣١.

دفاع محمّد عزة دروزة

من الكتّاب الذين يحملون النزعة الأُموية في هذا العصر محمّد عزة دروزة ، «فقد جهد نفسه ـ مع الأسف ـ على الدفاع عن منكرات الأُمويين وتبرير ما أُثر عنهم من الظلم والجور والفساد ، وقد دافع عن معاوية ونزّهه عمّا اقترفه من الموبقات التي هي لطخة عار في تاريخ الإنسانية ، وقد علّق على هذه البادرة بقوله : «نحن ننزّه معاوية صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وكاتب وحيه ، والذي أُثرت عنه مخافة الله وتقواه وحرصه ، عن أن يرضى من ابنه الشذوذ عن هذه الحدود بالتشجيع ، بل نستبعد هذا عن يزيد »[١] .

وهذا ممّا يدعو إلى السخرية والتفكّه ، فقد تنكّر دروزة للواضحات التي لا يشكّ فيها أيّ إنسان يملك عقله واختياره ، وقديماً قد قيل :

وَلَيسَ يصُحُّ فِي الأَذهانِ شَيءٌ إذَا احـتاجَ النَّـهارُ إلىٰ دَليـلِ

إنّ ما أُثر عن معاوية من الأحداث الجسام كقتله حُجْر بن عدي ، ورُشَيد الهجري وعمرو بن الحَمِق الخزاعي ونظراءهم من المؤمنين ، وسبّه للعترة الطاهرة ، ونكايته بالأُمة بفرض يزيد خليفة عليها وغير ذلك من الجرائم التي أشرنا إلى بعضها في البحوث السابقة وهي ممّا تدلّ على تشويه إسلامه وانحرافه عن الطريق القويم ، ولكن دروزة وأمثاله لا ينظرون إلى الواقع إلّا بمنظار أسود ، فراحوا يقدّسون الأُمويين الذين أثبتوا بتصرفاتهم السياسية والإدارية أنّهم خصوم الإسلام وأعداؤه .

إقرار معاوية لاستهتار يزيد

وهام معاوية بحبّ ولده يزيد فأقرّه على فسقه وفجوره ولم يردعه عنه ، ويقول

---

(١) تاريخ الجنس العربي : ٨: ٨٦.

المؤرخون: إنّه نقل له أنّ ولده على الشراب، فأتاه يتجسس عليه، فسمعه ينشد:

أقُولُ لِصَحْبٍ ضَمَّتِ الكَأْسُ شَملَهُمُ ... وَداعِي صَباباتِ الهَوىٰ يَتَرنَّمُ
خُذُوا بِنَصِيبٍ مِن نَعِيمٍ وَلَذّةٍ ... فَكُلٌّ وَإنْ طالَ المَدَىٰ يَتصرَّمُ
وَلاَ تَترُكوا يَومَ السُّرُورِ إلىٰ غَدٍ ... فَإنَّ غَدٍ يَأتِي بِمَا لَيسَ يُعْلَمُ
ألَا إنَّ أَهْنَا العَيشِ ما سَمِحَتْ بِهِ ... صُرُوفُ اللَّيالِي وَالحَوادِثُ نُوَّمُ[١]

فعاد معاوية إلى مكانه ولم يعلمه بنفسه، وراح يقول: والله لا كنت عليه، ولا نغّصت عليه عيشه.

حقد يزيد على النبيّ صلى الله عليه وآله

وأترعت نفس يزيد بالحقد على النبيّ صلى الله عليه وآله والبغض له؛ لأنّه وتره بأُسرته يوم بدر، ولمّا أباد العترة الطاهرة جلس على أريكة الملك جذلان مسروراً يهز أعطافه، فقد استوفى ثأره من النبيّ صلى الله عليه وآله، وتمنى حضور أشياخه ليروا كيف أخذ بثأرهم، وجعل يترنم بأبيات ابن الزبعرى:

لَيتَ أَشْياخِي بِبَدرٍ شَهِدوا ... جَزَعَ الخَزرَجِ مِن وَقْعِ الأَسَلْ
لَأَهَلُّوا وَاستَهَلُّوا فَرَحاً ... ثُمّ قَالوا يا يَزِيدُ لَا تُشَلْ
قَد قَتلْنا القَرمَ مِن أَشْياخِهِم ... وَعَدَلْناهُ بِبَدرٍ فاعتَدَلْ
لَعِبَتْ هاشِمُ بِالمُلْكِ فَلَا ... خَبرٌ جاءَ وَلَا وَحيٌ نَزَلْ
لَسْتُ مِن خِندِفَ إنْ لَمْ أَنْتَقِمْ ... مِنْ بَنِي أَحْمَدَ ما كانَ فَعَلْ[٢]

---

(١) وفيات الأعيان: ٣: ٢٨٧. شذرات الذهب: ٤: ٩.

(٢) الفتوح: ٥: ١٢٩. مقاتل الطالبيّن: ١١٩. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ٢: ٥٩. البداية والنهاية: ٨: ١٩٤، ٢٠٦، ٢٢٧. شذرات الذهب: ١: ٦٩.

بغضه للأنصار

وكان يزيد يبغض الأنصار بغضاً عارماً ؛ لأنّهم ناصروا النبيّ صلى الله عليه وآله وقاتلوا قريشاً ، وحصدوا رؤوس أعلامهم ، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « **الأَنْصارُ كَرْشِي وَعَيْبَتي لَوْ سَلَكَ النّاسُ وادِياً وَسَلَكَ الْأَنْصارُ شِعْباً لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصارِ. اللّٰهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصارِ وَلِأَبْناءِ الْأَنْصارِ وَلِأَبْناءِ أَبْناءِ الْأَنْصارِ** »[١].

كما كان الأنصار يبغضون بني أُمية ، فقد قتل عثمان بين ظهرانيهم ولم يدافعوا عنه ، ثمّ بايعوا علياً ، وذهبوا معه إلى صفين لحرب معاوية ، ولمّا استشهد الإمام كانوا من أهم العناصر المعادية لمعاوية ، وكان يزيد يتميّز من الغيظ عليهم ، وطلب من كعب بن جعيل التغلبي أن يهجوهم فامتنع وقال له : أردتني إلى الإشراك بعد الإيمان ، لا أهجو قوماً نصروا رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولكن أدلّك على غلام منّا نصراني كأن لسانه لسان ثور ، يعني الأخطل.

فدعا يزيد الأخطل وطلب منه هجاء الأنصار فأجابه إلى ذلك ، وهجاهم بهذه الأبيات المقذعة :

لَعَنَ الإلٰهُ مِنَ اليَهودِ عِصابَةً ... بِالجِزعِ بَينَ صُلَيصِلٍ وَصِرارِ[٢]
قَومٌ إذا هَدَرَ العَصِيرُ رَأَيْتَهُمْ ... حُمْراً عُيونُهُمُ مِنَ المُسطارِ[٣]
خَلُّوا المَكارِمَ لَستُمُ مِن أَهْلِها ... وَخُذُوا مَساحِيَكُمْ بَنِي النَّجّارِ
إنَّ الفَوارِسَ يَعلَمُونَ ظُهُورَكُم ... أَولَادَ كُلِّ مُقَبَّحٍ أَكّارِ[٤]

---

(١) إعلام الورى : ١ : ٢٣٩.

(٢) **صليصل** و **صرار** : من الأماكن القريبة للمدينة ـ معجم البلدان : ٣ : ٤٥٢ ، ٤٧٨.

(٣) **المسطار** : الخمر الصارعة لشاربها.

(٤) **أكّار** : الحراث ـ لسان العرب : ١ : ١٦٩ ـ أكر.

ذَهَبَتْ قُريشٌ بِالمَكارِمِ وَالعُـلَا　　　واللُّؤمُ تَحتَ عَمائِمِ الأنصارِ[١]

لقد ابتدأ الأخطل هجاءه للأنصار بذمّ اليهود وقرن بينهم وبين الأنـصار ؛ لأنّـهم يساكنونهم في يثرب ، وقد عاب على الأنصار بأنّهم أهل زرع وفلاحة ، وأنّهم ليسوا أهل مجد ولا مكارم ، واتهمهم بالجبن عـند اللـقاء ، ونسب الشـرف والمـجد إلى القرشيّين ، واللؤم كلّه تحت عمائم الأنصار ، وقد أثار هذا الهجاء المرّ حفيظة النعمان ابن بشير الذي هو أحد عملاء الأُمويين ، فانبرى غضباناً إلى معاوية فلمّا مثل عنده حسر عمامته عن رأسه ، وقال : يا معاوية أترى لؤماً ؟

- لا بل أرى خيراً وكرماً ، فما ذاك ؟ !
- زعم الأخطل أنّ اللؤم تحت عمائمنا .

واندفع النعمان يستجلب عطف معاوية قائلاً :

مـعاوِيَ إلّا تُـعْطِنا الحَـقَّ تَـعترِف　　　لِحَى الأَزدِ مَسْدُولاً عَلَيها العَـمائِمُ
أَيشـتِمُنا عَـبدُ الأَرَاقِـمِ ضِـلَّةً　　　فَماذَا الَّذِي تُجدِي عَـلَيكَ الأَراقِـمُ
فَـما لِـيَ ثَـأرٌ دُونَ قَـطعِ لِسـانِهِ　　　فَدُونَكَ مَن تُرضيهِ عَنهُ الدَّراهِمُ[٢]

قال معاوية : ما حاجتك ؟

- لسانه .
- ذلك لك .

وبلغ الخبر الأخطل فأسرع إلى يزيد مستجيراً به وقال له : هذا الذي كنت أخافه ، فطمأنه يزيد وذهب إلى أبيه ، فأخبره بأنّه قد أجاره ، فقال معاوية : لا سبيل إلى ذمّة أبي خالد ـ يعني يزيد ـ فعفا عنه ، وجعل الأخطل يفخر برعاية يزيد له ، ويشمت

---

(١) الكامل في اللغة والأدب : ١ : ١٥٢ . الأخبار الموفقيات : ٢٢٨ . الأغاني : ١٥ : ٨٢ .
(٢) الكامل في اللغة والأدب : ١ : ١٥٣ . العقد الفريد : ٥ : ٣٢١ و ٣٢٢ . الأغاني : ١٦ : ٣٥ .

بالنعمان بقوله :

أَبـا خـالِدٍ دافَـعْتَ عَـنِّي عَـظِيمةً ... وَأَدْرَكتَ لَـحمِي قَـبْلَ أن يَـتبَدَّدا
وَأَطْـفَأْتَ عَـنِّي نـارَ نُـعمانَ بَـعدَما ... أَغَـذَّ لِأَمْـرٍ عـاجِزٍ وَتَـجرَّدا
وَلَـمّا رَأَى النُّـعمانُ دَوْي ابـنَ حُـرَّةٍ ... طَوَى الكَشْحَ إِذْ لَمْ يَستَطِعْنِي وَعَرَّدا [١]

هذه بعض نزعات يزيد واتجاهاته ، وقد كشفت عن مسخه وتمرّسه في الجريمة ، وتجرّده من كل خلق قويم ، وإنّ من مهازل الزمن وعثرات الأيام أن يكون هذا الخليع حاكماً على المسلمين وإماماً لهم .

دعوة المغيرة لبيعة يزيد

وأوّل من تصدّى لهذه البيعة المشومة أعور ثقيف المغيرة بن شعبة صاحب الأحداث والموبقات في الإسلام[٢]. وقد وصفه (بروكلمان) بأنّه رجل انتهازي لا ذمّة له ولا ذمام[٣] ، وهو أحد دهاة العرب الخمسة[٤] ، وقد قضى حياته في التآمر على الأُمة ، والسعي وراء مصالحه الخاصة .

أمّا السبب في دعوته لبيعة يزيد ـ فيما يرويه المؤرخون ـ فهو أنّ معاوية أراد عزله من الكوفة ليولّي عليها سعيد بن العاص[٥] ، فلمّا بلغه ذلك سافر إلى دمشق ليقدم

---

(١) ديوان الأخطل : ٨٩. الأخبار الموفقيات : ٢٢٩ و ٢٣٠. تاريخ مدينة دمشق : ٤٨ : ١١٥ .

(٢) من موبقات المغيرة أنّه أوّل من رشي في الإسلام كما يروي البيهقي ، كما أنّه كان الوسيط في استلحاق زياد بمعاوية ، وقد شُهِدَ عليه عند عمر بالزنا عند ما كان والياً على البصرة. أُسد الغابة : ٤ : ٤٧٢ ، الحديث ٥٠٦٤ .

(٣) تاريخ الشعوب الإسلاميّة : ١ : ١٤٥ .

(٤) تاريخ الأمم والملوك : ٩ : ٤٨١ .

(٥) الإمامة والسياسة : ١ : ١٦٥ . تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥١٨ . تجارب الأُمم ٢ : ٣٤ . البداية والنهاية : ٨ : ٨٢ .

استقالته من منصبه حتّى لا تكون حزازة عليه في عزله، وأطال التفكير في أمره، فرأى أنّ خير وسيلة لإقراره في منصبه أن يجتمع بيزيد فيحبّذ له الخلافة حتّى يتوسط في شأنه إلى أبيه، والتقى الماكر بيزيد فأبدى له الإكبار، وأظهر له الحبّ، وقال له: قد ذهب أعيان محمّد صلى الله عليه وآله وكبراء قريش وذوو أسنانهم، وإنّما بقي أبناؤهم، وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً، وأعلمهم بالسنة والسياسة، ولا أدري ما يمنع أميرالمؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟[١].

وغزت هذه الكلمات قلب يزيد فشكره وأثنى على عواطفه، وقال له: أترى ذلك يتمّ ؟

قال: نعم.

وانطلق يزيد مسرعاً إلى أبيه فأخبره بمقالة المغيرة، فسرّ معاوية بذلك وأرسل خلفه، فلمّا مَثُل عنده أخذ يحفّزه على المبادرة في أخذ البيعة ليزيد قائلاً: يا أميرالمؤمنين قد رأيت ماكان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان، وفي يزيد منك خلف فاعقد له، فإن حدث بك حدث كان كهفاً للناس، وخلفاً منك، ولا تسفك دماء، ولا تكون فتنة[٢].

وأصابت هذه الكلمات الوتر الحسّاس في قلب معاوية، فراح يخادعه مستشيراً في الأمر قائلاً: من لي بهذا ؟

قال: أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك.

واستحسن معاوية رأيه فشكره عليه وأقرّه على منصبه، وأمره بالمبادرة إلى الكوفة لتحقيق غايته، ولمّا خرج من عند معاوية، قال لحاشيته: لقد وضعت رجل

---

(١) الكامل في التاريخ: ٣: ٢٤٩. أُسد الغابة: ٤: ٤٧٢، الحديث ٥٠٦٤.

(٢) الكامل في التاريخ: ٣: ٢٤٩.

معاوية في غرز بعيد الغاية على أُمة محمّدﷺ ، وفتقت عليه فتقاً لا يرتق ، ثمّ تمثّل بقول الشاعر :

بِمِثْلِي شاهِدِي النَّجوَى وَغـالِي   بِـيَ الأعـدَاءَ وَالخَـصمَ الغِـضابا

ففي سبيل المغنم فتق المغيرة على أُمة محمّدﷺ فتقاً لا يرتق ، وأخلد لها الكوارث والخطوب .

وسار المغيرة إلى الكوفة ، وهو يحمل الشر والدمار لأهلها ولعموم المسلمين ، وفور وصوله عقد اجتماعاً ضمّ عملاء الأُمويين ، فعرض عليهم بيعة يزيد فأجابوه إلى ذلك ، وأوفد جماعة منهم إلى دمشق وجعل عليهم ولده أبا موسى .

فلمّا انتهوا إلى معاوية حفّزوه على عقد البيعة ليزيد ، فشكرهم على ذلك وأوصاهم بالكتمان ، والتفت إلى ابن المغيرة فقال له : بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم ؟

قال : بثلاثين ألف درهم .

فضحك معاوية وقال ساخراً : لقد هان عليهم دينهم .

ثمّ وصلهم بثلاثين ألف درهم[١] .

لقد استجاب لهذه البيعة ورضي بها كلّ من يحمل ضميراً قلقاً عرضه للبيع والشراء .

تبرير بعض الكتّاب لمعاوية في البيعة ليزيد

ودافع جماعة من المؤلفين والكتّاب عن معاوية ، وبرروا بيعته ليزيد التي كانت من أفجع النكبات التي مُني بها العالم الإسلامي ، وفيما يلي بعضهم :

---

(١) الكامل في التاريخ : ٣: ٢٤٩.

أوّلاً: أحمد دحلان

ومن أصلب المدافعين عن معاوية أحمد دحلان، قال: «فلمّا نظر معاوية إلى قوة شوكتهم ـ يعني الأُمويين ـ واستحكام عصبيتهم حتّى أنّهم لو خرجت الخلافة عنهم بعده يحدثون فتنة ويقع افتراق للأُمّة، فأراد اجتماع الكلمة بجعل الأمر فيهم، ثمّ أنّه نظر فيمن كان منهم أقوى شوكة فرآه ابنه يزيد؛ لأنّه كان كبيراً، وباشر إمارة الجيوش في حياة أبيه وصارت له هيبة عند الأُمراء، وله تمكّن ونفاذ كلمة، فلو جعل الأمر لغيره منهم كان ذلك سبباً لمنازعته، لا سيّما وله تمكن واقتدار على الاستيلاء على ما في بيت المال من الأموال، فيقع الافتراق والاختلاف لو جعل الأمر لغيره، فرأى أنّ جعل الأمر له بهذا الاجتهاد يكون سبباً للأُلفة وعدم الافتراق، وهذا هو السبب في جعله وليّ عهده، ولم يعلم ما يبديه الله بعد ذلك»[١].

حفنة من التراب على أمثال هؤلاء الذين دفعتهم العصبية الآثمة إلى تبرير المنكر وتوجيه الباطل، فهل أنّ أمر الخلافة التي هي ظلّ الله في الأرض يعود إلى الأُمويين حتّى يرعى معاوية عواطفهم ورغباتهم وهم الذين ناهضوا نبيّ الإسلام، وناجزوه الحرب، وعذبوا كل من دخل في دين الإسلام، فكيف يكون أمر الخلافة بأيديهم؟! ولو كان هناك منطق ووعي ديني لكانوا في ذيل القافلة ولا يحسب لهم أيّ حساب.

ثانياً: الدكتور عبد المنعم ماجد

ومن المبررين لمعاوية في بيعته ليزيد الدكتور عبد المنعم ماجد، قال: «ويبدو أنّ معاوية قصد من وراء توريث يزيد الخلافة القضاء على افتراق كلمة الأُمة الإسلامية، ووقوع الفتنة مثلما حدث بعد عثمان، ولعلّه أيضاً أراد أن يوجد حلّاً

---

(١) تاريخ الدول الإسلاميّة: ٢٨.

للمسألة التي تركها النبيّ صلى الله عليه وآله دون حلّ وهي إيجاد سلطة دائمة للإسلام ، ومن المحقق أنّ معاوية لم يكن له مندوحة من أن يفعل ذلك خوفاً من غضب بني أُمية الذين لم يكونوا يرضون بتسليم الأمر إلى سواهم »[١] .

وهذا الرأي لا يحمل أيّ طابع من التوازن ، فإنّ معاوية في بيعته ليزيد لم يجمع كلمة المسلمين وإنّما فرّقها وأخلد لهم الشرّ والخطوب ، فقد عانت الأُمة ـ في عهد يزيد ـ من ضروب البلاء والمحن ما لا يوصف لفضاعته ومرارته ، فقد جهد حفيد أبي سفيان على تدمير الإسلام ، وسحق جميع مقدساته وقيمه ، فأباد العترة الطاهرة التي هي عديلة القرآن الكريم ـ حسب النصوص النبوية المتواترة ـ وأنزل بأهل المدينة في واقعة الحرّة من الجرائم ما يندى له جبين الإنسانية ، فهل جمع بذلك معاوية كلمة المسلمين ووحد صفوفهم ؟ !

وممّا يدعو إلى السخرية ما ذهب إليه من أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله ترك مسألة الخلافة بغير حلّ فجاء معاوية فحلّ هذه العقدة ببيعته ليزيد ! إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يترك أيّ شأن من شؤون أُمته بغير حلّ ، وإنّما وضع لها الحلول الحاسمة ، وكان أهمّ ما عنى به شأن الخلافة ، فقد عهد بها إلى أفضل أُمته وباب مدينة علمه الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ، وقد بايعه كبار الصحابة وعموم من كان معه في يوم الغدير ، ولكن القوم كرهوا اجتماع النبوة والخلافة في بيت واحد ، فزووا الخلافة عن أهل بيت نبيهم فأدّى ذلك إلى أن ولي أمر المسلمين يزيد وأمثاله من المنحرفين الذين أثبتوا في تصرفاتهم أنّهم لا علاقة لهم بالإسلام ، ولا عهد لهم بالدين .

ثالثاً : حسين محمّد يوسف

ومن المدافعين ـ بحرارة ـ عن معاوية في ولايته ليزيد حسين محمّد يوسف ،

---

(١) التاريخ السياسي للدولة العربيّة : ٢ : ٦٢ .

وقد أطال الكلام بغير حجة في ذلك ، قال في آخر حديثه : « وخلاصة القول في موقف معاوية أنّه كان مجتهداً في رأيه ، وأنّه حين دعا الأُمة إلى بيعة يزيد كان حسن الظن به ؛ لأنّه لم يثبت عنده أيّ نقص فيه ، بل كان يزيد يدسّ على أبيه من يحسّن له حاله ، حتّى اعتقد أنّه أولى من أبناء بقيّة الصحابة كلهم ، فإن كان معاوية قد أصاب في اختياره فله أجران ، وإن كان قد أخطأ فله أجر واحد ، وليس لأحد بعد ذلك أن يخوض فيما وراء ذلك ، فإنّما الأعمال بالنيات ولكل امرئٍ ما نوى »[١] .

إنّ من المؤسف حقاً أن ينبري هؤلاء لتبرير فعل معاوية في اقترافه لهذه الجريمة النكراء التي أغرقت العالم الإسلامي بالفتن والخطوب ، ومتى اجتهد معاوية في فرض ابنه خليفة على المسلمين ؟ فقد سلك في سبيل ذلك جميع المنعطفات والطرق الملتوية ، فأرغم عليها المسلمين ، وفرضها عليهم تحت غطاء مكثّف من قوة الحديد ، إنّ معاوية لم يجتهد في ذلك ، وإنّما استجاب لعواطفه المترعة بالحنان والولاء لولده من دون أن يرعى أيّة مصلحة للأُمة في ذلك .

هؤلاء بعض المؤيدين لمعاوية في عقده البيعة ليزيد ، وهم مدفوعون بدافع غريب على الإسلام ، وبعيد كلّ البعد عن منطق الحقّ .

كلمتان في شجب البيعة

الأُولى : كلمة الحسن البصري : وشجب الحسن البصري بيعة يزيد ، وجعلها من جملة موبقات معاوية ، قال : « أربع خصال كنّ في معاوية ، لو لم يكن فيه منهنّ إلّا واحدة لكانت موبقة : انتزاؤه على هذه الأُمة بالسفهاء حتّى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلاف ابنه بعده سكّيراً خمّيراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ، وادّعاؤه زياداً ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : **الْوَلَدُ**

---

(١) سيّد شباب أهل الجنة الحسين بن عليّ : ٢٠٨ .

لِلْفِراشِ وَلِلْعاهِرِ الْحَجَرُ، وقتله حُجْراً وأصحابه ويل له من حُجْر وأصحابه »[١].

الثانية: كلمة ابن رشد: ويرى الفيلسوف الكبير ابن رشد أنّ بيعة معاوية ليزيد قد غيّرت مجرى الحياة الإسلامية، وهدمت الحكم الصالح في الإسلام، قال: « إنّ أحوال العرب في عهد الخلفاء الراشدين كانت على غاية من الصلاح، فكأنّما وصف إفلاطون حكومتهم في (جمهوريته) الحكومة الجمهورية الصحيحة التي يجب أن تكون مثالاً لجميع الحكومات، ولكن معاوية هدم ذلك البناء الجليل القديم، وأقام مكانه دولة بني أُمية وسلطانها الشديد، ففتح بذلك باباً للفتن التي لا تزال إلى الآن قائمة حتّى في بلادنا هذه، يعني الأندلس »[٢].

لقد نقم على معاوية في بيعة يزيد جميع أعلام الفكر وقادة الرأي في الأُمة الإسلامية منذ عهد معاوية حتّى يوم الناس هذا، ووصفوها بأنّها اعتداء صارخ على الأُمة وخروج على إرادتها.

دوافع معاوية

أمّا الدوافع التي دعت معاوية لفرض ابنه السكّير خليفة على المسلمين فكان من أبرزها الحبّ العارم لولده، فقد هام بحبّه، وقد أدلى بذلك في حديثه مع سعيد بن عثمان حينما طلب منه أن يرشحه للخلافة ويدع ابنه يزيد، فسخر منه معاوية وقال له: والله، لو ملئت لي الغوطة رجالاً مثلك لكان يزيد أحبّ إليّ منكم كلّكم[٣].

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٠٠.

(٢) ابن رشد وفلسفته / فرج إنطون: ٦٠.

(٣) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٢١. الفتوح: ٤: ٣٠٧. تاريخ مدينة دمشق: ٢١: ٢٢٥. البداية والنهاية: ٨: ٨٢.

لقد أعماه حبه لولده وأضله عن الحق ، وقد قال : لولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي[١].

وكان يؤمن بأنّ استخلافه ليزيد من أعظم ما اقترفه من الذنوب ، وقد صارح ولده بذلك فقال له : ما ألقى الله بشيء أعظم في نفسي من استخلافي إياك[٢].

لقد اقترف معاوية وزراً عظيماً فيما جناه على الأُمة بتحويل الخلافة إلى ملك عضوض لا يعنى فيه بإرادة الأُمة واختيارها.

الوسائل الدبلوماسية في أخذ البيعة

أمّا الوسائل الدبلوماسية التي اعتمد عليها معاوية في فرض خليعه على المسلمين ، فهي :

الأُولى : استخدام الشعراء

أمّا الشعراء فكانوا ـ في ذلك العصر ـ من أقوى أجهزة الإعلام ، وقد أجزل لهم معاوية العطاء ، وأغدق عليهم الأموال فانطلقت ألسنتهم بالمديح والثناء على يزيد فأضافوا إليه الصفات الرفيعة ، وخلعوا عليه النعوت الحسنة ، وفيما يلي بعضهم :

العجاج

ومدحه العجاج مدحاً عاطراً ، فقال فيه :

إِذا زُلزِلَ الأَقــوَامُ لَــم تُــزَلزَلِ ... عَن دِينِ مُوسَى وَالرَّسولِ المُرسَلِ

---

(١) المناقب والمثالب : ٢٢٤. تاريخ مدينة دمشق : ٥٩ : ٦١. سير أعلام النبلاء : ٣ : ١٥٦. البداية والنهاية : ٨ : ١٢٦.

(٢) تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول قامت بنشره أكاديمية العلوم للاتّحاد السوفيتي.

وَكُـنـتَ سَـيفَ اللهِ لَـم يُـفْلَلِ   يَفرعُ[١] أَحـياناً وَحِـيناً يَـختَلِي[٢]

ومعنى هذا الشعر أنّ يزيد يقتفي أثر الرسول موسى والنبيّ محمّدﷺ وأنّه سيف الله البتّار، إلاّ أنّه كان مشهوراً على أولياء الله وأحبائه.

الأحوص

ومدحه الشاعر الأحوص بقصيدة جاء فيها:

مَلِكٌ تَـدِينُ لَـهُ المُـلوكُ مُـبارَكٌ   كـادَت لِـهَيبَتِهِ الجِـبالُ تَـزُولُ
تُـجبَىٰ لَـهُ بَـلْخٌ وَدِجَـلةُ كُـلُّها   وَلَهُ الفُراتُ وَما سقى وَالنِّيلُ[٣]

أنا لا أدري من أين جاءته تلك الهيبة التي تخضع لها الجباه، وتزول منها الجبال، من إدمانه على الخمر ومزاملته للقرود، ولعبه بالكلاب واقترافه للجرائم والموبقات؟!!

مسكين الدارمي

ومن الشعراء المرتزقة مسكين الدارمي، وقد أوعز إليه معاوية أن يحثّه على بيعة يزيد أمام من كان عنده من بني أُمية وأشراف أهل الشام، فدخل مسكين على معاوية، فلمّا رأى مجلسه حاشداً بالناس رفع عقيرته:

إنْ أُدعَ مِسْكِيناً فَـإنِّي ابـنُ مَـعشَرٍ   مِـنَ النّـاسِ أَحْـمِي عَـنهُمُ وَأَذُودُ
أَلَا لَيْتَ شِعْري ما يَقولُ ابنُ عامرٍ   وَمَـروانُ أَمْ مـاذا يَـقُولُ سَـعِيدُ
بَـنِي خُـلَفاءِ اللهِ مَـهلاً فَـإنَّما   يُـبَوِّءُها الرَّحـمـٰنُ حيثُ يُـرِيدُ

---

(١) **يفرع**: يعلو رؤوس الناس ـ لسان العرب: ١٠: ٢٣٨ ـ فرع.
(٢) شعراء النصرانيّة بعد الإسلام: ٢٣٤.
(٣) تاريخ مدينة دمشق: ٣٢: ٢١٥ و ٢١٦.

إِذَا المِنبرُ الغَربيُّ خَلَّاهُ رَبُّهُ فَإِنَّ أَميرالمُؤمنينَ يَزِيدُ
عَلَى الطّائِرِ المَيمُونِ وَالجَدُّ ساعِدٌ لِكُلِّ أُناسٍ طائِرٌ وَجُدُودُ
فَلَا زِلْتَ أَعْلَى النّاسِ كَعْباًوَلَمْ تَزَلْ وُفُودٌ تُسامِيها إِلَيكَ وُفُودُ
وَلَا زالَ بَيتُ المُلْكِ فَوقَكَ عالِياً تُشَيَّدُ أَطنابٌ لَهُ وَعَمُودُ(١)

هؤلاء بعض الشعراء الذين مدحوا يزيد، وافتعلوا له المآثر لتغطية ما ذاع عنه من الدعارة والمجون.

الشاعر أبو حزابة ويزيد

أمّا أبو حزابة فهو من شعراء تميم، وقد ألحّ عليه قومه بالوفود إلى يزيد، وقالوا له: إنّك ستتشرف بمصيرك إليه، فأنكر عليهم ذلك، وقال:

يُشَرِّفُني سَيفي وَقَلبٌ مُجانِبٌ لِكُلِّ لَئِيمٍ باخِلٍ وَمُعَلْهَجِ

وَلَما أكثر عليه قومه في الوفادة على يزيد أتاه، فلم يسمح له بالدخول، فرجع إلى قومه، وقال:

فَوَاللهِ لَا آتِي يَزيدَ وَلَوْ حَوَتْ أَنامِلُهُ ما بَينَ شَرقٍ إِلىٰ غَربِ
لِأَنَّ يَزِيداً غَيَّرَ اللهُ ما بِهِ جَنُوحٌ إِلَى السَّوْأىٰ مُصِرٌّ عَلَى الذَّنْبِ

وأخذ يهجوه ويهجو بني حرب، وكان مما هجاه:

أَيَشْرَبُها صِرْفاً إِذَا اللَّيلُ جَنَّهُ مُعَتَّقَةً كالمِسْكِ تَختالُ في العُلْبِ
وَيَلْحَىٰ عَلَيها شارِبِيْها وَقَلْبُهُ يَهِيمُ بِها إِنْ غابَ يَوماً عَنِ الشُّربِ(٢)

---

(١) الأغاني: ٢٠: ١٦٤ و ١٦٥. تاريخ آداب اللغة العربية (ضمن سلسلة مؤلفات جرجي زيدان): ١٣: ١٨٣ و ١٨٤.
(٢) الأغاني: ٢٢: ١٩١.

الثانية: بذل الأموال للوجوه

وأنفق معاوية الأموال الطائلة بسخاء للوجوه والأشراف ليقرّوه على فرض ولده السكّير خليفة على المسلمين.

ويقول المؤرخون: إنه أعطى عبد الله بن عمر مائة ألف درهم فقبلها منه[١]، وكان ابن عمر من أصلب المدافعين عن بيعة يزيد، وقد نقم على الإمام الحسين عليه السلام في خروجه عليه، وسنذكر ذلك بمزيد من التفصيل في البحوث الآتية.

الثالثة: مراسلة الولاة

وراسل معاوية جميع عمّاله وولاته في الأقاليم الإسلامية بعزمه على عقد البيعة ليزيد[٢]، وأمرهم بتنفيذ مايلي:

أوّلاً: إذاعة ذلك بين الجماهير الشعبية، وإعلامها بما صمّمت عليه حكومة دمشق من عقد الخلافة ليزيد[٣].

ثانياً: الإيعاز للخطباء وسائر أجهزة الإعلام بالثناء على يزيد، وافتعال المآثر له.

ثالثاً: إرسال الوفود إليه من الشخصيات الإسلامية حتّى يتعرف على رأيها في البيعة ليزيد[٤]. وقام الولاة بتنفيذ ما عهد إليهم، فأذاعوا ما صمّم عليه معاوية من عقد البيعة ليزيد، كما أوعزوا للخطباء وغيرهم بالثناء على يزيد.

الرابعة: وفود الأقطار الإسلامية

واتّصلت الحكومات المحليّة في الأقطار الإسلامية بقادة الفكر، فعرضت عليهم

---

(١) و (٤) الكامل في التاريخ: ٣: ٢٥٠.

(٢) الإمامة والسياسة: ١: ١٧٥. مروج الذهب: ٣: ٢٨. البداية والنهاية: ٨: ٨٣.

(٣) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥١٩.

ما عزم عليه معاوية من تولية ولده للخلافة، وطلبوا منهم السفر فوراً إلى دمشق لعرض آرائهم على معاوية، وسافرت الوفود إلى دمشق وكان في طليعتهم:

١ ـ الوفد العراقي بقيادة زعيم العراق الأحنف بن قيس.

٢ ـ الوفد المدني بقيادة محمّد بن عمرو بن حزم[1].

وانتهت الوفود إلى دمشق لعرض آرائها على عاهل الشام، وقد قام معاوية بضيافتهم والإحسان إليهم.

مؤتمر الوفود الإسلامية

وعقدت وفود الأقطار الإسلامية مؤتمراً في البلاط الأُموي في دمشق لعرض آرائها في البيعة ليزيد، وقد افتتح المؤتمر معاوية بالثناء على الإسلام، ولزوم طاعة ولاة الأُمور، ثمّ ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة ودعاهم لبيعته.

المؤيدون للبيعة

وانبرت كوكبة من أقطاب الحزب الأُموي فأيّدوا معاوية وحثّوه على الإسراع للبيعة وهم:

١ ـ الضحّاك بن قيس.

٢ ـ عبد الرحمن بن عثمان الثقفي.

٣ ـ ثور بن معن السلمي.

٤ ـ عبد الله بن عضاة الأشعري[2].

٥ ـ عبد الله بن مسعدة.

---

(١) الكامل في التاريخ: ٣: ٢٥٠.

(٢) مروج الذهب: ٣: ٢٧.

وكان معاوية قد عهد إليهم بالقيام بتأييده ، والردّ على المعارضين له .

ومن بينهم عمرو بن سعيد ، قال له معاوية : قم يا أبا أُمية ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإنّ يزيد بن معاوية أصل تأملونه وأجل تأمنونه ، إن استضفتم إلى حلمه وسعكم ، وإن احتجتم إلى رأيه أرشدكم ، وإن افتقدتم إلى ذات يده أغناكم . جذع قارح سُوبق فسبق ، وموجد فمجد ، وقورع فخرج ، فهو خلف أمير المؤمنين ولا خلف منه .

فقال معاوية : أوسعت يا أبا أُميَّة ، فاجلس[(١)] .

خطاب الأحنف بن قيس

وانبرى إلى الخطابة زعيم العراق وسيد تميم الأحنف بن قيس الذي تقول فيه ميسون أمّ يزيد : لو لم يكن في العراق إلّا هذا لكفاهم[(٢)] ، وتقدم فحمد الله وأثنى عليه ثمّ التفت إلى معاوية ، قائلاً : أصلح الله أميرالمؤمنين ، إنّ الناس في منكر زمان قد سلف ، ومعروف زمان مؤتنف ، ويزيد ابن أميرالمؤمنين نعم الخلف ، وقد حلبت الدهر أشطره . يا أميرالمؤمنين ، فاعرف من تسند إليه الأمر من بعدك ، ثمّ أعصِ أمر من يأمرك ، ولا يغررك من يشير عليك ، ولا ينظر لك ، وأنت أنظر للجماعة ، وأعلم باستقامة الطاعة ، مع أنّ أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ، ولا يبايعون ليزيد ماكان الحسن حيّاً[(٣)] .

وأثار خطاب الأحنف موجة من الغضب والاستياء عند الحزب الأُموي ، فاندفع الضحّاك بن قيس منددّاً به ، وشتم أهل العراق ، وقدح بالإمام الحسن عليه السلام ،

---

(١) عيون الأخبار : ١ : ١٦٩ .

(٢) التذكرة الحمدونية / ابن حمدون : ٨١ .

(٣) الغدير : ١٠ : ٢٣١ . الإمامة والسياسة : ١ : ١٦٩ . مروج الذهب : ٣ : ٢٧ .

ودعا الوفد العراقي إلى الإخلاص لمعاوية ، والامتثال لما دعا إليه ، ولم يعنَ به الأحنف ، فقام ثانياً فنصح معاوية ودعاه إلى الوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه من تسليم الأمر إلى الحسن عليه السلام من بعده حسب اتفاقية الصلح التي كان من أبرز بنودها إرجاع الخلافة من بعده إلى الإمام الحسن عليه السلام ، كما أنّه هدد معاوية بإعلان الحرب إذا لم يفِ بذلك .

فشل المؤتمر

وفشل المؤتمر فشلاً ذريعاً بعد خطاب الزعيم الكبير الأحنف بن قيس ، ووقع نزاع حادّ بين أعضاء الوفود وأعضاء الحزب الأُموي ، وانبرى يزيد بن المقنّع فهدد المعارضين باستعمال القوة قائلاً : أميرالمؤمنين هذا ـ وأشار إلى معاوية ـ فإن هَلَك فهذا ـ وأشار إلى يزيد ـ فمن أبى فهذا وأشار إلى سيفه .

فاستحسن معاوية قوله ، وراح يقول له : اجلس فأنت سيد الخطباء وأكرمهم .

ولم يعنَ به الأحنف بن قيس فانبرى إلى معاوية فدعاه إلى الإمساك عن بيعة يزيد ، وألّا يقدّم أحداً على الحسن والحسين عليهما السلام ، وأعرض عنه معاوية ، وبقي مصرّاً على فكرته التي هي أبعد ما تكون عن الإسلام[(١)] .

وعلى أية حال فإنّ المؤتمر لم يصل إلى النتيجة التي أرادها معاوية ، فقد استبان له أنّ بعض الوفود الإسلامية لا تقرّه على هذه البيعة ولا ترضى بها .

الخامسة : سفر معاوية ليثرب

وقرّر معاوية السفر إلى يثرب التي هي محطّ أنظار المسلمين ، وفيها أبناء الصحابة

---

(١) عيون الأخبار : ٢ : ٢١٠ . الإمامة والسياسة : ١ : ١٧١ . الفتوح : ٤ : ٣٣٣ . العقد الفريد : ٤ : ٣٧٠ . مروج الذهب : ٣ : ٢٨ .

الذين يمثّلون الجبهة المعارضة للبيعة ، فقد كانوا لا يرون يزيداً ندّاً لهم ، وأنّ أخذ البيعة له خروج على إرادة الأُمة ، وانحراف عن الشريعة الإسلامية التي لا تبيح ليزيد أن يتولى شؤون المسلمين ؛ لما عرف به من الاستهتار وتفسّخ الأخلاق .

وسافر معاوية إلى يثرب في زيارة رسمية ، وتحمّل أعباء السفر لتحويل الخلافة الإسلامية إلى ملك عضوض لا ظلّ فيه للحقّ والعدل .

اجتماع مغلق

وفور وصول معاوية إلى يثرب أمر باحضار عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وعقد معهم اجتماعاً مغلقاً ، ولم يحضر معهم الحسن والحسين عليهما السلام ؛ لأنّه قد عاهد الحسن عليه السلام أن تكون الخلافة له من بعده ، فكيف يجتمع به ، وماذا يقول له ؟! وقد أمر حاجبه ألّا يسمح لأيّ أحد بالدخول عليه حتّى ينتهي حديثه معهم .

كلمة معاوية

وابتدأ معاوية الحديث بحمد الله والثناء عليه ، وصلى على نبيّه ، ثم قال : « أمّا بعد ، فقدكبر سني ، ووهن عظمي ، وقرب أجلي ، وأوشكت أن أُدعى فأُجيب ؟ وقد رأيت أن أستخلف بعدي يزيد ، ورأيته لكم رضاً وأنتم عبادلة قريش وخيارهم ، وأبناء خيارهم ، ولم يمنعني أن أحضر حسناً وحسيناً إلّا أنّهما أولاد أبيهما عليّ ، على حسن رأي فيهما وشدّة محبتي لهما ، فردّوا على أمير المؤمنين خيراً رحمكم الله»[1].

ولم يستعمل معهم الشدّة والإرهاب ؛ استجلاباً لعواطفهم ، ولم يخفَ عليهم ذلك ، فانبروا جميعاً إلى الإنكار عليه .

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ١٧٢ .

كلمة عبد الله بن عباس

وأوّل من كلّمه عبد الله بن عباس ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

« أمّا بعد ، فإنّك قد تكلّمت فأنصتنا ، وقلت فسمعنا ، وأنّ الله ـ جلّ ثناؤه ، وتقدّست أسماؤه ـ اختار محمّداً صلى‌الله‌عليه‌وآله لرسالته ، واختاره لوحيه وشرّفه على خلقه ، فأشرف الناس من تشرّف به ، وأولاهم بالأمر أخصّهم به ، وإنّما على الأُمة التسليم لنبيّها إذ اختاره الله لها ، فإنّه إنّما اختار محمّداً بعلمه ، وهو العليم الخبير ، واستغفر الله لي ولكم »(١) .

وكانت دعوة ابن عباس صريحة في إرجاع الخلافة لأهل البيت عليهم‌السلام الذين هم ألصق الناس برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وأمسّهم به رحماً ، فإنّ الخلافة إنّما هي امتداد لمركز رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، فأهل بيته أحقّ بمقامه وأولى بمكانته .

كلمة عبد الله بن جعفر

وانبرى عبد الله بن جعفر ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

« أمّا بعد ، فإنّ هذه الخلافة إن أُخذ فيها بالقرآن ، فأُولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، وإن أُخذ فيها بسنة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، فأُولو رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، وإن أُخذ فيها بسنة الشيخين أبي بكر وعمر ، فأيّ الناس أفضل وأكمل وأحقّ بهذا الأمر من آل الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ؟!

وأيم الله لو ولوه بعد نبيهم لوضعوا الأمر موضعه لحقّه وصدقه ، ولأُطيع الرحمن ، وعُصي الشيطان ، وما اختلف في الأُمة سيفان ، فاتقِ الله يا معاوية فإنّك قد صرت راعياً ونحن رعيّة ، فانظر لرعيّتك فإنّك مسؤول عنها غداً ، وأمّا ما ذكرت من ابني عمّي وتركك أن تحضرهما ، فوالله ما أصبت الحقّ ، ولا يجوز ذلك إلّا بهما ،

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ١٧٢ .

وأنّك لتعلم أنّهما معدن العلم والكرم ، فقل أو دع ، واستغفر الله لي ولكم »[١] .

وحفل هذا الخطاب بالدعوة إلى الحقّ والإخلاص للأُمة ، فقد رشّح أهل البيت عليهم‌السلام للخلافة وقيادة الأُمة ، وحذّره من صرفها عنهم كما فعل غيره من الخلفاء ، فكان من جرّاء ذلك أن مُنيت الأُمة بالأزمات والنكسات ، وعانت أعنف المشاكل وأقسى الحوادث .

كلمة عبد الله بن الزبير

وانطلق عبد الله بن الزبير للخطابة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أمّا بعد ، فإنّ هذه الخلافة لقريش خاصة تتناولها بمآثرها السنية ، وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء ، وكرم الأبناء ، فاتقِ الله يا معاوية ، وأنصف نفسك ، فإنّ هذا عبد الله بن عباس ابن عمّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، وهذا عبد الله بن جعفر ذي الجناحين ابن عمّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، وعليّ خلّف حسناً وحسيناً وأنت تعلم من هما وما هما ، فاتقِ الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك »[٢] .

وقد رشّح ابن الزبير هؤلاء النفر للخلافة ، وقد حفّزهم بذلك لمعارضة معاوية وإفساد مهمته .

كلمة عبد الله بن عمر

واندفع عبد الله بن عمر ، فقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه :

« أمّا بعد ، فإنّ هذه الخلافة ليست بِهِرَقلِيّة ، ولا قيصريّة ، ولا كسرويّة يتوارثها

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ١٧٣ .

(٢) الإمامة والسياسة : ١ : ١٧٣ .

الأبناء عن الآباء، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبي، فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى، إلّا على أنّ الخلافة ليست شرطاً مشروطاً، وإنّما هي في قريش خاصة لمن كان لها أهلاً ممّن ارتضاه المسلمون لأنفسهم ممّن كان أتقى وأرضى، فإن كنت تريد الفتيان من قريش فلعمري إنّ يزيد من فتيانها، واعلم أنّه لا يغني عنك من الله شيئاً»[١].

ولم تعبر كلمات العبادلة عن شعورهم الفردي، وإنّما عبّرت تعبيراً صادقاً عن رأي الأغلبية الساحقة من المسلمين الذين كرهوا خلافة يزيد، ولم يرضوا بها.

كلمة معاوية

وثقل على معاوية كلامهم، ولم يجد ثغرة ينفذ منها للحصول على رضاهم، فراح يشيد بابنه، فقال:

«قد قلت وقلتم، وأنّه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء، فابني أحبّ إليّ من أبنائهم، مع أنّ ابني إن قاولتموه وجد مقالاً، وإنّما كان هذا الأمر لبني عبد مناف؛ لأنّهم أهل رسول الله، فلمّا مضى رسول الله وليَ الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك والخلافة غير أنهما سارا بسيرة جميلة ثمّ رجع الملك إلى بني عبد مناف فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة، وقد أخرجك الله يابن الزبير، وأنت يابن عمر منها، فأمّا ابنا عمّي هذان فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله»[٢].

وانتهى اجتماع معاوية بالعبادلة، وقد أخفق فيه إخفاقاً ذريعاً، فقد استبان له أنّ القوم مصممون على رفض بيعة يزيد، وعلى أثر ذلك غادر يثرب، ولم تذكر المصادر التي بأيدينا اجتماعه بسبطي رسول الله صلّى الله عليه وآله، فقد أهملت ذلك، وأكبر

---

(١) الإمامة والسياسة: ١: ١٧٤.

(٢) الإمامة والسياسة: ١: ١٧٤. جمهرة خطب العرب: ٢: ٢٤٩.

الظنّ أنّه لم يجتمع بهما .

فزع المسلمين

وذعر المسلمون حينما وافتهم الأنباء بتصميم معاوية على فرض ابنه خليفة عليهم ، وكان من أشدّ المسلمين خوفاً المدنيون والكوفيون ، فقد عرفوا واقع يزيد ، ووقفوا على اتجاهاته المعادية للإسلام .

يقول توماس آرنولد : «كان تقرير معاوية للمبدأ الوراثي نقلة خطيرة في حياة المسلمين الذين ألفوا البيعة والشورى ، والنظم الأُولى في الإسلام وهم بعد قريبون منها ، ولهذا أحسّوا ـ وخاصة في مكة والمدينة حيث كانوا يتمسكون بالأحاديث والسنن النبوية الأُولى ـ أنّ الأُمويين نقلوا الخلافة إلى حكم زمني متأثر بأسباب دنيوية ، مطبوع بالعظمة وحبّ الذات بدلاً من أن يحتفظوا بتقوى النبيّ وبساطته»[١].

لقد كان إقدام معاوية على فرض ابنه يزيد حاكماً على المسلمين تحوّلا خطيراً في حياة المسلمين الذين لم يألفوا مثل هذا النظام الثقيل الذي فرض عليهم بقوة السلاح .

رأي السيدة عائشة في بيعة يزيد

روى الأسود بن يزيد ، قال : « قلت لعائشة : ألا تعجبين من رجل من الطلقاء ينازع أصحاب محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله في الخلافة ؟ !

قالت : وما العجب من ذلك ! هو سلطان الله يؤتيه البر والفاجر ، وقد ملك فرعون أهل مصر أربعمائة سنة »[٢].

---

(١) الخلافة الإسلاميّة / توماس آرنولد : ١٠.

(٢) الغدير : ٧: ١٤٧. الدرّ المنثور : ٧: ٣٨٣.

الجبهة المعارضة

وأعلن الأحرار والمصلحون في العالم الإسلامي رفضهم القاطع لبيعة يزيد، ولم يرضوا به حاكماً على المسلمين، وفيما يلي بعضهم.

أوّلاً: الإمام الحسين عليه السلام

وفي طليعة المعارضين لبيعة يزيد الإمام الحسين عليه السلام، فقد كان يحتقر يزيد، ويكره طباعه الذميمة، ووصفه بأنّه صاحب شراب وقنص، وأنّه قد لزم طاعة الشيطان وترك طاعة الرحمن، وأظهر الفساد، وعطّل الحدود، واستأثر بالفيء، وأحلّ حرام الله وحرّم حلاله[1]، وإذا كان بهذه الضعة فكيف يبايعه ويقرّه حاكماً على المسلمين.

ولمّا دعاه الوليد إلى بيعة يزيد قال له الإمام الحسين عليه السلام: «**أَيُّها الْأَمِيرُ، إِنّا أَهْلُ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، وَمَعْدِنُ الرِّسالَةِ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ، وَمَحَلُّ الرَّحْمَةِ، بِنا فَتَحَ اللهُ، وَبِنا يَخْتِمُ، وَيَزِيدُ رَجُلٌ فاسِقٌ، شارِبُ الْخَمْرِ، قاتِلُ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ، مُعْلِنٌ بِالْفِسْقِ، وَمِثْلِي لَا يُبايِعُ مِثْلَهُ**»[2].

ورفض بيعة يزيد جميع أفراد الأُسرة النبوية تبعاً لزعيمهم العظيم، ولم يشذّوا عنه.

وقابل معاوية الأُسرة النبوية بحرمان اقتصادي عقوبة لهم؛ لامتناعهم عن بيعة يزيد، فقد حبس عنهم العطاء سنة كاملة[3]، ولكن ذلك لم يثنهم عن عزمهم

---

(١) الكامل في التاريخ: ٣: ٢٨٠. الإمامة والسياسة: ١: ١٨١، ١٨٦. الفتوح: ٤: ٣٣٩.

(٢) اللهوف على قتلى الطفوف: ١٧. بحار الأنوار: ٤٤: ٣٢٥. الفتوح: ٥: ١٤. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ١: ١٨٤.

(٣) الكامل في التاريخ: ٣: ٢٥٢. الإمامة والسياسة: ١: ١٩٠ و ١٩١.

في شجب البيعة ورفضها.

ثانياً: عبد الرحمن بن أبي بكر

ومن الذين نقموا على بيعة يزيد عبد الرحمن بن أبي بكر، فقد وسمها بأنّها هرقلية كلّما مات هرقل قام مكانه هرقل آخر[١]، وأرسل إليه معاوية مائة ألف درهم ليشتري بها ضميره فأبى وقال: لا أبيع ديني[٢].

ثالثاً: عبد الله بن الزبير

ورفض عبد الله بن الزبير بيعة يزيد، ووصفه بقوله: «يزيد الخمور، ويزيد الفجور، ويزيد الفهود، ويزيد القرود، ويزيد الكلاب، ويزيد النشوات، ويزيد الفلوات»[٣]، ولمّا أجبرته السلطة المحلية في يثرب على البيعة فرّ منها إلى مكة.

رابعاً: المنذر بن الزبير

وكره المنذر بن الزبير بيعة يزيد وشجبها، وأدلى بحديث له عن فجور يزيد أمام أهل المدينة فقال: «إنّه قد أجازني بمائة ألف، ولا يمنعني ما صنع بي أن أُخبركم خبره والله إنّه ليشرب الخمر، والله إنّه ليسكر حتّى يدع الصلاة»[٤].

خامساً: عبد الرحمن بن سعيد

وامتنع عبد الرحمن بن سعيد من البيعة ليزيد، وقال في هجائه:

---

(١) الفتوح: ٤: ٣٣٥. الكامل في التاريخ: ٣: ٥٢٠. الاستيعاب: ٢: ٨٢٥.

(٢) الاستيعاب: ٢: ٨٢٥ و ٨٢٦. البداية والنهاية: ٨: ٩٢.

(٣) أنساب الأشراف: ٥: ٣٣٧. البداية والنهاية: ٨: ٢٢٢.

(٤) أنساب الأشراف: ٥: ٣٣٨. تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٦٧٢.

لَستَ مِـنّا وَلَـيسَ خـالُكَ مِـنّا   يا مُضيعَ الصَّـلاةِ لِـلشَّهَواتِ[١]

سادساً: عابس بن سعيد

ورفض عابس بن سعيد بيعة يزيد حينما دعاه إليها عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال له : أنا أعرف به منك ، وقد بعت دينك بدنياك[٢].

سابعاً: عبد الله بن حنظلة

وكان عبد الله بن حنظلة من أشدّ الناقمين على البيعة ليزيد ، وكان من الخارجين عليه في وقعة الحرّة ، وقد خاطب أهل المدينة فقال لهم : فوالله ما خرجنا على يزيد حتّى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء ، إنّ رجلاً ينكح الأُمهات والبنات ، ويشرب الخمر ، ويدع الصلاة ، والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت لله فيه بلاءً حسناً[٣] ، وكان يرتجز في تلك الواقعة :

بُـعْداً لِـمَن رامَ الفَسـادَ وَطَـغَىٰ   وَجـانبَ الحَـقَّ وَآيـاتِ الهُـدىٰ

لَا يُبعِدُ الرَّحمـٰنُ إلّا مَنْ عَصىٰ[٤]

موقف الأُسرة الأُموية

ونقم بعض الأُمويين على معاوية في عقده البيعة ليزيد ، ولكن لم تكن نقمتهم عليه مشفوعة بدافع ديني أو اجتماعي ، وإنّما كانت من أجل مصالحهم الشخصية الخاصة ؛ لأنّ معاوية قلّد ابنه الخلافة وحرمهم منها ، وفيما يلي بعض الناقمين :

---

(١) الحسين بن عليّ / علي جلال : ٢ : ٦. أنساب الأشراف : ٥ : ٣٤٢.

(٢) كتاب القضاة / الكندي : ٣١٠.

(٣) الطبقات الكبرى : ٥ : ٦٦.

(٤) تاريخ الأُمم والملوك : ٥ : ١٣.

أوّلاً: سعيد بن عثمان

وحينما عقد معاوية البيعة ليزيد أقبل سعيد بن عثمان إلى معاوية وقد رفع عقيرته قائلاً: علامَ جعلت ولدك يزيد ولي عهدك ؟! فوالله لأبي خير من أبيه، وأُمّي خير من أُمّه، وأنا خير منه، وقد ولّيناك فما عزلناك، وبنا نلت ما نلت.

فراوغ معاوية، وقال له: أمّا قولك: إنّ أباك خير من أبيه فقد صدقت، لعمر الله إنّ عثمان لخير مني.

وأمّا قولك: إنّ أُمّك خير من أُمّه، فحسب المرأة أن تكون في بيت قومها وأن يرضاها بعلها، وينجب ولدها.

وأمّا قولك: إنّك خير من يزيد، فوالله يابُني ما يسرني أنّ لي بيزيد ملء الغوطة مثلك.

وأمّا قولك: إنّكم ولّيتموني فما عزلتموني فما وليتموني وإنّما ولّاني من هو خير منكم عمر بن الخطاب فأقررتموني، وما كنت بئس الوالي لكم، لقد قمت بثأركم، وقتلت قتلة أبيكم، وجعلت الأمر فيكم، وأغنيت فقيركم، ورفعت الوضيع منكم. فكلمه يزيد فأرضاه، وجعله والياً على خراسان[1].

ثانياً: مروان بن الحكم

وشجب مروان بن الحكم البيعة ليزيد، وتقديمه عليه، فقد كان شيخ الأُمويين وزعيمهم، فقال له: أقم يابن أبي سفيان، واهدأ من تأميرك الصبيان، واعلم أنّ لك في قومك نظراء وأنّ لهم على مناوأتك وزراء.

فخادعه معاوية، وقال له: أنت نظير أميرالمؤمنين بعده، وفي كل شدّة عضده،

---

(١) الأغاني: ١٨: ٢٠٠ و ٢٠١. وفيات الأعيان: ٦: ٣٤٨.

فقد وليتك قومك ، وأعظمنا في الخراج سهمك ، وإنّا مجيزو وفدك ومحسنو رفدك[١].

وقال مروان لمعاوية : جئتم بها هرقلية تبايعون لأبنائكم[٢].

ثالثاً: زياد بن أبيه

وكره زياد ابن أبيه بيعة معاوية لولده ، وذلك لما عرف به من الاستهتار والخلاعة والمجون.

ويقول المؤرخون : إنّ معاوية كتب إليه يدعوه إلى أخذ البيعة بولاية العهد ليزيد ، وإنّه ليس أولى من المغيرة بن شعبة ، فلمّا قرأكتابه دعا برجل من أصحابه كان يأتمنه حيث لا يأتمن أحداً غيره ، فقال له : إنّي أُريد أن ائتمنك على ما لم ائتمن عليه بطون الصحائف ، ائتِ معاوية وقل له : يا أميرالمؤمنين ، إنّ كتابك ورد عليّ بكذا ، فماذا يقول الناس ؟! إنّا دعوناهم إلى بيعة يزيد ، وهو يلعب بالكلاب والقرود ، ويلبس المصبغ ، ويدمن الشراب ، ويمسي على الدفوف ، ويحضرهم ـ أي الناس ـ الحسين بن علي ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، ولكن تأمره أن يتخلّق بأخلاق هؤلاء حولاً أو حولين ، فعسانا أن نموّه على الناس.

وسار الرسول إلى معاوية فأدّى إليه رسالة زياد ، فاستشاط غضباً وراح يتهدده ويقول : ويلي على ابن عبيد ، لقد بلغني أنّ الحادي حدا له أنّ الأمير بعدي زياد ، والله لأردّنه إلى أُمه سميّة وإلى أبيه عبيد[٣].

هؤلاء بعض الناقدين لمعاوية من الأُسرة الأُموية وغيرهم في توليته لخليعه يزيد

---

(١) الإمامة والسياسة : ١: ١٧٧.

(٢) الإسلام والحضارة العربيّة : ٢: ٣٩٥.

(٣) تاريخ اليعقوبي : ٢: ١٢٨.

خليفة على المسلمين.

إيقاع الخلاف بين الأُمويين

واتبع معاوية سياسة التفريق بين الأُمويين حتّى يصفو الأمر لولده يزيد، فقدعزل عامله على يثرب سعيد بن العاص، واستعمل مكانه مروان بن الحكم، ثمّ عزل مروان واستعمل سعيداً مكانه، وأمره بهدم داره، ومصادرة أمواله، فأبى سعيد من تنفيذ ما أمره به معاوية فعزله، وولّى مكانه مروان، وأمره بمصادرة أموال سعيد وهدم داره فلمّا همّ مروان بتنفيذ ما عهد إليه أقبل إليه سعيد وأطلعه على كتاب معاوية في شأنه، فامتنع مروان من القيام بما أمره معاوية، وكتب سعيد إلى معاوية رسالة يندد فيها بعمله، وقد جاء فيها: «العجب ممّا صنع أميرالمؤمنين بنا في قرابتنا له أن يضغن بعضنا على بعض، فأميرالمؤمنين في حلمه وصبره على ما يكره من الأخبثين، وعفوه وإدخاله القطيعة بنا، والشحناء وتوارث الأولاد ذلك»[١].

وعلّق عمر أبو النصر على سياسة التفريق التي تبعها معاوية مع أُسرته بقوله: «إنّ سبب هذه السياسة هو رغبة معاوية في إيقاع الخلاف بين أقاربه الذين يخشى نفوذهم على يزيد من بعده، فكان يضرب بعضهم ببعض حتّى يظلّوا بحاجة إلى عطفه وعنايته»[٢].

كما أنّه حاول أن يبث بين بني هاشم روح الفرقة والاختلاف؛ وذلك بتقديم عبدالله بن جعفر رضي الله عنه وجعله سيدهم، فوجد الرد الحاسم منه، والاعتراف والإذعان للسيدين الحسن والحسين عليهما السلام[٣].

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥١٢. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٤٦. تاريخ مدينة دمشق: ٢١: ١٢٧ و ١٢٨. البداية والنهاية: ٨: ٦٩.

(٢) السياسة عند العرب: ٩٨.

(٣) تنقيح المقال: ٢: ١٧٣.

تجميد البيعة

وجمّد معاوية رسمياً البيعة ليزيد إلى أجل آخر حتّى يتمّ له إزالة الحواجز والسدود التي تعترض طريقه.

ويقول المؤرخون: إنّه بعد ما التقى بعبادلة قريش في يثرب واطّلع على آرائهم المعادية لما ذهب إليه أوقف كل نشاط سياسي في ذلك، وأرجأ العمل إلى وقت آخر[١].

اغتيال الشخصيات الإسلامية

ورأى معاوية أنّه لا يمكن بأية حال تحقيق ما يصبو إليه من تقليد ولده الخلافة مع وجود الشخصيات الرفيعة التي تتمتع باحترام بالغ في نفوس المسلمين، فعزم على القيام باغتيالهم ليصفو له الجو، فلا يبقى أمامه أيّ مزاحم، وقد قام باغتيال الذوات التالية:

الأوّل: سعد بن أبي وقاص

ولسعد المكانة العليا في نفوس الكثيرين من المسلمين، فهو أحد أعضاء الشورى ومن المرشحين وفاتح العراق، وقد ثقل مركزه على معاوية فدسَّ إليه سمّاً فمات منه[٢].

الثاني: عبد الرحمن بن خالد

وأخلص أهل الشام لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وأحبوه كثيراً، وقد شاورهم معاوية فيمن يعقد له البيعة بعد وفاته، فقالوا له: رضينا بعبد الرحمن بن خالد،

---

(١) الإمامة والسياسة: ١: ١٧٤.

(٢) مقاتل الطالبيّين: ٦٠.

فشقّ ذلك عليه وأسرّها في نفسه ، ومرض عبدالرحمن ، فأمر معاوية طبيباً يهودياً ـ كان مكيناً عنده ـ أن يأتيه للعلاج فيسقيه سقية تقتله ، فسقاه الطبيب فمات على أثر ذلك[١] .

الثالث : عبد الرحمن بن أبي بكر

وكان عبد الرحمن بن أبي بكر من أقوى العناصر المعادية لبيعة معاوية لولده ، وقد أنكر عليه ذلك ، وبعث إليه معاوية بمائة ألف درهم فردّها عليه ، وقال : لا أبيع ديني بدنياي ، ولم يلبث أن مات فجأة بمكة[٢] ، وتعزو المصادر سبب وفاته إلى أنّ معاوية دسّ إليه سمّاً فقتله .

الرابع : الإمام الحسن عليه السلام

وقام معاوية باقتراف أعظم جريمة وإثم في الإسلام ، فقد عمد إلى اغتيال سبط النبيّ صلى الله عليه وآله وريحانته الإمام الحسن عليه السلام الذي عاهده بأن يكون الخليفة من بعده ، ولم يتحرّج الطاغية من هذه الجريمة في سبيل إنشاء دولة أُموية تنتقل بالوراثة إلى أبنائه وأعقابه .

وقد وصفه (الميجر أوزبورن) بأنّه مخادع وذو قلب خالٍ من كل شفقة ، وأنّه كان لا يتهيب من الإقدام على أيّة جريمة من أجل أن يضمن مركزه ، فالقتل إحدى وسائله لإزالة خصومه ، وهو الذي دبّر تسميم حفيد الرسول صلى الله عليه وآله كما تخلّص من

---

(١) الاستيعاب : ٢ : ٨٣٠ . المنتظم : ٥ : ٢١٧ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٢٥ . الأغاني : ١٦ : ٤١٧ و ٤١٨ ، وفيه : « أنّ خالد بن المهاجر ابن أخي عبدالرحمن قد قتل الطبيب ، فأُخذ وأُتي به معاوية . فقال له : لاجزاك الله من زائر خيراً ، قتلت طبيبي .

قال : قتلت المأمور وبقي الآمر » .

(٢) الاستيعاب : ٨٢٥ و ٨٢٦ .

مالك الأشتر قائد عليّ بنفس الطريقة[(١)].

وقد استعرض الطاغية السفّاكين ليعهد إليهم القيام باغتيال ريحانة النبيّ صلى الله عليه وآله، فلم يرَ أحداً خليقاً بارتكاب الجريمة سوى جعدة بنت الأشعث[(٢)]، فإنّها من بيت قد جُبل على المكر وطبع على الغدر والخيانة، فأرسل إلى مروان بن الحكم سمّاً فاتكاً كان قد جلبه من ملك الروم، وأمره بأن يغري جعدة بالأموال وزواج ولده يزيد إذا استجابت له، وفاوضها مروان سرّاً ففرحت، فأخذت منه السم ودسّته للإمام الحسن عليه السلام وكان صائماً في وقت ملتهب من شدّة الحر، ولمّا وصل إلى جوفه تقطّعت أمعاؤه، والتفت إلى الخبيثة فقال لها: «**قَتَلْتِينِي قَتَلَكِ اللهُ، وَاللهِ لَا تُصِيبِينَ مِنِّي خَلَفاً، لَقَدْ غَرَّكِ** ـ يعني معاوية ـ **وَسَخِرَ مِنكِ، يُخْزِيكِ اللهُ وَيُخْزِيهِ**»[(٣)].

وأخذ حفيد الرسول صلى الله عليه وآله يعاني الآلام الموجعة من شدّة السم، وقد ذبلت نضارته واصفرّ لونه حتّى وافاه الأجل المحتوم، وقد ذكرنا تفصيل وفاته مع ما رافقها من الأحداث في كتابنا (حياة الإمام الحسن بن علي عليهما السلام).

إعلان البيعة رسمياً

وصفا الجو لمعاوية بعد اغتياله لسبط الرسول صلى الله عليه وآله وريحانته، فقد قضى على مَنْ كان يحذر منه، وقد استتبت له الأُمور، وخلت الساحة من أقوى المعارضين له، وكتب إلى جميع عمّاله أن يبادروا دونما أيّ تأخير إلى أخذ البيعة ليزيد، ويرغموا المسلمين على قبولها، وأسرع الولاة في أخذ البيعة من الناس، ومن تخلّف عنها نال أقصى العقوبات الصارمة.

---

(١) روح الإسلام: ٢٩٥.

(٢) الكامل في التاريخ: ٣: ٢٢٨. البداية والنهاية: ٨: ٤٤ و ٤٥.

(٣) منتهى الآمال: ١: ٣٢٦.

مع المعارضين في يثرب

وامتنعت يثرب من البيعة ليزيد ، وأعلن زعماؤها وعلى رأسهم الإمام الحسين عليه السلام رفضهم القاطع للبيعة ، ورفعت السلطة المحلّية ذلك إلى معاوية ، فرأى أن يسافر إلى يثرب ليتولى بنفسه إقناع المعارضين ، فإن أبوا أجبرهم على ذلك ، واتجه معاوية إلى يثرب في موكب رسمي تحوطه قوة هائلة من الجيش ، ولمّا انتهى إليها استقبله أعضاء المعارضة فجفاهم وهددهم ، وفي اليوم الثاني أرسل إلى الإمام الحسين عليه السلام وإلى عبد الله بن عباس ، فلمّا مَثُلا عنده قابلهما بالتكريم والحفاوة ، وأخذ يسأل الحسين عليه السلام عن أبناء أخيه والإمام الحسين عليه السلام يجيبه ، ثمّ خطب معاوية فأشاد بالنبي صلى الله عليه وآله وأثنى عليه ، وعرض إلى بيعة يزيد ومنح ابنه الألقاب الفخمة والنعوت الكريمة ودعاهما إلى بيعته .

خطاب الإمام الحسين عليه السلام

وانبرى أبيُّ الضيم فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال :

« أَمّا بعدُ يا مُعاوِيَةُ ، فَلَنْ يُؤَدِّي الْمادِحُ وَإِنْ أَطْنَبَ فِي صِفَةِ الرَّسولِ صلى الله عليه وآله مِن جَمِيعِ جُزْءاً ، وَقَدْ فَهِمْتُ ما لَبستَ بِهِ الْخَلَفَ بَعْدَ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله مِنْ إيْجازِ الصِّفَةِ ، وَالتَّنَكُّبِ عَنِ اسْتِبلَاغِ النَّعْتِ ، وَهَيْهاتَ هَيْهاتَ يا مُعاوِيَةُ ! فَضَحَ الصُّبْحُ فَحْمَةَ الدُّجىٰ ، وَبَهَرَتِ الشَّمْسُ أنوارَ السُّرُجِ ، وَلَقَدْ فَضَّلْتَ حَتّىٰ أَفْرَطْتَ ، وَاسْتَأْثَرْتَ حَتّىٰ أَجْحَفْتَ ، وَمَنَعْتَ حَتّىٰ بَخِلْتَ ، وَجُرْتَ حَتّىٰ جاوَزْتَ ، ما بَذَلْتَ لِذي حَقٍّ مِنْ أَتَمِّ حَقِّهِ مِنْ نَصِيبٍ حَتّىٰ أَخَذَ الشَّيْطانُ حَظَّهُ الْأَوْفَرَ ، وَنَصِيبَهُ الْأَكْمَلَ .

وَفَهِمْتُ ما ذَكَرْتَهُ عَنْ يَزِيدَ مِن اكْتِمالِهِ وَسِياسَتِهِ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله ،

تُرِيدُ أَنْ تُوهِمَ النّاسَ في يَزيدَ ، كَأَنَّكَ تَصِفُ مَحْجُوباً ، أَوْ تنعَتُ غائِباً ، أَوْ تُخْبِرُ عَمّا كانَ مِمّا احْتَوَيْتَهُ بِعِلْمٍ خاصٍّ ، وَقَدْ دَلَّ يَزيدُ مِنْ نَفْسِهِ عَلىٰ مَوْقِعِ رَأْيِهِ ، فَخُذْ لِيَزيدَ فِيما أَخَذَ بِهِ مِنِ اسْتِقرائِهِ الْكِلَابَ الْمُهارِشَةَ عِنْدَ التَّهارُشِ ، وَالْحَمامَ السُّبَّقَ لِأَتْرابِهِنَّ ، وَالْقِيانَ ذَواتِ الْمَعازِفِ ، وَضُروبَ الْمَلَاهِي تَجِدْهُ باصِراً .

وَدَعْ عَنْكَ ما تُحاوِلُ فَما أَغناكَ أَنْ تَلقَى اللهَ بِوِزْرِ هٰذَا الْخَلْقِ بِأَكْثَرِ مِمّا أَنْتَ لَاقِيهِ ، فَوَاللهِ ما بَرِحْتَ تَقْدَحُ باطِلاً في جَوْرٍ ، وَحَنَقاً في ظُلْمٍ ، حَتّىٰ مَلَأْتَ الْأَسْقِيَةَ ، وَما بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمُوتِ إِلَّا غَمْضَةٌ ، فَتَقْدِمَ عَلىٰ عَمَلٍ مَحْفُوظٍ في يَوْمٍ مَشْهُودٍ ، وَلَاتَ حِينَ مَناصٍ .

وَرَأَيْتُكَ عَرَضْتَ بِنا بَعْدَ هٰذَا الْأَمرِ ، وَمَنَعْتَنا عَنْ آبائِنا تُراثاً ، وَلَعَمْرُ اللهِ أَوْرَثَنا الرَّسولُ صلى الله عليه وآله وِلَادَةً وَجِئتَ لَنا بِها ما حَجَجْتُمْ بِهِ الْقائِمَ عِنْدَ مَوْتِ الرَّسولِ ، فَأَذْعَنَ لِلْحُجَّةِ بِذلِكَ وَرَدَّهُ الْإِيمانُ إِلَى النَّصَفِ ، فَرَكِبْتُمُ الْأَعالِيلَ ، وَفَعَلْتُمُ الْأَفاعِيلَ ، وَقُلْتُمْ : كانَ وَيَكُونُ ، حَتّىٰ أَتاكَ الْأَمرُ ـ يامُعاوِيَةُ ـ مِن طَرِيقٍ كانَ قَصْدُها لِغَيْرِكَ ، فَهُناكَ فَاعْتَبِروا يا أُولِي الْأَبْصارِ .

وَذَكَرْتَ قِيادَةَ الرَّجُلِ الْقَوْمَ بِعَهْدِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَتَأْمِيرَهُ لَهُ ، وَقَدْ كانَ ذَلِكَ وَلِعَمْرِو بْنِ الْعاصِ يَوْمَئِذٍ فَضِيلَةٌ بِصُحْبَةِ الرَّسولِ ، وَبَيْعَتِهِ لَهُ ، وَما صارَ لِعَمْرٍو يَوْمَئِذٍ مَبْعَثَهُمْ حَتّىٰ أَنِفَ الْقَوْمُ إِمْرَتَهُ ، وَكَرِهوا تَقْدِيمَهُ ، وَعَدوّا عَلَيْهِ أَفْعالَهُ ، فَقالَ صلى الله عليه وآله : لا جَرَمَ يا مَعْشَرَ الْمُهاجِرِينَ لا يَعْمَلُ عَلَيْكُمْ بَعْدَ الْيَوْمِ غَيْرِي .

فَكَيْفَ تَحْتَجُّ بِالْمَنسُوخِ مِنْ فِعْلِ الرَّسولِ في أَوْكَدِ الْأَحْكامِ ، وَأَوْلَاها بِالْمُجْتَمعِ عَلَيْهِ مِنَ الصَّوابِ ؟

أَمْ كَيْفَ صاحَبْتَ بِصاحِبٍ تابِعاً ؟ وَحَوْلَكَ مَنْ لَا يُؤْمَنُ في صُحْبَتِهِ ، وَلَا يُعْتَمَدُ فِي دِينِهِ وَقَرابَتِهِ ، وَتَتَخَطّاهُمْ إِلَىٰ مُسْرِفٍ مَفْتُونٍ ، تُرِيدُ أَنْ تُلَبِّسَ النّاسَ شُبْهَةً يَسْعَدُ بِها الْباقِي في دُنْياهُ وَتَشْقَىٰ بِها فِي آخِرَتِكَ ، إِنَّ هٰذا لَهُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ »[١] .

وفنّد الإمام الحسين عليه‌السلام في خطابه جميع شبهات معاوية وسدّ عليه جميع الطرق والنوافذ ، وحمّله المسؤولية الكبرى فيما أقدم عليه من إرغام المسلمين على البيعة لولده ، كما عرض للخلافة وما مُنيت به من الانحراف عمّا أرادها الله من أن تكون في العترة الطاهرة إلّا أنّ القوم زووها عنهم ، وحرفوها عن معدنها الأصيل .

وذهل معاوية من خطاب الإمام الحسين عليه‌السلام ، وضاقت عليه جميع السبل ، فقال لابن عباس : ما هذا يابن عباس ؟

فقال ابن عباس : لعمر الله إنّها لذرية الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ، وأحد أصحاب الكساء ، وفي البيت المطهر فالْهَ عمّا تريد ، فإنّ لك في الناس مقنعاً حتّى يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين[٢] .

ونهض أبيُّ الضيم وترك معاوية يتميّز من الغيظ ، وقد استبان له أنّه لا يتمكن أن يخدع الإمام الحسين عليه‌السلام ويأخذ البيعة منه .

---

(١) أعيان الشيعة : ١ : ٥٨٣ و ٥٨٤. الغدير : ١٠ : ٢٤٨ و ٢٤٩. الإمامة والسياسة : ١ : ١٨٦ و ١٨٧.

(٢) الإمامة والسياسة : ١ : ١٨٧.

إرغام المعارضين

وغادر معاوية يثرب متّجهاً إلى مكة وهو يطيل التفكير في أمر المعارضين، فرأى أن يعتمد على وسائل العنف والإرهاب، وحينما وصل إلى مكة أحضر الإمام الحسين عليه السلام، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وعرض عليهم مرة أُخرى البيعة إلى يزيد، فأعلنوا رفضهم لها، فانبرى إليهم مغضباً وقال: إنّي أتقدم إليكم أنّه قد أعذر من أنذر، إنّي كنت أخطب فيكم فيقوم إليّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح، وإنّي قائم بمقالة فأُقسم بالله لئن ردّ عليّ أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتّى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يسبقني رجل إلّا على نفسه(١).

ودعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال له: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين، ومع كل واحد سيف، فإن ذهب رجل منهم يردّ عليّ كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما(٢).

ثمّ خرج وخرجوا معه فرقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: إنّ هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، لا يبتز أمر دونهم، ولا يقضى إلّا عن مشورتهم، وأنّهم رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله. فبايعه الناس، ثمّ ركب رواحله، وغادر مكة(٣).

وقد حسب معاوية أنّ الأمر قد تمّ لولده، واستقر الملك في بيته، ولم يعلم أنّه قد جرّ الدمار على دولته، وأعدّ المجتمع للثورة على حكومة ولده.

---

(١) الكامل في التاريخ: ٣: ٢٥٢. تاريخ الإسلام (حوادث ٤١ ـ ٦٠): ١٥٢.

(٢) الكامل في التاريخ: ٣: ٢٥٢. الإمامة والسياسة: ١: ١٩٠.

(٣) الغدير: ١٠: ٢٥٣. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٥٢. ذيل الأمالي: ١٧٧. عيون الأخبار: ٢: ٢١٠. الفتوح: ٤: ٣٤٣.

موقف الإمام الحسين عليه السلام

كان موقف الإمام الحسين عليه السلام مع معاوية يتَّسم بالشدّة والصرامة ، فقد أخذ يدعو المسلمين بشكل سافر إلى مقاومة معاوية ، ويحذّرهم من سياسته الهدّامة الحاملة لشارات الدمار إلى الإسلام .

وفود الأقطار الإسلامية

وأخذت الوفود تترى على الإمام الحسين عليه السلام من جميع الأقطار الإسلامية وهي تعجّ بالشكوى إليه وتستغيث به ممّا ألمّ بها من الظلم والجور ، وتطلب منه القيام بإنقاذها من الاضطهاد ، ونقلت الاستخبارات في يثرب إلى السلطة المحلّية تجمع الناس واختلافهم عليه ، وكان الوالي مروان ، ففزع من ذلك وخاف إلى حدّ بعيد .

مذكرة مروان لمعاوية

ورفع مروان مذكرة لمعاوية سجّل فيها تخوّفه من تحرك الإمام الحسين عليه السلام ، واختلاف الناس عليه ، وهذا نصها : « أمّا بعد فقد كثر اختلاف الناس إلى حسين ، والله إنّي لأرى لكم منه يوماً عصيباً »[١] .

جواب معاوية

وأمره معاوية بعدم القيام بأيّة حركة مضادّة للإمام الحسين عليه السلام ، فقد كتب إليه :

« اترك حسيناً ما تركك ، ولم يظهر لك عداوته ويبدِ صفحته ، واكمن عنه كمون الثرى إن شاء الله ، والسلام »[٢] .

لقد خاف معاوية من تطور الأحداث ، فعهد إلى مروان بعدم التعرض له بأيّ أذى

---

(١) و (٢) أنساب الأشراف : ٣ : ٣٦٧ .

أو مكروه.

رأي مروان في إبعاد الإمام الحسين عليه السلام

واقترح مروان على معاوية إبعاد الإمام الحسين عليه السلام عن يثرب، وفرض الإقامة الجبرية عليه في الشام، ليقطعه عن الاتصال بأهل العراق، ولم يرتضِ معاوية ذلك فردّ عليه: «أردت والله أن تستريح منه وتبتليني به، فإن صبرتُ عليه صبرتُ على ما أكره، وإن أسأتُ إليه قطعتُ رحمه»[(١)].

رسالة معاوية للإمام الحسين عليه السلام

واضطرب معاوية من تحرّك الإمام الحسين عليه السلام، واختلاف الناس عليه فكتب إليه رسالة، وقد رويت بصورتين:

الأُولى: رواها البلاذري، وهذا نصها: «أمّا بعد، فقد أُنهيت إليّ عنك أُمور، إن كانت حقّاً فإنّي لم أظنّها بك رغبة عنها، وإن كانت باطلة فأنت أسعد الناس بمجانبتها، وبحظّ نفسك تبدأ، وبعهد الله توفي، فلا تحملني على قطيعتك والإساءة إليك، فإنّك متى تنكرني أنكرك، ومتى تكدني أكدك، فاتقِ الله يا حسين في شقّ عصا الأُمة، وأن تُردِهِم في فتنة»[(٢)].

الثانية: رواها ابن كثير، وهذا نصها: «إنّ من أعطى الله صفقة يمينه وعهده لجدير بالوفاء، وقد أُنبئت أنّ قوماً من أهل الكوفة قد دعوك إلى الشقاق، وأهل العراق من قد جرّبت، قد أفسدوا على أبيك وأخيك، فاتقِ الله، واذكر الميثاق، فإنّك متى تكدني أكدك»[(٣)].

---

(١) العقد الفريد: ٤: ٢٢.

(٢) أنساب الأشراف: ٣: ٣٦٧.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٣: ٢٩٤. البداية والنهاية: ٨: ١٦٤.

واحتوت هذه الرسالة ـ حسب النص الأخير ـ على ما يلي :

أوّلاً : أنّ معاوية قد طالبه بتنفيذ ما شرطه عليه في بنود الصلح ألاّ يخرج عليه ، وقد وفى له بذلك ، إلّا أنّ معاوية لم يفِ بشيء ممّا أبرمه على نفسه من شروط الصلح .

ثانياً : أنّ معاوية كان على علم بوفود أهل الكوفة التي دعت الإمام الحسين عليه السلام للخروج عليه ، وقد وسمهم بأنّهم أهل الشقاق ، وأنّهم قد غدروا بعليّ والحسن عليهما السلام من قبل .

ثالثاً : التهديد السافر للإمام الحسين عليه السلام بأنّه متى كاد معاوية فإنّه يكيده .

جواب الإمام الحسين عليه السلام

ورفع الإمام الحسين عليه السلام إلى معاوية مذكرة خطيرة كانت جواباً لرسالته حمّله مسؤوليات جميع ما وقع في البلاد من سفك الدماء ، وفقدان الأمن ، وتعريض الأُمة للأزمات ، وهي من أروع الوثائق الرسمية التي حفلت بذكر الأحداث التي صدرت من معاوية ، وهذا نصها :

أَمّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ أَنَّهُ انْتَهَتْ إِلَيْكَ عَنِّي أُمُورٌ أَنْتَ عَنْها راغِبٌ وَأَنا بِغَيْرِها عِنْدَكَ جَدِيرٌ ، وَإِنَّ الْحَسَناتِ لا يَهْدِي لَها وَلا يُسَدِّدُ إِلَيْها إِلَّا اللهُ تَعالىٰ .

وَأَمّا ما ذَكَرْتَ أَنَّهُ رَقىٰ إِلَيْكَ عَنِّي ، فَإِنَّهُ إِنَّما رَقاهُ إِلَيْكَ الْمَلّاقُونَ الْمَشّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ ، الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْجَمْعِ ، وَكَذِبَ الْغاوُونَ الْمارِقُونَ ، ما أَرَدْتُ لَكَ حَرْباً ، وَلا عَلَيْكَ خِلافاً ، وَإِنِّي لَأَخْشَى اللهَ فِي تَرْكِ ذٰلِكَ مِنْكَ ، وَمِنَ الْإِعْذارِ فِيهِ إِلَيْكَ وَإِلىٰ أَوْلِيائِكَ الْقاسِطِينَ الْمُحِلِّينَ حِزْبِ

الظَّلَمَةِ، وَأَعْوانِ الشَّيْطانِ الرَّجِيم.

أَلَسْتَ الْقاتِلَ حُجْرَ بْنَ عَدِيٍّ أَخا كِنْدَةَ وَأَصْحابَهُ الْمُصَلِّينَ الْعابِدِينَ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ كانُوا يُنْكِرونَ الظُّلْمَ، وَيَسْتَعْظِمونَ الْبِدَعَ، وَيَأْمُرونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلا يَخافونَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ، ثُمَّ قَتَلْتَهُمْ ظُلْماً وَعُدْواناً، مِنْ بَعْدِ ما أَعْطَيْتَهُمُ الْأَيْمانَ الْمُغَلَّظَةَ وَالْمَواثِيقَ الْمُؤَكَّدَةَ جُرْأَةً عَلَى اللهِ وَاسْتِخْفافاً بِعَهْدِهِ.

أَوَلَسْتَ قاتِلَ عَمْرِو بْنَ الْحَمِقِ الْخُزاعِيَّ صاحِبِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله الْعَبْدِ الصّالِحِ الَّذِي أَبْلَتْهُ الْعِبادَةُ فَنَحِلَ جِسْمُهُ وَاصْفَرَّ لَوْنُهُ، فَقَتَلْتَهُ بَعْدَ ما آمَنْتَهُ، وَأَعْطَيْتَهُ مِنَ الْعُهُودِ ما لَوْ فَهِمَتْهُ الْعُصْمُ لَنَزَلَتْ مِنْ شَعَفِ الْجِبالِ.

أَوَلَسْتَ الْمُدَّعِي زِيادَ بْنَ سُمَيَّةَ الْمَولُودَ عَلىٰ فِراشِ عُبَيدِ ثَقِيفٍ؟! فَزَعَمتَ أَنَّهُ ابْنُ أَبِيكَ، وَقَدْ قالَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: الْوَلَدُ لِلْفِراشِ وَلِلْعاهِرِ الْحَجَرُ، فَتَرَكْتَ سُنَّةَ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله تَعَمُّداً وَتَبِعْتَ هَواكَ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ، ثُمَّ سَلَّطْتَهُ عَلىٰ أَهْلِ الْإِسْلامِ يَقْتُلُهُمْ وَيُقَطِّعُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَيَسْمِلَ أَعْيُنَهُمْ، وَيَصْلِبُهُمْ عَلىٰ جُذُوعِ النَّخْلِ، كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ وَلَيْسوا مِنْكَ.

أَوَلَسْتَ قاتِلَ الْحضرَمِيِّ الَّذِي كَتَبَ فِيهِ إِلَيْكَ زِيادٌ أَنَّهُ عَلىٰ دِينِ عَلِيٍّ عليه السلام، فَكَتَبتَ إِلَيْهِ أَنِ اقْتُلْ كُلَّ مَنْ كانَ عَلىٰ دِينِ عَلِيٍّ فَقَتَلَهُمْ، وَمَثَّلَ بِهِمْ بِأَمْرِكَ، وَدِينُ عَلِيٍّ هُوَ دِينُ ابْنُ عَمِّهِ صلى الله عليه وآله الَّذِي أَجْلَسَكَ

مَجْلِسَكَ الَّذي أَنْتَ فِيهِ ، وَلَوْلا ذَلِكَ لكانَ شَرَفُكَ وَشَرَفُ آبائِكَ تَجَشُّمُ الرِّحْلَتَيْنِ ، رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيفِ .

وَقُلْتَ فِيما قُلْتَ : « انْظُرْ لِنَفسِكَ وَدِينِكَ وَلأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله ، وَاتَّقِ شَقَّ عَصا هـٰذِهِ الْأُمَّةِ ، وَأَنْ تُرْدِهِمْ في فِتْنَةٍ » ، وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِتْنَةً أَعْظَمُ عَلىٰ هـٰذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ وِلايَتِكَ عَلَيْها ، وَلَا أَعْظَمُ لِنَفْسِي وَلِدِينِي وَلِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله أَفْضَلَ مِنْ أَنْ أُجاهِرَكَ ، فَإِنْ فَعَلتُ فَإِنَّهُ قُرْبَةً إِلَى اللهِ ، وَإِلَى اللهِ ، وَإِنْ تَرَكْتُهُ فَإِنِّي اسْتَغْفِرُ اللهَ لِدِينِي ، وَأَسْأَلُهُ تَوْفِيقَهُ لِإِرْشادِ أَمْرِي .

وَقُلْتَ فِيما قُلْتَ : « إِنِّي إِنْ أَنْكَرْكَ تَنْكُرْنِي ، وَإِنْ أَكِدْكَ تَكِدْنِي » ، فَكِدْنِي ما بَدا لَكَ ، فَإِنِّي أَرْجُو أَلَّا يَضُرَّنِي كَيْدُكَ فِيَّ ، وَأَلَّا يَكُونَ عَلىٰ أَحَدٍ أَضَرَّ مِنْهُ عَلىٰ نَفْسِكَ ؛ لِأَنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ جَهلَكَ ، وَتَحَرَّصْتَ عَلىٰ نَقْضِ عَهْدِكَ .

وَلَعَمْرِي ما وَفَيْتَ بِشَرطٍ ، وَلَقَدْ نَقَضْتَ عَهْدَكَ بِقَتْلِ هـٰؤُلَاءِ النَّفَرِ الَّذِينَ قَتَلْتَهُمْ بَعْدَ الصُّلْحِ وَالْأَيْمانِ وَالْعُهُودِ وَالْمَواثِيقِ ، فَقَتَلْتَهُمْ مِن غَيْرِ أَنْ يَكُونوا قاتَلُوا وَقَتَلُوا ، وَلَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَّا لِذِكْرِهِمْ فَضْلَنا وَتَعْظِيمِهِمْ حَقَّنا وَمَخافَةَ أَمْرٍ لَعَلَّكَ لَوْ لَمْ تَقْتُلْهُمْ مِتَّ قَبْلَ أَنْ يَفعَلُوا ، أَوْ ماتُوا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكوا .

فَأَبْشِرْ ـ يا مُعاوِيَةُ ـ بِالْقَصاصِ ، وَاسْتَيْقِنْ بِالْحِسابِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ لِلّٰهِ تَعالىٰ كِتاباً لَا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلّا أَحْصاها . وَلَيسَ اللهُ بِناسٍ لِأَخْذِكَ بِالظِّنَّةِ وَقَتْلِكَ أَوْلِياءَهُ عَلَى التُّهَمِ ، وَنَفْيِكَ إِياهُمْ مِنْ دُورِهِمْ إِلى دارِ الْغُرْبَةِ ،

وَأَخْذِكَ النّاسَ بِبَيْعَةِ ابْنِكَ الْغُلَامِ الْحَدَثِ، يَشْرَبُ الشَّرابَ، وَيَلْعَبُ بِالْكِلَابِ، ما أَراكَ إِلّا قَدْ خَسِرْتَ نَفْسَكَ، وَتَبَّرْتَ دِينَكَ[1]، وغَشَشْتَ رَعِيَّتَكَ، وَأَخْزَيْتَ أَمانَتَكَ، وَسَمِعْتَ مَقالَةَ السَّفِيهِ الْجاهِلِ، وَأَخَفْتَ الْوَرِعَ التَّقِيَّ، وَالسَّلَامُ[2].

لا أكاد أعرف وثيقة سياسية في ذلك العهد عرضت لعبث السلطة، وسجّلت الجرائم التي ارتكبها معاوية، والدماء التي سفكها، والنفوس التي أرعبها، غير هذه الوثيقة، وهي صرخة في وجه الظلم والاستبداد. ولله كم هي رقيقة شاعرة هذه الكلمة «**كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ وَلَيْسوا مِنْكِ**».

فهذه الكلمة المشبعة بالشعور القومي الشريف، وقديماً قال الصابي: «إنّ الرجل من قوم ليست له أعصاب تقسو عليهم»، وهو اتهام من الحسين عليه السلام لمعاوية في وطنيته وقوميته، واتخذ من الدماء الغزيرة المسفوكة عنواناً على ذلك[3].

لقد حفلت هذه المذكرة بالأحداث الخطيرة التي اقترفها معاوية وعمّاله خصوصاً زياد بن سميّة الذي نشر الإرهاب والظلم بين الناس فقتل على الظنة والتهمة، وأعدم كلّ من كان على دين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي هو دين ابن عمّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد أسرف هذا الطاغية في سفك الدماء بغير حقّ، ومن الطبيعي أنّه لم يقترف ذلك إلّا بإيعاز من معاوية، فهو الذي عهد إليه بذلك.

---

(١) **تبرت**: أهلكت دينك ـ لسان العرب: ٢: ١٣ ـ تَبَرَ.

(٢) رجال الكشي: ٤٩ و ٥٠. الاحتجاج: ٢: ٩١. بحار الأنوار: ٤٤: ٢١٢ ـ ٢١٤. عوالم العلوم ١٧: ٩٠ ـ ٩٣. أعيان الشيعة: ١: ٥٨٢ و ٥٨٣. الغدير: ١٠: ١٦٠ و ١٦١. الإمامة والسياسة: ١: ١٨٠ و ١٨١، وفيها اختلاف.

(٣) الحسين بن عليّ: ٣٣٨.

صدى الرسالة

ولمّا انتهت رسالته إلى معاوية ضاق بها ذرعاً، وراح يراوغ على عادته ويقول: إن أثرنا بأبي عبد الله إلّا أسداً[(١)].

المؤتمر السياسي العامّ

وعقد الإمام الحسين عليه السلام في مكة مؤتمراً سياسياً عاماً دعا فيه جمهوراً غفيراً ممّن شهد موسم الحج من المهاجرين والأنصار والتابعين وغيرهم من سائر المسلمين، فانبرى عليه السلام خطيباً فيهم، وتحدّث ببليغ بيانه بما ألمّ بعترة النبيّ صلى الله عليه وآله وشيعتهم من المحن والخطوب التي صبّها عليهم معاوية، وما اتخذه من الإجراءات المشددة من إخفاء فضائلهم، وستر ما أُثر عن الرسول الأعظم في حقّهم وألزم حضّار مؤتمره بإذاعة ذلك بين المسلمين.

وفيما يلي نصّ حديثه فيما رواه سُليم بن قيس قال: «ولمّا كان قبل موت معاوية بسنة حجّ الحسين بن عليّ عليه السلام، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر، فجمع الحسين عليه السلام بني هاشم ونساءهم ومواليهم ومن حجّ من الأنصار ممّن يعرفهم الحسين عليه السلام وأهل بيته، ثمّ أرسل رسلاً، وقال لهم: **لَا تَدْعوا أَحَداً حَجَّ الْعامَ مِنْ أَصْحابِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله الْمَعرُوفِينَ بِالصَّلَاحِ وَالنُّسُكِ إلّا اجْمَعُوهُمْ لِي**.

فاجتمع إليه بمنى أكثر من سبعمائة رجل وهم في سرادق، عامتهم من التابعين، ونحو من مائتي رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله، فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: **أَمّا بَعْدُ، فَإِنَّ هٰذَا الطّاغِيَةَ** - يعني معاوية - **قَدْ فَعَلَ بِنَا وَبِشِيعَتِنا ما قَدْ رَأَيْتُمْ وَعَلِمْتُمْ وَشَهِدْتُمْ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسأَلَكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَإِنْ صَدَقْتُ فَصَدِّقُونِي،**

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ١٤: ٢٠٦. تاريخ الإسلام (حوادث ٦١ ـ ٨٠): ٦. سير أعلام النبلاء: ٣: ٢٩٤.

وَإنْ كَذِبْتُ فَكَذِّبُوني ، اِسْمَعوا مَقالَتِي ، وَاكتُبُوا قَوْلِي ، ثُمَّ ارْجِعُوا إلَى أَمْصارِكُمْ وَقَبائِلِكُمْ ، فَمَنْ أَمِنْتُمْ مِنَ النّاسِ ، وَوَثِقْتُمْ بِهِ فادْعُوْهُمْ إلىٰ ما تَعلَمونَ مِن حَقّنا ، فَإنِّي أَتَخَوَّفُ أَنْ يُدْرَسَ هٰذَا الْأَمْرُ وَيُغْلَبَ ، وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ .

وما ترك شيئاً ممّا أنزله الله فيهم من القرآن إلّا تلاه وفسّره ، ولا شيئاً ممّا قاله رسول الله صلى الله عليه وآله في أبيه وأخيه وفي نفسه وأهل بيته إلّا رواه .

وكل ذلك يقول أصحابه : اللهم نعم ، قد سمعنا وشهدنا ، ويقول التابعي : اللهم قد حدثني به من أصدّقه وأئتمنه من الصحابة ، فقال عليه السلام : **أَنشُدُكُمُ اللهَ إلَّا حَدَّثْتُمْ بِهِ مَنْ تَثِقُونِ بِهِ وَبِدِينِهِ**(١) .

وكان هذا المؤتمر أوّل مؤتمر إسلامي عرفه المسلمون في ذلك الوقت ، وقد شجب فيه الإمام الحسين عليه السلام سياسة معاوية ، ودعا المسلمين لإشاعة فضائل أهل البيت عليهم السلام ، وإذاعة مآثرهم التي حاولت السلطة حجبها عن المسلمين .

رسالة جعدة للإمام الحسين عليه السلام

وكان جعدة بن هبيرة بن أبي وهب من أخلص الناس للإمام الحسين عليه السلام ، وأكثرهم عليه السلام مودّة له ، وقد اجتمعت عنده الشيعة ، وأخذوا يلحّون عليه في مراسلته للقدوم إلى مصرهم ليعلن الثورة على حكومة معاوية ، ورفع جعدة رسالته للإمام الحسين عليه السلام ، وهذا نصها :

« أمّا بعد ، فإنّ مَن قبلنا من شيعتك متطلعة أنفسهم إليك ، لا يعدلون بك أحداً ، وقد كانوا عرفوا رأي الحسن عليه السلام أخيك في الحرب ، وعرفوك باللين لأوليائك والغلظة على أعدائك ، والشدّة في أمر الله ، فإن كنت تحبّ أن تطلب هذا الأمر ، فاقدم علينا فقد وطّنا أنفسنا على الموت معك » .

---

(١) كتاب سُليم بن قيس : ٣٢٠. الاحتجاج : ٢ : ٨٧ و ٨٨.

جواب الإمام الحسين عليه السلام

ولم يكن من رأي الإمام الحسين عليه السلام الخروج على معاوية ، وذلك لعلمه بفشل الثورة وعدم نجاحها ، فإنّ معاوية بما يملك من وسائل دبلوماسية وعسكرية لابد أن يقضي عليها ، ويخرجها من إطارها الإسلامي إلى حركة غير شرعية ، ويوصم القائمين بهابالتمرّد والخروج على النظام ، وقد أجابهم عليه السلام بعد البسملة والثناء على الله بما يلي :

« أَمّا أَخِي فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللهُ قَدْ وَفَّقَهُ وَسَدَّدَهُ ، وَأَمّا أَنَا فَلَيْسَ رَأْيِيَ الْيَوْمَ ذَلِكَ ، فالْصَقُوا ـ رَحِمَكُمُ اللهُ ـ بِالْأَرْضِ ، وَاكْمِنُوا في الْبُيُوتِ ، وَاحْتَرِسُوا مِنَ الظِّنَّةِ ما دامَ مُعاوِيَةُ حَيّاً ، فَإِنْ يُحْدِثِ اللهُ بِهِ حَدَثاً وَأَنَا حَيٌّ ، كَتَبْتُ إِلَيْكُمْ بِرَأْيِي ، وَالسَّلامُ »(١).

لقد أمر عليه السلام شيعته بالخلود إلى الصبر والإمساك عن المعارضة ، وأن يلزموا بيوتهم خوفاً عليهم من سلطان معاوية الذي كان يأخذ البريء بالسقيم ، والمقبل بالمدبر ، ويقتل على الظنّة والتهمة ، وأكبر الظنّ أنّ هذه الرسالة كانت في عهد زياد الذي سمل عيون الشيعة ، وصلبهم على جذوع النخل ، ودمّرهم تدميراً ساحقاً .

نصيحة الخدري للإمام الحسين عليه السلام

وشاعت في الأوساط الاجتماعية أنباء وفود أهل الكوفة ، على الإمام الحسين عليه السلام واستنجادهم به ؛ لإنقاذهم من ظلم معاوية وجوره ، ولمّا علم أبو سعيد الخدري بذلك خفّ مسرعاً للإمام الحسين عليه السلام ينصحه ويحذّره ، وهذا نصّ حديثه : يا أبا عبد الله ، إنّي لكم ناصح ، وإنّي عليكم مشفق ، وقد بلغني أنّه قد كاتبك قوم من شيعتكم بالكوفة ، يدعونكم إلى الخروج إليهم ، فلا تخرج إليهم ، فإنّي سمعت أباك يقول بالكوفة : **وَاللهِ ، لَقَد مَلِلْتُهُمْ وَأَبْغَضْتُهُمْ ، وَمَلُّونِي وَأَبْغَضُونِي ، وَما يَكُونُ مِنْهُمْ وَفاءٌ**

---

(١) الأخبار الطوال : ٢٢٢ . أنساب الأشراف : ٣ : ٣٦٦ .

قَطُّ ، وَمَنْ فازَ بِهِمْ فازَ بِالسَّهْمِ الْأَخْيَبِ . وَاللهِ ما لَهُمْ ثَباتٌ وَلَا عَزْمٌ عَلىٰ أَمْرٍ ، وَلَا صَبرٌ عَلَى السَّيْفِ(١) .

وليس من شكّ في أنّ أبا سعيد الخدري كان من ألمع أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأكثرهم إخلاصاً وولاءً لأهل البيت ، وقد دفعه حرصه على الإمام الحسين عليه السلام وخوفه عليه من معاوية أن يقوم بالنصيحة له في عدم خروجه على معاوية ، ولم تذكر المصادر التي بأيدينا جواب الإمام الحسين عليه السلام له .

استيلاء الإمام الحسين عليه السلام على أموال للدولة

وكان معاوية ينفق أكثر أموال الدولة على تدعيم ملكه ، كما كان يهب الأموال الطائلة لبني أُمية لتقوية مركزهم السياسي والاجتماعي ، وكان الإمام الحسين عليه السلام يشجب هذه السياسة ، ويرى ضرورة إنقاذ الأموال من معاوية وإنفاقها على المحتاجين ، وقد اجتازت على يثرب أموال من اليمن إلى خزينة دمشق ، فعمد إلى الاستيلاء عليها ، ووزعها على المحتاجين من بني هاشم وغيرهم ، وكتب إلى معاوية :

مِنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ، إلَىٰ مُعاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفيانَ ، أَمّا بَعْدُ ، فَإِنَّ عِيراً مَرَّتْ بِنا مِنَ الْيَمَنِ تَحْمِلُ مالاً وَحُلَلاً وَعَنْبَراً وَطِيباً إِلَيْكَ ؛ لِتُودِعَها خَزائِنَ دِمَشْقَ ، وَتَعَلَّ بِها بَعْدَ النَّهْلِ بَنِي أَبِيكَ ، وَإِنِّي احْتَجْتُ إِلَيْها فَأَخَذْتُها ، وَالسَّلَامُ .

جواب معاوية

« من عبد الله معاوية إلى الحسين بن عليّ .

---

(١) تاريخ مدينة دمشق : ١٤ : ٢٠٥ . تاريخ الإسلام (حوادث ٦١ ـ ٨٠) : ٥ و ٦ . سير أعلام النبلاء : ٣ : ٢٩٤ . البداية والنهاية : ٨ : ١٦٣ .

أمّا بعد ، فإنّ كتابك ورد عليّ تذكر أنّ عِيراً مرّت بك من اليمن تحمل مالاً ، وحُلَلاً وعنبراً وطيباً إليّ لأودعها خزائن دمشق ، وأعلّ بها بعد النهل بني أبي ، وإنّك احتجت إليها فأخذتها ، ولم تكن جديراً بأخذها إذ نسبتها إليّ ؛ لأنّ الوالي أحقّ بالمال ، ثمّ عليه المخرج منه . وأيم الله ، لو تركت ذلك حتّى صار إليّ لم أبخسك حظّك منه ، ولكنني قد ظننت ـ يابن أخي ـ أنّ في رأسك نزوة ، وبودي أن يكون ذلك في زماني فأعرف لك قدرك ، وأتجاوز عن ذلك ، ولكنني والله أتخوف أن تبلى بمن لا ينظرك فواق ناقة » .

وكتب في أسفل كتابه هذه الأبيات :

يا حُسينَ بْنَ عليٍّ لَيسَ ما ... جِئتَ بِالسّائغِ يَوماً وَالعَلَلْ
أَخْذُكَ المالَ وَلَمْ تُؤمَرْ بِهِ ... إنَّ هذا مِنْ حُسَينٍ لَعَجَلْ
قَدْ أَجَزناها وَلَمْ نَغضَبْ لَها ... وَاحْتَمَلْنا مِنْ حُسَينٍ ما فَعَلْ
يا حُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ ذَا الأَمَلْ ... لَكَ بَعدِي وَثْبَةٌ لَا تُحتَملْ
وَبِوُدِّي أنَّنِي شاهِدُها ... فَإلَيهَا مِنكَ بِالخُلقِ الأَجَلْ
إِنَّني أَرهَبُ أَنْ تَصلَى بِمَن ... عِندَهُ قَد سَبَقَ السَّيفُ العَذَلْ(١)

وفي هذا الكتاب تهديد للإمام الحسين عليه السلام بمن يخلف معاوية وهو ابنه يزيد الذي لا يؤمن بمقام الحسين عليه السلام ومكانته من رسول الله صلى الله عليه وآله .

وعلى أيّة حال فقد قام الإمام الحسين عليه السلام بإنقاذ هذه الأموال من معاوية وأنفقها على الفقراء في حين أنّه لم يكن يأخذ لنفسه أيّة صلة من معاوية ، وقد قدّم له مالاً كثيراً ، وثياباً وافرة ، وكسوة فاخرة ، فردّ الجميع عليه(٢) .

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١٨ : ٤٠٩ .

(٢) الحسين بن عليّ / علي جلال : ١ : ١١٧ .

وقد روى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنّ الحسن والحسين عليهما السلام كانا لا يقبلان جوائز معاوية[١].

حديث موضوع

من الأخبار الموضوعة ما روي أنّ الإمام الحسين عليه السلام وفد مع أخيه الحسن عليه السلام على معاوية، فأمر لهما بمائتي ألف درهم، وقال لهما: خذاها وأنا ابن هند، ما أعطاها أحد قبلي، ولا يعطيها أحد بعدي.

فانبرى إليه الإمام الحسين عليه السلام قائلاً: **وَاللهِ ما أَعْطَىٰ أَحَدٌ قَبْلَكَ وَلَا بَعْدَكَ لِرَجُلَيْنِ أَشْرَفَ مِنّا**[٢].

ولا مجال للقول بصحة هذه الرواية، فإنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يفد على معاوية بالشام، وإنّما وفد عليه الإمام الحسن عليه السلام لا لأجل الصلة والعطاء كما يذهب لذلك بعض السذّج من المؤرخين، وإنّما كان الغرض إبراز الواقع الأُموي، والتدليل على مساوئ معاوية، كما أثبتت ذلك مناظراته مع معاوية وبطانته، والتي لم يقصد فيها إلّا تلك الغاية، وقد أوضحنا ذلك بصورة مفصّلة في كتابنا (حياة الإمام الحسن بن علي عليهما السلام).

الإمام الحسين عليه السلام مع بني أُمية

كانت العداوة بين الحسين عليه السلام وبين بني أُمية ذاتية، فهي عداوة الضدّ للضدّ، وقد سأل سعيد الهمداني الإمام الحسين عليه السلام عن بني أُمية، فقال عليه السلام: **إِنّا وَهُمُ الْخَصْمانِ اللَّذانِ اخْتَصَما في رَبِّهِمْ**[٣].

---

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام: ٢: ٣٣٢.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ١٤: ١١٣. البداية والنهاية: ٨: ١٥٣.

(٣) الكنى والأسماء / أبو بشر الدولابي: ١: ٧٧.

أجل إنّهما خصمان في أهدافهما، وخصمان في اتجاههما، فالحسين عليه السلام كان يمثّل جوهر الإيمان بالله، ويمثّل القيم الكريمة التي يشرف بها الإنسان، وبنو أُمية كانوا يمثّلون مساوئ الجاهلية التي تهبط بالإنسان إلى مستوى سحيق، وكان الأُمويون بحسب طباعهم الشريرة يحقدون عليه، ويبالغون في توهينه، وقد جرت منازعة بين الحسين عليه السلام وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان في مال كان بينهما، فتحامل الوليد على الحسين عليه السلام في حقّه، فثار في وجهه، وقال عليه السلام: **أَحْلِفُ بِاللهِ لَتَنْصِفُنِي مِنْ حَقِّي أَوْ لَآخُذَنَّ سَيْفِي، ثُمَّ لَأَقومَنَّ فِي مَسْجِدِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَأَدْعُوَنَّ بِحِلْفِ الْفُضُولِ**.

لقد أراد أن يحيي حلف الفضول الذي أسسه الهاشميون، والذي كان شعاره إنصاف المظلومين والأخذ بحقوقهم، وقد حاربه الأُمويون في جاهليتهم؛ لأنّه يتنافى مع طباعهم ومصالحهم.

وانبرى عبد الله بن الزبير، فانضم للحسين عليه السلام وانتصر له، وقال: وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذنّ سيفي، ثمّ لأقومنّ معه حتّى ينتصف من حقه أو نموت جميعاً.

وبلغ المِسْور بن مخرمة بن نوفل الزهري الحديث، فانضمّ للحسين عليه السلام، وقال بمثل مقالته، وشعر الوليد بالوهن والضعف، فتراجع عن غيّه، وأنصف الحسين عليه السلام من حقّه[١].

ومن ألوان الحقد الأُموي على الحسين عليه السلام أنّه كان جالساً في مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله فسمع رجلاً يحدّث أصحابه، ويرفع صوته ليُسمع الحسين عليه السلام، وهو يقول: إنّا شاركنا آل أبي طالب في النبوة حتّى نلنا منها مثل ما نالوا منها من السبب والنسب، ونلنا من الخلافة ما لم ينالوا، فبمَ يفخرون علينا؟!

وكرر هذا القول ثلاثاً، فأقبل عليه الإمام الحسين عليه السلام، فقال له: **أَمّا فِي أَوَّلِ وَهْلَةِ**

---

(١) السيرة النبويّة / ابن هشام: ١: ١٣٤ و ١٣٥. تاريخ مدينة دمشق: ٦٣: ٢١٠.

فإنّي كَفَفْتُ عَنْكَ حِلْماً ، وَأَمّا الثّانِيَةُ فَإنّي كَفَفْتُ عَنْكَ عفواً ، وَأَمّا الثّالِثَةُ فَإِنّي أُجِيبُكَ : إنّي سَمِعتُ أَبِي يَقُولُ : إنَّ فِي الْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلىٰ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله إذا قامَتِ الْقِيامَةُ الْكُبْرىٰ حَشَرَ اللهُ بَنِي أُمَيَّةَ في صُورَةِ الذَّرِّ يَطَأُهُمُ النّاسُ حَتّىٰ يَفْرَغَ مِنَ الْحِسابِ ، ثُمَّ يُؤْتَىٰ بِهِمْ فَيُحاسَبُوا ، وَيُصارُ بِهِمْ إلَى النّارِ[١] ، ولم يُطقِ الأُموي جواباً وانصرف وهو يتميّز من الغيظ .

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن موقف الإمام الحسين عليه السلام مع معاوية وبني أُمية ، ونعرض فيما يلي إلى وفاة معاوية وما رافقها من الأحداث .

مرض معاوية

ومرض معاوية وتدهورت صحته ، ولم تجدِ معه الوصفات الطبية ، فقد تناهبت جسمه الأمراض ، وقد شعر بدنو أجله ، وكان في حزن على ما اقترفه في قتله لحُجْر ابن عدي فكان ينظر إليه شبحاً مخيفاً ، وكان يقول : ويلي منك يا حُجْر ، إنّ لي مع ابن عدي ليوماً طويلاً[٢] ، وتحدّث الناس عن مرضه ، فقالوا : إنّه الموت ، فأمر أهله أن يحشو عينيه إثمِداً[٣] ، ويسبغوا على رأسه الطيب ، ويجلسوه ، ثمّ أذِنَ للناس فدخلوا وسلّموا عليه قياماً ، فلمّا خرجوا من عنده أنشد قائلاً :

وَتَجَلُّدِي لِلشّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنّي لِرَيبِ الدَّهرِ لَا أَتَضَعضَعُ[٤]

---

(١) المناقب والمثالب : ٢٠١ .

(٢) أنساب الأشراف : ٥ : ٢٧٥ . تاريخ الطبري : ٤ : ٥٠٠ . الفتوح : ٤ : ٣٤٥ . الأغاني : ١٧ : ٣٤٤ و ٣٤٥ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٤٣ . الفتنة الكبرى (ضمن إسلاميّات طه حسين) : ١٠١٢ .

(٣) **الإثمد** : حَجَرٌ يتخذ منه الكحل ـ لسان العرب : ٢ : ١٢٥ ـ ثمد .

(٤) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٣٧ . الفتوح : ٤ : ٣٤٥ . المنتظم : ٥ : ٣٣٢ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٦٠ . سير أعلام النبلاء : ٣ : ١٦١ .

فسمعه رجل من العلويين ، فأجابه .

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنشَبَتْ أَظفارَها   أَلفيتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنفَعُ(١)

وصايا معاوية

ولمّا ثقل حال معاوية عهد بوصيته إلى يزيد ، وقد جاء فيها : « يا بني ، إنّي قد كفيتك الشدّ والترحال ، ووطأت لك الأُمور ، وذلّلت لك الأعداء ، وأخضعت لك رقاب العرب ، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد ، فانظر أهل الحجاز فإنّهم أصلك ، وأكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب . وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل كلّ يوم عاملاً فافعل ، فإنّ عزل عامل أيسر من أن يشهر عليك مائة ألف سيف . وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فإن رابك من عدوك شيء ، فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، فإن أقاموا بغير بلادهم تغيّرت أخلاقهم ، وإنّي لست أخاف عليك أن ينازعك في هذا الأمر إلّا أربعة نفر من قريش : الحسين ابن عليّ ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر .

فأمّا ابن عمر فإنّه رجل قد وقذته العبادة ، فإذا لم يبقَ أحد غيره بايعك . وأما الحسين بن عليّ فهو رجل خفيف ، ولن يتركه أهل العراق حتّى يخرجوه ، فإن خرج وظفرت به فاصفح عنه ، فإنّ له رحماً ماسة وحقّاً عظيماً وقرابة من محمّد . وأمّا ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ، ليس له همّة إلّا في النساء واللهو . وأمّا الذي يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها بك فظفرت به فقطّعه إرباً إرباً واحقن دماء قومك ما استطعت »(٢) .

---

(١) حياة الحيوان / الدميري : ١ : ٨٥ .

(٢) أنساب الأشراف : ٥ : ١٥٢ ـ ١٥٤ . الأخبار الطوال : ٢٢٦ . العقد الفريد : ٤ : ٣٧٣ . ⇦

وأكبر الظن أنّ هذه الوصية من الموضوعات ، فقد افتعلت لإثبات حلم معاوية ، وأنّه عهد إلى ولده بالإحسان الشامل إلى المسلمين ، وهو غير مسؤول عن تصرفاته . وممّا يؤيد وضعها ما يلي :

أوّلاً : إنّ المؤرخين رووا أنّ معاوية أوصى يزيد بغير ذلك ، فقال له : إنّ لك من أهل المدينة يوماً ، فإن فعلوها فارمهم بمسلم بن عقبة فإنّه رجل قد عرفنا نصيحته[١].

وكان مسلم بن عقبة جزّاراً جلّاداً لا يعرف الرحمة والرأفة ، وقد استعمله يزيد بعهد من أبيه في واقعة الحرّة فاقترف كلَّ موبقة وإثم ، فكيف تلتقي هذه الوصية بتلك الوصية التي عهد فيها بالإحسان إلى أهل الحجاز ؟ !

ثانياً : إنّه أوصاه برعاية عواطف العراقيّين والاستجابة لهم إذا سألوه في كل يوم عزل من ولّاه عليهم ، وهذا يتنافى مع ما ذكره المؤرخون أنّه عهد بولاية العراق إلى عبيد الله بن زياد ، وهو يعلم شدّته وصرامته وغدره ، فهو ابن زياد الذي أغرق العراق بدماء الأبرياء ، فهل العهد إليه بولاية العراق من الإحسان إلى العراقيّين والبرّ بهم ؟ !

ثالثاً : إنّه جاء في هذه الوصية أنّه يتخوّف عليه من عبد الله بن عمر وقد وصفه بأنّه قد وقذته العبادة ، وإذا كان كذلك فهو بطبيعة الحال منصرف عن السلطة والمنازعات السياسية ، فما معنى التخوّف منه ؟ !

رابعاً : إنّه جاء في هذه الوصية أنّه يتخوّف عليه من عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقد نصّ المؤرخون أنّه توفي في حياة معاوية[٢] ، فما معنى التخوّف عليه من إنسان ميت ؟ !

⇦ المنتظم : ٥ : ٣٢٠ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٥٩ . الفخري : ١١١ و ١١٢ .

(١) تاريخ خليفة بن خياط : ١٤٨ . تاريخ الأُمم والملوك : ٥ : ١٦ . العقد الفريد : ٤ : ٣٨٧ .

(٢) أنساب الأشراف : ١٠ : ١٠١ و ١٠٢ . الاستيعاب : ٢ : ٨٢٦ . تهذيب الكمال : ١٦ : ٥٦ . سير أعلام النبلاء : ٢ : ٤٧٢ . تاريخ الإسلام (حوادث ٤١ ـ ٦٠) : ٢٦٦ و ٢٦٧ .

خامساً : إنّه أوصاه برعاية الحسين عليه السلام وأنّ له رحماً ماسة وحقاً عظيماً وقرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومن المؤكّد أنّ معاوية بالذات لم يرعَ أيّ جانب من جوانب القرابة من رسول الله ، فقد قطع جميع أواصرها ، فقد فرض سبّها على رؤوس الأشهاد ، وعهد إلى لجان التربية والتعليم بتربية النشء ببغض أهل البيت ، ولم يتردد في ارتكاب أيّة وسيلة للحطّ من شأنهم .

وقد علّق الأُستاذ عبد الهادي المختار على هذه الفقرات من الوصية بقوله : « وتقول بعض المصادر : إنّ معاوية أوصى ولده يزيد برعاية الحسين عليه السلام ، والذي نعتقده أنّه لا أثر لها من الصحة ، فإنّ معاوية لم يتردد في اغتيال الإمام الحسن حتّى بعد ما بايعه ، فكيف يوصي ولده بالعفو عن الحسين إن ظفر به ؟ !

لم يكن معاوية بالذي يرعى لرسول الله صلى الله عليه وآله حرمة أو قرابة حتّى يوصي ابنه برعاية آل محمّد كلا أبداً ، فقد حارب الرسول في الجاهلية حتّى أسلم كرهاً يوم فتح مكة ، ثمّ حارب صهر الرسول وخليفته وابن عمّه علياً ، ونزا على خلافة المسلمين ، وانتزعها قهراً ، وسمّ ابن بنت الرسول الحسن عليه السلام ، فهل يصدق بعد هذا كله أن يوصي بمثل ما أوصى به ؟ !

قد يكون أوصاه أن يغتاله سرّاً ويدسّ له السمّ ، أو يبعث له من يطعنه بليل ، ربّما كان هذا الفرض أقرب إلى الصحة من تلك الوصية ، ولكنّ المؤرخين ـ سامحهم الله ـ أرادوا أن يبرِّئوا ساحة الأب ، ويلقوا جميع التبعات على الابن ، وهما في الحقيقة غرس إثم واحد ، وثمرة جريمة واحدة » .

وأضاف يقول : « ولو أنّ الوصية المزعومة كانت صحيحة لما كان يزيد لا همّ له بعد موت أبيه إلّا تحصيل البيعة من الحسين عليه السلام ، وتشديده على عامله بالمدينة بلزوم إجبار الحسين عليه السلام على البيعة »[١] .

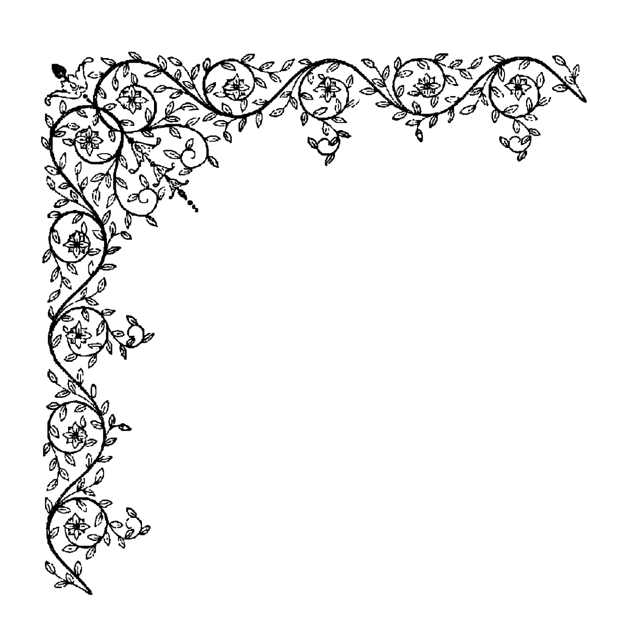
---

(١) مجلّة الغريّ : العدد ٩ و ١٠ / السنة الثامنة .

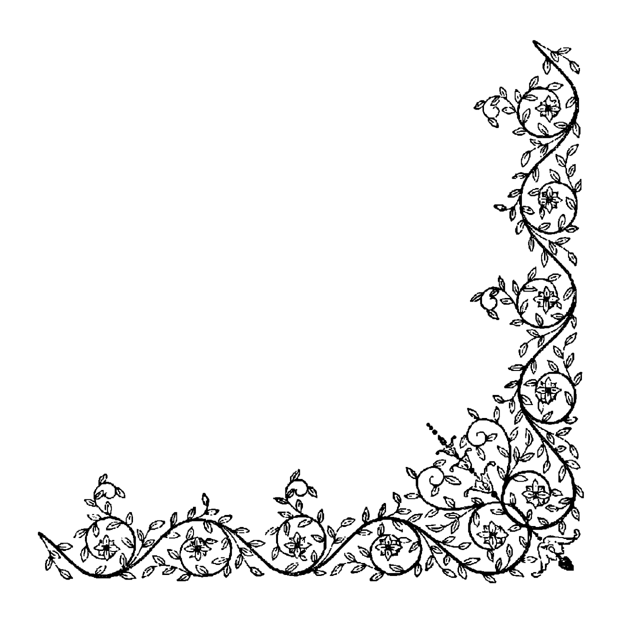
موت معاوية

واستقبل معاوية الموت غير مطمئن ، فكان يتوجّع ويظهر الجزع على ما اقترفه من الإسراف في سفك دماء المسلمين ونهب أموالهم ، وقد وافاه الأجل في دمشق محروماً عن رؤية ولده الذي اغتصب له الخلافة ، وحمله على رقاب المسلمين ، وكان يزيد ـ فيما يقول المؤرخون ـ مشغولاً عن أبيه في أثناء وفاته برحلات الصيد وعربدات السكر ، ونغمة العيدان.

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن حكومة معاوية ، وما رافقها من الأحداث الجسام.



بدايةُ حُكومةِ يَزيدَ



وتسلّم يزيد بعد هلاك أبيه قيادة الدولة الإسلامية، وهو في غضارة العمر، لم تهذّبه الأيام ولم تصقله التجارب، وإنّما كان ـ فيما أجمع عليه المؤرخون ـ موفور الرغبة في اللهو والقنص والخمر والنساء وكلاب الصيد، وممعناً كلّ الإمعان في اقتراف المنكر والفحشاء، ولم يكن حين هلاك أبيه في دمشق، وإنّما كان في رحلات الصيد في حوّارين الثنية[1]، فأرسل إليه الضحّاك بن قيس رسالة يعزيه فيها بوفاة معاوية، ويهنئه بالخلافة، ويطلب منه الإسراع إلى دمشق ليتولى أزمّة الحكم، وحينما قرأ الرسالة اتجه فوراً نحو عاصمته في ركب من أخواله، وكان ضخماً كثير الشعر، وقد شعث في الطريق وليس عليه عمامة، ولا متقلداً بسيف، فأقبل الناس يسلّمون عليه، ويعزّونه، وقد عابوا عليه ما هو فيه، وراحوا يقولون: هذا الأعرابي الذي ولّاه معاوية أمر الناس، والله سائله عنه[2].

واتجه نحو قبر أبيه، فجلس عنده وهو باكي العين، وأنشأ يقول:

جاءَ البَريدُ بِقِرطاسٍ يَخُبُّ بِهِ ... فَأَوجَسَ القَلْبُ مِن قِرطاسِهِ فَزِعا
قُلنا لَكَ الوَيلُ ماذا فِي كِتابِكُمُ ... قالَ الخَليفةُ أَمسَى مُدْنِفاً وَجِعَا[3]

---

(١) **حوّارين**: قرية من قرى حَلب معروفة ـ معجم البلدان: ٢: ٣٦٢. الفتوح: ٤: ٣٥٢.

(٢) تاريخ الإسلام (حوادث ٤١ ـ ٦٠): ١٦٨.

(٣) الفتوح: ٥: ٦. العقد الفريد: ٤: ٣٧٣. الأغاني: ١٧: ١٥٢. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٦١.

ثمّ سار متّجهاً نحو القبة الخضراء في موكب رسمي تحفّ به علوج أهل الشام وأخواله وسائر بني أُمية.

خطاب العرش

واتجه يزيد نحو منصّة الخطابة ليعلن للناس سياسته، ومخططات حكومته، فلمّا استوى عليها ارتج عليه، ولم يُطقِ الكلام، فقام إليه الضحّاك بن قيس، فصاح به يزيد: ما جاء بك؟

قال له الضحّاك: كلّم الناس وخذ عليهم، فأمره بالجلوس[١]، وانبرى خطيباً، فقال: الحمد لله الذي ما شاء صنع، ومن شاء منع، ومن شاء خفض، ومن شاء رفع، إنّ أميرالمؤمنين ـ يعني معاوية ـ كان حبلاً من حبال الله مدّه ما شاء أن يمدّه، ثمّ قطعه حين أراد أن يقطعه، وكان دون من قبله، وخيراً ممّن يأتي بعده، ولا أُزكّيه عند ربّه وقد صار إليه، فإن يعفُ عنه فبرحمته، وإن يعاقبه فبذنبه، وقد وَليت بعده الأمر، ولست أعتذر من جهل، ولا أنِي عن طلب علم، وعلى رسلكم إذا كره الله شيئاً غيَّره وإذا أحبّ شيئاً يسَّره[٢].

ولم يعرض يزيد في هذا الخطاب لسياسة دولته، ولم يُدلِ بأيّ شيء ممّا تحتاج إليه الأُمة في مجالاتها الاقتصادية والاجتماعية، ومن المقطوع به أنّ ذلك ممّا لم يفكّر به، وإنّما عرض لطيشه وجبروته واستهانته بالأُمة، فهو لا يعتذر إليها من أيّ جهل يرتكبه، ولا من سيئة يقترفها، وإنّما على الأُمة الإذعان والرضا لظلمه وبطشه.

خطابه في أهل الشام

وخطب في أهل الشام خطاباً أعلن فيه عن عزمه وتصميمه على الخوض في

---

(١) تاريخ الخلفاء، نشر أكاديمية العلوم للاتّحاد السوفيتي.

(٢) عيون الأخبار: ١: ٢٣٨ و ٢٣٩. العقد الفريد: ٤: ٣٧٤ و ٣٧٥.

حرب مدمّرة مع أهل العراق، وهذا نصه:

يا أهل الشام، فإنّ الخير لم يزل فيكم، وسيكون بيني وبين أهل العراق حرب شديد، وقد رأيت في منامي كأنّ نهراً يجري بيني وبينهم دماً عبيطاً، وجعلت أجهد في منامي أن أجوز ذلك النهر فلم أقدر على ذلك حتّى جاءني عبيد الله بن زياد فجازه بين يدي، وأنا أنظر إليه».

وانبرى أهل الشام فأعلنوا تأييدهم ودعمهم الكامل له قائلين: يا أمير المؤمنين، امضِ بنا حيث شئت، وأقدم بنا على من أحببت، فنحن بين يديك، وسيوفنا تعرفها أهل العراق في يوم صفين.

فشكرهم يزيد وأثنى على إخلاصهم وولائهم له[١]. وقد بات من المقطوع به عند أوساط الشام أنّ يزيد سيعلن الحرب على أهل العراق لكراهتهم لبيعته، وتجاوبهم مع الإمام الحسين عليه السلام.

خطابه إلى أهل المدينة

مات معاوية وكان يزيد غائباً، فلما قدم دمشق بعد موت أبيه كتب إلى عامله في المدينة: «أمّا بعد، فإن معاوية بن أبي سفيان كان عبداً استخلفه الله على العباد، ومكّن له في البلاد. وكان من حادث قضاء الله ـ جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه ـ فيه ما سبق في الأولين والآخرين، لم يدفع عنه ملك مقرب ولا نبي مرسل، فعاش حميداً ومات سعيداً. ولقد قلدنا الله ـ عزّ وجلّ ـ ما كان إليه، فيالها مصيبة ما أجلّها، ونعمة ما أعظمها، نقل الخلافة، وفقد الخليفة، فنستوزعه الشكر، ونستلهمه الحمد، ونسأله الخيرة في الدارين معاً، ومحمود العقبى في الآخرة والأولى إنّه ولي ذلك، وكل شيءٍ بيده لا شريك له.

---

(١) الفتوح: ٥: ٧ و ٨.

وإنّ أهل المدينة قومنا ورجالنا ، ومن لم نزل على حسن الرأي فيهم والاستعداد بهم ، واتباع أثر الخليفة فيهم ، والاحتذاء على مثاله لديهم من الإقبال عليهم ، والتقبل من محسنهم ، والتجاوز عن مسيئهم ، فبايع لنا قومنا ، ومن قبلك من رجالنا . بيعة منشرحة بها صدوركم ، طيبة عليها أنفسكم ، وليكن أول من يبايعك من قومنا وأهلنا الحسين ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن عباس ، وعبدالله بن الزبير ، وعبدالله بن جعفر ، ويحلفون على ذلك بجميع الأيمان اللّازمة ، ويحلفون بصدقة أموالهم غير عشرها ، وجزية رقيقهم ، وطلاق نسائهم بالثبات على الوفاء بما يعطون من بيعتهم ، ولا قوة إلاّ بالله ، والسلام[١] .

مع المعارضة في يثرب

ولم يرق ليزيد أن يرى جبهة معارضة لا تخضع لسلطانه ولا تدين بالولاء لحكومته ، وقد عزم على التنكيل بها بغير هوادة ، فقد استتبت له الأُمور ، وخضعت له الرقاب ، وصارت أجهزة الدولة كلّها بيده ، فما الذي يمنعه من إرغام أعدائه ومناوئيه ؟

وأهمّ ما كان يفكر به من المعارضين الإمام الحسين عليه السلام ؛ لأنّه يتمتع بنفوذ واسع النطاق ، ومكانة مرموقة بين المسلمين ، فهو حفيد صاحب الرسالة ، وسيد شباب أهل الجنة ، أمّا ابن الزبير فلم تكن له تلك الأهمّية البالغة في نفسه .

الأوامر المشدّدة إلى الوليد

وأصدر يزيد أوامره المشددة إلى عامله على يثرب الوليد بن عتبة بإرغام المعارضين له على البيعة ، وقد كتب إليه رسالتين :

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ٢٠٣ و ٢٠٤ .

الأُولى: وقد رويت بصورتين:

الصورة الأُولى: رواها الخوارزمي، وهذا نصّها: «أما بعد، فإنّ معاوية كان عبداً من عباد الله أكرمه، واستخلصه، ومكّن له، ثمّ قبضه إلى روحه وريحانه ورحمته، عاش بقدر ومات بأجل، وقد كان عهد إليّ وأوصاني بالحذر من آل أبي تراب؛ لجرأتهم على سفك الدماء، وقد علمت يا وليد أنّ الله تبارك وتعالى منتقم للمظلوم عثمان بآل أبي سفيان؛ لأنّهم أنصار الحقّ وطلّاب العدل، فإذا ورد عليك كتابي هذا فخذ البيعة على جميع أهل المدينة»(١).

وقد احتوت هذه الرسالة على ما يلي:

أوّلاً: نعي معاوية إلى الوليد.

ثانياً: تخوّف يزيد من الأُسرة النبوية؛ لأنّه قد عهد إليه أبوه بالحذر منها، وهذا يتنافى مع تلك الوصية المزعومة لمعاوية التي جاء فيها اهتمامه بشأن الحسين عليه السلام وإلزام ولده بتكريمه ورعاية مقامه.

ثالثاً: الإسراع في أخذ البيعة من أهل المدينة.

الصورة الثانية: رواها البلاذري، وهذا نصّها: «أمّا بعد، فإنّ معاوية بن أبي سفيان كان عبداً من عباد الله أكرمه الله واستخلفه وخوّله ومكّن له، فعاش بقدر ومات بأجل، فرحمة الله عليه، فقد عاش محموداً ومات برّاً تقيّاً، والسلام»(٢).

وأكبر الظن أنّ هذه الرواية هي الصحيحة، فإنّها قد اقتصرت على نعي معاوية إلى الوليد من دون أن تعرض إلى أخذ البيعة من الحسين عليه السلام وغيره من المعارضين، أمّا على الرواية الأُولى، فإنّه يصبح ذكر الرسالة التالية ـ التي بعثها يزيد إلى الوليد

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ١: ١٨٠.

(٢) أنساب الأشراف: ٥: ٣١٣. تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٤٨. البداية والنهاية: ٨: ١٤٩.

لإرغام الإمام الحسين عليه السلام على البيعة ـ لغواً.

الثانية : رسالة صغيرة ، وصفت كأنّها أُذن فأرة ، وقد رويت بثلاث صور :

الصورة الأُولى : رواها الطبري والبلاذري ، وهذا نصّها : « أمّا بعد ، فخذ حسيناً ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتّى يبايعوا ، والسلام »(١).

الصورة الثانية : رواها اليعقوبي ، وهذا نصّها : « إذا أتاك كتابي ، فأحضر الحسين ابن عليّ وعبد الله بن الزبير ، فخذهما بالبيعة لي فإن امتنعا فاضرب أعناقهما ، وابعث إليّ برؤوسهما ، وخذ الناس بالبيعة فمن امتنع فأنفذ فيه الحكم ، وفي الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير ، والسلام »(٢).

وليس في هذه الصورة ذكر لعبد الله بن عمر ، وأكبر الظن أنّه أُضيف اسمه إلى الإمام الحسين عليه السلام وابن الزبير ؛ لإلحاقه بالجبهة المعارضة وتبريره من التأييد السافر لبيعة يزيد.

الصورة الثالثة : رواها الحافظ ابن عساكر ، وهذا نصها : « أن ادعُ الناس فبايعهم ، وابدأ بوجوه قريش ، وليكن أوّل من تبدأ به الحسين بن عليّ ، فإنّ أميرالمؤمنين ـ يعني معاوية ـ عهد إليّ في أمره الرفق به واستصلاحه »(٣).

وليس في هذه الصورة ذكر لابن الزبير وابن عمر ؛ إذ لم تكن لهما أيّة أهمية في نظر يزيد ، إلّا أنّا نشكّ فيما جاء في آخر هذه الرسالة من أنّ معاوية قد عهد إلى يزيد الرفق بالإمام الحسين عليه السلام واستصلاحه ، فإنّ معاوية قد وقف موقفاً سلبياً يتّسم بالعداء والكراهية لعموم أهل البيت عليهم السلام ، واتخذ ضدّهم جميع الإجراءات القاسية

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٤٨. أنساب الأشراف : ٥ : ٣١٣.

(٢) تاريخ اليعقوبي : ٢ : ١٥٤.

(٣) تاريخ مدينة دمشق : ١٤ : ٢٠٦.

كما أشرنا إلى ذلك في البحوث السابقة ، وأكبر الظن أنّ هذه الجملة قد أُضيفت إليها لتبرير أخلاق معاوية وأعماله السيّئة ، ونفي المسؤولية عنه فيما ارتكبه ولده من الجرائم ضد العترة الطاهرة .

بقي هنا شيء وهو أنّ هذه الرسالة قد وصفها المؤرخون كأنّها أُذن فأرة لصغرها ، ولعلّ السبب في إرسالها بهذا الحجم هو أنّ يزيد قد حسب أنّ الوليد سينفّذ ما عهد إليه من قتل الإمام الحسين عليه السلام وابن الزبير ، ومن الطبيعي أنّ لذلك كثيراً من المضاعفات السيئة ومن أهمّها ما يلحقه من التذمّر والسخط الشامل بين المسلمين ، فأراد أن يجعل التبِعة على الوليد ، وأنّه لم يعهد إليه بقتلهما ، وأنّه لو أمره بذلك لأصدر مرسوماً خاصاً مطولاً به .

تفاؤل الإمام الحسين عليه السلام بموت معاوية

وحمل الرسالتين زريق مولى معاوية فأخذ يجدّ في السير لا يلوي على شيء حتّى انتهى إلى يثرب(١) ، وكان معه عبد الله بن سعد بن أبي سرح متلثّماً لا يبدو منه إلّا عيناه ، فصادفه عبد الله بن الزبير فأخذ بيده وجعل يسأله عن معاوية وهو لا يجيبه ، فقال له : أمات معاوية ؟ فلم يكلّمه بشيء ، فاعتقد بموت معاوية ، وقفل مسرعاً إلى الحسين عليه السلام وأخبره الخبر(٢) .

فقال له الحسين عليه السلام : إنّي أظن أنّ معاوية قد مات ، فقد رأيت البارحة في منامي كأنّ منبر معاوية منكوس ، ورأيت داره تشتعل ناراً ، فأوّلت ذلك في نفسي بموته(٣) .

---

(١) تاريخ الإسلام (حوادث ٤١ ـ ٦٠) : ١٧٠ . تاريخ خليفة بن خياط : ١٤٤ .

وجاء في تاريخ مدينة دمشق : ١٤ : ٢٠٦ : « وكتب يزيد مع عبد الله بن عمرو بن إدريس العامري ـ عامر بن لؤي ـ هذه الرسالة » .

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٢٠ : ١١٥ .

(٣) الفتوح : ٥ : ١٢ .

وأقبل زريق إلى دار الوليد ، فقال للحاجب استأذن لي ، فقال : قد دخل ولا سبيل إليه ، فصاح به زريق ، إنّي جئته بأمر ، فدخل الحاجب وأخبره بالأمر فأذن له ، وكان جالساً على سرير فلمّا قرأ كتاب يزيد بوفاة معاوية جزع جزعاً شديداً ، وجعل يقوم على رجليه ، ويرمي بنفسه على فراشه[١].

فزع الوليد

وفزع الوليد ممّا عهد إليه يزيد من التنكيل بالمعارضين ، فقد كان على يقين من أنّ أخذ البيعة من هؤلاء النفر ليس بالأمر السهل ، حتّى يقابلهم بالعنف ، أو يضرب أعناقهم كما أمره يزيد ، إنّ هؤلاء النفر لم يستطع معاوية مع ما يتمتع به من القابليات الدبلوماسية أن يخضعهم لبيعة يزيد ، فكيف يصنع الوليد أمراً عجز عنه معاوية ؟!

استشارته لمروان

وحار الوليد في أمره ، فرأى أنّه في حاجة إلى مشورة مروان ـ عميد الأُسرة الأُموية ـ فبعث خلفه ، فأقبل مروان وعليه قميص أبيض وملاءة مورّدة[٢] فنعى إليه معاوية فجزع مروان وعرض عليه ما أمره يزيد من إرغام المعارضين على البيعة له وإذا أصرّوا على الامتناع فيضرب أعناقهم ، وطلب من مروان أن يمنحه النصيحة ، ويخلص له في الرأي .

رأي مروان

وأشار مروان على الوليد فقال له : ابعث إليهم في هذه الساعة فتدعوهم إلى البيعة والدخول في طاعة يزيد ، فإن فعلوا قبلت ذلك منهم ، وإن أبوا قدّمهم

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط : ١٤٤ .

(٢) تاريخ الإسلام (حوادث ٤١ ـ ٦٠) : ١٧٠ .

واضرب أعناقهم قبل أن يدروا بموت معاوية ، فإنّهم إن علموا ذلك وثب كلّ رجل منهم فأظهر الخلاف ، ودعا إلى نفسه ، فعند ذلك أخاف أن يأتيك من قبلهم ما لا قبل لك به ، إلّا عبد الله بن عمر فإنّه لا ينازع في هذا الأمر أحداً ، مع أنّي أعلم أنّ الحسين ابن علي لا يجيبك إلى بيعة يزيد ، ولا يرى له عليه طاعة ، ووالله لو كنت في موضعك لم أُراجع الحسين بكلمة واحدة حتّى أضرب رقبته كائناً في ذلك ما كان[١].

وعظم ذلك على الوليد وهو أحنك بني أمية ، فخشيَ أن يعاجل الله دولة بني أُمية بالدمار والبوار ، فقال لمروان : يا ليت الوليد لم يولد ، ولم يك شيئاً مذكوراً .

فسخر منه مروان ، وراح يندد به قائلاً : لا تجزع ممّا قلت لك ، فإنّ آل أبي تراب هم الأعداء من قديم الدهر ولم يزالوا ، وهم الذين قتلوا الخليفة عثمان بن عفان ، ثمّ ساروا إلى أميرالمؤمنين ـ يعني معاوية ـ فحاربوه .

ونهره الوليد فقال له : مهلاً ، ويحك يا مروان عن كلامك هذا ، وأحسن القول في ابن فاطمة فإنّه بقية ولد النبيّين[٢].

واتفق رأيهم على استدعاء القوم ، وعرض الأمر عليهم للوقوف على مدى تجاوبهم مع السلطة في هذا الأمر .

أضواء على موقف مروان

لقد حرّض مروان الوليد على التنكيل بالمعارضين ، واستهدف بالذات الإمام عليه السلام ، فألحّ عليه بالفتك به إن امتنع من البيعة ، وفيما أحسب أنّه إنّما دعاه لذلك ما يلي :

---

(١) وقعة الطفّ / أبو مخنف : ٧٧. أنساب الأشراف : ٥ : ٣١٤. تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٤٨. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١٨١ . المنتظم : ٥ : ٣٢٣. الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٦٤.

(٢) الفتوح : ٥ : ١١. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ١٨١.

أوّلاً: إنّ مروان كان يحقد على الوليد، وكانت بينهما عداوة متأصلة وهو على يقين أنّ الوليد يحبّ العافية، ولا ينفّذ ما عهد إليه في شأن الإمام الحسينعليه السلام، فاستغلّ الموقف وراح يشدد عليه في اتخاذ الإجراءات الصارمة ضده؛ ليستبين لطاغية الشام موقفه فيسلب ثقته عنه ويقصيه عن ولاية يثرب، وفعلاً قد تحقق ذلك، فإنّ يزيد حينما علم بموقف الوليد مع الإمام الحسينعليه السلام غضب عليه وأقصاه عن منصبه.

ثانياً: إنّ مروان كان ناقماً على معاوية حينما عهد بالخلافة لولده ولم يرشحه لها؛ لأنّه شيخ الأُمويين وأكبرهم سنّاً، فأراد أن يورّط يزيد في قتل الإمام الحسينعليه السلام؛ ليكون به زوال ملكه.

ثالثاً: كان مروان من الحاقدين على الإمام الحسينعليه السلام؛ لأنّه سبط رسول اللهصلى الله عليه وآله الذي حصد رؤوس بني أُمية، ونفى أباه الحكم عن يثرب، وقد لعنه ولعن من تناسل منه، وقد بلغ الحقد بمروان للأُسرة النبوية أنّه منع من دفن جنازة الإمام الحسنعليه السلام مع جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله.

ويقول المؤرخون: إنّه كان يبغض أبا هريرة؛ لأنّه يروي ما سمعه من رسول اللهصلى الله عليه وآله في فضل سبطيه وريحانتيه، وقد دخل على أبي هريرة عائداً له، فقال له: يا أبا هريرة، ما وجدت عليك في شيء منذ اصطحبنا إلّا في حبّك الحسن والحسين.

فأجابه أبو هريرة: أشهد لقد خرجنا مع رسول اللهصلى الله عليه وآله فسمع الحسن والحسين يبكيان، فقال: **ما شَأْنُ ابْنَيَّ ؟**

فقالت فاطمة: **الْعَطَشُ**... يا مروان كيف لا أُحبّ هذين، وقد رأيت من رسول الله ما رأيت؟! [1].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ١٣: ٢٢١. تهذيب التهذيب: ٢: ٢٥٨.

لقد دفع مروان الوليد إلى الفتك بالحسين عليه السلام لعلّه يستجيب له فيروّي بذلك نفسه المترعة بالحقد والكراهية لعترة النبيّ صلى الله عليه وآله.

رابعاً: كان مروان على يقين أنّه سيلي الخلافة، فقد أخبره أمير المؤمنين عليه السلام وصيّ النبيّ صلى الله عليه وآله وباب مدينة علمه حينما تشفّع الحسنان عليهما السلام به بعد واقعة الجمل، فقال عليه السلام: **إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ الْكَلْبِ أَنْفَهُ**[1]، وقد اعتقد بذلك مروان، وقد حرّض الوليد على الفتك بالحسين عليه السلام؛ ليكون ذلك سبباً لزوال ملك بني سفيان ورجوع الخلافة إليه.

هذه بعض الأسباب التي حفّزت مروان إلى الإشارة على الوليد بقتل الإمام الحسين عليه السلام، وأنّه لم يكن بذلك مشفوعاً بالولاء والإخلاص إلى يزيد.

استدعاء الإمام الحسين عليه السلام

وأرسل الوليد في منتصف الليل[2] عبد الله بن عمرو بن عثمان وهو غلام حدث خلف الحسين عليه السلام وابن الزبير، وإنّما بعثه في هذا الوقت لعلّه يحصل على الوفاق من الحسين عليه السلام ولو سرّاً على البيعة ليزيد، وهو يعلم أنّه إذا أعطاه ذلك فلن يخيس بعهده، ولن يتخلف عن قوله.

ومضى الفتى يدعو الحسين عليه السلام وابن الزبير للحضور عند الوليد فوجدهما في مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله فدعاهما إلى ذلك فاستجابا له، وأمراه بالانصراف، وذعر ابن الزبير، فقال للإمام الحسين صلى الله عليه وآله ما تراه بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها؟!

فقال عليه السلام: **أَظُنُّ أَنَّ طاغِيَتَهُمْ** - يعني معاوية - **قَدْ هَلَكَ فَبَعَثَ إِلَيْنا بِالْبَيْعَةِ قَبْلَ أَنْ يَفْشُوَ بِالنّاسِ الْخَبَرُ**.

---

(١) نهج البلاغة: ١٠٢، الخطبة ٧٤.

(٢) البداية والنهاية: ٨: ١٦٤.

قال : وأنا ما أظن غيره ، فما تريد أن تصنع ؟

فقال عليه السلام : **أَجْمَعُ فِتْيانِي السّاعَةَ ، ثُمَّ أَسِيرُ إِلَيْهِ ، وَأُجْلِسُهُمْ عَلَى الْبابِ .**

قال : إنّي أخاف عليك إذا دخلت .

فقال عليه السلام : **لَا آتِيهِ إِلَّا وَأَنا قادِرٌ عَلَى الْإِمْتِناعِ**(١) .

وانصرف أبيُّ الضيم إلى منزله فاغتسل ، وصلى ودعا الله(٢) ، وأمر أهل بيته بلبس السلاح والخروج معه ، فخفّوا محدقين به ، فأمرهم بالجلوس على باب الدار ، وقال لهم : **إِنِّي داخِلٌ ، فَإِذَا دَعَوْتُكُمْ أَوْ سَمِعْتُمْ صَوتِيَ قَدْ عَلَا فَادْخُلوا عَلَيَّ بِأَجْمَعِكُمْ .**

ودخل الإمام الحسين عليه السلام على الوليد فرأى مروان عنده وكانت بينهما قطيعة ، فأمرهما بالتقارب والإصلاح ، وترك الأحقاد ، وكانت سجيته التي طبع عليها الإصلاح حتّى مع أعدائه وخصومه ، فقال عليه السلام لهما : **الصِّلَةُ خَيْرٌ مِنَ الْقَطِيعَةِ ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ مِنَ الْفَسادِ ، وَقَدْ آنَ لَكُما أَنْ تَجْتَمِعا ، أَصْلَحَ اللهُ ذاتَ بَيْنِكُما**(٣) .

ولم يجيباه بشيء فقد علاهما صمت رهيب ، والتفت الإمام عليه السلام إلى الوليد فقال له : **هَلْ أَتاكَ مِنْ مُعاوِيَةَ خَبَرٌ ؟ فَإِنَّهُ كانَ عَلِيلاً وَقَدْ طالَتْ عِلَّتُهُ ، فَكَيْفَ حالُهُ الْآنَ ؟**

فقال الوليد بصوت خافت حزين النبرات : آجرك الله في معاوية ، فقد كان لك عمّ صدوق ، وقد ذاق الموت ، وهذا كتاب أميرالمؤمنين يزيد .

فاسترجع الحسين عليه السلام ، وقال له : **لِماذَا دَعَوْتَنِي ؟**

فقال : دعوتك للبيعة(٤) .

---

(١) وقعة الطفّ / أبو مِخنف : ٨٠ . تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٤٩ . المنتظم : ٥ : ٣٢٣ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٦٤ .

(٢) الدرّ النظيم : ١٦٢ . مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ١٨٣ .

(٣) مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ١٨٣ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٦٤ .

(٤) الفتوح : ٥ : ١٣ . مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ١٨٣ .

فقال عليه السلام : **إنَّ مِثْلِي لَا يُبايعُ سِرّاً ، وَلَا يُجْتَزَأُ بِها مِنِّي سِرّاً ، فَإذا خَرَجْتَ إلَى النّاسِ وَدَعَوْتَهُمْ لِلْبَيعَةِ دَعَوْتَنا مَعَهُمْ كانَ الْأَمْرُ واحِداً**(١) .

لقد طلب الإمام الحسين عليه السلام تأجيل الأمر إلى الصباح ، حتّى يُعقَدَ اجتماع جماهيري فيدلي برأيه في شجب البيعة ليزيد ، ويستنهض همم المسلمين على الثورة والإطاحة بحكم يزيد . وكان الوليد ـ فيما يقول المؤرخون ـ يحبّ العافية(٢) ويكره الفتنة ، فشكر الإمامَ الحسينَ عليه السلام على مقالته ، وسمح له بالانصراف إلى داره ، وانبرى الوغد الخبيث مروان بن الحكم وهو مغيظ محنق فصاح بالوليد : لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتّى تكثر القتلى بينكم وبينه ، احبسه فإن بايع وإلّا ضربت عنقه .

ووثب أبيُّ الضيم إلى الوزغ ابن الوزغ ، فقال له : **يابْنَ الزَّرقاءِ ، أأَنْتَ تَقْتُلُنِي أَمْ هُوَ ؟ كَذِبْتَ وَاللهِ وَلَؤُمْتَ**(٣) .

وأقبل على الوليد فأخبره عن عزمه وتصميمه على رفض البيعة ليزيد ، قائلاً : **أَيُّها الْأَميرُ ، إنّا أَهْلُ بَيْتِ النُّبُوَّةِ ، وَمَعْدِنُ الرِّسالَةِ ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلائِكَةِ ، وَمَحَلُّ الرَّحْمَةِ ، بِنا فَتَحَ اللهُ ، وَبِنا خَتَمَ ، وَيَزِيدُ رَجُلٌ فاسِقٌ ، شارِبُ الْخَمْرِ ، قاتِلُ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ ، مُعْلِنٌ بِالْفِسقِ ، وَمِثْلِي لَا يُبايعُ مِثْلَهُ ، وَلـكِنْ نُصْبِحُ وَتُصْبِحُونَ ، وَنَنْظُرُ وَتَنْظُرُونَ أَيُّنا أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ وَالْبَيْعَةِ**(٤) .

وكان هذا أوّل إعلان له على الصعيد الرسمي ـ بعد هلاك معاوية ـ في رفض

---

(١) الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٦٤ .

(٢) الأخبار الطوال: ٢٢٨ . تاريخ الأمم والملوك : ٥٤٩ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٦٤ .

(٣) الإرشاد / المفيد : ٢ : ٣٣ . وقعة الطفّ / أبو مِخنف : ٨١ . تاريخ الأمم والملوك : ٤ : ٥٤٩ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٦٤ .

(٤) اللهوف : ١٠ . الفتوح : ٥ : ١٤ . مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ١٨٤ .

البيعة ليزيد، وقد أعلن ذلك في بيت الإمارة ورواق السلطة بدون مبالاة ولا خوف ولا ذعر.

لقد جاء تصريحه بالرفض لبيعة يزيد معبّراً عن تصميمه، وتوطين نفسه حتّى النهاية على التضحية عن سمو مبدئه، وشرف عقيدته، فهو بحكم مواريثه الروحية، وبحكم بيته الذي كان ملتقى لجميع الكمالات الإنسانية كيف يبايع يزيد الذي هو من عناصر الفسق والفجور؟! ولو أقرّه إماماً على المسلمين لساق الحياة الإسلامية إلى الانهيار والدمار، وعصف بالعقيدة الدينية في متاهات سحيقة من مجاهل هذه الحياة.

وكانت كلمة الحقّ الصارخة التي أعلنها أبو الأحرار قد أحدثت استياءً في نفس الوزغ مروان فاندفع يعنّف الوليد ويلومه على إطلاق سراحه، قائلاً: عصيتني! لا والله لا يمكّنك مثلها من نفسه أبداً[١].

وتأثر الوليد من منطق الإمام الحسين عليه السلام وتيقظ ضميره، فاندفع يردّ أباطيل مروان، قائلاً: ويحك! إنّك أشرت علَيَّ بذهاب ديني ودنياي، والله ما أحبُّ أن أملك الدنيا بأسرها وأنّي قتلت حسيناً، سبحان الله!! أأقتل حسيناً إن قال: لا أبايع؟ والله ما أظنّ أحداً يلقى الله بدم الحسين عليه السلام إلّا وهو خفيف الميزان، لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يزكّيه وله عذاب أليم.

فسخر منه مروان، وطفق يقول: إذا كان هذا رأيك فقد أصبت!![٢].

وأين هذا الموقف من موقف الإمام الحسين عليه السلام يوم جاء هو وأخوه ومعهما مروان يستشفعان له عند أميرالمؤمنين عليه السلام يوم الجمل فشفّعهما، ونجا من القتل.

وعزم الحسين عليه السلام على مغادرة يثرب والتوجه إلى مكة ليلوذ بالبيت الحرام

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٤٩. المنتظم: ٥: ٣٢٤. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٦٤.

(٢) الإمامة والسياسة: ١: ٢٠٥. تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٥٠.

ويكون بمأمن من شرور الأُمويين واعتدائهم.

الإمام الحسين عليه السلام مع مروان

والتقى أبيٌّ الضيم في أثناء الطريق بمروان بن الحكم في صبيحة تلك الليلة التي أعلن فيها رفضه لبيعة يزيد، فبادره مروان قائلاً: إنّي ناصح، فأطعني ترشد وتسدّد(١).

قال عليه السلام: **وَما ذاكَ يا مَرْوانُ ؟**

فقال: إنّي آمرك ببيعة أميرالمؤمنين يزيد، فإنّه خير لك في دينك ودنياك.

والتاع أشدّ ما تكون اللوعة واسترجع، وأخذ يردّ على مقالة مروان ببليغ منطقه، قائلاً: **إنّا للهِ وَإنّا إلَيْهِ راجِعُونَ، وَعَلَى الْإِسْلَامِ السَّلَامُ، إِذْ قَدْ بُلِيَتِ الأُمَّةُ بِراعٍ مِثْلَ يَزِيدَ.**

ثم أقبل الإمام الحسين عليه السلام على مروان، وقال: **وَيْحَكَ يا مَروانُ، أَتَأْمُرُنِي بِبَيْعَةِ يَزِيدَ، وَهُوَ رَجُلٌ فاسِقٌ ؟! لَقَدْ قُلْتَ شَطَطاً مِنَ الْقَوْلِ وَزَلَلاً، وَلَا أَلومُكَ عَلىٰ قَوْلِكَ؛ لِأَنَّكَ اللَّعِينُ الَّذِي لَعَنَكَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وَأَنتَ في صُلْبِ أَبِيكَ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعاصِ.**

وأضاف يقول: **إِلَيْكَ عَنِّي يا عَدُوَّ اللهِ، فَإِنّا أَهْلُ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَالْحَقُّ فِينا، وَبِالْحَقِّ تَنْطِقُ أَلْسِنَتُنا، وَقَدْ سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: الْخِلَافَةُ مُحَرَّمَةٌ عَلىٰ آلِ أَبِي سُفْيانَ، وَعَلَى الطُّلَقاءِ وَأَبْناءِ الطُّلَقاءِ، فَإِذا رَأَيْتُمْ مُعاوِيَةَ عَلىٰ مِنْبَري فَابْقُروا بَطْنَهُ، فَوَاللهِ لَقَدْ رَآهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ عَلىٰ مِنْبَرِ جَدِّي فَلَمْ يَفْعَلوا ما أُمِرُوا بِهِ.**

وتميّز الخبيث الدنس مروان غيظاً وغضباً، واندفع يصيح: والله لا تفارقني أو تبايع ليزيد صاغراً، فإنّكم آل أبي تراب، قد أُشربتم بغض آل أبي سفيان، وحقّ عليكم أن تبغضوهم، وحق عليهم أن يبغضوكم.

---

(١) الفتوح: ٥: ١٦ و ١٧. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ١: ١٨٤.

فصاح به الإمام الحسين عليه السلام : **وَيْلَكَ يا مَروانُ ، إلَيْكَ عَنّي فَإنَّكَ رِجْسٌ ، وَإنّا مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الطَّهارَةِ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ عَلَىٰ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله : ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُم تَطْهِيرًا﴾**[1].

ولم يُطقِ مروان الكلام ، وقد تحرّق ألماً وحزناً ، فقال له الإمام الحسين عليه السلام : **أَبْشِرْ يابْنَ الزَّرْقاءِ بِكُلِّ ما تَكْرَهُ مِنَ الرَّسولِ صلى الله عليه وآله يَوْمَ تَقدِمُ عَلَىٰ رَبِّكَ فَيَسْأَلُكَ جَدِّي عَنْ حَقِّي وَحَقِّ يَزِيدَ .**

وانصرف مروان مسرعاً إلى الوليد فأخبره بمقالة الحسين عليه السلام له[2].

اتصال الوليد بدمشق

وأحاط الوليد يزيد علماً بالأوضاع الراهنة في يثرب ، وعرّفه بامتناع الحسين عليه السلام من البيعة ، وأنّه لا يرى له طاعة عليه ، ولمّا فهم يزيد ذلك تميّز غيظاً وغضباً .

الأوامر المشددة من دمشق

وأصدر يزيد أوامره المشددة إلى الوليد بأخذ البيعة من أهل المدينة ثانياً ، وقتل الحسين عليه السلام وإرسال رأسه إليه ، وهذا نص كتابه : « من عبد الله يزيد أميرالمؤمنين إلى الوليد بن عتبة .

أمّا بعد ، فإذا ورد عليك كتابنا هذا ، فخذ البيعة ثانياً على أهل المدينة بتوكيد منك عليهم ، وذر عبد الله بن الزبير فإنّه لن يفوت أبداً ما دام حيّاً ، وليكن مع جوابك إليّ رأس الحسين بن عليّ ، فإن فعلت ذلك ، فقد جعلت لك أعنّة الخيل ولك عندي الجائزة العظمى ، والحظّ الأوفر ، والسلام »[3].

---

(١) الأحزاب ٣٣: ٣٣.

(٢) الفتوح : ٥: ١٧. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١: ١٨٤ و ١٨٥.

(٣) الفتوح : ٥: ١٨. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١: ١٨٥ و ١٨٦.

رفض الوليد

ورفض الوليد رسمياً ما عهد إليه يزيد من قتل الحسين، وقال: لا والله، لا يراني الله قاتل الحسين بن عليّ، لا أقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ولو أعطاني يزيد الدنيا بحذافيرها[1]، وقد جاءته هذه الرسالة بعد مغادرته عليه السلام يثرب إلى مكة.

وداع الإمام الحسين عليه السلام لقبر جده صلى الله عليه وآله

وخفّ الحسين عليه السلام في الليلة الثانية إلى قبر جدّه صلى الله عليه وآله وهو حزين كئيب ليشكو إليه ظلم الظالمين له، ووقف أمام القبر الشريف ـ بعد أن صلى ركعتين ـ وقد ثارت مشاعره وعواطفه، فاندفع يشكو إلى الله ما ألمّ به من المحن والخطوب، قائلاً: **اللّٰهُمَّ إنَّ هٰذا قَبْرُ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ، وَأَنا ابْنُ بِنْتِ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ حَضَرَنِي مِنَ الْأَمْرِ ما قَدْ عَلِمْتَ، اللّٰهُمَّ إنِّي أُحِبُّ الْمَعْرُوفَ وَأُنْكِرُ الْمُنْكَرَ، وَأَنا أَسْأَلُكَ يا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرامِ بِحَقِّ هٰذَا الْقَبرِ وَمَنْ فِيهِ إلَّا ما اخْتَرْتَ لِي ما هُوَ لَكَ رِضاً وَلِرَسولِكَ رِضاً**[2].

رؤيا الإمام الحسين عليه السلام لجدّه صلى الله عليه وآله

وأخذ الحسين عليه السلام يطيل النظر إلى قبر جدّه، وقد وثقت نفسه أنّه لا يتمتع برؤيته، وانفجر بالبكاء، وقبل أن يندلع نور الفجر غلبه النوم فرأى جدّه الرسول صلى الله عليه وآله قد أقبل في كتيبة من الملائكة فضمّ الحسين عليه السلام إلى صدره وقبّل ما بين عينيه، وهو يقول له: **يا بُنَيَّ، كَأَنَّكَ عَنْ قَرِيبٍ أَراكَ مَقْتُولاً مَذْبوحاً بِأَرْضِ كَرْبٍ وَبَلَاءٍ بَيْنَ عِصابَةٍ مِنْ أُمَّتِي، وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ عَطْشانُ لَا تُسْقىٰ، وَظَمْآنُ لَا تُرْوىٰ، وَهُمْ مَعَ ذلِكَ يَرْجُونَ شَفاعَتِي يَوْمَ الْقِيامَةِ، فَما لَهُمْ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ**.

---

(١) الفتوح: ٥: ١٨. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ١: ١٨٥ و ١٨٦.

(٢) بحار الأنوار: ٤٤: ٣٢٨. الفتوح: ٥: ١٩. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ١: ١٨٦.

حَبِيبِي يا حُسَيْنُ ، إنَّ أَباكَ وَأُمَّكَ وَأَخاكَ قَدْ قَدِموا عَلَيَّ ، وَهُمْ إِلَيْكَ مُشْتاقونَ ، وَإِنَّ لَكَ في الْجَنَّةِ دَرَجاتٍ لَنْ تَنالَها إِلّا بِالشَّهادَةِ .

وجعل الإمام الحسين عليه السلام يطيل النظر إلى جدّه صلى الله عليه وآله ويذكر عطفه وحنانه عليه فازداد حزنه ، وتمثّلت أمامه المحن الكبرى التي يعانيها من الحكم الأُموي ، فهو إمّا أن يبايع فاجر بني أُمية أو يُقْتَل ، وأخذ يتوسل إلى جدّه ويتضرع إليه قائلاً : **يا جَدّاهُ ، لَا حاجَةَ لي في الرُّجوعِ إِلَى الدُّنْيا ، فَخُذْني إِلَيْكَ ، وَأَدْخِلْنِي مَعَكَ إِلىٰ مَنْزِلِكَ .**

والتاع النبيّ صلى الله عليه وآله فقال له : **لَابُدَّ لَكَ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَى الدُّنْيا ، حَتّىٰ تُرْزَقَ الشَّهادَةَ ، وَما كَتَبَ اللهُ لَكَ فِيها مِنَ الثَّوابِ الْعَظِيمِ ، فَإِنَّكَ وَأَباكَ وَأَخاكَ وَعَمَّكَ وَعَمَّ أَبِيكَ تُحشَرُونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ في زُمْرَةٍ واحِدَةٍ حَتّىٰ تَدْخُلوا الْجَنَّةَ**(١) .

واستيقظ الحسين عليه السلام وقد ألمّت به تيارات من الأسى والأحزان ، وصار على يقين لا يخامره أدنى شكّ أنّه لابدّ أن يرزق الشهادة ، وجمع أهل بيته فقصّ عليهم رؤياه الحزينة ، فطافت بهم الآلام ، وأيقنوا بنزول الرزء القاصم . ووصف المؤرخون شدّة حزنهم بأنّه لم يكن في ذلك اليوم لا في شرق الأرض ولا في غربها أشدّ غمّاً من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله ولا أكثر باكية وباكٍ منهم(٢) .

وداعه لقبر أمه وأخيه عليهما السلام

وتوجّه الحسين عليه السلام في غلس الليل البهيم إلى قبر أُمّه وديعة النبيّ صلى الله عليه وآله وبضعته ، ووقف أمام قبرها الشريف مليّاً ، وهو يلقي عليه نظرات الوداع الأخير ، وقد تمثّلت أمامه عواطفها الفيّاضة ، وشدّة حنوّها عليه ، وقد ودّ أن تنشقّ الأرض لتواريه معها ، وانفجر بالبكاء ، وودّع القبر وداعاً حارّاً ثمّ انصرف إلى قبر أخيه الزكي أبي

(١) الفتوح : ٥ : ١٩ . مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ١٨٦ و ١٨٧ .

(٢) عوالم العلوم : ١٧ : ١٧٧ و ١٧٨ .

محمّدعليه السلام ، فأخذ يروّي ثرى القبر من دموع عينيه ، وقد ألمّت به الآلام والأحزان ، ثمّ رجع إلى منزله وهو غارق بالأسى والشجون[١] .

فزع الهاشميّات

ولمّا عزم الإمام على مغادرة يثرب واللجوء إلى مكة اجتمعن السيدات من نساء بني عبد المطلب ، وقد جاشت عواطفهن بالأسى والحزن ، فقد تواترت عليهن الأنباء عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن مقتل ولده الحسين ، وجعلن ينحن ، وتعالت أصواتهنّ بالبكاء ، وكان منظراً مفزعاً .

وانبرى إليهنّ الإمام الحسين عليه السلام وهو رابط الجأش ، فقال لهن : **أَنْشُدُكُنَّ اللهَ أَنْ تُبْدِينَ هٰذَا الْأَمْرَ مَعْصِيَةً للهِ وَلِرَسولِهِ .**

فذابت نفوسهن ، وصحن : لمن نستبقي النياحة والبكاء ، فهو عندنا كيوم مات فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعلي وفاطمة والحسن ... جعلنا الله فداك يا حبيب الأبرار .

وأقبلت عليه بعض عمّاته ، وهي شاحبة اللون ، فقالت بنبرات منقطعة بالبكاء : لقد سمعت هاتفاً يقول :

وَإِنَّ قَتِيلَ الطَّفِّ مِنْ آلِ هاشِمٍ   أذَلَّ رِقاباً مِن قُرَيشٍ فَذَلَّتِ

وجعل الإمام الحسين عليه السلام يهدّئها ، ويأمرها بالخلود إلى الصبر ، كما أمر سائر السيدات من بني عبد المطلب بذلك[٢] .

مع أخيه ابن الحنفية رضي الله عنه

وفزع محمّد بن الحنفية إلى الإمام الحسين عليه السلام ، فجاء يتعثّر في خطاه ، وهو

---

(١) الفتوح : ٥ : ١٩ و ٢٠ .

(٢) مقتل الحسين عليه السلام / المقرّم : ١٥٢ ـ ١٥٤ .

لا يبصر طريقه من شدّة الحزن والأسى ، ولمّا استقر به المجلس أقبل على الإمام الحسين عليه السلام وقال له بنبرات مشفوعة بالإخلاص والحنوّ عليه : يا أخي فدتك نفسي ، أنت أحبّ الناس إليّ ، وأعزّهم عليّ ، ولست والله أدّخر النصيحة لأحد من الخلق ، وليس أحد أحقّ بها منك ، فإنّك كنفسي وروحي ، وكبير أهل بيتي ، ومن عليه اعتمادي ، وطاعته في عنقي ؛ لأنّ الله تبارك وتعالى قد شرّفك وجعلك من سادات أهل الجنة ، وإنّي أُريد أن أُشير عليك برأيي فاقبله مني .

لقد عبّر محمّد بهذا الحديث الرقيق عن عواطفه الفياضة المترعة بالولاء والإكبار لأخيه ؛ لأنّه ممّن افترض الله طاعته عليه ، وأقبل عليه فقال له محمّد : أشير عليك أن تتنحى ببيعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت ، ثمّ ابعث برسلك إلى الناس ، فإن بايعوك حمدت الله على ذلك ، وإن اجتمعوا على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ، ولم تذهب مروءتك ولا فضلك ، وإنّي أخاف عليك أن تدخل مصراً من هذه الأمصار فيختلف الناس بينهم ، فطائفة معك وأُخرى عليك فيقتتلون ، فتكون لأوّل الأسنّة غرضاً ، فإذا خير هذه الأمة كلّها نفساً وأباً وأُمّاً أضيعها دماً وأذلّها أهلاً(١) .

وبادر الإمام الحسين عليه السلام فقال له : **أَيْنَ أَذْهَبُ ؟**

فقال : تنزل مكّة ، فإن اطمأنّت بك الدار ، وإلّا لحقت بالرمال ، وشعب الجبال ، وخرجت من بلد إلى آخر حتّى تنظر ما يصير إليه أمر الناس ، فإنّك أصوب ما تكون رأياً وأحزمه عملاً ، حتّى تستقبل الأُمور استقبالاً ، ولا تكون الأُمور أبداً أشكل عليك منها حين تستدبرها استدباراً(٢) .

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٥١ . الفتوح : ٥ : ٢٠ . مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ١٨٧ و ١٨٨ .

(٢) الإرشاد / المفيد : ٢ : ٣٥ . تاريخ الأمم والملوك : ٤ : ٥٥١ .

وانطلق الإمام وهو غير حافل بالأحداث، فأخبره عن عزمه الجبار وتصميمه الكامل على رفض البيعة ليزيد قائلاً: **يا أَخِي، لَوْ لَمْ يَكُنْ في الدُّنْيا مَلْجَأٌ وَلا مَأْوىً لَما بايَعْتُ يَزِيدَ بْنَ مُعاوِيَةَ**[١].

وانفجر ابن الحنفية بالبكاء، فقد أيقن بالرزء القاصم، واستشفّ ماذا سيجري على أخيه من الرزايا والخطوب، وشكر الإمام نصيحته وقال له: **يا أَخِي، جَزاكَ اللهُ خَيْراً لَقَدْ نَصَحْتَ وَأَشَرْتَ بِالصَّوابِ، وَأَنا عازِمٌ عَلَى الْخُرُوجِ إِلىٰ مَكَّةَ، وَقَدْ تَهَيَّأْتُ لِذلِكَ أَنا وَإِخْوَتِي وَبَنُو أَخِي وَشِيعَتِي، أَمْرُهُم أَمْرِي، وَرَأْيُهُمْ رَأْيِي، وَأَمّا أَنْتَ فَلا عَلَيْكَ أَنْ تُقِيمَ بِالمَدِينَةِ فَتَكُونَ لِي عَيْناً لا تُخْفِ عَنِّي شَيْئاً مِن أُمُورِهِمْ**[٢].

وصيّته لابن الحنفية رضي الله عنه

وعهد الإمام الحسين عليه السلام بوصيته الخالدة إلى أخيه ابن الحنفية، وقد تحدّث فيها عن أسباب ثورته الكبرى على حكومة يزيد، وقد جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

هٰذا ما أَوْصَىٰ بِهِ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلىٰ أَخِيهِ مُحَمَّدٍ الْمَعرُوفِ بِابْنِ الْحَنَفِيَّةِ: إِنَّ الْحُسَيْنَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسولُهُ، جاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنّارَ حَقٌّ، وَأنَّ السّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيها، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ في الْقُبُورِ.

وَإِنّي لَمْ أَخْرُجْ أَشِراً وَلَا بَطِراً، وَلَا مُفْسِداً وَلَا ظالِماً، وَإِنَّما خَرَجْتُ

---

(١) بحار الأنوار: ٤٤: ٣٢٩.

(٢) الفتوح: ٥: ٢١. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ١: ١٨٨.

لِطَلَبِ الْإِصْلاحِ في أُمَّةِ جَدِّي صلى الله عليه وآله، أُرِيدُ أَنْ آمُرَ بِالْمَعْروفِ وَأَنْهىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَسيرَ بِسيرَةِ جَدِّي وَأَبِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طالِبٍ، فَمَنْ قَبِلَنِي بِقَبُولِ الْحَقِّ، فَاللهُ أَوْلىٰ بِالْحَقِّ، وَمَن رَدَّ عَلَيَّ أَصْبِرُ حَتّىٰ يَقْضِيَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْقَوْمِ بِالْحَقِّ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ.

وَهٰذِهِ وَصِيَّتي إِلَيْكَ يا أَخِي، وَما تَوْفِيقِي إِلّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ»[١].

من أجل هذه الأهداف النبيلة فجّر الإمام الحسين عليه السلام ثورته الخالدة، فهو لم يخرج أشراً ولا بطراً، ولم يبغِ أيّة مصلحة مادّية له أو لأُسرته، وإنّما خرج على حكم الظلم والطغيان، يريد أن يقيم صروح العدل بين الناس، وما أروع قوله: «**فَمَنْ قَبِلَنِي بِقَبولِ الْحَقِّ فَاللهُ أَوْلىٰ بِالْحَقِّ، وَمَنْ رَدَّ عَلَيَّ أَصْبِرُ حَتّىٰ يَقْضِيَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْقَوْمِ بِالْحَقِّ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمينَ**».

لقد حدد الإمام الحسين عليه السلام خروجه بأنّه كان من أجل إحقاق الحقّ وإماتة الباطل، ودعا الأُمة باسم الحقّ إلى الالتفاف حوله لتحمي حقوقها وتصون كرامتها وعزتها التي انهارت على أيدي الأُمويين، وإذا لم تستجب لنصرته فسيواصل وحده مسيرته النضالية بصبر وثبات في مناجزة الظالمين والمعتدين حتّى يحكم الله بينه وبينهم بالحقّ وهو خير الحاكمين، كما حدد المنهاج الخالد الذي يسير عليه وهو منهاج جدّه وأبيه، وليس على نهج أيّ أحد من الخلفاء. وهذه الوصية من البنود التي نرجع إليها في دراستنا عن أسباب ثورته.

وتهيأ الإمام بعد وصيته لأخيه محمّد إلى السفر إلى مكة ليلتقي بحجاج بيت الله

---

(١) بحار الأنوار: ٤٤: ٣٢٩. الفتوح: ٥: ٢١. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ١: ١٨٨ ـ ١٨٩.

الحرام وغيرهم ، ويعرض عليهم الأوضاع الراهنة في البلاد ، وما تعانيه الأُمة من الأزمات والأخطار في عهد يزيد .

وقبل أن يغادر الإمام الحسين عليه السلام يثرب متّجهاً إلى مكة دخل مسجد جدّه الرسول صلى الله عليه وآله وهو غارق في الأسى والشجون ، فألقى عليه نظرة الوداع الأخير ، وقد نظر إلى محراب جدّه صلى الله عليه وآله ومنبره ، فطافت به ذكريات ذلك العطف الذي كان يفيضه عليه جدّه صلى الله عليه وآله حينما كان في غضون الصبا ، فلم ينسَ الحسين في جميع فترات حياته ذلك الحنان الذي أغدقه عليه جدّه حينما يقول فيه : « **حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنا مِنْ حُسَيْنٍ ، أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْناً ، حُسَيْنٌ سِبْطٌ مِنَ الْأَسْباطِ** »(١) .

وتذكّر كيف كان النبيّ صلى الله عليه وآله يفرغ عليه ما انطوت عليه نفسه الكبيرة من المثل العليا التي كان بها خاتم النبيّين وسيد المرسلين ، وأيقن أنّه لم يكن يشيع ذلك في نفسه بمحض العاطفة بل بشعور آخر هو الإبقاء على رسالته ومبادئه ، ورأى أنّه لابدّ أن يقدّم التضحية الرهيبة التي تصون رسالة الإسلام من عبث الناقمين عليه ، فيقول المؤرخون : إنّه دخل المسجد بين أهل بيته ، وهو يعتمد في مشيه على رجلين ويتمثل بقول يزيد بن مُفرغ :

لَا ذَعَرتُ السَّوامَ في فَلَقِ الصُّبْـ ـحِ مُغيراً وَلَا دُعِيتُ يَزيدا
يَومَ أُعطِي مِنَ المَهانَةِ ضَيماً وَالمَنايا تَرصُدنَنِي أَنْ أَحِيدا(٢)

ويقول أبو سعيد : لمّا سمعت هذين البيتين قلت في نفسي : إنّه ما تمثّل بهما

---

(١) كامل الزيارات : ١١٦ ، الحديث ١٢٦ . شرح الأخبار : ٣ : ١١٢ . المعجم الكبير / الطبراني : ٣ : ٣٣ ، الرقم ٢٥٨٩ . و : ٣٢ ، الرقم ٩ . سنن ابن ماجة : ١ : ٥١ ، الحديث ١٤٤ . سنن الترمذي : ٥ : ٦١٧ ، الحديث ٣٧٧٥ . أُسد الغابة : ١ : ٤٩٧ .

(٢) وقعة الطفّ / أبو مخنف : ٨٣ . أنساب الأشراف : ٣ : ٣٦٨ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٦٥ . البداية والنهاية : ٨ : ١٦٧ .

إلّا لشيء يريده ، فما مكث إلّا قليلاً حتّى بلغني أنّه سار إلى مكة[١] ، لقد صمّم على التضحية والفداء ليغيّر مجرى الحياة ، ويرفع كلمة الله ، ويبسط الخير في الأرض .

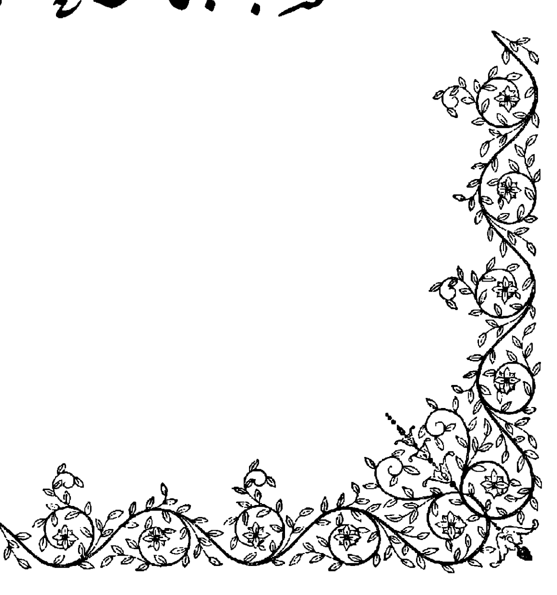
أمّا يثرب مهد النبوة فإنّه حينما أُذيع فيها مغادرة الإمام الحسين عليه السلام عنها علتها الكآبة ، وخيّم على أهلها الحزن والذعر ، فقد أيقنوا بالخسارة الفادحة التي ستحلّ بهم ، فسيغيب عنهم قبس من نور الرسالة الذي كان يضيء لهم الحياة ، وحزنت البقية الباقية من صحابة النبيّ صلى الله عليه وآله أعظم ما يكون الحزن ، فقد كانوا يرون في الحسين عليه السلام امتداداً لجدّه الرسول صلى الله عليه وآله الذي أنقذهم من حياة التيه في الصحراء .

(١) تاريخ الأمم والملوك : ٤ : ٥٥١ . مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ١٨٦ . تاريخ مدينة دمشق : ١٤ : ٢٠٤ .



الثَّوْرَةُ الحُسَيْنِيَّةُ

أَسْبَابُهَا وَمُخَطَّطَاتُهَا



ولم يفجّر الإمام الحسينعليه السلام ثورته الكبرى أشِراً ولا بَطِراً ، ولا ظالماً ولا مفسداً ، وإنّما انطلق ليؤسس معالم الإصلاح في البلاد ، ويحقق العدل الاجتماعي بين الناس ، ويقضي على أسباب النكسة الأليمة التي مُني بها المسلمون في ظلّ الحكم الأُموي الذي ألحق بهم الهزيمة والعار.

لقد انطلق الإمام الحسينعليه السلام ليصحح الأوضاع الراهنة في البلاد ، ويعيد للأُمة ما فقدته من مقوماتها وذاتياتها ، ويعيد لشرايينها الحياة الكريمة التي تملك بها إرادتها وحريتها في مسيرتها النضالية لقيادة أُمم العالم في ظلّ حكم متوازن تذاب فيه الفوارق الاجتماعية ، وتقام الحياة على أُسس صلبة من المحبّة والإخاء ، إنّه حكم الله خالق الكون وواهب الحياة ، لا حكم معاوية الذي قاد حكومته على إماتة وعي الإنسان ، وشلّ حركته الفكرية والاجتماعية.

لقد فجّر الإمام الحسينعليه السلام ثورته الكبرى التي أوضح الله بها الكتاب ، وجعلها عبرة لأُولي الألباب ، فأضاء بها الطريق ، وأوضح بها القصد ، وأنار بها الفكر ، فانهارت بها السدود والحواجز التي وضعها الحكم الأُموي أمام التطوّر الشامل الذي يريده الإسلام لأبنائه ، فلم يعد بعد الثورة أيّ ظل للسلبيات الرهيبة التي أقامها الحكم الأُموي على مسرح الحياة الإسلامية ، فقد انتفضت الأُمة ـ بعد مقتلهعليه السلام ـ كالمارد الجبّار وهي تسخر من الحياة ، وتستهزئ بالموت ، وتزجّ بأبنائها في ثورات متلاحقة حتّى أطاحت بالحكم الأُموي ، واكتسحت معالم زهوه.

ولم يقدم الإمام الحسين عليه السلام على الثورة إلّا بعد أن انسدت أمامه جميع الوسائل وانقطع كلّ أمل له في إصلاح الأُمة، وإنقاذها من السلوك في المنعطفات، فأيقن أنّه لا طريق للإصلاح إلّا بالتضحية الحمراء، فهي وحدها التي تتغيّر بها الحياة، وترتفع راية الحقّ عاليةً في الأرض.

وفيما أعتقد أنّ أهمّ ما يتطلبه القرّاء لأمثال هذه البحوث الوقوف على أسباب الثورة الحسينية ومخططاتها، وفيما يلي ذلك:

أسباب الثورة

وأحاطت بالإمام الحسين عليه السلام عدّة من المسؤوليات الدينيّة والواجبات الاجتماعيّة وغيرها، فحفّزته إلى الثورة، ودفعته إلى التضحية والفداء، وهذه بعضها:

١ ـ المسؤولية الدينيّة

أعلن الإسلام المسؤولية الكبرى على كلّ مسلم عمّا يحدث في بلاد المسلمين من الأحداث والأزمات التي تتنافى مع دينهم، وتتجافى مع مصالحهم، فإنّه ليس من الإسلام في شيء أن يقف المسلم موقفاً يتّسم بالميوعة واللامبالاة أمام الهزّات التي تدهم الأُمة وتدمّر مصالحها، وقد أعلن الرسول صلى الله عليه وآله هذه المسؤولية، يقول صلى الله عليه وآله: «**كُلُّكُمْ راعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[١]، فالمسلم مسؤول أمام الله عن رعاية مجتمعه، والسهر على صالح بلاده، والدفاع عن أُمته.

وعلى ضوء هذه المسؤولية الكبرى ناهض الإمام الحسين عليه السلام جور الأُمويين، وناجز مخططاتهم الهادفة إلى استعباد الأُمة وإذلالها، ونهب ثرواتها، وقد أدلى عليه السلام بما يحتّمه الإسلام عليه من الجهاد لحكم الطاغية يزيد، أمام الحرّ وأصحابه،

---

(١) مسند أحمد بن حنبل: ٢: ٥. صحيح البخاري: ٣: ٢٤٣، الحديث ٢٣. صحيح مسلم: ٦: ٨.

قال عليه السلام : **أَيُّها النّاسُ ، إِنَّ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله قالَ : مَنْ رَأىٰ سُلْطاناً جائِراً مُسْتَحِلّاً لِحُرَمِ اللهِ ، ناكِثاً لِعَهْدِ اللهِ ، مُخالِفاً لِسُنَّةِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله ، يَعمَلُ في عِبادِ اللهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدوانِ ، فَلَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهِ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ كانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ مَدْخَلَهُ**[1] .

لقد كان الواجب الديني يحتّم عليه القيام بوجه الحكم الأُموي الذي استحل حرمات الله ، ونكث عهوده وخالف سنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد صرّح جماعة من علماء المسلمين بأنّ الواجب الديني كان يقضي عليه أن ينطلق في ميادين الجهاد دفاعاً عن الإسلام ، وفيما يلي بعضهم :

الإمام محمّد عبده

قد أشار الإمام محمّد عبده في حديثه عن الحكومة العادلة والجائرة في الإسلام إلى خروج الإمام الحسين عليه السلام على حكومة يزيد ، ووصفه بأنّه كان واجباً شرعيّاً عليه ، قال : إذا وجد في الدنيا حكومة عادلة تقيم الشرع ، وحكومة جائرة تعطّله ، وجب على كل مسلم نصر الأُولى وخذل الثانية... ومن هذا الباب خروج الإمام الحسين عليه السلام سبط الرسول صلى الله عليه وآله على إمام الجور والبغي الذي ولي أمر المسلمين بالقوة والمنكر يزيد بن معاوية خذله الله ، وخذل من انتصر له من الكرامية والنواصب[2] .

محمّد عبد الباقي

تحدّث الأُستاذ محمّد عبد الباقي سرور عن المسؤولية الدينية والاجتماعية اللتين تحتّمان على الإمام القيام بمناهضة حكم يزيد ، فقال : «لو بايع الحسين يزيد الفاسق المستهتر ، الذي أباح الخمر والزنا ، وحطّ بكرامة الخلافة إلى مجالسة

---

(١) وقعة الطفّ : ١٧٢ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٨٠ .

(٢) تفسير المنار : ١ : ٣٦٧ ، و : ١٢ : ١٨٣ ، ١٨٥ .

الغانيات ، وعقد حلقات الشراب في مجلس الحكم ، والذي ألبس الكلاب والقرود خلاخل من ذهب ومئات الأُلوف من المسلمين صرعى الجوع والحرمان .

لو بايع الحسين يزيد أن يكون خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله على هذا الوضع لكانت فتيا من الحسين بإباحة هذا للمسلمين ، وكان سكوته هذا أيضاً رضاً ، والرضا من ارتكاب المنكرات ولو بالسكوت إثم وجريمة في حكم الشريعة الإسلامية .

والحسين بوضعه الراهن في عهد يزيد هو الشخصية المسؤولة في الجزيرة العربية ـ بل في البلاد الإسلامية كافّة ـ عن حماية التراث الإسلامي ؛ لمكانته في المسلمين ، ولقرابته من رسول ربّ العالمين ، ولكونه بعد موت كبار المسلمين . كان أعظم المسلمين في ذلك الوقت علماً وزهداً وحسباً ومكانةً ، فعلى هذا الوضع أحسّ بالمسؤولية تناديه وتطلبه لإيقاف المنكرات عند حدّها ، ولاسيّما أنّ الذي يضع هذه المنكرات ويشجّع عليها هو الجالس في مقعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، هذا **أولاً** .

وثانياً : أنّه عليه السلام جاءته المبايعات بالخلافة من جزيرة العرب ، وجاء ثلاثون ألفاً من الخطابات من ثلاثين ألفاً من العراقيّين من سكّان البصرة والكوفة يطلبون فيها منه الشخوص لمشاركتهم في محاربة يزيد بن معاوية ، وألحوا تكرار هذه الخطابات حتّى قال رئيسهم عبد الله بن الحصين الأزدي : يا حسين ، سنشكوك إلى الله تعالى يوم القيامة إذا لم تلبِ طلبنا ، وتقوم بنجدة الإسلام ، وكيف والحسين ذو حميّة دينية ونخوة إسلامية ، والمفاسد تترى أمام عينيه ، كيف لا يقوم بتلبية النداء ؟ وعلى هذا الوضع لبّى النداء ، كما تأمر به الشريعة الإسلامية ، وتوجّه نحو العراق »[١] .

وهذا الرأي وثيق للغاية ، فقد شفع بالأدلة الشرعية التي حمّلت الإمام مسؤولية الجهاد والخروج على حكم طاغية زمانه .

---

(١) الثائر الأوّل في الإسلام : ٧٩ .

عبد الحفيظ أبو السعود

يقول الأُستاذ عبد الحفيظ أبو السعود: «ورأى الحسين أنّه مطالب الآن ـ يعني بعد هلاك معاوية ـ أن يعلن رفضه لهذه البيعة، وأن يأخذ البيعة لنفسه من المسلمين، وهذا أقلّ ما يجب حفاظاً لأمر الله، ورفعاً للظلم، وإبعاداً لهذا العابث ـ يعني يزيد ـ عن ذلك المنصب الجليل»(١).

الدكتور أحمد محمود صبحي

وممّن صرّح بهذه المسؤولية الدينية الدكتور أحمد محمود صبحي، حيث قال: «ففي إقدام الحسين على بيعة يزيد انحراف عن أصل من أُصول الدين من حيث إنّ السياسة الدينية للمسلمين لا ترى في ولاية العهد وراثة الملك إلّا بدعة هرقلية دخيلة على الإسلام، ومن حيث إنّ اختيار شخص يزيد مع ما عرف عنه من سوء السيرة، وميله إلى اللهو وشرب الخمر، ومنادمة القرود؛ ليتولى منصب الخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أكبر وزر يحلّ بالنظام السياسي للإسلام، يتحمل وزره كلّ من شارك فيه ورضي عنه، فما بالك إذا كان المقدم على ذلك هو ابن بنت رسول الله...»(٢).

كان خروج الإمام الحسين عليه السلام إذاً أمراً يتّصل بالدعوة والعقيدة أكثر ممّا يتّصل بالسياسة والحرب.

عبدالله العلائلي

يقول الشيخ عبدالله العلائلي: «وهناك واجب على الخليفة إذا تجاوزه وجب على الأُمة إسقاطه، ووجبت على الناس الثورة عليه، وهو المبالغة باحترام القانون

---

(١) سبط الرسول: ١٣٣.

(٢) نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشريّة: ٣٣٤.

الذي يخضع له الناس عامة ، وإلّا فأيّ تظاهر بخلافه يكون تلاعباً وعبثاً ، ومن ثمّ وجب على رجل القانون أن يكون أكثر تظاهراً باحترام القانون من أيّ شخص آخر ، وأكبر مسؤولية من هذه الناحية ، فإذا فسق الملك ثمّ جاهر بفسقه ، وتحدّى الله ورسوله والمؤمنين لم يكن الخضوع له إلّا خضوعاً للفسق وخضوعاً للفحشاء والمنكر ، ولم يكن الاطمئنان إليه إلّا اطمئناناً للتلاعب والمعالنة الفاسقة .

هذا هو المعنى التحليلي لقوله عليه السلام : **وَيَزِيدُ رَجُلٌ فاسِقٌ ، شارِبٌ لِلْخَمْرِ ، وَقاتِلُ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ ، مُعْلِنٌ بِالْفِسْقِ »**[1] .

هذه بعض الآراء التي أدلى بها جماعة من العلماء في إلزام الإمام الحسين عليه السلام شرعاً بالخروج على حكم الطاغية يزيد ، وأنّه ليس له أن يقف موقفاً إيجابياً أمام ما يقترفه يزيد من الظلم والجور .

٢ ـ المسؤولية الاجتماعية

وكان الإمام الحسين عليه السلام بحكم مركزه الاجتماعي مسؤولاً أمام الأُمة عمّا مُنيت به من الظلم والاضطهاد من قبل الأُمويين ، ومن هو أولى بحمايتها ، وردّ الاعتداء عنها غيره ، فهو سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانته ، والدين دين جدّه ، والأُمة أُمة جدّه ، وهو المسؤول بالدرجة الأُولى عن رعايتهما .

لقد رأى الإمام الحسين عليه السلام أنّه مسؤول عن هذه الأُمة ، وأنّه لا يجدي بأيّة حال في تغيير الأوضاع الاجتماعية التزام جانب الصمت ، وعدم الوثوب في وجه الحكم الأُموي المليء بالجور والآثام ، فنهض بأعباء هذه المسؤولية الكبرى ، وأدّى رسالته بأمانة وإخلاص ، وضحّى بنفسه وأهل بيته وأصحابه ؛ ليعيد على مسرح الحياة عدالة الإسلام وحكم القرآن .

---

(١) الحسين بن عليّ : ٩٤.

٣ـ إقامة الحجّة عليه

وقامت الحجّة على الإمام لإعلان الجهاد ، ومناجزة قوى البغي والإلحاد ، فقد تواترت عليه الرسائل والوفود من أقوى حامية عسكرية في الإسلام ، وهي الكوفة ، فكانت رسائل أهلها تحمّله المسؤولية أمام الله إن لم يستجب لدعواتهم الملحّة لإنقاذهم من عسف الأُمويين وبغيهم . ومن الطبيعي أنّه لو لم يُجبهم لكان مسؤولاً أمام الله ، وأمام الأُمة في جميع مراحل التاريخ ، وتكون الحجّة قائمة عليه .

٤ـ حماية الإسلام

ومن أوكد الأسباب التي ثار من أجلها حفيد الرسول صلى الله عليه وآله حماية الإسلام من خطر الحكم الأُموي الذي جهد على محو سطوره ، وقلع جذوره ، وإقبار قِيمه ، فقد أعلن يزيد وهو على دست الخلافة الإسلامية الكفر والإلحاد بقوله :

لَـعِبتْ هـاشِمُ بِـالمُلكِ فَـلَا   خَبَرٌ جاءَ وَلَا وَحيٌ نَـزلْ (١)

وكشف هذا الشعر عن العقيدة الجاهلية التي كان يدين بها يزيد ، فهو لم يؤمن بوحي ولا كتاب ، ولا جنّة ولا نار ، وقد رأى السبط أنّه إن لم يثأر لحماية الدين فسوف يجهز عليه حفيد أبي سفيان ويجعله أثراً بعد عين ، فثار عليه السلام ثورته الكبرى التي فدى بها دين الله ، فكان دمه الزاكي المعطّر بشذى الرسالة هو البلسم لهذا الدين ، فإنّ من المؤكّد أنّه لولا تضحيته لم يبقَ للإسلام اسم ولا رسم ، وصار الدين دين الجاهلية ودين الدعارة والفسوق ، ولذهبت سدىً جميع جهود النبيّ صلى الله عليه وآله ، وما كان ينشده للناس من خير وهدى ، وقد نظر النبيّ صلى الله عليه وآله من وراء الغيب واستشفّ مستقبل أُمته ، فرأى بعين اليقين ما تُمنى به الأُمة من الانحراف عن الدين ،

---

(١) الاحتجاج : ٢ : ١٢٢ و ١٢٣ . الغدير : ٣ : ٢٦٠ . مقاتل الطالبيّين : ١١٩ .

وما يصيبها من الفتن والخطوب على أيدي أُغيلمة من قريش، ورأى أنّ الذي يقوم بحماية الإسلام هو الحسين عليه السلام، فقال صلى الله عليه وآله كلمته الخالدة: «**حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنا مِنْ حُسَيْنٍ**»(١). فكان النبيّ صلى الله عليه وآله حقّاً من الحسين؛ لأنّ تضحيته كانت وقاية للقرآن، وسيبقى دمه الزكي يروّي شجرة الإسلام على مرّ الأحقاب والآباد.

٥ ـ صيانة الخلافة

ومن ألمع الأسباب التي ثار من أجلها الإمام الحسين عليه السلام تطهير الخلافة الإسلامية من أرجاس الأُمويين الذين نزوا عليها بغير حقّ، فلم تعد الخلافة في عهدهم كما يريدها الإسلام وسيلة لتحقيق العدل الاجتماعي بين الناس، والقضاء على جميع أسباب التخلف والفساد في الأرض.

لقد اهتمّ الإسلام اهتماماً بالغاً بشأن الخلافة باعتبارها القاعدة الصلبة لإشاعة الحقّ والعدل بين الناس، فإذا صلحت نَعُمت الأُمةُ بأسرها، وإذا انحرفت عن واجباتها فإنّ الأُمة تصاب بتدهور سريع في جميع مقوماتها الفكرية والاجتماعية، ومن ثَمَّ فقد عنى الإسلام في شأنها أشدّ ما تكون العناية، فألزم من يتصدى لها بأن تتوفر فيه النزعات الخيّرة والصفات الشريفة من العدالة والأمانة والخبرة بما تحتاج إليه الأُمة في مجالاتها الاقتصادية والإدارية والسياسية، وحرّم على من فقد هذه الصفات أن يرشّح نفسه للخلافة، وقد تحدّث عليه السلام في أُولى رسائله إلى أهل الكوفة عن الصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يرشّح نفسه إلى إمامة المسلمين وإدارة شؤونهم قال عليه السلام: «**فَلَعَمْرِي ما الْإمامُ إلَّا الْعامِلُ بِالْكِتابِ، وَالْآخِذُ بِالْقِسْطِ، وَالدّائِنُ بِالْحَقِّ، وَالْحابِسُ نَفْسَهُ عَلىٰ ذاتِ اللهِ**»(٢).

---

(١) شرح الأخبار: ٣: ١١٢. الإرشاد / المفيد: ٢: ١٢٧. بحار الأنوار: ٤٣: ٢٦١. تاريخ مدينة دمشق: ١٤: ١٤٩.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٦١. تاريخ ابن خلدون: ٣: ٢٧.

فمن تحلّى بهذه الصفات كان له الحقّ في تقديم نفسه لإمامة المسلمين وخلافتهم ، ومن لم يتّصف بها فلا حقّ له في التصدّي لهذا المركز الخطير الذي كان يشغله الرسول صلى الله عليه وآله . إنّ الخلافة الإسلامية ليست مجرّد سلطة زمنية على الأُمة ، وإنّما هي نيابة عن الرسول صلى الله عليه وآله وإمتداد ذاتي لحكومته المشرقة .

وقد رأى الإمام الحسين عليه السلام أنّ مركز جدّه قد صار إلى سكّير مستهتر لا يعي إلّا شهواته ورغباته ، فثار عليه السلام ليعيد للخلافة الإسلامية كيانها المشرق وماضيها الزاهر .

٦ ـ تحرير إرادة الأُمة

ولم تملك الأُمة في عهد معاوية ويزيد إرادتها واختيارها ، فقد كانت جثّة هامدة لا وعي فيها ولا اختيار ، قد كبّلت بقيود ثقيلة سدّت في وجهها منافذ النور والوعي ، وحيل بينها وبين إرادتها .

لقد عمل الحكم الأُموي على تخدير المسلمين وشلّ تفكيرهم ، وكانت قلوبهم مع الإمام الحسين ، إلّا أنّهم لا يتمكنون من متابعة قلوبهم وضمائرهم ، فقد استولت عليها حكومة الأُمويين بالقهر ، فلم يملكوا من أمرهم شيئاً ، فلا إرادة لهم ولا اختيار ، ولا عزم ولا تصميم ، فأصبحوا كالأنصاب لا وعي فيهم ولا حراك ، قد قبعوا أذلّاء صاغرين تحت وطأة سياط الأُمويين وبطشهم .

لقد هبّ الإمام الحسين عليه السلام إلى ساحات الجهاد والفداء ؛ ليطعم المسلمين روح العزّة والكرامة ، فكان مقتله نقطة تحوّل في تاريخ المسلمين وحياتهم ، فانقلبوا رأساً على عقب ، فتسلّحوا بقوة العزم والتصميم ، وتحرّروا من جميع السلبيات التي كانت ملمّة بهم ، وانقلبت مفاهيم الخوف والخنوع التي كانت جاثمة عليهم إلى مبادئ الثورة والنضال ، فهبوا متضامنين في ثورات مكثّفة ، وكان شعارهم « يا لثارات الحسين » ، فكان هذا الشعار هو الصرخة المدوّية التي دكّت عروش الأُمويين وأزالت سلطانهم .

٧ـ تحرير اقتصاد الأُمة

وانهار اقتصاد الأُمة الذي هو شريان حياتها الاجتماعية والفردية ، فقد عمد الأُمويون بشكل سافر إلى نهب الخزينة المركزية والاستئثار بالفيء وسائر ثمرات الفتوح والغنائم ، فحازوا الثراء العريض ، وتكدّست في بيوتهم الأموال الطائلة التي حاروا في صرفها ، وقد أعلن معاوية أمام المسلمين أنّ المال مال الله ، وليس مال المسلمين ، فهو أحقّ به ، ويقول سعيد بن العاص : إنّما السواد بستان قريش . وقد أخذوا ينفقون الأموال على أغراضهم السياسية التي لا تمتّ بصلة لصالح الأُمة .

أمّا موارد إنفاقهم البارزة ، فهي :

الأوّل : شراء الضمائر والأديان ، وقد تقدمت الشواهد المؤيدة لذلك عند البحث عن سياسة معاوية الاقتصادية .

الثاني : الإنفاق على لجان الوضع لافتعال الأخبار التي تدعم الكيان الأُموي وتحطّ من قيمة أهل البيت عليهم السلام ، وقد أشرنا إلى ذلك بصورة مفصّلة .

الثالث : الهبات الطائلة والعطايا الوافرة للوجوه والأشراف لِكَمّ أفواههم عمّا تقترفه السلطة من الظلم للرعيّة .

الرابع : الصرف على المجون والدعارة ، فقد امتلأت بيوتهم بالمغنّين والمغنّيات وأدوات العزف وسائر المنكرات .

هذه بعض الموارد التي كان ينفق عليها الأموال ، في حين أنّ الجوع قد نهش الأُمة وعمّت فيها المجاعة ، وانتشر شبح الفقر في جميع الأقطار الإسلامية سوى الشام ، فقد رفّه عليها لأنّها الحصن المنيع الذي كان يحمي جور الأُمويين وظلمهم .

وقد ثار الإمام الحسين عليه السلام ليحمي اقتصاد الأُمة ويعيد توازن حياتها المعاشية ، وقد صادر أموالاً من الخراج كانت قد أُرسلت لمعاوية ، كما صادر أموالاً أُخرى أُرسلت من اليمن إلى خزينة دمشق في أيام يزيد ، وقد أنفقها على الفقراء

والمعوزين ، وكان عليه السلام أكثر ما يعاني من الآلام هو أنّه يرى الفقر قد أخذ بخناق المواطنين ، ولم ينفق شيء من بيت المال على إنعاش حياتهم .

٨ـ المظالم الاجتماعية

وانتشرت المظالم الاجتماعية في أنحاء البلاد الإسلامية ، فلم يعد قطر من الأقطار إلّا وهو يعجّ بالظلم والاضطهاد من جورهم ، وكان من مظاهر ذلك الظلم ، ما يلي :

أوّلاً : فقد الأمن

وانعدم الأمن في جميع أنحاء البلاد ، وساد الخوف والإرهاب على جميع المواطنين ، فقد أسرفت السلطة الأُموية بالظلم ، فجعلت تأخذ البريء بالسقيم ، والمقبل بالمدبر ، وتعاقب على الظنّة والتهمة ، وتسوق الأبرياء بغير حساب إلى السجون والقبور ، وكان زياد يقول : أُقسم بالله لآخذنّ الوليّ بالوليّ ... والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتّى يلقى الرجل أخاه فيقول : انجُ سَعدُ فَقدْ هَلَكَ سَعيدٌ[(١)].

ولا يوجد أحد إلّا وهو خائف على دمه وماله ، فثار الإمام الحسين عليه السلام لينقذ الناس من هذا الجور الهائل .

ثانياً : احتقار الأُمة

وكان الخط السياسي الذي انتهجه الأُمويون العمل على إذلال الأُمة والاستهانة بها ، وكان من مظاهر ذلك الاحتقار أنّهم كانوا يختمون في أعناق المسلمين كما توسم الخيل علامة لاستعبادهم ،كما نقشوا على أكفّ المسلمين علامة لاسترقاقهم

---

(١) العقد الفريد : ٤ : ١١١ . شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١٦ : ٢٠٢ .

كما يصنع بالعلوج من الروم والحبشة[١].

وقد هبّ الإمام الحسين عليه السلام في ميادين الجهاد ليفتح للمسلمين أبواب العزّة والكرامة ، ويحطّم عنهم ذلك الكابوس المظلم الذي أحال حياتهم إلى ظلام قاتم لا بصيص فيه من النور.

٩ ـ المظالم الهائلة على الشيعة

وذهبت نفس الإمام الحسين أسىً على ما عانته الشيعة ـ في عهد معاوية ـ من ضروب المحن والبلاء ، فقد أمعن معاوية في ظلمهم وإرهاقهم ، وفتك بهم فتكاً ذريعاً ، وراح يقول للإمام الحسين عليه السلام : يا أبا عبد الله ، علمت أنّا قتلنا شيعة أبيك فحنّطناهم وكفّناهم وصلّينا عليهم ودفناهم[٢] ، وقد بذل قصارى جهوده في تصفية الحساب معهم.

وقد ذكرنا عرضاً مفصّلاً لِما عانوه في عهد معاوية ، وخلاصته :

أوّلاً : إعدام أعلامهم كحُجْر بن عدي ، وعمرو بن الحَمِق الخزاعي ، وصيفي بن فَسيل ، وغيرهم.

ثانياً : صلبهم على جذوع النخل.

ثالثاً : دفنهم أحياءً.

رابعاً : هدم دورهم.

خامساً : عدم قبول شهادتهم.

سادساً : حرمانهم من العطاء.

سابعاً : ترويع السيدات من نسائهم.

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١٥ : ٢٤٢.

(٢) الاحتجاج : ٢ : ٨٨. تاريخ اليعقوبي : ٢ : ١٤١.

ثامناً: إذاعة الذعر والخوف في جميع أوساطهم.

إلى غير ذلك من صنوف الإرهاق الذي عانوه.

وقد ذعر الإمام الحسين عليه السلام ممّا حلّ بهم، فبعث بمذكرته الخطيرة لمعاوية التي سجّل فيها ما ارتكبه من جرائم في حقّ الشيعة، وقد ذكرناها في البحث عن حكومة معاوية.

لقد كانت الاجراءات القاسية التي اتخذها الحكم الأُموي ضد الشيعة من أسباب ثورته، فهبّ لإنقاذهم من واقعهم المرير، وحمايتهم من الجور والظلم.

١٠ ـ محو ذكر أهل البيت عليهم السلام

ومن ألمع الأسباب التي ثار من أجلها أبو الشهداء عليه السلام هو أنّ الحكم الأُموي قد جهد على محو ذكر أهل البيت عليهم السلام واستئصال مآثرهم ومناقبهم، وقد استخدم معاوية في هذا السبيل أخبث الوسائل، وهي:

أوّلاً: افتعال الأخبار في الحطّ من شأنهم.

ثانياً: استخدام أجهزة التربية والتعليم لتربية النشء على بغضهم.

ثالثاً: معاقبة من يذكر مناقبهم بأقصى العقوبات.

رابعاً: سبّهم على المنابر والمآذن وفي خطب الجمعة.

وقد عقد الإمام الحسين عليه السلام مؤتمره السياسي الكبير في مكة المكرمة، وأحاط المسلمين علماً بالإجراءات الخطيرة التي اتخذها معاوية إلى إزالة أهل البيت عليهم السلام عن الرصيد الإسلامي، وكان عليه السلام يتحرّق شوقاً إلى الجهاد، ويودّ أنّ الموت قد وافاه ولا يسمع سبّ أبيه على المنابر والمآذن.

١١ ـ تدمير القيم الإسلامية

وعمد الأُمويون إلى تدمير القيم الإسلامية، فلم يعد لها أيّ ظلّ على واقع الحياة

الإسلامية ، وهذه بعضها :

الأُولى : الوحدة الإسلامية

وأشاع الأُمويون الفرقة والاختلاف بين المسلمين فأحيوا العصبيات القبلية ، وشجّعوا الهجاء بين الأُسر والقبائل العربية حتّى لا تقوم وحدة بين المسلمين ، وقد شجّع يزيد الأخطل على هجاء الأنصار الذين آووا النبيّ صلى الله عليه وآله وحاموا عن دينه أيام غربة الإسلام ومحنته .

لقد كانت الظاهرة البارزة في شعر ذلك العصر هي الهجاء المقذع ، فقد قصر الشعراء مواهبهم الأدبية على الهجاء والتفنن في أساليب القذف والسبّ للأُسر التي كانت تنافس قبائلهم ، وقد خلا الشعر الأُموي عن كلّ نزعة إنسانية أو مقصد اجتماعي ، وتفرّد بظاهرة الهجاء ، وقد خولف بذلك ما كان ينشده الإسلام من الوحدة الشاملة بين أبنائه .

الثانية : المساواة

وهدم الأُمويون المساواة العادلة التي أعلنها الإسلام ، فقدّموا العرب على الموالي ، وأشاعوا جوّاً رهيباً من التوتّر والتكتّل السياسي بين المسلمين ، وكان من جرّاء ذلك أن ألّف الموالي مجموعة من الكتب في انتقاص العرب وذمّهم .

كما ألّف العرب كتباً في انتقاص الموالي واحتقارهم ، وعلى رأس القائمة التي أثارت هذا النحو من التوتر بين المسلمين زياد بن أبيه ، فقد كان حاقداً على العرب ، وقد عهد إلى الكتّاب بانتقاصهم .

وقد خالفت هذه السياسة النكراء روح الإسلام الذي ساوى بين المسلمين في جميع الحقوق والواجبات على اختلاف قومياتهم .

الثالثة: الحرية

ولم يعد أي مفهوم للحرية ماثلاً على مسرح الحياة طيلة الحكم الأُموي، فقد كانت السلطة تحاسب الشعب حساباً منكراً وعسيراً على كلّ بادرة لا تتّفق مع رغباتها، حتّى لم يعد في مقدور أيّ أحد أن يطالب بحقوقه، أو يتكلم بأيّة مصلحة للناس، فقد كان حكم النطع والسيف هو السائد في ذلك العصر.

لقد ثار أبو الأحرار عليه السلام لينقذ الإنسان المسلم وغيره من الاضطهاد الشامل، ويعيد للناس حقوقهم التي ضاعت في أيام معاوية ويزيد.

١٢ـ انهيار المجتمع

وانهار المجتمع في عصر الأُمويين، وتحلل من جميع القيم الإسلامية.

أمّا أهم العوامل التي أدّت إلى انهياره، فهي:

أوّلاً: حرمان المجتمع من التربية الروحية، فلم يحفل بها أحد من الخلفاء سوى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، فقد عنى بها عناية بالغة إلّا أنّه قد مُني بالأحداث الرهيبة التي منعته من مواصلة مسيرته في إصلاح الناس وتقويم أخلاقهم.

ثانياً: إمعان الحكم الأُموي في إفساد المجتمع وتضليله، وتغذيته بكل ما هو بعيد عن واقع الإسلام وهديه.

إنّ هذين العاملين ـ فيما نحسب ـ من أهم العوامل التي أدّت إلى انهيار ذلك المجتمع.

أمّا مظاهر ذلك التحلل والانهيار، فهي:

أوّلاً: نقض العهود، ولم يتأثّم أغلب أبناء ذلك المجتمع من نقض العهود والمواثيق، فقد كان عدم الوفاء بها أمراً عاديّاً، ومتسالماً عليه، وقد شجّعهم على

ذلك (كسرى العرب)[١]، فقد أعلن في خطابه بالنخيلة أنّ كلّ ما شرطه على نفسه للإمام الحسن عليه السلام لا يفي به، وعمد إلى نقض جميع الشروط التي أعطاها له. وكانت هذه الظاهرة من أبرز ذاتيات الكوفيّين، فقد أعطوا للإمام الحسين عليه السلام أعظم العهود والمواثيق على مناصرته ومناجزة عدوه، إلّا أنّهم خاسوا ما عاهدوا عليه الله فخذلوه وقتلوه.

ثانياً: عدم التحرّج من الكذب، ومن الأمراض التي أُصيب بها ذلك المجتمع عدم التحرّج من الكذب، وقد مُني الكوفيون بذلك بصورة خاصة، فإنّهم لمّا أحاطوا بالإمام الحسين عليه السلام يوم الطف لقتله، وجّه سؤالاً إلى قادة الفرق الذين كاتبوه بالقدوم إليهم، فقال عليه السلام: **يا شَبَثَ بْنَ رِبْعِي، وَيا حَجّارَ بْنَ أَبْجُرٍ، وَيا قَيْسَ بْنَ الْأَشْعَثِ، وَيا يَزيدَ بْنَ الْحارِثِ، أَلَمْ تَكْتُبوا إِلَيَّ أَنْ قَدْ أَيْنَعَتْ الثِّمارُ، وَاخْضَرَّ الْجَنابُ، وَإِنَّما تَقْدِمُ عَلىٰ جُنْدٍ لَكَ مُجَنَّدَةٌ...**

ولم تخجل تلك النفوس القذرة من تعمد الكذب فأجابوه مجمعين: لم نفعل.

وبُهِر الإمام الحسين عليه السلام فاندفع يقول: **سُبْحانَ اللهِ!! بَلىٰ وَاللهِ لَقَدْ فَعَلْتُمْ...**[٢].

وقد جرّوا إلى المجتمع بما اقترفوه من الآثام كثيراً من الويلات والخطوب، وتسلّح بهم أئمة الظلم والجور إلى اضطهاد المسلمين وإرغامهم على ما يكرهون.

ثالثاً: عرض الضمائر للبيع، وقد كان من أحطّ ما وصل إليه ذلك المجتمع من الانحراف والزيغ عرض الضمائر والأديان لبيعها على السلطة جهاراً، وقد أشرنا إلى ذلك بصورة مفصّلة عند البحث عن عهد معاوية.

رابعاً: الإقبال على اللهو، وأقبل المجتمع بنهمٍ على اللهو والدعارة، وقد شجّع

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٤١، وفيه: «عن سعيد المقبري، قال: قال عمر بن الخطاب: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية».

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٦٢٤. البداية والنهاية: ٨: ١٨١.

الأُمويون بصورة مباشرة حياة المجون لزعزعة العقيدة الدينية من النفوس، وصرف الناس عمّا ينشده الإسلام من التوازن في سلوك الفرد.

هذه بعض الأمراض التي ألمّت بالمجتمع الإسلامي، وقد أدّت إلى تسيّبه، وانهيار قيمه، وقد ثار الإمام الحسين عليه السلام ليقضي على التذبذب والانحراف الذي منيت به الأُمة.

١٣ ـ الدفاع عن حقوقه عليه السلام

وانبرى الإمام الحسين عليه السلام للجهاد دفاعاً عن حقوقه التي نهبها الأُمويون واغتصبوها، وأهمّها ـ فيما نحسب ـ ما يلي:

الأوّل: الخلافة

آمن الإمام الحسين عليه السلام ـ كأبيه ـ أنّ العترة الطاهرة أولى بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله وأحقّ بمركزه من غيرهم؛ لأنّهم أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بهم فتح الله، وبهم ختم. وقد طبع على هذا الشعور وهو في غضون الصبا، فقد انطلق إلى عمر وكان على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله فصاح به: «**انْزِلْ عَنْ مِنْبَرِ أَبِي، وَاذْهَبْ إِلىٰ مِنْبَرِ أَبِيكَ**»[١].

ولم ينفرد الإمام الحسين عليه السلام بهذا الشعور وإنّما كان سائداً عند أئمة أهل البيت عليهم السلام، فهم يرون أنّ الخلافة من حقوقهم لأنّهم ألصق الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وأكثرهم وعياً لأهدافه.

وهناك شيء آخر جدير بالاهتمام وهو أنّ الحسين عليه السلام كان هو الخليفة الشرعي بمقتضى معاهدة الصلح التي تمّ الاتّفاق عليها، فقد جاء في بنودها: ليس لمعاوية

---

(١) الاحتجاج: ٢: ٧٧.

أن يعهد بالأمر إلى أحد من بعده والأمر بعده للحسن عليه السلام ، فإن حدث به حدث فالأمر للحسين عليه السلام [١] . وعلى هذا فلم تكن بيعة يزيد شرعية ، ولم يخرج الإمام الحسين عليه السلام على إمام من أئمة المسلمين ـ كما يذهب لذلك بعض ذوي النزعات الأُموية ـ وإنّما خرج عليه السلام على ظالم مغتصب لحقّه .

الثاني : الخمس

والخمس حقّ مفروض لأهل البيت عليهم السلام نصّ عليه القرآن وتواترت به السنّة ، ولكن الحكومات السابقة تناهبته فلم تؤدِّ لهم منه شيئاً لشلّ حركة المقاومة عند العلويين ، وقد أشار الإمام الحسين عليه السلام إلى ذلك في حديثه مع أبي هرّة الذي نهاه عن الخروج على بني أُمية ، فقال عليه السلام له : « **يا أَبا هِرَّةَ ، إنَّ بَنِي أُمَيَّةَ أَخَذوا مالِي فَصَبَرْتُ . . .** »[٢] .

وأكبر الظنّ أنّ المال الذي أخذته بنو أُمية منه هو الخمس ، وقد أعلن ذلك دعبل الخزاعي في رائعته التي أنشدها أمام الإمام الرضا عليه السلام في خراسان بقوله :

أَرَىٰ فَيْئَهُمْ فِي غَيرِهِمْ مُتَقسِّماً ... وَأَيديهِمُ مِنْ فَيْئِهمْ صَفِراتِ[٣]

والتاع الإمام الرضا عليه السلام فجعل يقلّب يديه ، وهو يقول : « **إنَّها وَاللهِ لَصَفِراتٍ** » .

وقد أقضّ مضاجع العلويين منعهم من الخمس باعتباره أحد المصادر الرئيسية لحياتهم الاقتصادية .

ولعلّ الإمام الحسين عليه السلام قد استهدف بنهضته إرجاع هذا الحقّ السليب لأهل البيت عليهم السلام .

---

(١) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام : ٢ : ٢٢٨ و ٢٢٩ .

(٢) اللهوف : ٤٣ . مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ٢٢٦ . بحار الأنوار : ٤٤ : ٣٦٨ .

(٣) ديوان دعبل بن علي الخزاعي : ١٤١ و ١٤٢ .

١٤ـ الأمر بالمعروف

ومن أوكد الأسباب التي ثار من أجلها أبيُّ الضيم عليه السلام إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإنّهما من مقومات هذا الدين ، وهو بالدرجة الأُولى مسؤول عنهما ، وقد أدلى بذلك في وصيته لأخيه ابن الحنفية التي أعلن فيها عن أسباب خروجه على يزيد ، فقال عليه السلام : **إنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشِراً وَلَا بَطِراً ، وَلَا ظَالِماً وَلَا مُفْسِداً ، وَإنَّما خَرَجْتُ لِطَلَبِ الْإِصْلَاحِ في أُمَّةِ جَدِّي ، أُرِيدُ أَنْ آمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ**(١) .

لقد انطلق الإمام الحسين عليه السلام إلى ميادين الجهاد ليقيم هذا الصرح الشامخ الذي بنيت عليه الحياة الكريمة في الإسلام ، وقد انهارت دعائمه أيام الحكم الأُموي ، فقد أصبح المعروف في عهدهم منكراً ، والمنكر معروفاً ، وقد أنكر عليهم في كثير من المواقف والتي كان منها خطابه الرائع أمام المهاجرين والأنصار ، فقد شجب فيه تخاذلهم عن نصرة الحقّ ودحض الباطل ، وإيثارهم للعافية ، وقد ذكرناه في الجزء الأول من هذا الكتاب .

وممّا قاله عليه السلام في هذا المجال أمام أصحابه وأهل بيته يوم الطف : **أَلَا تَرَوْنَ إِلَى الْحَقِّ لَا يُعْمَلُ بِهِ ، وَإِلَى الْباطِلِ لَا يُتَنَاهَىٰ عَنْهُ ، لِيَرْغَبَ الْمُؤمِنُ في لِقاءِ رَبِّهِ**(٢) ، لقد آثر الموت على الحياة ؛ لأنّه يرى الحقّ قد تلاشى والباطل قد استشرى .

١٥ـ إماتة البدع

وعمد الحكم الأُموي إلى نشر البدع بين المسلمين ، التي لم يقصد منها إلّا محق الإسلام ، وإلحاق الهزيمة به ، وقد أشار الإمام الحسين عليه السلام إلى ذلك في رسالته التي

---

(١) الفتوح : ٥ : ٢١ . مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ١٨٨ و ١٨٩ .

(٢) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٦٠٥ . العقد الفريد : ٤ : ٣٨٠ . المعجم الكبير : ٣ : ١١٤ و ١١٥ ، الرقم ٢٨٤٢ . مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ٢ : ٥ . تاريخ مدينة دمشق : ١٤ : ٢١٧ .

بعثها لأهل البصرة، يقول عليه السلام: «**فَإِنَّ السُّنَّةَ قَدْ أُمِيتَتْ، وَالْبِدْعَةَ قَدْ أُحْيِيَتْ**»(١).

لقد ثار عليه السلام ليقضي على البدع الجاهلية التي تبناها الأمويون، ويحيي سنّة جدّه التي أماتوها، فكانت نهضته الخالدة من أجل إماتة الجاهلية ونشر راية الإسلام.

١٦ـ العهد النبوي

واستشفّ النبيّ صلى الله عليه وآله من وراء الغيب ما يُمنى به الإسلام من الأخطار الهائلة على أيدي الأُمويين، وأنّه لا يمكن بأيّة حال تجديد رسالته وتخليد مبادئه إلّا بتضحية ولده الإمام الحسين عليه السلام فإنّه هو الذي يكون الدرع الواقي لصيانة الإسلام، فعهد إليه بالتضحية والفداء، وقد أدلى الإمام بذلك حينما عذله المشفقون عليه من الخروج إلى العراق، فقال عليه السلام لهم: «**أَمَرَنِي رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله بِأَمْرٍ وَأَنا ماضٍ إِلَيْهِ...**»(٢).

ويقول المؤرخون: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان قد نعى الحسين عليه السلام إلى المسلمين وأحاطهم علماً بشهادته، وما يعانيه من أهوال المصائب، وكان ـ باستمرار ـ يتفجّع عليه ويلعن قاتله، وكذلك أخبر الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بشهادته وما يجري عليه، وقد ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب الأخبار المتواترة بذلك.

وكان الإمام الحسين عليه السلام على علم وثيق بما يجري عليه، فقد سمع ذلك من جدّه وأبيه وقد أيقن بالشهادة، ولم يكن له أيّ أمل في الحياة، فمشى إلى الموت بعزم وتصميم امتثالاً لأمر جدّه صلى الله عليه وآله الذي عهد إليه بذلك.

١٧ـ العزة والكرامة

ومن أوثق الأسباب التي ثار من أجلها أبو الأحرار هو العزة والكرامة، فقد أراد

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٦٥.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ١: ٢١٨. تاريخ مدينة دمشق: ١٤: ٢٠٩.

الأُمويون إرغامه على الذلّ والخنوع ، فأبى إلّا أن يعيش عزيزاً تحت ظلال السيوف والرماح ، وقد أعلن ـ سلام الله عليه ـ ذلك يوم الطفّ بقوله : « **أَلَا وَإِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَينِ ، بَيْنَ السِّلَّةِ وَالذِّلَّةِ ، وَهَيْهات مِنّا الذِّلَّةُ ، يَأْبى اللهُ لَنا ذلِكَ وَرَسُولُهُ ، ونُفُوسٌ أَبِيَّةٌ ، وَأُنُوفٌ حَمِيَّةٌ مِنْ أَنْ نُؤْثِرَ طاعَةَ اللِّئامِ عَلىٰ مَصارِعِ الْكِرامِ . . .** »(١) .

وقال عليه‌السلام : « **لَا أَرَى الْمَوتَ إِلَّا سَعادَةً وَالْحَياةَ مَعَ الظّالِمِينَ إِلّا بَرَماً** »(٢) .

لقد عانق الموت بثغر باسم في سبيل إبائه وعزته ، وضحّى بكلّ شيء من أجل حريته وكرامته .

١٨ ـ غدر الأُمويين وفتكهم

وأيقن الإمام الحسين عليه‌السلام أنّ الأُمويين لا يتركونه ، ولا تكفّ أيديهم عن الغدر والفتك به حتّى لو سالمهم وبايعهم ، وذلك لما يلي :

أوّلاً : إنّ الإمام الحسين عليه‌السلام كان ألمع شخصية في العالم الإسلامي ، وقد عقد له المسلمون في دخائل نفوسهم خالص الودّ والولاء ؛ لأنّه حفيد نبيهم وسيد شباب أهل الجنّة ، ومن الطبيعي أنّه لا يروق للأُمويين وجود شخصية تتمتع بنفوذ قوي ومكانة مرموقة في جميع الأوساط ، فإنّها تشكّل خطراً على سلطانهم وملكهم .

ثانياً : إنّ الأُمويين كانوا حاقدين على النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ؛ لأنّه وترهم في واقعة بدر ، وألحق بهم الهزيمة والعار ، وكان يزيد يترقّب الفرص للانتقام من أهل بيت النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ليأخذ ثارات بدر منهم ، ويقول الرواة إنّه كان يقول :

---

(١) بحار الأنوار : ٤٥ : ٩ . مقتل الحسين عليه‌السلام / الخوارزمي : ٢ : ٧ . تاريخ مدينة دمشق : ١٤ : ٢١٩ .

(٢) المعجم الكبير : ٣ : ١١٥ ، المعجم ٢٨٤٢ . تاريخ مدينة دمشق : ١٤ : ٢١٨ .

لَسْتُ مِن خِنْدِفَ إِن لَمْ أَنتَقِمْ مِنْ بَنِي أَحْمَدَ ما كانَ فَعَلْ[١]

ولما استوفى ثأره وروّى أحقاده بإبادتهم، أخذ يترنّم ويقول:

قَد قَتَلنا القَرمَ مِنْ ساداتِهِمْ وَعَدَلناهُ بِبَدرٍ فاعتَدَلْ[٢]

ثالثاً: أنّ الأُمويين قد عُرفوا بالغدر ونقض العهود، فقد صالح الحسن عليه السلام معاوية، وسلّم إليه الخلافة، ومع ذلك فقد غدر معاوية به فدسّ إليه سمّاً فقتله. وأعطوا الأمان لمسلم بن عقيل فخانوا به، وقد ذكرنا في البحوث السابقة مجموعة من الشخصيات التي اغتالها معاوية خشية منهم.

وقد أعلن الإمام الحسين عليه السلام أنّ بني أُمية لا يتركونه. يقول عليه السلام لأخيه محمّد ابن الحنفية: «**لَوْ دَخَلتُ فِي جُحْرِ هامَّةٍ مِنْ هٰذِهِ الْهَوامِّ لَاسْتَخْرَجُونِي حَتّىٰ يَقْتُلُونِي**»[٣].

وقال عليه السلام لجعفر بن سليمان الضبعي: «**وَاللهِ لَا يَدَعُونِي حَتّىٰ يَستخرِجُوا هٰذِهِ الْعَلَقَةَ** ـ يعني قلبه الشريف ـ **مِنْ جَوْفِي**»[٤].

واختار عليه السلام أن يعلن عليهم الحرب ويموت ميتة كريمة تهزّ عروشهم، وتقضي على جبروتهم وطغيانهم.

هذه بعض الأسباب التي حفّزت أبا الأحرار إلى الثورة على حكم يزيد.

---

(١) تفسير القمّي: ٢: ٨٦. روضة الواعظين: ١٩١. الاحتجاج: ٢: ١٢٣. بحار الأنوار: ٤٥: ١٥٧. ينابيع المودّة: ٣: ٣٢.

(٢) تفسير القمّي: ٢: ٨٦. روضة الواعظين: ١٩١. بحار الأنوار: ٤٥: ١٦٧. مقاتل الطالبيّين: ١١٩.

(٣) تاريخ الطبري: ٤: ٥٨٩. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ١: ٢١٨. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧٦.

(٤) الإرشاد / المفيد: ٢: ٧٦. تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٥٩٦. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧٦.

رأي رخيص

ووصف جماعة من المتعصبين لبني أُمية خروج الإمام الحسين عليه السلام على يزيد بأنّه كان من أجل الملك والظفر بخيرات البلاد. وهذا الرأي ينمّ عن حقدهم عليه بما أحرزه من الانتصارات الرائعة في نهضته المباركة التي لم يظفر بمثل معطياتها أيّ مصلح اجتماعي في الأرض، وقد يكون لبعضهم العذر لجهلهم بواقع النهضة الحسينية، وعدم الوقوف على أسبابها. لقد كان الإمام الحسين عليه السلام على يقين بإخفاق ثورته في الميادين العسكرية؛ لأنّ خصمه كان يدعمه جند مكثّف أُولوا قوّة وأُولوا بأسٍ شديد، وهو لم تكن عنده أيّة قوة عسكرية ليحصل على الملك، ولو كان الملك غايته ـ كما يقولون ـ لعاد إلى الحجاز أو مكان آخر حينما بلغه مقتل سفيره مسلم ابن عقيل عليه السلام وانقلاب الكوفة عليه، ويعمل حينئذٍ من جديد على ضمان غايته ونجاح مهمته.

لقد كان الإمام الحسين عليه السلام على علم بأنّ الأوضاع السائدة كلّها كانت في صالح بني أُمية وليس منها ممّا يدعمه أو يعود لصالحه.

يقول ابن خلدون: «إنّ هزيمة الحسين كانت أمراً محتّماً؛ لأنّ الحسين لم تكن له الشوكة التي تمكّنه من هزيمة الأُمويين؛ لأنّ عصبية مضر في قريش، وعصبية قريش في عبد مناف، وعصبية عبد مناف في بني أُمية، فعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس لا ينكرونه»[١].

لقد كانت ثورته من أجل غاية لا يفكّر بها أُولئك الذين فقدوا وعيهم واختيارهم، فقد كان خروجه على حكم يزيد من أجل حماية المثل الإسلامية والقيم الكريمة من الأُمويين الذين حملوا عليها معول الهدم.

---

(١) مقدّمة ابن خلدون: ٢٧٠.

يقول بعض الكتّاب المعاصرين: ويحقّ لنا أن نسأل ماذا كان هدف الحسين عليه السلام، وماذا كانت القضية التي يعمل من أجلها؟

أما لو كان هدفه شخصياً يتمثل في رغبته في إسقاط يزيد ليتولى هو بنفسه الخلافة التي كان يطمح إليها، ما وجدنا فيه هذا الإصرار على التقدّم نحو الكوفة رغم وضوح تفرّق الناس من حوله، واستسلامهم لابن زياد، وحملهم السلاح في أعداد كثيرة لمواجهته والقضاء عليه.

إنّ أقصر الناس نظراً كان يدرك أنّ مصيره لن يختلف عمّا آل إليه فعله، ولو كان الحسين بهذه المكانة من قصر النظر لعاد إلى مكة ليعمل من جديد للوصول إلى منصب الخلافة، ولو كان هدفه في أوّل الأمر الوصول إلى منصب الخلافة، ثمّ لمّا بلغه مصرع ابن عمّه قرر مواصلة السفر للثأر من قاتليه ـ كما يزعم بعض الباحثين ـ استجابة لقضية أهله وأقاربه، لو كان هذا هدفه لأدرك أنّ جماعته التي خرجت معه للثأر وهي لا تزيد على التسعين رجالاً ونساءً وأطفالاً لن تصل إلى شيء من ذلك من دون أن يقضى على أفرادها جميعاً، وبغير أن يضحّي هو بنفسه ضحيّة رخيصة في ميدان الثأر، ومن ثمّ يكون من واجبه للثأر أن يرجع ليعيد تجميع صفوف أنصاره وأقربائه، ويتقدم في الجمع العظيم من الغاصبين والموتورين.

فالقضية إذاً ليست قضية ثأر والهدف ليس هدفاً شخصياً، وإنّما الأمر أمر الأُمة، والقضية كانت للحقّ، والإقدام إقدام الفدائي الذي أراد أن يضرب المثل بنفسه في البذل والتضحية، ولم يكن إصرار الحسين على التقدّم نحو الكوفة بعد ما علم من تخاذل أهلها ونكوصهم عن الجهاد إلّا ليجعل من استشهاده علماً تلتفّ حوله القلة التي كانت لا تزال تؤمن بالمُثل وتلتمس في القادة من ينير لها طريق الجَدَد في الكفاح، وتحريكاً لضمائر المتخاذلين القاعدين عن صيانة حقوقهم ورعاية مصالحهم.

وألمّ هذا القول بالواقع المشرق الذي ناضل من أجله الإمام الحسين عليه السلام، فهو

لم يستهدف أيّة مصلحة ذاتية ، وإنّما استهدف مصلحة الأُمة وصيانتها من الأُمويين .

تخطيط الثورة

ودرس الإمام الحسين عليه السلام أبعاد الثورة بعمق وشمول ، وخطط أساليبها بوعي وإيمان ، فرأى أن يزجّ بجميع ثقله في المعركة ، ويضحّي بكل شيء لإنقاذ الأُمة من محنتها في ظلّ ذلك الحكم الأسود الذي تنكّر لجميع متطلبات الأُمة . وقد أدرك المستشرق الألماني (ماريين) تخطيط الإمام الحسين عليه السلام لثورته ، فاعتبر أنّ الحسين قد توخّى النصر منذ اللحظة الأُولى ، وعلم النصر فيه ، فحركة الحسين عليه السلام في خروجه على يزيد ـ كما يقول ـ إنّما كانت عزيمة قلب كبير عزّ عليه الإذعان ، وعزّ عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذي يبلغ به النصر الآجل بعد موته ، ويحيي به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة .

لقد أيقن أبو الشهداء عليه السلام أنّ القضية الإسلامية لا يمكن أن تنتصر إلّا بفخامة ما يقدّمه من التضحيات ، فصمّم بعزم وإيمان على تقديم أروع التضحيات ، وهذه بعضها :

أوّلاً : التضحية بنفسه

أعلن الإمام الحسين عليه السلام عن عزمه على التضحية بنفسه ، فأذاع ذلك في مكة ، فأخبر المسلمين أنّ أوصاله سوف تتقطّع بين النواويس وكربلاء ، وكان في أثناء مسيرته إلى العراق يتحدّث عن مصرعه ، ويشابه بينه وبين أخيه يحيى بن زكريا ، وأنّ رأسه الشريف سوف يرفع إلى بغي من بغايا بني أُمية كما رفع رأس يحيى إلى بغي من بغايا بني إسرائيل [١] .

---

(١) بحار الأنوار : ٤٤ : ٣٦٥ . الفتوح : ٥ : ٢٥ .

لقد صمّم على الموت واستهان بالحياة من أجل أن ترتفع راية الحقّ وتعلو كلمة الله في الأرض ، وبقي صامداً على عزمه الجبار ، فلم يرتهب حينما أحاطت به الجيوش الهائلة وهي تبيد أهل بيته وأصحابه في مجزرة رهيبة اهتزّ من هولها الضمير الإنساني ، وقد كان في تلك المحنة الحازبة من أربط الناس جأشاً ، وأمضاهم جناناً ، فلم يرَ قبله ولا بعده شبيهاً له في شدّة بأسه وقوة عزيمته ، كما لا يعرف التاريخ في جميع مراحله تضحية أبلغ أثراً في حياة الناس من تضحيته عليه السلام ، فقد بقيت صرخة مدوّية في وجوه الظالمين والمستبدين .

ثانياً : التضحية بأهل بيته

أقدم أبو الشهداء عليه السلام على أعظم تضحية لم يقدّمها أيّ مصلح اجتماعي في الأرض ، فقد قدّم أبناءه وأهل بيته وأصحابه فداءً لما يرتأيه ضميره من تعميم العدل وإشاعة الحقّ والخير بين الناس .

وقد خطط هذه التضحية ، وآمن بأنّها جزء من رسالته الكبرى ، وقد أذاع ذلك وهو في يثرب حينما خفّت إليه السيدة أُمّ سلمة زوج النبيّ تعذله عن الخروج ، فأخبرها عن قتله وقتل أطفاله ، وقد مضى إلى ساحات الجهاد وهو متسلّح بهذا الإيمان ، فكان يشاهد الصفوة من أصحابه الذين هم من أنبل من عرفتهم الإنسانية في ولائهم للحقّ ، وهم يتسابقون إلى المنية بين يديه ، ويرى الكواكب من أهل بيته وأبنائه ، وهم في غضارة العمر وريعان الشباب ، وقد تناهبت أجسادهم السيوف والرماح ، فكان يأمرهم بالثبات والخلود إلى الصبر قائلاً : « **صَبْراً يا بَنِي عُمُومَتِي ، صَبْراً يا أَهْلَ بَيْتِي ، لَا رَأَيْتُمْ هَواناً بَعْدَ هـٰذَا الْيَومِ أَبَداً** »[١] .

واهتزّت الدنيا من هول هذه التضحية التي تمثل شرف العقيدة ، وسمو القصد

---

(١) اللهوف : ٦٨ . بحار الأنوار : ٤٥ : ٣٦ .

وعظمة المبادئ التي ناضل من أجلها، وهي ـ من دون شكّ ـ ستبقى قائمة على مرّ القرون والأجيال، تضيء للناس الطريق، وتمدّهم بأروع الدروس عن التضحية في سبيل الحقّ والواجب.

ثالثاً: التضحية بأمواله

وضحّى أبيُّ الضيم بجميع ما يملك فداءً للقرآن، ووقاية لدين الله، وقد هجمت ـ بعد مقتله ـ الوحوش الكاسرة من جيوش الأُمويين على مخيّمه فتناهبوا ثقله ومتاعه حتّى لم يتركوا ملحفة أو إزاراً على مخدّرات الرسالة إلّا نهبوه، ومثّلوا بذلك خسّة الإنسان حينما يفقد ذاتياته، ويمسخ ضميره.

رابعاً: حمل عقائل النبوة

وكان من أروع ما خططه الإمام العظيم عليه السلام في ثورته الكبرى حمله لعقائل النبوة ومخدّرات الرسالة إلى كربلاء، وهو يعلم ما سيجري عليهن من النكبات والخطوب، وقد أعلن ذلك حينما عذله ابن الحنفية عن حملهن معه إلى العراق، فقال له: **«قَدْ شاءَ اللهُ أَنْ يَرَاهُنَّ سَبايا»**(١).

لقد أراد عليه السلام بذلك أن يستكمل أداء رسالته الخالدة في تحرير الأُمة وإنقاذها من الاستعباد الأُموي، وقد قامت تلك السيدات بدور مشرق في إكمال نهضة أبي الشهداء عليه السلام، فأيقظن المجتمع بعد سُباته، وأسقطن هيبة الحكم الأُموي، وفتحن باب الثورة عليه، ولولاهنّ لم يتمكّن أحد أن يفوه بكلمة واحدة أمام ذلك الطغيان الفاجر، وقد أدرك ذلك كلّ من تأمّل في نهضة الإمام الحسين عليه السلام ودرس أبعادها، وقد أشار إليها بعض العلماء والكتّاب، وفيما يلي بعضهم:

---

(١) بحار الأنوار: ٤٤: ٣٦٤. اللهوف: ٤٠. ينابيع المودّة: ٣: ٦٠.

١ ـ الإمام كاشف الغطاء

أكّد الإمام الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء رحمه الله في كثير من مؤلفاته أنّ الغاية من خروج الإمام الحسين عليه السلام بعائلته إلى كربلاء إكمالاً لنهضته وبلوغاً إلى هدفه في تحطيم دولة الأُمويين ، يقول : « وهل تشكّ وترتاب في أنّ الحسين عليه السلام لو قتل هو وولده ، ولم يتعقبه قيام تلك الحرائر في تلك المقامات بتلك التحدّيات لذهب قتله جُباراً[١] ، ولم يطلب به أحد ثاراً ، ولضاع دمه هدراً ، فكان الحسين عليه السلام يعلم أنّ هذا عمل لا بدّ منه ، وأنّه لا يقوم به إلّا تلك العقائل فوجب عليه حتماً أن يحملهنّ معه لا لأجل المظلومية بسبيهنّ فقط ، بل لنظر سياسي وفكر عميق ، وهو تكميل الغرض ، وبلوغ الغاية من قلب الدولة على يزيد ، والمبادرة إلى القضاء عليها قبل أن تقضي على الإسلام وتعود الناس إلى جاهليتها الأُولى ... »[٢] .

٢ ـ أحمد فهمي

يقول الأُستاذ السيد أحمد فهمي : « وقد أدرك الحسين أنّه مقتول ؛ إذ هو يعلم علم اليقين قبح طوية يزيد ، وإسفاف نحيزته[٣] ، وسوء سريرته ، فيزيد بعد قتل الحسين ستمتد يده إلى أن يؤذي النبيّ صلى الله عليه وآله في سلالته من قتل الأطفال الأبرياء ، وانتهاك حرمة النساء ، وحملهن ومن بقي من الأطفال من قفرة إلى قفرة ، ومن بلد إلى بلد ، فيثير مرأى أُولئك حفيظة المسلمين ، فليس ثمّة أشنع ولا أفظع من التشفّي والانتقام من النساء والأطفال بعد قتل الشباب والرجال ، فهو بخروجه بتلك الحالة أراد أن يثأر من يزيد في خلافته ، ويقتله في كرامته ، وحقّاً لقد وقع ما توقّعه ، فكان

---

(١) **الجُبار:** الهَدَر ـ لسان العرب : ٢ : ١٦٨ ـ جبر .

(٢) تحدّث الإمام كاشف الغطاء عن هذه الجهة بالتفصيل في كتابه : (السياسة الحسينيّة) .

(٣) **نحيزة الرجل:** طبيعته . لسان العرب : ١٤ : ٧٠ ـ نحز .

لما فعله يزيد وعصبته من فظيع الأثر في نفوس المسلمين ، وزاد في أضغانهم ما عرضوا به سلالة النبوّة من هتك خدر النساء ، وهنّ اللاتي ما عُرفن إلّا بالصيانة والطهر والعزّ والمنعة ، ممّا أطلق ألسنة الشعراء بالهجاء والذمّ ، ونفر أكثر المسلمين من خلافة الأُمويين ، وأسخط عليهم قلوب المؤمنين ، فقد قتله الحسين أشدّ من قتله إياه »[١].

٣ـ أحمد محمود صبحي

يقول الدكتور أحمد محمود صبحي : « ثمّ رفض ـ يعني الحسين ـ إلّا أن يصحب أهله ليشهد الناس على ما يقترفه أعداؤه بما لا يبرره دين ولا وازع من إنسانية ، فلاتضيع قضيته مع دمه المراق في الصحراء فيفترى عليه أشدّ الافتراء حين يعدم الشاهد العادل على كل ما جرى بينه وبين أعدائه . تقول الدكتورة بنت الشاطئ : « أفسدت زينب أُخت الحسين على ابن زياد وبني أُمية لذّة النصر ، وسكبت قطرات من السُّم الزعاف في كؤوس الظافرين ، وإنّ كل الأحداث السياسية التي ترتّبت بعد ذلك من خروج المختار ، وثورة ابن الزبير ، وسقوط الدولة الأُموية ، وقيام الدولة العباسية ، ثمّ تأصّل مذهب الشيعة إنّما كانت زينب هي باعثة ذلك ومثيرته »[٢].

أُريد أن أقول : ماذا يكون الحال لو قتل الحسين ومن معه جميعاً من الرجال ؟ إلّا أن يسجل التاريخ هذه الحادثة الخطيرة من وجهة نظر أعدائه ، فيضيع كلّ أثر لقضيته مع دمه المسفوك في الصحراء ؟ ! »[٣].

هذه بعض الآراء التي تدعم ما ذكرناه من أنّ خروج الحسين عليه السلام بعائلته لم يكن

---

(١) ريحانة الرسول : ١٦٧.

(٢) بطلة كربلاء : ١٧٦ ، ١٨٠.

(٣) نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشريّة : ٣٤٣.

الغرض منه إلّا بلورة الرأي العام ، وإيضاح المقاصد الرفيعة التي ثار من أجلها ، ومن أهمّها القضاء على دولة الأُمويين التي كانت تشكّل خطراً مباشراً على العقيدة الإسلامية .

٤ـ الشيخ عبد الواحد المظفر

وهناك رأي آخر أدلى به العلامة المغفور له الشيخ عبد الواحد المظفر ، وهو أنّ الحسين عليه السلام إنّما خرج بعائلته خوفاً عليها من اعتقال الأُمويين وزجّها في سجونهم ، قال : « الحسين عليه السلام لو أبقى النساء في المدينة لوضعت السلطة الأُموية عليها الحجر . لا ، بل اعتقلتها علناً وزجّتها في ظلمات السجون ، ولابدّ له حينئذٍ من أحد أمرين خطيرين كلّ منهما يشلّ أعضاء نهضته المقدسة : إمّا الاستسلام لأعدائه وإعطاء صفقته لهم طائعاً ليستنقذ العائلة المصونة ، وهذا خلاف الإصلاح الذي ينشده ، وفرض على نفسه القيام به مهما كلّفه الأمر من الأخطار ، أو يمضي في سبيل إحياء دعوته ، ويترك المخدرات اللواتي ضرب عليهن الوحي ستراً من العظمة والإجلال ، وهذا ما لا تطيق احتماله نفس الحسين عليه السلام الغيور ، ولا يردع أُمية رادع من الحياء ، ولا يزجرها زاجر من الإسلام .

إنّ أُمية لا يهمها اقتراف الشائن في بلوغ مقاصدها ، وإدراك غاياتها فتتوصل إلى غرضها ولو بارتكاب أقبح المنكرات الدينية والعقلية .

ألم يطرق سمعك سجن الأُمويين لزوجة عمرو بن الحَمِق الخزاعي ، وزوجة عبيد الله بن الحرّ الجعفي ، وأخيراً زوجة الكميت الأسدي »[(١)] .

وعلى أيّة حال فقد حطّم الإمام الحسين عليه السلام بخروجه لعائلته جميع مخططات السياسة الأُموية ونسف جميع ما أقامه معاوية من معالم الظلم ، فقد قامت عقائل

---

(١) توضيح الغامض من أسرار السنن والفرائض : ٢٩٧ و ٢٩٨ .

الوحي بدور فعّال ببث الوعي الاجتماعي، وتعريف المجتمع بواقع الأُمويين وتجريدهم من الإطار الديني، ولولاهنّ لاندرست معالم ثورة الحسين عليه السلام، وذهبت أدراج الرياح.

إنّ من ألمع الأسباب في استمرار خلود مأساة الإمام الحسين عليه السلام، واستمرار فعالياتها في بثّ الإصلاح الاجتماعي على امتداد التاريخ هو حمل ودائع الرسالة وعقائل الوحي مع الإمام، فقد قمن بدور مشرق ببلورة الرأي العام، فحملن راية الإيمان التي حملها الإمام العظيم عليه السلام ونشرن مبادئه العليا التي استشهد من أجلها، فقد انبرت حفيدة الرسول صلى الله عليه وآله وشقيقة الحسين عليه السلام السيدة زينب بنت أميرالمؤمنين عليه السلام إلى ساحات الجهاد، وهي تدكّ حصون الظالمين، وتدمّر جميع ما أحرزوه من الانتصارات في قتل أخيها، وتلحق بهم الهزيمة والعار، وتملأ بيوتهم مأساة وحزناً.

لقد أقبلت قائدة المسيرة الحسينية عقيلة الوحي زينب عليها السلام إلى ساحة المعركة وهي تشقّ صفوف الجيش تفتّش عن جثمان أخيها الإمام العظيم، فلمّا وقفت عليه شخصت لها أبصار الجيش واستحال إلى سمع، فماذا تقول أمام هذه الخطوب المذهلة التي تواكبت عليها؟ إنّها وقفت عليه غير مدهوشة لم تذهلها الرزايا التي تميد منها الجبال، فشخصت ببصرها إلى السماء وهي تقول بحماسة الإيمان وحرارة العقيدة قائلة: اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنّا هَذَا القُرْبانَ(١).

وأطلقت بذلك أوّل شرارة للثورة على الحكم الأُموي بعد أخيها، وودّ الجيش أن تسيخ به الأرض، فقد استبان له عظم ما اقترفه من الإثم، وأنّه قد أباد عناصر الإسلام، ومراكز الوعي والإيمان.

ولمّا اقتربت سبايا أهل البيت عليهم السلام إلى الكوفة خرجت الجماهير الحاشدة

---

(١) زينب الكبرى / النقدي: ٩٤.

لاستقبال السبايا ، فخطبت فيهم عقيلة الوحي خطاباً مثيراً ومذهلاً ، وإذا بالناس حيارى لا يعون ولا يدرون ، قد استحالت بيوتهم إلى مآتم وهم يندبون حظهم التعيس ويبكون على ما اقترفوه من الجرم ، وحينما انتهت إلى دار الإمارة استقبلها الطاغية متشفّياً بأحطّ وأخسّ ما يكون التشفّي قائلاً : كيف رأيت صنع الله بأخيك ؟!

وانطلقت عقيلة بني هاشم ببسالة وصمود ، فأجابته بكلمات النصر والظفر قائلة : ما رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلاً ، هٰؤُلَاءِ قَوْمٌ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ فَبَرَزوا إِلىٰ مَضاجِعِهِمْ ، وَسَيَجْمَعُ اللهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ فَتُحاجُّ وَتُخاصَمُ ، فانْظُرْ لِمَنِ الْفَلَجُ يَوْمَئِذٍ ؟! ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ يابْنَ مَرْجانَةَ[١] .

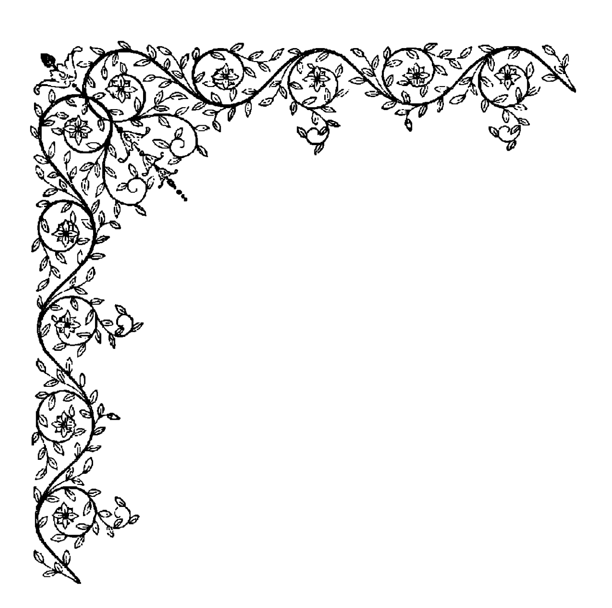
وأخزت هذه الكلمات ابن مرجانة فكانت أشقّ عليه من ضرب السيوف وطعن الرماح ، ولمّا انتهت إلى الشام هزّت العرش الأُموي بخطابها المثير الرائع ، وحققت بذلك من النصر ما لم تحققه الجيوش .

لقد كان حمل الإمام الحسين عليه السلام لعائلته قائماً على أساس من الوعي العميق الذي أحرز به الفتح والنصر .

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن بعض أسباب الثورة الحسينية ومخططاتها .

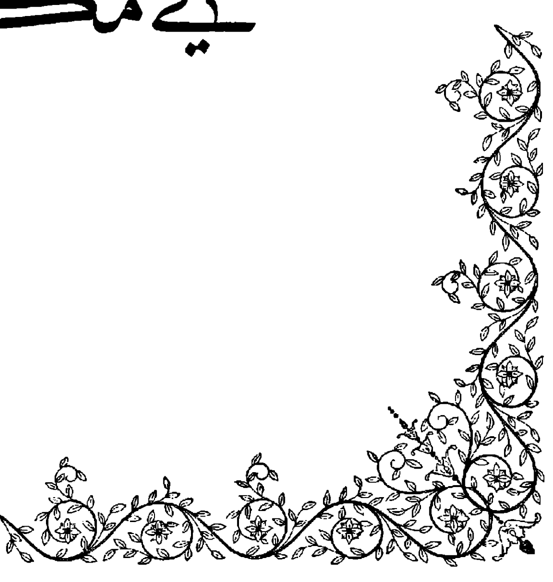
---

(١) الفتوح : ٥ : ١٢٢ . مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ٢ : ٤٢ .



الإمامُ الحُسَين عليه السلام

في مكّة



وبعدما أعلن الإمام الحسين‌عليه‌السلام رفضه الكامل لبيعة يزيد اتجه مع أهل بيته إلى مكة التي هي حرم الله ، وحرم رسوله ، عائذاً ببيتها الحرام الذي فرض فيه تعالى الأمن والطمأنينة لجميع العباد.

لقد اتجه إلى هذا البلد الأمين ليكون بمأمن من شرور الأُمويين واعتداءاتهم ، ويقول المؤرخون : إنّه خرج ليلة الأحد لليلتين بقيتا من رجب سنة (٦٠هـ)[١] ، وقد خيّم الذعر على المدنيّين حينما رأوا آل النبيّ‌صلى‌الله‌عليه‌وآله ينزحون عنهم إلى غير مآب.

وفصل الركب من يثرب ، وهو جادّ في مسيرته ، وكان الإمام الحسين‌عليه‌السلام يتلو قوله تعالى : « ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القَومِ الظَّالِمِينَ ﴾[٢] »[٣].

لقد شبّه خروجه بخروج موسى على فرعون زمانه ، وكذلك فهو قد خرج على طاغية زمانه فرعون هذه الأُمة ليقيم الحقّ ، ويبني صروح العدل ، وسلك الطريق العام الذي يسلكه الناس من دون أن يتجنب عنه ، وأشار عليه بعض أصحابه أن يحيد عنه ـ كما فعل ابن الزبير ـ مخافة أن يدركه الطلب من السلطة في يثرب ،

---

(١) المنتظم : ٥ : ٣٢٤. الخطط المقريزيّة : ١ : ٤٢٨. وفي الفتوح : ٥ : ٢١ و ٢٢ : « أنّه خرج لثلاث ليالٍ مضين من شعبان ».

(٢) القصص ٢٨ : ٢١.

(٣) وقعة الطفّ : ٨٦. تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٥٢. الفتوح : ٥ : ٢٢.

فأجابه عليه السلام بكل بساطة وثقة في النفس قائلاً: «**لَا وَاللهِ، لَا فارَقْتُ هـٰذَا الطَّرِيقَ أَبَداً، أَوْ أَنظُرُ إِلىٰ أَبْياتِ مَكَّةَ، أَوْ يَقْضِيَ اللهُ فِي ذٰلِكَ ما يُحِبُّ وَيَرْضىٰ**»[(١)].

لقد رضي بكلّ قضاء يبرمه الله، ولم يضعف، ولم توهن عزيمته الأحداث الهائلة التي لا يطيقها أيّ إنسان، وكان يتمثّل في أثناء مسيرته بشعر يزيد بن مفرغ:

لَا ذَعَرْتُ السَّوامَ في فَلَقِ الصُّبْـ ... ـحِ مُـغِيراً وَلَا دُعِـيتُ يَـزِيدا
يَومَ أُعطِي مَخافَةَ المَوتِ ضَيماً ... وَالمَنايا يَرصُدنَنِي أَنْ أَحِيدا[(٢)]

لقد كان على ثقة أنّ المنايا ترصده ما دام مصمّماً على عزمه الجبّار في أن يعيش عزيزاً لا يضام ولا يذل ولا يخضع لحكم يزيد، ويقول بعض الرواة: إنّه كان في مسيرته ينشد هذه الأبيات:

إذا المَرءُ لَم يَحْمي بَنِيهِ وَعِرضَهُ ... وَنِسوَتَهُ كانَ اللَّئِيمَ المُسَبَّبا
وَمِنْ دُونِ ما يَبغِي يَزِيدُ بِنا غَداً ... نَخُوضُ حِياضَ الموتِ شَرقاً وَمَغرِبا
وَنَضرِبُ ضَرباً كالحَرِيقِ مُقدِّماً ... إذا ما رَآهُ ضَيغَمٌ فَرَّ هارِبا[(٣)]

ودلّ هذا الشعر على مدى عزمه على أن يخوض حياض الموت سواء أكانت في المشرق أم في المغرب ولا يبايع يزيد بن معاوية.

مع عبد الله بن مطيع

واستقبله في أثناء الطريق عبد الله بن مطيع العدوي، فقال له: أين تريد

---

(١) الفتوح: ٥: ٢٢. المنتظم: ٥: ٣٢٧. ينابيع المودّة: ٣: ٥٥.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٥١. الفتوح: ٥: ٢٢. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ١: ١٨٦. تاريخ مدينة دمشق: ١٤: ٢٠٤. البداية والنهاية: ٨: ١٦٧.

(٣) مقتل الحسين عليه السلام / أبو مخنف: ١٦. ينابيع المودّة: ٣: ٥٥.

أبا عبد الله ، جعلني الله فداك ؟

فقال عليه السلام : **أَمّا فِي وَقتِي هَذَا أُرِيدُ مَكَّةَ ، فَإِذَا صِرْتُ إِلَيهَا استَخَرتُ اللهَ فِي أمرِي بَعدَ ذَلِكَ .**

قال : خار الله لك يابن بنت رسول الله فيما قد عزمت عليه ، إنّي أُشير عليك بمشورة فاقبلها مني .

فقال عليه السلام : **ما هِيَ ؟**

قال : إذا أتيت مكة فاحذر أن يغرّك أهل الكوفة ، فيها قتل أبوك وأخوك طعنوه بطعنة كادت أن تأتي على نفسه ، فالزم الحرم فإنّك سيد العرب في دهرك ، فوالله لئن هلكت ليهلكن أهل بيتك بهلاكك . وشكره وودّعه ودعا له بخير(١) .

---

(١) الفتوح : ٥ : ٢٢ و ٢٣ . المنتظم : ٥ : ٣٢٧ .

وجاء في تاريخ مدينة دمشق : ١٤ : ١٨٢ : «أنّ الحسين عليه السلام مرّ بابن مطيع وهو يحفر بئراً ، فقال له : إلى أين فداك أبي وأمي ؟

فقال له : **أَرَدتُ مَكَّةَ** ، وذكر له كتب أهل الكوفة إليه .

فقال ابن مطيع : فداك أبي وأمي متّعنا بنفسك ولا تسر إليهم ، فأبى الحسين عليه السلام .

ثمّ قال له ابن مطيع : إنّ بئري هذه قد رشحتها وهذا اليوم أوان تمامها ، قد خرج إلينا في الدلو شيء من مائها ، فلو دعوت الله لنا فيها بالبركة .

فقال عليه السلام : **هاتِ مِنْ مائِها** ، فأتاه منه فشرب منه ، وتمضمض وردّه في البئر فعذب ماؤها » .

وجاء في وسيلة المآل في عدّ مناقب الآل : ١٨٥ : «إنّ عبد الله بن عباس لقي الحسين عليه السلام ، فقال له : جعلت فداك ، أين تريد ؟

فقال : **أَمَّا الآنَ فَمَكَّةَ ، وَأَمَّا بَعْدَها فَأَسْتَخِيرُ اللهَ .**

فقال : خار الله لك ، وجعلنا فداك ، إلزم الحرم فإنّك سيد العرب لا يعدل بك أهل الحجاز أحداً ، وتتداعى إليك الناس من كل جانب ، لا تفارق الحرم فداك عمّي ⇦

وسار موكب الإمام الحسين عليه السلام يجدّ السير لا يلوي على شيء حتّى انتهى إلى مكة فلما نظر إلى جبالها تلا قوله تعالى: « ﴿**وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾(١) »(٢).

لقد كانت هجرته إلى مكة كهجرة موسى عليه السلام إلى مَدْيَن، فكلّ منهما قد فرّ من فرعون زمانه، وهاجر لمقاومة الظلم ومناهضة الطغيان.

في مكة

وانتهى الإمام الحسين عليه السلام إلى مكة ليلة الجمعة لثلاث ليالٍ مضين من شعبان(٣)، وقد حطّ رحله في دار العبّاس بن عبد المطلب(٤).

قال أخطب خوارزم: « قال الإمام أحمد بن أعثم الكوفي: ولما دخل الحسين مكة فرح به أهلها فرحاً شديداً، وجعلوا يختلفون إليه غدوة وعشية، وكان قد نزل بأعلى مكّة، وضرب هناك فسطاطاً ضخماً، ونزل عبدالله بن الزبير داره بـ (قعيقعان)، ثم تحول الحسين عليه السلام إلى دار العباس حوّله إليها عبدالله بن عباس. وكان أمير مكة من قبل يزيد يومئذٍ عمر بن سعد بن أبي وقّاص، فأقام الحسين مؤذناً يؤذن رافعاً صوته فيصلي بالناس، وهاب ابن سعد أن يميل الحجاج مع الحسين لما يرى من كثرة اختلاف الناس إليه من الآفاق، فانحدر إلى المدينة وكتب بذلك إلى يزيد »(٥).

⇦ وخالي، فوالله إن هلكت لنسترقنّ بعدك » ـ وقعة الطفّ: ٨٨. البداية والنهاية: ٨: ١٦٤. الفصول المهمّة / ابن الصبّاغ: ٢: ٧٩٦ ـ ٧٩٩.

(١) القصص ٢٨: ٢٢.

(٢) الفتوح: ٥: ٢٣. الفصول المهمّة / ابن الصبّاغ: ٢: ٧٩٩.

(٣) المنتظم: ٥: ٣٢٤.

(٤) تاريخ مدينة دمشق: ١٤: ٢٠٧. وفي الأخبار الطوال: ٢٢٩: « أنّه نزل في شِعب عليّ ».

(٥) مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ١: ١٩٠. الفتوح: ٥: ٢٣، لكن لم يرد في نسخة ⇦

وقد استقبل استقبالاً حافلاً من المكّيين ، وجعلوا يختلفون إليه بكرة وعشيّة ، وهم يسألونه عن أحكام دينهم ، وأحاديث نبيهم ، يقول ابن كثير : « وعكف الناس بمكة يفدون إليه ، ويجلسون حواليه ، ويستمعون كلامه ، وينتفعون بما يسمعون منه ، ويضبطون ما يروون عنه »(١) .

لقد كان بجاذبيته الروحيّة مهوى القلوب ، وندى الأفئدة ، وقد حامت حوله النفوس تروّي غليلها من نمير علومه التي هي امتداد من علوم جدّه مفجّر العلم والنور في الأرض .

احتفاء الحُجَّاج والمعتمرين به

وأخذ القادمون إلى بيت الله من الحجّاج والمعتمرين من سائر الآفاق يختلفون إليه(٢) ويهتفون بالدعوة إليه ، ويطوفون حوله ، هذا يلتمس منه العلم والحديث ، وذاك يقتبس منه الحكم النافعة ، والكلم الجامعة ليهتدي بأنوارهما في ظلمات الحياة(٣) .

ولم يترك الإمام الحسين عليه السلام ثانية من وقته تمرّ دون أن يبثّ الوعي الاجتماعي ، ويدعو إلى اليقظة والحذر من السياسة الأُموية الهادفة إلى استعباد المسلمين وإذلالهم .

⇐ (الفتوح) التي بين أيدينا النصّ كاملاً ، والظاهر أنّ الخوارزمي قد نقله بالمعنى . وقد ورد في النصّ الذي ذكره أنّ أمير مكة هو عمر بن سعد بن أبي وقاص ، مع أنّ الصحيح ـ حسبما تذكر المصادر التاريخية ـ أنّه عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق .

(١) البداية والنهاية : ٨ : ١٥٣ .

(٢) الفصول المهمّة / ابن الصبّاغ : ٢ : ٧٩٩ . وسيلة المآل في عدّ مناقب الآل : ١٨٥ .

(٣) نهضة الحسين : ٤٦ .

فزع ابن الزبير

وكان ابن الزبير لاجئاً إلى مكة فراراً من البيعة ليزيد ، وقد ثقل عليه اختلاف الناس على الإمام الحسين عليه السلام وإجماعهم على تعظيمه وتبجيله ، وزهد الناس وانصرافهم عنه ؛ لأنّه لم يكن يتمتع بصفة محبوبة ، ولا بنزعة كريمة . يقول زيد بن عليّ الجذعاني : « وكانت فيه خلال لا تصلح معها الخلافة ؛ لأنّه كان بخيلاً ضيّق العطن[١] ، سيّء الخلق ، حسوداً ، كثير الخلاف ، أخرج محمّد بن الحنفية ، ونفى عبد الله بن عبّاس إلى الطائف »[٢] .

ومن مظاهر ذاتياته الشحّ والبخل ، وفيه يقول الشاعر :

رَأيتُ أبـا بَكْـرٍ وَربُّكَ غـالِبٌ ... عَلىٰ أَمْرِهِ يَبغِي الخِـلَافةَ بِـالتَّمرِ[٣]

وقد عانى الشعب في أيام حكمه القصير الجوع والحرمان ، كما عانت الموالي التي بالغت في نصرته أشدّ ألوان الضيق ، وقد عبّر شاعرهم عن خيبة أملهم في نصرته حيث يقول :

إنَّ المَـوالِـيَ أَمسَتْ وَهـيَ عـاتِبَةٌ ... عَلَى الخَلِيفَةِ تَشكُو الجُوعَ وَالحَرَبا
مـاذا عَـلَينا وَمـاذا كـانَ يَـرزَؤُنا ... أيُّ المُلُوكِ عَلَى ما حَولَنا غَـلَبا[٤]

وأظهر ابن الزبير النسك والطاعة والتقشف تصنعاً لصيد البسطاء وإغراء السذّج ، وقد وصفه الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بقوله : « **يَنْصِبُ حِبالَةَ الدِّينِ لِاصْطِيادِ الدُّنْيا** »[٥] .

---

(١) **العَطَن** : المال ـ لسان العرب : **٩ : ٢٧٣** ـ عَطَنَ .

(٢) فوات الوفيات : **١ : ٤٤٨** .

(٣) المعارف : **٢٢٥** ، وفيه : « كان يكنى عبدالله بن الزبير أبابكر » .

(٤) أنساب الأشراف : **٥ : ٣٧٣** . مروج الذهب : **٣ : ٧٥** .

(٥) بحار الأنوار : **٤١ : ٣٥١** . شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : **٧ : ٤٨** .

ومن المؤكّد أنّه لم يكن يبغي في خروجه على سلطان بني أُمية وجه الله ، وإنّما كان يبغي الملك والسلطان ، وقد أدلى بذلك معاصره عبد الله بن عمر حينما ألحّت عليه زوجته في مبايعته ، وذكرت له طاعته وتقواه ، فقال لها : أما رأيت بغلات معاوية التي كان يحجّ عليها الشهباء ؟ فإنّ ابن الزبير ما يريد غيرهنّ(١) .

وعلى أيّة حال فإنّ ابن الزبير لم يكن شيء أثقل عليه من أمر الحسين عليه السلام ؛ لعلمه بأنّه لا يبايعه أحد مع وجود الحسين عليه السلام ، لأنّه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله فليس على وجه الأرض أحد يساميه ولا يساويه كما يقول ابن كثير(٢) .

وأكّد ذلك (أوكلي) حيث قال : « إنّ ابن الزبير كان مقتنعاً تماماً بأنّ كلّ جهوده ستضيع عبثاً طالما بقي الحسين على قيد الحياة ، ولكن إذا أصابه مكروه فإنّ طريق الخلافة سيكون ممهداً له .

وكان ابن الزبير يشير على الإمام الحسين عليه السلام بالخروج إلى العراق للتخلّص منه ، ويقول له : ما يمنعك من شيعتك وشيعة أبيك ؟ فوالله لو أنّ لي مثلهم ما توجّهت إلّا إليهم »(٣) .

وبعد ما يشير عليه بالذهاب إلى الكوفة ، وحتّى لا يكون متّهماً ، يقول له : وإن شئت فأقم هنا ونحن نبايعك ونقف إلى جانبك حتّى الموت(٤) .

(١) المختار : ٩٥.

(٢) البداية والنهاية : ٨ : ١٥٣ و ١٥٤.

وجاء في وسيلة المآل : ١٨٥ : « وقد ثقلت وطأة الحسين على ابن الزبير؛ لأنّ أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين عليه السلام بالبلد ، ولا يتهيأ له ما يطلب منهم مع وجود الحسين عليه السلام » .

(٣) تاريخ الإسلام (حوادث ٤١ ـ ٦٠) : ٤ : ١٧٠.

(٤) سيرة الأئمّة الاثني عشر : ٢ : ٦٦.

ولم يمنح ابن الزبير النصيحة للإمام الحسين عليه السلام، ولم يخلص له في الرأي، وإنّما أراد أن يستريح منه، ولم تخفَ على الإمام الحسين عليه السلام دوافعه، فراح يقول لأصحابه: **إنَّ هـٰذا ـ وأشار إلى ابن الزبير ـ لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ الْحِجازِ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ النّاسَ لَا يَعْدِلُونَهُ بِي فَوَدَّ أَنّي خَرَجْتُ حَتّىٰ يَخْلُوَ لَهُ**[١].

وذكر ابن أبي الحديد: أنّه لمّا خرج الحسين عليه السلام من مكة إلى العراق ضرب عبدالله بن عباس بيده على منكب ابن الزبير، فقال:

يــا لَكِ مِــنْ قُــبَّرةٍ بِــمَعمَر   خَلَا لَكِ الجَوُّ فَبِيْضِي وَاصفِري
وَنَــقِّرِي مــا شِئتِ أَنْ تُـنَقِّري   [هٰذَا الحُسينُ سائِرٌ فَأَبشِرِي][٢]

خلا الجو والله لك يابن الزبير، وسار الحسين عليه السلام إلى العراق، فقال ابن الزبير: يابن عباس، والله ما ترون هذا الأمر إلّا لكم، ولا ترون إلّا أنّكم أحق به من جميع الناس.

فقال ابن عباس: إنّما يرى من كان في شكّ، ونحن على يقين، ولكن أخبر عن نفسك بماذا تروم هذا الأمر؟ قال: بشرفي!

قال: وبماذا شرفت إن كان لك شرف؟! فإنّما هو بنا، فنحن أشرف منك؛ لأنّ شرفك منّا، وعلت أصواتهما.

فقال غلام من آل الزبير: دعنا منك يابن عباس، فوالله لا تحبوننا يا بني هاشم، ولا نحبكم أبداً، فلطمه عبدالله بن الزبير بيده، وقال: أتتكلم وأنا حاضر؟! فقال ابن عباس: لِمَ ضربت الغلام؟ واللهِ أحق بالضرب منه مَن مَزَق ومَرَق.

قال: ومَن هو؟ قال: أنت.

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٨٧. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧٦.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٨٨.

قال : واعترض بينهما رجال من قريش فاسكتوهما [١] .

ولم تحفل السلطة الأموية بابن الزبير ، وإنّما وجّهت جميع اهتماماتها نحو الإمام الحسين عليه السلام .

رأي الغزالي

واستبعد الشيخ محمّد الغزالي أنّ ابن الزبير قد أشار على الحسين عليه السلام بالخروج إلى العراق ليستريح منه ، قال : فعبد الله بن الزبير أتقى لله وأعرق في الإسلام من أن يقترف هذه الدنيّة [٢] .

وهذا الرأي بعيد عن الواقع ، فإنّ ابن الزبير لم تكن له أيّة حريجة في الدين ، فهو الذي أجّج نار الفتنة في حرب الجمل وزجّ أباه فيها ، وقد تهالك على السلطان ، وضحّى بكل شيء في سبيله ، وقد كان من أعدى الناس للعترة الطاهرة ؛ ولما عوتب في ترك الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله اعتذر بأنّ له أُهيل سوء ، فإذا ذكرته اشرأبت أعناقهم ، فمن كان هذا شأنه فهل يكون تقيّاً وعريقاً في الإسلام ؟!

رأي رخيص

من الآراء الرخيصة ما ذهب إليه أنيس زكريا المعروف بنزعته الأُموية : « إنّ من أهمّ الأسباب التي أدّت إلى قتل الإمام الحسين عليه السلام تشجيع ابن الزبير له في الخروج إلى العراق ، فقد كان له أثره المهمّ في نفسه » [٣] .

وهذا القول من أهزل الآراء ، فإنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يتأثّر بقول ابن الزبير ،

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٢٠ : ١٣٤ .

(٢) من معالم الحقّ : ١٣١ .

(٣) الدولة الأُمويّة في الشام : ٥٤ .

ولم ينخدع بتشجيعه له، وإنّما كانت هناك عوامل أُخرى حفّزته إلى الخروج إلى العراق، وقد ذكرناها بالتفصيل في البحوث السابقة.

فزع السلطة المحلية

وذعرت السلطة المحلّية في مكة من قدوم الإمام الحسين عليه السلام إليها، وخافت أن يتّخذها مقرّاً سياسيّاً لدعوته، ومنطلقاً لإعلان الثورة على حكومة دمشق، وقد خفّ حاكم مكة عمرو بن سعيد الأشدق وهو مذعور فقابل الإمام الحسين عليه السلام، فقال له: ما أقدمك؟

فقال عليه السلام: **عائِذاً بِاللهِ، وَبِهـٰذَا الْبَيْتِ**[١].

لقد جاء الإمام الحسين عليه السلام عائذاً ببيت الله الحرام الذي من دخله كان آمناً، وكان محصناً من كل ظلم واعتداء.

ولم يحفل الأشدق بكلامه، وإنّما رفع رسالة إلى يزيد أحاطه بها علماً بمجيء الإمام الحسين عليه السلام إلى مكة، واختلاف الناس إليه، وازدحامهم على مجلسه، وإجماعهم على تعظيمه، وأخبره أنّ ذلك يشكّل خطراً على الدولة الأُموية.

قلق يزيد

واضطرب يزيد أشدّ ما يكون الاضطراب حينما وافته الأنباء بامتناع الإمام الحسين عليه السلام عن بيعته وهجرته إلى مكة، واتخاذها مركزاً لدعوته، وإرسال أهل العراق الوفود والرسائل إلى الدعوة لبيعته، فكتب إلى عبد الله بن عبّاس رسالة، وهذا نصّها:

«أمّا بعد، فإنّ ابن عمّك حسيناً، وعدو الله ابن الزبير التويا ببيعتي ولحقا بمكة

---

(١) تذكرة الخواص: ٢١٤.

مرصدين للفتنة ، معرّضين أنفسهما للهلكة ، فأمّا ابن الزبير فإنّه صريع الفنا ، وقتيل السيف غداً ، وأمّا الحسين فقد أحببت الإعذار إليكم أهل البيت ممّا كان منه ، وقد بلغني أنّ رجالاً من شيعته من أهل العراق يكاتبونه ويكاتبهم ، ويمنّونه الخلافة ويمنّيهم الإمرة ، وقد تعلمون ما بيني وبينكم من الوصلة وعظيم الحرمة ونتائج الأرحام .

وقد قطع ذلك الحسين وبتّه ، وأنت زعيم أهل بيتك ، وسيد بلادك ، فالقه فاردده عن السعي في الفتنة ، فإن قبل منك وأناب فله عندي الأمان والكرامة الواسعة ، وأُجري عليه ماكان أبي يجريه على أخيه ، وإن طلب الزيادة فاضمن له ما أراك الله ، وأنفذ ضمانك ، وأقوم له بذلك وله عليّ الأيمان المغلّظة ، والمواثيق المؤكّدة بما تطمئن به نفسه ، ويعتمد في كلّ الأُمور عليه ، عجّل بجواب كتابي ، وبكلّ حاجة لك قبلي ، والسلام » .

وختم كتابه بهذه الأبيات :

يـا أيُّـها الرّاكِبُ الغـادِي لِـطِيَّتِهِ ... على عَذافِرَةٍ فِـي سَيرِها قَحَمُ[١]
أبلِغْ قُـرَيشاً عَلَى نَـأْيِ المَـزارِ بِـها ... بَـينِي وَبَـينَ الحُسَـينِ اللهُ وَالرَّحِـمُ
وَمَـوقِفٌ بِـفِناءِ البَـيتِ أَنشُـدُهُ ... عَهدُ الإلـهِ غَـداً تُـوفِي بِـهِ الذِّمَـمُ
عَـنَيتُمُ قَـومَكُمْ فَـخْراً بِأُمِّكُـمُ ... أُمٌّ لَـعَمرِي حَـصانٌ عَـفَّةٌ كَـرَمُ
هِـيَ الَّـتي لَا يُـدانِـي فَـضلَها أحَـدٌ ... بِنتُ الرَّسُولِ وَخَيرُ النّاسِ قَدْ عَلِمُوا
إنِّـي لَأَعـلَمُ أَوْ ظَـنّاً كَـعالِمِهِ ... وَالظَّـنُّ يَـصدُقُ أحـياناً فَـينتَظِمُ
أَنْ سَوفَ يَترُكُكُمْ مـا تَـدَّعُونَ بِـها ... قَـتلَى تَـهاداكُـمُ العُـقْبانُ وَالرَّخَـمُ

---

(١) **الطِّيِّة** : النيّة ـ المحيط في اللغة : ٩ : ٢٣٧ ـ طيأ . وقد وردت في بعض المصادر : « مطيته » أو « لمطيته » وهو تصحيف .

يا قَومَنا لَا تَشبُّوا الحَربَ إِذْ سَكَنَتْ وَأَمسِكُوا بِحِبالِ السِّلمِ وَاعـتَصِموا
قَد جَرَّبَ الحَربَ مَنْ قَدْكانَ قَبلَكُمُ مِن القُرونِ وَقَـد بـادَتْ بِـها الأُمَـمُ
فَأَنـصِفُوا قَـومَكُم لَا تَـهلِكوا بَـذَخاً فَرُبَّ ذِي بَـذَخٍ زَلَّت بِـهِ القَـدَمُ[١]

ودلّت هذه الرسالة على غباوة يزيد، فقد حسب أنّ الإمام الحسين عليه السلام يطلب المال والثراء في خروجه عليه، ولم يعلم أنّه إنّما ناهضه لا يبغي بذلك إلّا الله والتماس الأجر في الدار الآخرة.

جواب ابن عباس

وأجابه ابن عباس: «أمّا بعد، فقد ورد كتابك تذكر فيه لحاق الحسين وابن الزبير بمكة، فأمّا ابن الزبير فرجل منقطع عنّا برأيه وهواه، يكاتمنا مع ذلك أضغاناً يسرّها في صدره، يوري علينا وري الزناد، لا فكّ الله أسيرها، فاراً في أمره ما أنت راءٍ. وأمّا الحسين فإنّه لمّا نزل مكة وترك حرم جدّه ومنازل آبائه سألته عن مقدمه فأخبرني أنّ عمّالك بالمدينة أساءوا إليه، وعجلوا عليه بالكلام الفاحش، فأقبل إلى حرم الله مستجيراً به، وسألقاه فيما أشرت إليه، ولن أدع النصيحة فيما يجمع الله به الكلمة، ويطفئ به النائرة، ويخمد به الفتنة، ويحقن به دماء الأُمة، فاتقِ الله في السرِّ والعلانية، ولا تبيتن ليلة وأنت تريد لمسلم غائلة، ولا ترصده بمظلمة، ولا تحفر له مهواة[٢].

فكم من حافر لغيره حفراً وقع فيه، وكم من مؤمّل أملاً لم يؤتَ أمله، وخذ بحظك من تلاوة القرآن، ونشر السنّة، وعليك بالصيام والقيام لا تشغلك عنهما ملاهي الدنيا وأباطيلها، فإنّ كلّ ما اشتغلت به عن الله يضرّ ويفنى، وكلّ ما اشتغلت

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ١٤: ٢١٠. تذكرة الخواص: ٢١٥.

(٢) **المهواة**: الحفرة والمطمئن من الأرض ـ لسان العرب: ١٥: ١٧٠ ـ هوا.

به من أسباب الآخرة ينفع ويبقى ، والسلام »[١].

وحفلت هذه الرسالة بما يلي :

أوّلاً : إنّه لا علاقة لبني هاشم بابن الزبير ، ولا هم مسؤولون عن تصرفاته ، فقد كان عدوّاً لهم يتربّص بهم الدوائر ، ويبغي لهم الغوائل .

ثانياً : إنّ الإمام الحسين عليه السلام إنّما نزح من يثرب إلى مكة لا لإثارة الفتنة ، وإنّما لإساءة عمّال يزيد له ، وقد قدم إلى مكة ليستجير ببيتها الحرام .

إقصاء حاكم المدينة

كان الوليد بن عتبة بن أبي سفيان والياً على يثرب بعد عزل مروان عنها ، وكان ـ فيما يقول المؤرخون ـ فطناً ذكياً يحبّ العافية ويكره الفتنة ، ولمّا امتنع الإمام الحسين عليه السلام من البيعة ليزيد لم يتّخذ معه الإجراءات الصارمة ، ولم يكرهه على ما لا يحبّ ، وإنّما فسح له المجال في الرحيل إلى مكة من دون أن يعوقه عنها ، في حين أنّه قد أصرّ عليه مروان بالتنكيل به فرفض ذلك ، وقد نقل الأُمويون موقفه المتّسم باللين والتسامح مع الحسين عليه السلام إلى يزيد ، فغضب عليه وعزله عن ولايته[٢] ، وقد عهد بها إلى جبّار من جبابرة الأُمويين عمرو بن سعيد الأشدق[٣] وقد عرف بالقسوة والغلظة . قدم إلى المدينة في رمضان بعد أن تسلّم ولايته عليها

---

(١) تذكرة الخواص : ٢١٦ .

(٢) البداية والنهاية : ٨ : ١٥١ .

(٣) **الأشدق :** لقّب بذلك لتشادقه الكلام . وقيل : إنّما لقّب بذلك لأنّه كان أفقم مائل الذقن ، جاء ذلك في البيان والتبيين : ١ : ٢٠٦ . وقيل : إنّما لقّب بذلك لأنّه أصابه اعوجاج في حلقه لإغراقه في شتم آل البيت .

وجاء في تاريخ مدينة دمشق : ٤٦ : ٣٤ : « إنّه كان عظيم الشدقين . وجاء ذلك في معجم الشعراء : ٤٩ ، إنّه عظيم الشدقين في شتم علي عليه السلام » .

فصلى بالناس صلاة العتمة ، وفي الصباح خرج على الناس وعليه قميص أحمر وعمامة حمراء فرماه الناس بأبصارهم منكرين ما هو عليه ، فصعد المنبر فقال : يا أهل المدينة ، ما لكم ترموننا بأبصاركم كأنّكم تقروننا سيوفكم ؟ أنسيتم ما فعلتم ؟ ! أما لو أنتقم في الأُولى ما عدتم إلى الثانية ، أغرّكم إذ قتلتم عثمان فوجدتموه صابراً حليماً وإماماً ، فذهب غضبه ، وذهبت ذاته ، فاغتنموا أنفسكم ، فقد وليكم إمام بالشباب المقتبل البعيد الأمل ، وقد اعتدل جسمه ، واشتدّ عظمه ، ورمى الدهر ببصره ، واستقبله بأسره ، فهو إن عضّ لهس ، وإن وطئ فرس ، لا يقلقل له الحصى ، ولا تقرع له العصا [١] .

وعرض في خطابه لابن الزبير فقال : فوالله لنغزونّه ، ثمّ لئن دخل الكعبة لنُحَرِّقَنّها عليه ، على رغم أنف من رغم [٢] .

ورعف الطاغية على المنبر فألقى إليه رجل عمامة فمسح بها دمه ، فقال رجل من خثعم : دم على المنبر في عمامة ، فتنة عمّت وعلا ذكرها وربِّ الكعبة [٣] .

وقد أُثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال : « **لَيَرْعُفَنَّ عَلَىٰ مِنْبَرِي جَبّارٌ مِن جَبابِرَةِ بَنِي أُمَيَّةَ ، فَيَسِيلُ رُعافُهُ** » [٤] .

وعزم الأشدق على مقابلة الجبهة المعارضة بالقوة والبطش ، وقد حفّزه إلى ذلك ما حلّ بسلفه الوليد من الإقصاء وسلب الثقة عنه نتيجة تساهله مع الحسين عليه السلام ، ولعلّ من أوثق الأسباب التي دعت الإمام الحسين عليه السلام إلى مغادرة الحجاز هو الحذر من بطش هذا الطاغية به ، والخوف من اغتياله وهو في الحرم .

---

(١) العقد الفريد : ٤ : ١٣٢ و ١٣٣ .

(٢) تاريخ خليفة بن خياط : ١٤٥ . تاريخ مدينة دمشق : ٢٨ : ٢٠٣ .

(٣) سمط النجوم العوالي : ٣ : ٥٧ . مجمع الزوائد : ٥ : ٢٤٠ .

(٤) الغدير : ١٠ : ٢٦٤ . تاريخ مدينة دمشق : ٤٦ : ٣٦ . مجمع الزوائد : ٥ : ٢٤٠ .

الإمام الحسين عليه السلام مع ابن عمر وابن عباس

وكان عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر مقيمين في مكة حينما أقبل الإمام الحسين عليه السلام إليها ، وقد خفّا لاستقباله والتشرف بخدمته ، وكانا قد عزما على مغادرة مكة ، فقال له ابن عمر : أبا عبد الله ، رحمك الله ، اتقِ الله الذي إليه معادك ، فقد عرفت من عداوة أهل هذا البيت ـ يعني بني أُمية ـ لكم ، وقد ولي الناس هذا الرجل يزيد ابن معاوية ، ولستُ آمن أن يميل الناس إليه لمكان هذه الصفراء والبيضاء ، فيقتلونك ، ويهلك فيك بشر كثير ، فإنّي قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : «**حُسَيْنٌ مَقْتُولٌ ، وَلَئِنْ قَتَلُوهُ وَخَذَلوهُ ، وَلَنْ يَنْصُروهُ؛ لَيَخْذُلُهُمُ اللهُ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ**» ، وأنا أُشير عليك أن تدخل في صلح ما دخل فيه الناس ، واصبر كما صبرت لمعاوية من قبل ، فلعلّ الله أن يحكم بينك وبين القوم الظالمين .

فقال له أبيّ الضيم : **أَنا أُبايِعُ يَزِيدَ ، وَأَدْخُلُ في صُلْحِهِ ؟ ! ! وَقَدْ قالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله فِيهِ وَفِي أَبيهِ ما قالَ .**

وانبرى ابن عباس فقال له : صدقت أبا عبد الله ، قال النبيّ صلى الله عليه وآله في حياته : **ما لِي وَلِيزِيدَ ، لَا بارَكَ اللهُ في يَزِيدَ ، وَإِنَّهُ يَقْتُلُ وَلَدِي ، وَوَلَدَ ابْنَتِي الْحُسَينَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا يَقْتُلُ وَلَدِي بَيْنَ ظَهرانِيِّ قَوْمٍ فَلَا يَمْنَعُونَهُ إِلَّا خالَفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ .**

وبكى ابن عباس والحسين عليه السلام ، والتفت إليه قائلاً : **يابْنَ عَبّاسٍ ، أَتَعْلَمُ أَنِّي ابْنُ بِنْتِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله ؟**

فقال : اللهم نعم ، نعلم ما في الدنيا أحد هو ابن بنت رسول الله غيرك ، وأنّ نصرك لفرض على هذه الأُمة كفريضة الصلاة والزكاة التي لا يقبل أحدهما دون الأُخرى .

فقال له الإمام الحسين عليه السلام : **يابْنَ عَبّاسٍ ، ما تَقُولُ في قَوْمٍ أَخْرَجوا ابْنَ بِنْتِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله مِن دارِهِ وَقَرارِهِ وَمَولِدِهِ ، وَحَرَمِ رَسولِهِ ، وَمُجاوَرَةِ قَبْرِهِ وَمَسْجِدِهِ وَمَوْضِعِ**

مُهاجِرِهِ ، فَتَرَكُوهُ خائِفاً مَرْعُوباً لَا يَسْتَقِرُّ في قَرارٍ ، وَلَا يَأْوِي في مَوْطِنٍ ، يُرِيدُونَ في ذَلِكَ قَتْلَهُ ، وَسَفْكَ دَمِهِ ، وَهُوَ لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ وَلَا اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ وَلِيّاً ، وَلَمْ يَتَغَيَّرْ عَمّا كانَ عَلَيْهِ رَسول اللهِ ﷺ .

وانبرى ابن عباس يؤيد كلامه ، ويدعم قوله قائلاً : ما أقول فيهم ﴿**إِلَّا أَنَّهُم كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُم كُسالَىٰ**﴾[١] ﴿**يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً * مُذَبذَبِينَ بَينَ ذَلِكَ لَا إِلىٰ هٰؤلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هٰؤلَاءِ وَمَنْ يُضلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً**﴾[٢] ، وعلى مثل هؤلاء تنزل البطشة الكبرى ، وأمّا أنت يابن رسول الله فإنّك رأس الفخار برسول الله ، فلا تظنّ يابن بنت رسول الله أنّ الله غافل عمّا يفعل الظالمون ، وأنا أشهد أنّ مَن رغب عن مجاورتك ، وطمع في محاربتك ، ومحاربة نبيك محمّد فما له من خلاق .

وانبرى الإمام الحسين عليه السلام فصدّق قوله قائلاً : **اللّٰهُمَّ نَعَمْ** .

وانطلق ابن عباس يظهر له الاستعداد للقيام بنصرته قائلاً : جعلت فداك يابن بنت رسول الله ، كأنّك تريدني إلى نفسك ، وتريد مني أن أنصرك ، والله الذي لا إله إلّا هو أن لو ضربت بين يديك بسيفي هذا بيديَّ حتّى انخلعا جميعاً من كفّي لماكنت ممّن وفى من حقّك عُشر العُشر ، وها أنا بين يديك مرني بأمرك .

وقطع ابن عمر كلامه ، وأقبل على الحسين فقال له :

مهلاً عمّا قد عزمت عليه ، وارجع من هنا إلى المدينة ، وادخل في صلح القوم ، ولا تغب عن وطنك ، وحرم جدّك رسول الله ﷺ ، ولا تجعل لهؤلاء الذين لا خلاق لهم على نفسك حجّة وسبيلاً ، وإن أحببت ألّا تبايع فأنت متروك حتّى ترى رأيك ، فإنّ يزيد بن معاوية عسى ألّا يعيش إلّا قليلاً فيكفيك الله أمره .

---

(١) التوبة ٩ : ٥٤ .

(٢) النساء ٩ : ١٤٢ و ١٤٣ .

وزجره الإمام، وردّ عليه قوله قائلاً: **أُفٍّ لِهٰذَا الْكَلَامِ، أَبَداً ما دَامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ، أَسْأَلُكَ يا عَبْدَاللهِ، أَنا عِنْدَكَ عَلىٰ خَطَأٍ مِنْ أَمْرِيَ هٰذا؟ فَإِنْ كُنْتُ عَلىٰ خَطَأٍ رُدَّنِي فَأَنا أَخْضَعُ وَأَسْمَعُ وَأُطِيعُ.**

فقال ابن عمر: اللّهم لا، ولم يكن الله تعالى يجعل ابن بنت رسول الله على خطأ، وليس مثلك من طهارته وصفوته من رسول الله صلى الله عليه وآله على مثل يزيد بن معاوية، ولكن أخشى أن يضرب وجهك هذا الحسن الجميل بالسيوف وترى من هذه الأُمة ما لا تحبّ، فارجع معنا إلى المدينة، وإن لم تحب أن تبايع، فلا تبايع أبداً، واقعد في منزلك.

فالتفت إليه الإمام فأخبره عن خبث الأُمويين، وسوء نواياهم نحوه، قائلاً: **هَيْهاتَ يابْنَ عُمَرَ! إِنَّ الْقَوْمَ لَا يَتْرُكُونِي، وَإِنْ أَصابُونِي وَإِنْ لَمْ يُصِيبُونِي، فَلَا يَزالونَ حَتَّى أُبايِعَ وَأَنا كارِهٌ، أَوْ يَقْتُلُونِي. أَما تَعْلَمُ يا عَبْدَ اللهِ، إِنَّ مِنْ هَوانِ الدُّنْيا عَلَى اللهِ تَعالَىٰ أَنَّه أُتِيَ بِرَأْسِ يَحْيىٰ بْنِ زَكَرِيّا إِلى بَغِيٍّ مِنْ بَغايا بَنِي إِسْرائِيلَ، وَالرَّأْسُ يَنْطِقُ بِالْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ؟! أَمّا تَعْلَمُ يا أَبا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ، إِنَّ بَنِي إِسْرائِيلَ كانُوا يَقْتُلونَ ما بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلىٰ طُلُوعِ الشَّمْسِ سَبْعِينَ نَبِيّاً ثُمَّ يَجْلِسُونَ فِي أَسْواقِهِمْ يَبِيْعُونَ وَيَشْتَرُونَ كُلُّهُمْ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَصْنَعُوا شَيْئاً، فَلَمْ يُعَجِّلِ اللهُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أَخَذَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ...**[١].

وكشفت هذه المحاورة عن تصميمه على الثورة، وعزمه على مناجزة يزيد؛ لأنّه لا يتركه وشأنه، فأمّا أن يبايع، وبذلك يذلّ هو ويذلّ الإسلام وتستباح حرماته، وأمّا أن يقتل عزيزاً كريماً، فاختار المنية للحفاظ على كرامته وكرامة الأمة ومقدساتها.

---

(١) الفتوح: ٥: ٢٣ ـ ٢٥. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ١: ١٩٢ و ١٩٣.

وصيته لابن عباس

وأقبل الإمام الحسين عليه السلام على ابن عباس، فعهد إليه بهذه الوصية قائلاً: «**وَأَنْتَ يابْنَ عَبّاسٍ، إِنَّكَ ابْنُ عَمِّ أَبِي، وَلَمْ تَزَلْ تَأْمُرُ بِالْخَيرِ مُنْذُ عَرَفْتُكَ، وَكُنْتَ مَعَ أَبِي تُشِيرُ عَلَيْهِ بِما فِيهِ الرَّشادُ وَالسَّدادُ، وَقَدْ كانَ أَبِي يَسْتَصْحِبُكَ ويَسْتَنْصِحُكَ وَيَسْتَشِيرُكَ، وَتُشِيرُ عَلَيْهِ بِالصَّوابِ، فَامْضِ إِلَى الْمَدِينَةِ في حِفْظِ اللهِ، وَلَا تُخْفِ عَلَيَّ شَيْئاً مِنْ أَخْبارِكَ، فَإِنِّي مُسْتَوْطِنٌ هٰذَا الْحَرَمَ، وَمُقِيمٌ بِهِ مَا رَأَيْتُ أَهْلَهُ يُحِبُّونَني وَيَنْصُرونَنِي، فَإِذا هُمْ خَذَلُونِي اسْتَبْدَلْتُ بِهِمْ غَيْرَهُمْ، وَاسْتَعْصَمْتُ بِالْكَلِمَةِ الَّتِي قَالَها إِبْراهِيمُ يَوْمَ أُلْقِيَ في النّارِ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَكانَتِ النّارُ عَلَيْهِ بَرْداً وَسَلَاماً**»[١].

مؤتمر البصرة

وحينما علم أشياعه في العراق بموت معاوية واستخلاف ولده، وفرار الحسين عليه السلام من المدينة إلى مكة رغبة بنفسه عن مبايعته، فاجتمع مؤتمرهم في الكوفة ببيت سليمان بن صُرَد ـ كما سيأتي ذكره ـ واجتمع مؤتمرهم في البصرة ببيت مارية بنت سعد[٢]، وناقش المؤتمران كلاهما في الأمر، واتفقا على لوم سياسة معاوية، ورفض ولاية يزيد، ودعوة الحسين عليه السلام للشخوص إليهم، وإعطائه بيعتهم، والكتابة إليه بما انتهى إليه الرأي، واستقرت عليه الكلمة.

رسائله إلى زعماء البصرة

وكتب الإمام الحسين عليه السلام إلى رؤساء الأخماس بالبصرة يستنهضهم على نصرته والأخذ بحقّه، وقد كتب إلى الأشراف ومن بينهم:

---

(١) الفتوح: ٥: ٢٦. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ١: ١٩٣.

(٢) الكامل في التاريخ: ٤: ٩.

١ ـ مالك بن مسمع البكري.

٢ ـ الأحنف بن قيس.

٣ ـ المنذر بن الجارود العبدي.

٤ ـ مسعود بن عمرو الأزدي.

٥ ـ قيس بن الهيثم.

٦ ـ عمر بن عبيد الله بن معمر[(١)].

وقد أرسل كتاباً إليهم بنسخة واحدة، وهذا نصه:

«أَمّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله مِنْ خَلْقِهِ، وَأَكْرَمَهُ بِنُبُوَّتِهِ، وَاخْتارَهُ لِرِسالَتِهِ، ثُمَّ قَبَضَهُ إِلَيْهِ، وَقَدْ نَصَحَ لِعِبادِهِ، وَبَلَّغَ ما أُرْسِلَ بِهِ، وَكُنّا أَهْلَهُ وَأَوْلِياءَهُ وَأَوْصِياءَهُ وَوَرَثَتَهُ، وَأَحَقَّ النّاسِ بِمَقامِهِ، فَاسْتَأْثَرَ عَلَيْنا قَوْمُنا بِذلِكَ فَرَضِينا، وَكَرِهْنا الْفُرْقَةَ، وَأَحْبَبْنا الْعافِيَةَ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنّا أَحَقُّ بِذلِكَ الْحَقِّ الْمُسْتَحَقِّ عَلَيْنا مِمَّنْ تَوَلّاهُ.

وَقَدْ بَعَثْتُ رَسولي إِلَيْكُمْ بِهٰذَا الْكِتابِ، وَأَنا أَدْعُوكُمْ إِلىٰ كِتابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله، فَإِنَّ السُّنَّةَ قَدْ أُميتَتْ، وَإِنَّ الْبِدْعَةَ قَدْ أُحْيِيَتْ، فَإِنْ تَسْمَعُوا قَوْلي أُهْدِكُمْ إِلىٰ سَبيلِ الرَّشادِ، وَالسَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ»[(٢)].

وألقت هذه الرسالة الأضواء على الخلافة الإسلامية فهي ـ حسب تصريح الإمام الحسين عليه السلام ـ حقّ لأهل البيت عليهم السلام؛ لأنّهم ألصق الناس برسول الله صلى الله عليه وآله، وأكثرهم وعياً لأهدافه، إلّا أنّ القوم استأثروا بها، فلم يسع العترة الطاهرة إلّا الصبر كراهة للفتنة وحفظاً على وحدة المسلمين، كما حفلت هذه الرسالة بالدعوة إلى الحقّ بجميع رحابه ومفاهيمه، فدعت إلى إحياء كتاب الله وسنّة نبيه، فإنّ الحكم الأُموي

---

(١) الأخبار الطوال: ٢٢٩. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٦٨.

(٢) بحار الأنوار: ٤٤: ٣٤٠. أعيان الشيعة ١: ٥٩٠. تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٥٦٥.

عمد إلى إقصائهما عن واقع الحياة.

وعلّق بعض الكتّاب على دعوة الإمام الحسين عليه السلام لأهل البصرة لبيعته، فقال: «إنّ رسالة الحسين إلى أهل البصرة ترينا كيف كان يعرف مسؤوليته ويمضي معها، فأهل البصرة لم يكتبوا إليه، ولم يدعوه إلى بلدهم كما فعل أهل الكوفة، ومع هذا فهو يكتب إليهم، ويعدّهم للمجابهة المحتومة، ذلك أنّه حين قرر أن ينهض بتبعات دينه وأُمته، كان قراره هذا آتياً من أعماق روحه وضميره، وليس من حركة أهل الكوفة ودعوتهم إياه».

وعلى أيّة حال فقد بعث الإمام الحسين عليه السلام كتبه لأهل البصرة بيد مولى له يقال له: سليمان، ويكنى أبا رزين، وقد جدّ في السير حتّى انتهى إلى البصرة فسلّم الكتب إلى أربابها.

جواب الأحنف بن قيس

وأجاب الأحنف بن قيس زعيم العراق الإمام الحسين عليه السلام برسالة كتب فيها هذه الآية الكريمة ولم يزد عليها: ﴿**فاصبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ولا يَستَخِفنَّكَ الَّذينَ لَا يُوقِنُونَ**﴾[1]، وقد طلب منه الخلود إلى الصبر، ولا يستخفّه الذين لا يوقنون بالله، ولا يرجون له وقاراً.

جريمة المنذر

أمّا المنذر بن الجارود العبدي فقد كان من أجلاف العرب وحقرائهم، فقد عمد إلى رسول الإمام الحسين عليه السلام فبعثه مخفوراً إلى ابن زياد ـ وكان ابنُ زياد زوج ابنته بحرية ـ ليظهر له الإخلاص والولاء، فقتله ابن مرجانة وصلبه عشية الليلة التي خرج

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٣: ٢٩٨. والآية ٦٠ من سورة الروم.

في صبيحتها إلى الكوفة[1] فكان ضحية فداء قبل سفره.

واعتذر بعض المؤرخين عن المنذر ـ أو هو اعتذر عن نفسه ـ بأنّه خشي أن يكون الرسول من قبل ابن مرجانة لاختباره فلذا سلّمه إليه وهو اعتذار مهلهل، أو يجري معه التحقيق حتّى يستبين له الأمر.

استجابة يزيد بن مسعود

واستجاب الزعيم الكبير يزيد بن مسعود النهشلي إلى تلبية نداء الحقّ، فاندفع بوحي من إيمانه وعقيدته إلى نصرة الإمام، فعقد مؤتمراً عاماً دعا فيه القبائل العربية الموالية له، وهي:

١ ـ بنو تميم.

٢ ـ بنو حنظلة.

٣ ـ بنو سعد.

ولمّا اجتمعت هذه القبائل، انبرى فيهم خطيباً، فوجّه خطابه أوّلاً إلى بني تميم فقال لهم: يا بني تميم، كيف ترون موضعي فيكم، وحسبي منكم؟!

وتعالت أصوات بني تميم وهي تعلن ولاءها المطلق، وإكبارها له قائلين بلسان واحد: بخٍ بخٍ، أنت والله فقرة الظهر، ورأس الفخر، حللت في الشرف وسطاً، وتقدمت فيه فرطاً.

وسرّه تأييدهم، فانطلق يقول: إنّي جمعتكم لأمر أُريد أن أشاوركم، وأستعين بكم عليه. واندفعوا جميعاً يظهرون له الولاء والطاعة قائلين: إنّا والله نمنحك النصيحة، ونجهد لك الرأي، فقل حتّى نسمع.

وتطاولت الأعناق، واشرأبّت النفوس لتسمع ما يقول الزعيم الكبير، وانبرى

---

(١) الأخبار الطوال: ٢٣١ و ٢٣٢. تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٥٦٥.

قائلاً : إنّ معاوية مات ، فأهون به ـ والله ـ هالكاً ومفقوداً ، ألا إنّه قد انكسر باب الجور والإثم ، وتضعضعت أركان الظلم ، وكان قد أحدث بيعة عقد بها أمراً ظنّ أنّه قد أحكمه ، وهيهات الذي أراد . اجتهد والله ففشل ، وشاور فخذل ، وقد قام يزيد شارب الخمور ورأس الفجور يدّعي الخلافة على المسلمين ، ويتأمّر عليهم بغير رضاً منهم ، مع قصر حلم وقلة علم ، لا يعرف من الحقّ موطىء قدميه ، فأُقسم بالله قسماً مبروراً لجهاده على الدين أفضل من جهاد المشركين .

وهذا الحسين بن عليّ وابن رسول الله صلى الله عليه وآله ، ذو الشرف الأصيل والرأي الأثيل[١] ، له فضل لا يوصف وعلم لا ينزف ، وهو أولى بهذا الأمر لسابقته وسنّه ، وقدمه وقرابته ، يعطف على الصغير ، ويحسن إلى الكبير ، فأكرم به راعي رعية ، وإمام قوم وجبت لله به الحجّة وبلغت به الموعظة ، فلا تعشوا عن نور الحقّ ، ولا تسكّعوا في وهد الباطل ، فقد كان صخر بن قيس انخذل بكم يوم الجمل فاغسلوها بخروجكم إلى ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ونصرته ، والله لا يقصر أحدكم عن نصرته إلّا أورثه الله الذلّ في ولده ، والقلة في عشيرته .

وها أنا ذا قد لبست للحرب لامتها ، وادّرعت لها بدرعها ، من لم يقتل يمت ، ومن يهرب لم يفت ، فأحسنوا رحمكم الله ردّ الجواب[٢] .

وحفل هذا الخطاب الرائع بأُمور بالغة الأهميّة ، وهي :

أوّلاً : الاستهانة بهلاك معاوية ، وأنّه قد انكسر بموته باب الظلم والجور .

ثانياً : القدح في بيعة معاوية ليزيد .

ثالثاً : عرض الصفات الشريرة الماثلة في يزيد من الإدمان على الخمر ، وفقد الحلم ، وعدم العلم ، وعدم التبصّر بالحقّ .

---

(١) **الرأي الأثيل** : الأصيل ـ لسان العرب : ١ : ٧٣ ـ أثل .

(٢) اللهوف : ٢٦ و ٢٧ .

رابعاً: الدعوة إلى الالتفاف حول الإمام الحسين عليه السلام؛ وذلك لما يتمتع به من الصفات الشريفة كأصالة الفكر، وغزارة العلم، وكبر السن، والعطف على الكبير والصغير، وغير ذلك من النزعات الكريمة التي تجعله أهلاً لإمامة المسلمين.

خامساً: إنّه عرض للجماهير عن استعداده الكامل للقيام بنصرته والذبّ عنه.

ولمّا أنهى الزعيم العظيم خطابه انبرى وجهاء بني حنظلة فأظهروا الدعم الكامل له قائلين: يا أبا خالد، نحن نبل كنانتك، وفرسان عشيرتك، إن رميت بنا أصبت، وإن غزوت بنا فتحت، لا تخوض والله غمرة إلّا خضناها، ولا تلقى والله شدّة إلّا لقيناها. ننصرك بأسيافنا، ونقيك بأبداننا إذا شئت فافعل.

وكان منطقاً مشرّفاً دلّ على تعاطفهم، ووقوفهم إلى جانبه.

وقام من بعدهم بنو عامر فأعربوا عن ولائهم العميق له قائلين: يا أبا خالد، نحن بنو أبيك وحلفاؤك، لا نرضى إن غضبت، ولا نبقى إن ظعنت، والأمر إليك فادعنا إذا شئت.

وأمّا بنو سعد فأظهروا التردد وعدم الرغبة فيما دعاهم إليه، قائلين: يا أبا خالد، إنّ أبغض الأشياء إلينا خلافك، والخروج عن رأيك، وقد كان صخر بن قيس أمرنا بترك القتال يوم الجمل، فحمدنا أمرنا، وبقي عزّنا فينا، فأمهلنا نراجع المشورة، ونأتيك برأينا.

وساءه تخاذلهم فاندفع يندد بهم قائلاً: لئن فعلتموها لارفع الله السيف عنكم أبداً، ولا زال سيفكم فيكم[١].

جوابه للإمام الحسين عليه السلام

ورفع يزيد بن مسعود رسالة للإمام الحسين عليه السلام دلّت على شرفه ونبله، واستجابته

---

(١) اللهوف: ٢٧ و ٢٨.

لدعوته ، وهذا نصها :

« أمّا بعد ، فقد وصل إليّ كتابك ، وفهمت ما ندبتني إليه ، ودعوتني له من الأخذ بحظّي من طاعتك ، والفوز بنصيبي من نصرتك ، وإنّ الله لم يخل الأرض قط من عامل عليها بخير ، ودليل على سبيل نجاة ، وانتم حجّة الله على خلقه ، ووديعته في أرضه ، تفرّعتم من زيتونة أحمدية هو أصلها وأنتم فرعها ، فاقدم سعدت بأسعد طائر . فقد ذللت لك أعناق بني تميم ، وتركتهم أشدّ تتابعاً في طاعتك من الإبل الظماء لورود الماء يوم خِمسها[١] ، وقد ذللت لك رقاب بني سعد ، وغسلت درن قلوبها بماء سحابة مزن حين استهل برقها فلمع »[٢] .

وحفلت هذه الرسالة بسمو أدبه ، وكريم طباعه ، وتقديره البالغ للإمام الحسين عليه السلام .

يقول بعض المؤرخين : إنّها انتهت إلى الإمام الحسين عليه السلام في اليوم العاشر من المحرم بعد مقتل أصحابه وأهل بيته ، وهو وحيد فريد قد أحاطت به القوى الغادرة ، فلمّا قرأ الرسالة طفق يقول : **مالَكَ ! آمَنَكَ اللهُ مِنَ الْخَوفِ ، وَأَرْواكَ يَوْمَ الْعَطَشِ الْأَكْبَرِ .**

فلما تجهّز ابن مسعود لنصرة الإمام الحسين عليه السلام بلغه قتله فجزع لذلك وذابت نفسه أسىً وحسرات[٣] .

استجابة يزيد البصري

ولبّى نداء الحقّ يزيد بن ثُبيط[٤] العبدي البصري ، وكان ـ فيما يقول المؤرخون ـ يتردد إلى دار مارية بنت سعد أو منقذ ، وكانت دارها من منتديات الشيعة ،

---

(١) **الخِمسُ** : الإبل الظماء التي ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع ـ لسان العرب : ٤ : **٢١٦** خَمَسَ .

(٢) اللهوف : **٢٨** .

(٣) اللهوف : **٢٨** و **٢٩** .

(٤) قد ورد في بعض المصادر مصحّفاً : « نبيط » أو « ثبيت » أو « شبيب » .

وفيها تذاع فضائل أهل البيت عليهم السلام وتنشر مآثرهم ، ولمّا وجّه الإمام الحسين عليه السلام دعوته إلى أهل البصرة لنصرته استجاب لها يزيد بن ثُبيط ، ولحق به من أولاده العشرة عبد الله وعبيد الله ، وخاف عليه أصحابه أن يدركه الطلب من شرطة ابن زياد ، فقال لهم : لو استوت أخفافها بالجدد[١] لهان عليَّ طلب من طلبني[٢] ، واستوى على جواده مع ولديه ، وصحبه مولاه عامر ، وسيف بن مالك ، والأدهم بن أُمية ، فلحقوا بالإمام الحسين عليه السلام في مكة وصحبوه إلى العراق واستشهدوا بين يديه في كربلاء[٣] .

نقمة العراق على الأُمويين

وكره العراقيون بصورة عامة حكم الأُمويين ، وبغضوا سلطانهم ، وفيما نحسب أنّ الأسباب في ذلك ما يلي :

الأوّل: إنّ العراق أيام معاوية أصبح يساس بالروح العسكرية والأحكام العرفية التي لا تتقيد بالقانون خصوصاً أيام زياد بن سمية ، فقد كان يأخذ البريء بالسقيم ، والمقبل بالمدبر ، ويقتل على الظنّة والتهمة ، ممّا أدّى إلى إشاعة الكراهية للأُمويين .

الثاني: إنّ الكوفة كانت في عهد الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام عاصمة الدولة الإسلامية ، وفي أيام معاوية أصبحت دمشق العاصمة ومركز الحكم ، وأصبح العراق مصراً كسائر الأمصار ، وانتقلت عنه الخزينة المركزية ، وقد أخذ الكوفيون يندبون حظهم التعيس بعد تحوّل الخلافة عنهم ، وأصبح اسم الإمام الحسين عليه السلام عندهم رمزاً إلى دولتهم المفقودة ، وتعلّقت آمالهم بأبناء الإمام عليّ عليه السلام فكانوا ينظرون

---

(١) **الجَدَدُ**: الأرض الغليظة ، الصلبة ، المستوية ـ لسان العرب : ٢ : ٢٢٠ ـ جَدَدَ .

(٢) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٦١ .

(٣) مقتل الحسين عليه السلام / المقرّم : ١٦٣ . ذخيرة الدارين : ٢٢٤ .

إليهم أنّهم الأبطال لاستقلال بلادهم السياسي وتحررها من التبعية لدمشق، فقد كره أهل العراق الخضوع لأهل الشام كما كره أهل الشام الخضوع والسيطرة لأهل العراق، وقد صوّر شاعر الشام هذه النزعة بقوله:

أرَى الشّامَ تَكرَهُ مُلكَ العِراقِ ... وَأَهْلَ العِراقِ لَها كارِهُونا
فَقالُوا: عَلِيٌّ إمامٌ لَنا ... فَقلنا: رَضينا ابْنَ هِندٍ رَضِينا

وصوّر شاعر العراق هذه النزعة السائدة عند العراقيّين بقوله مخاطباً أهل الشام:

أَتاكُمْ عَلِيٌّ بِأَهْلِ العِراقِ ... وَأَهْلِ الحِجازِ فَما تَصنعُونا
فَإِنْ يَكرهُ القَومُ مُلكَ العراقِ ... فَقُدماً رَضينا الَّذي تَكرهُونا (١)

وكانت الثورات المتلاحقة التي قام بها العراق إنّما هي لكراهية أهل الشام والتخلّص من حكم الأُمويين.

الثالث: إنّ السياسة الخاطئة التي اتّبعها معاوية مع زعماء الشيعة الذين تبنّوا القضايا المصيرية للشعب العراقي وكافة الشعوب الإسلامية وما عانوه من القتل والتنكيل، قد هزّت مشاعر الكوفيّين، وأوغرت صدورهم بالحقد على الأُمويين. كما أنّ سبّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام على المنابر قد زاد في بغضهم للأُمويين، وأشعل جذوة المعارضة في نفوسهم.

الرابع: إنّ الأُمويين كانوا ينظرون إلى أهل الكوفة أنّهم الجبهة المعارضة لحكمهم وأنّهم المصدر الخطير الذي يهدد دولتهم، فقابلوهم بمزيد من القسوة والإرهاب، ممّا دعا الكوفيّين إلى العمل المستمر لمناهضة الحكم الأُموي وتقويض سلطانه.

هذه بعض الأسباب التي أدّت إلى نقمة العراق على الحكم الأُموي وبغضهم له.

---

(١) وقعة صفّين: ٥٦ و ٥٧. الأخبار الطوال: ١٦٠ و ١٦١. الكامل في اللغة والأدب: ١: ٢٦٧، ٢٧٠.

إعلان التمرد في العراق

وبعد هلاك معاوية أيقن العراقيون بانهيار الدولة الأُموية ، وقد رأوا أنّ في تقليد يزيد مهام الخلافة إنّما هو استمرار للحكم الأُموي الذي جهد على إذلالهم وقهرهم .

وقد أجمعت الشيعة في الكوفة على مناجزته والخروج على سلطانه ، ورأوا أنّ في كفاحهم له جهاداً دينياً ، حسبما يقول (جولد تسيهر)[١] .

ويرى (كريمر) أنّ الأخيار والصلحاء من الشيعة كانوا ينظرون إلى يزيد نظرتهم إلى ورثة أعداء الإسلام وخلفاء أبي سفيان[٢] .

وعلى أيّة حال فإنّ شيعة الكوفة لم ترضَ بحكم يزيد ، وأجمعت على خلعه ، والبيعة للإمام الحسين عليه السلام ، وقد قاموا بما يلي :

أوّلاً : المؤتمر العام

وعقدت الشيعة بعد هلاك معاوية مؤتمراً عاماً في بيت أكبر زعمائها سليمان ابن صُرَد الخزاعي ، واندفعوا اندفاعاً كلّياً في إلقاء الخطب الحماسية التي تظهر مساوئ الحكم الأُموي وفضائحه ، كما أشادوا بالإمام الحسين عليه السلام ودعوا إلى البيعة له .

ثانياً : خطبة سليمان

واعتلى سليمان بن صُرَد منصّة الخطابة ، فافتتح أُولى جلساتهم بهذا الخطاب ، وقد جاء فيه : « إنّ معاوية قد هلك ، وإنّ حسيناً قد قبض على القوم ببيعته ، وقد خرج إلى مكة وأنتم شيعته وشيعة أبيه ، فإن كنتم تعلمون أنّكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه ، وإن خفتم الوهن والفشل فلا تغرّوا الرجل من نفسه » .

---

(١) و (٢) العقيدة والشريعة في الإسلام : ٦٩ .

وتعالت أصواتهم من كل جانب وهم يقولون بحماس بالغ: لا، بل نقاتل عدوّه، ونقتل أنفسنا دونه[١].

وأظهروا رغبتهم الملحّة ودعمهم الكامل للإمام الحسين عليه السلام، وقرروا ما يلي:

١ ـ خلع بيعة يزيد.

٢ ـ إرسال وفد للإمام الحسين عليه السلام يدعونه للقدوم إليهم.

٣ ـ بعث الرسائل للإمام الحسين عليه السلام من مختلف الطبقات الشعبية التي تمثّل رغبة الجماهير الحاشدة لحكمه عليه السلام.

ثالثاً: وفد الكوفة

وأوفدت الكوفة وفداً إلى الإمام الحسين عليه السلام يدعونه إلى القدوم إليهم، ومن بين ذلك الوفد أبو عبد الله الجدلي[٢]، ولمّا مثل الوفد عنده عرض عليه إجماع أهل الكوفة على نصرته والأخذ بحقّه، وأنّه ليس لهم إمام غيره، وحثّوه على القدوم إليهم.

رابعاً: الرسائل

وعمد أهل الكوفة بعد مؤتمرهم فكتبوا الرسائل إلى الإمام الحسين عليه السلام وهي تعرب عن إخلاصهم وولائهم له، وتحثّه على القدوم إليهم ليتولى قيادة الأُمة، وهذه بعضها.

الأُولى: قد جاء فيها بعد البسملة، ما نصّه:

---

(١) الإرشاد / المفيد: ٢: ٣٦. تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٦٠. الفتوح: ٥: ٢٧. المنتظم: ٥: ٣٢٧.

(٢) مقاتل الطالبيّين: ٩٩.

« من سليمان بن صُرَد، والمسيب بن نَجَبة، ورفاعة بن شدّاد، وحبيب بن مظاهر[١]، وشيعته والمسلمين من أهل الكوفة.

أمّا بعد، فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد ـ يعني معاوية ـ الذي انتزى على هذه الأُمة فابتزّها أمرها، واغتصبها فيئها، وتأمّر عليها بغير رضاً منها، ثمّ قتل خيارها واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها فبعداً له كما بعدت ثمود، إنّه ليس علينا إمام، فاقبل لعلّ الله يجمعنا بك على الحقّ، والنعمان بن بشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو بلغنا أنّك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتّى نلحقه بالشام إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته »[٢].

وكتبت هذه الرسالة في أواخر شهر شعبان، وحملها عبد الله بن سَبُع الهمداني، وعبد الله بن وال التيمي، وقد أمروهما بالإسراع والحذر من العدو، وأخذا يجدّان في السير لا يلويان على شيء، وقدما مكة لعشر مضين من رمضان[٣]، وسلّما الرسالة للإمام الحسين عليه السلام وعرّفاه بشوق الناس إلى قدومه.

وقد عرضت هذه الرسالة مساوئ الحكم الأُموي، فوصفت معاوية بالجبار العنيد، وأنّه ابتزّ أمر الأُمة بالقهر والغلبة، وتأمّر عليها بغير رضاً منها، وقد قتل

---

(١) هو حبيب بن مُظَهَّر بن رئاب بن الأشتر، أبو القاسم الأسدي الفقعسي، ومظهّر بزنة محمّد على الأشهر، ويضبط بالطاء المهملة في بعض الأصول. ويمضي على الألسن وفي بعض الكتب: « مظاهر » وهو خلاف المضبوط قديماً، ويؤيد الرأي الأوّل أرجوزته. إبصار العين: ٧٥.

(٢) الإمامة والسياسة: ٢: ٤. أنساب الأشراف: ٣: ٣٦٩. تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٦٠. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٦٦.

(٣) أنساب الأشراف: ٣: ٣٧٠. الأخبار الطوال: ٢٢٩. الفتوح: ٥: ٢٨. البداية والنهاية: ٨: ١٥٤، وفيها اختلاف في اسمَي المبعوثَيْنِ.

خيارها وصلحاءها ، وجعل العطاء خاصة للأغنياء والوجوه ، وحرم منه بقية طوائف الشعب. كما عرضت إلى مقاطعة الشيعة لحاكم الكوفة النعمان بن بشير ، وأنّهم إذا بلغهم قدومه قاموا بإقصائه عن الكوفة وإلحاقه بدمشق.

الثانية : وقد أرسل الرسالة الثانية جماعة من أهل الكوفة ، وهذا نصّها :

« إلى الحسين بن عليّ من شيعته والمسلمين. أمّا بعد ، فحيَّهلا [١] فإنّ الناس ينتظرونك ولا رأي لهم غيرك [٢] ، فالعجل ثمّ العجل ، والسلام » [٣].

وحمل هذه الرسالة قيس بن مسهر الصيداوي من بني أسد ، وعبد الرحمن بن عبد الله الأرحبي ، وعمارة بن عبد الله السلولي ، كما حملوا معهم نحواً من خمسين صحيفة من الرجل والاثنين والثلاثة والأربعة [٤] وهي تحثّ الإمام على الإسراع إليهم والترحيب بقدومه ، وتعلن دعمهم الكامل له.

الثالثة : وأرسل هذه الرسالة جماعة من الانتهازيين الذين لا يؤمنون بالله ، وهم شَبَثُ بنُ ربعي اليربوعي ، ومُحَمد بن عمر التميمي ، وحجّار بن أبجر العجلي ، ويزيد بن الحارث الشيباني ، وعزرة بن قيس الأحمسي ، وعمرو بن الحجّاج الزبيدي ، وهذا نصها :

« أمّا بعد ، فقد اخضرّ الجناب ، وأينعت الثمار ، وطمت الجمام [٥] ، فأقدم على جند لك مجندة ، والسلام عليك » [٦].

---

(١) **حيَّهلا** : اسم فعل بمعنى أقبل وعجّل ـ الصحاح : ٥ : ١٨٥٣ ـ هلل.

(٢) في تاريخ اليعقوبي : ٢ : ١٥٥ : « لا إمام لهم غيرك ».

(٣) الإرشاد / المفيد : ٢ : ٣٨. تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٦٠.

(٤) أنساب الأشراف : ٣ : ٣٧٠. الأخبار الطوال : ٢٢٩. تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٦٠.

(٥) **الجمام** : الآبار. الصحاح : ٥ : ١٨٩ ـ جَمَمَ. تاج العروس : ٨ : ٢٣٢ ـ جَمَمَ.

(٦) أنساب الأشراف : ٣ : ٣٧٠. مطالب السؤول في مناقب آل الرسول : ٧٤.

وأعربت هذه الرسالة عن شيوع الأمل وازدهار الحياة ، وتهيئة البلاد عسكرياً للأخذ بحقّه ، ومناجزة خصومه ، وقد وقّعها أُولئك الأشخاص الذين كانوا في طليعة القوى التي زجّها ابن مرجانة لحرب الإمام الحسين عليه السلام ، ومن المؤكد أنّهم لم يكونوا مؤمنين بحقّه ، وإنّما اندفعوا لمساومة السلطة الأُموية ، والحصول منها على الأموال ومتع الحياة ، كما صرّح الإمام الحسين عليه السلام بذلك أمام أصحابه .

الرابعة : ومن بين تلك الرسائل : « إنّا قد حبسنا أنفسنا عليك ، ولسنا نحضر الصلاة مع الولاة ، فأقدم علينا فنحن في مائة ألف سيف ، فقد فشا فينا الجور ، وعمل فينا بغير كتاب الله وسنّة نبيه ، ونرجو أن يجمعنا الله بك على الحق ، وينفي عنا بك الظلم ، فأنت أحقّ بهذا الأمر من يزيد وأبيه الذي غصب الأُمة ، وشرب الخمور ، ولعب بالقرود والطنابير ، وتلاعب بالدين »[١] .

الخامسة : وكتب جمهور أهل الكوفة الرسالة الآتية ووقّعوها ، وهذا نصّها :

« للحسين بن عليّ أمير المؤمنين من شيعة أبيه عليه السلام . أمّا بعد . فإنّ الناس ينتظرونك لا رأي لهم في غيرك .

العجل العجل يابن رسول الله صلى الله عليه وآله لعلّ الله أن يجمعنا بك على الحقّ ويؤيد بك المسلمين والإسلام ، بعد أجزل السلام وأتمه عليك ورحمة الله وبركاته »[٢] .

السادسة : وكتب إليه جماعة هذه الرسالة الموجزة : « إنّا معك ، ومعنا مائة ألف سيف »[٣] .

السابعة : وكانت آخر الرسائل التي وصلت إليه هذه الرسالة : « عجّل القدوم

---

(١) مروج الذهب : ٣ : ٥٤ . تذكرة الخواص : ٢١٥ .

(٢) وسيلة المآل : ١٨٥ . الفصول المهمّة / ابن الصبّاغ : ١٨٤ .

(٣) الإرشاد / المفيد : ٢ : ٧١ . بحار الأنوار : ٤٤ : ٣٧٠ .

يابن رسول الله ، فإنّ لك بالكوفة مائة ألف سيف فلا تتأخر »[١].

وقد تتابعت عليه الرسائل ما ملأ منها خرجين ، ويقول المؤرخون : إنّه اجتمع عنده في نوب متفرقة اثنا عشر ألف كتاب[٢] ، ووردت إليه قائمة فيها مائة وأربعون ألف اسم يعربون عن نصرتهم له حال ما يصل إلى الكوفة[٣] ، كما وردت عليه في يوم واحد ستمائة كتاب[٤].

وعلى أيّة حال فقد كثرت كتب أهل الكوفة إلى الإمام الحسين عليه السلام ، وقد وقّع فيها الأشراف وقرّاء المصر ، وهي تمثّل تعطشهم لقدومه ؛ ليكون منقذاً لهم من طغمة الحكم الأُموي ، ولكن بمزيد الأسف فقد انطوت صحيفة ذلك الأمل ، وانقلب الوضع وتغيّرت الحالة ، وإذا بالكوفة تنتظر الحسين عليه السلام لتسقي سيوفها من دمه ، وتطعم نبالها من لحمه ، تريد أن تحتضن جسد الحسين عليه السلام لتوزّعه السيوف ، وتطعنه الرماح ، وتسحقه الخيول بحوافرها.

الكوفة تنتظر الحسين عليه السلام لتثب عليه وثبة الأسد ، وتنشب أظفارها بذلك الجسد الطاهر. الكوفة تنتظر الحسين عليه السلام لتسبي عياله بدل أن تحميهم ، وتروّع أطفاله بدل أن تؤويهم[٥].

ومنح الإمام الحسين عليه السلام هذه الكتب مزيداً من العناية ، فقد كان أصحاب الرسائل رجالاً بارزين من القبائل وخاصة اليمانية ، وقد كانت أكبر القبائل عدداً وأهمية

---

(١) أنساب الأشراف : ٣ : ٤٢٢. تذكرة الخواص : ٢١٥.

(٢) اللهوف : ٢٤.

(٣) الوافي في المسألة الشرقيّة : ١ : ٤٣.

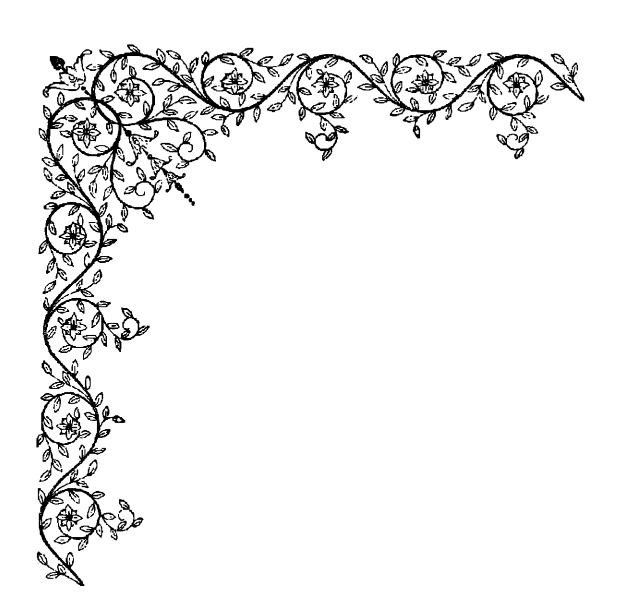
(٤) بحار الأنوار : ٤٤ : ٣٣٤. الدرّ المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء : ١ : ١٠٧ من مخطوطات مكتبة الإمام الحكيم قدس سره.

(٥) مع الحسين في نهضته : ١٥٧.

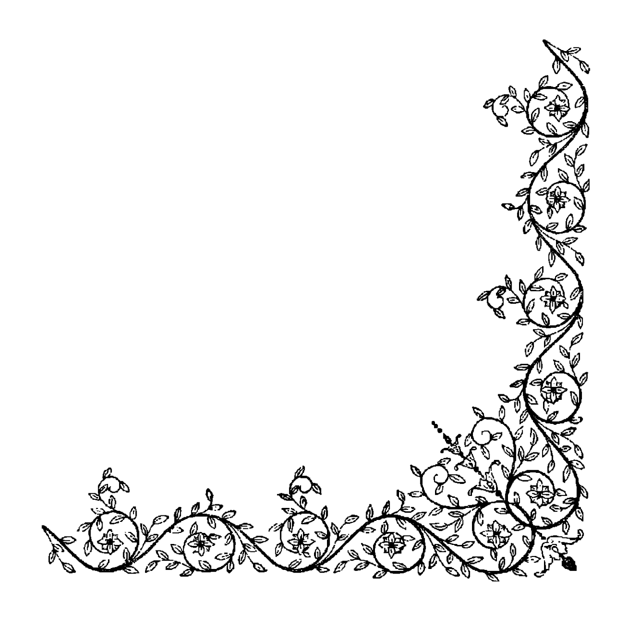
في الكوفة[١].

وهكذا شاءت المقادير ، ولا رادّ لأمر الله على نكث القوم لبيعة الإمام الحسين عليه السلام وإجماعهم على حربه.

ويقول المؤرخون : إنّ الإمام الحسين عليه السلام بعدما وافته هذه الرسائل عزم على أن يلبّي نداءات أهل الكوفة ويوفد إليهم ممثله العظيم مسلم بن عقيل عليه السلام.



إيفادُ مُسلِمٍ إلى العِراقِ



وتتابعت كتب أهل الكوفة ـ كالسيل ـ إلى الإمام الحسين عليه السلام ، وهي تحثّه على المسير والقدوم إليهم لإنقاذهم من ظلم الأُمويين وعنفهم ، وكانت بعض تلك الرسائل تحمّله المسؤولية أمام الله والأُمة إن تأخّر عن إجابتهم .

ورأى الإمام الحسين عليه السلام قبل كلّ شيء أن يختار للقياهم سفيراً له يعرّفه باتجاهاتهم ، وصدق نياتهم ، فإن رأى منهم نية صادقة ، وعزيمة مصممة فيأخذ البيعة منهم ، ثمّ يتوجّه إليهم بعد ذلك ، وقد اختار لسفارته ثقته وكبير أهل بيته ، والمبرّز بالفضل فيهم مسلم بن عقيل عليه السلام (١) ، وهو من أفذاذ التاريخ ، ومن أمهر الساسة ، وأكثرهم قابلية على مواجهة الظروف ، والصمود أمام الأحداث . وعرض عليه الإمام القيام بهذه المهمّة فاستجاب له عن رضاً ورغبة ، وزوّده برسالة

---

(١) تزوّج مسلم عليه السلام رقية بنت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وأُمها تغلبيّة ، وكان خالد بن الوليد سباها في الردة من عين التمر ـ أي شفاثة ـ فاشتراها عليّ عليه السلام وتزوجها ، فأولدها عمر ورقية .

وكان من جملة السبي : التغلبية أم عمر الأطرف ، ووالد الحسن البصري ، وسيرين والد محمّد ابن سيرين ، وأبان والد حمران مولى المسيب ، وآخرون .

وكان عمر قد تخلف عن المسير إلى العراق مع أخيه الحسين عليه السلام ، وقد دعاه لذلك . يقال : لما بلغه قتل أخيه الحسين عليه السلام خرج بمعصفرات له ، وجلس بفناء داره ، وقال : أنا الغلام الحازم ، ولو خرجت معهم لذهبت في المعركة وقتلت . ويسمى عمر الأطرف تمييزاً بينه وبين عمر الأشرف ابن الإمام زين العابدين عليه السلام ـ بطل العلقمي : **٣ : ٥١٥ ـ ٥١٩** .

رويت بصور متعددة ، وهي :

الأُولى : رواها أبو حنيفة الدينوري ، وهذا نصّها :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

مِنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ إِلىٰ مَنْ بَلَغَهُ كَتابِي هٰذا مِنْ أَوْلِيائِهِ وَشِيعَتِهِ بِالْكُوفَةِ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .

أَمّا بَعْدُ ، فَقَدْ أَتَتْنِي كُتُبُكُمْ ، وَفَهِمْتُ ما ذَكَرْتُمْ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ لِقُدُومِي عَلَيْكُمْ ، وَإِنِّي باعِثٌ إِلَيْكُمْ بِأَخِي وَابْنِ عَمّي ، وَثِقَتِي مِنْ أَهْلِي مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ لِيَعْلَمَ لِي كُنْهَ أَمْرِكُمْ ، وَيَكْتُبَ إِلَيَّ بِما يَتَبَيَّنُ لَهُ مِنِ اجْتِماعِكُمْ .

فَإِنْ كانَ أَمْرُكُمْ عَلىٰ ما أَتَتْنِي بِهِ كُتُبُكُمْ ، وَأَخْبَرَتْنِي بِهِ رُسُلُكُمْ أَسْرَعْتُ الْقُدُومَ إِلَيْكُمْ إِنْ شاءَ اللهُ ، وَالسَّلَامُ[١] .

الثانية : رواها صفي الدين ، وقد جاء فيها بعد البسملة :

أَمّا بَعْدُ ، فَقَدْ وَصَلَتْنِي كُتُبُكُمْ ، وَفَهِمْتُ ما اقْتَضَتْهُ آراؤُكُمْ ، وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ ثِقَتِي وَابْنَ عَمِّي مُسْلِمَ بْنَ عَقِيلٍ ، وَسَأَقْدُمُ عَلَيْكُمْ وَشِيكاً في أَثَرِهِ إِنْ شاءَ اللهُ[٢] .

وهذه الرواية شاذة ؛ إذ لم يذكر فيها مهمّة مسلم عليه السلام في إيفاده إليهم من أخذ البيعة له ، وغير ذلك ممّا هو من صميم الموضوع في إرسال مسلم عليه السلام .

الثالثة : رواها الطبري ، وقد جاء فيها بعد البسملة :

مِنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَى الْمَلَأِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ . أَمّا بَعْدُ ، فَإِنَّ هانِئاً

---

(١) الأخبار الطوال : ٢٣٠ .

(٢) وسيلة المآل : ١٨٦ ، من مصورات مكتبة الإمام الحكيم قدس سره .

وَسَعِيداً[(١)] قَدِما عَلَيَّ بِكُتُبِكُمْ ، وَكانا آخِرَ مَنْ قَدِمَ عَلَيَّ مِنْ رُسُلِكُمْ ، وَقَدْ فَهِمْتُ كُلَّ الَّذِي اقْتَصَصْتُمْ وَذَكَرْتُمْ ، وَمَقالَةُ جُلِّكُم : إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْنا إمامٌ فَأَقْبِلْ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَجْمَعَنا بِكَ عَلَى الْهُدَىٰ وَالْحَقِّ .

وَقَدْ بَعَثْتُ لَكُمْ أَخِي وَابْنَ عَمِّي ، وَثِقَتِي مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ، وَأَمَرْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ إِلَيَّ بِحالِكُمْ وَأَمْرِكُمْ وَرَأْيِكُمْ ، فَإِنْ كَتَبَ إِلَيَّ أَنَّهُ قَدِ اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ وَذَوِي الْفَضْلِ وَالْحِجا مِنْكُمْ عَلىٰ مِثْلِ ما قَدِمَتْ عَلَيَّ بِهِ رُسُلُكُمْ ، وَقَرَأْتُ فِي كُتُبِكُمْ؛ أَقْدِمْ عَلَيْكُمْ وَشِيكاً إِنْ شاءَ اللهُ ، فَلَعَمْرِي مَا الْإِمامُ إِلَّا الْعامِلُ بِالْكِتابِ وَالْآخِذُ بِالْقِسْطِ وَالدّائِنُ بِالْحَقِّ ، وَالْحابِسُ نَفْسَهُ عَلىٰ ذاتِ اللهِ ، وَالسَّلَامُ[(٢)] .

وحفلت هذه الرسالة ـ حسب نصّ الطبري ـ بالأُمور التالية :

الأوّل: توثيق مسلمعليه السلام والتدليل على سمو مكانته ، فهو ثقة الحسينعليه السلام .

الثاني: تحديد صلاحية مسلمعليه السلام باستكشاف الأوضاع الراهنة ، ومعرفة التيارات السياسية ، ومدى صدق القوم في دعواهم ،ومن الطبيعي أنّه لا تناط معرفة هذه الأُمور الحساسة إلّا بمن كانت له المعرفة التامة بشؤون المجتمع وأحوال الناس .

الثالث: إنّه أوقف قدومه عليهم بتعريف مسلمعليه السلام له بإجماع الجماهير ورجال الفكر على بيعته ، فلا يقدم عليهم حتّى يعرّفه سفيره بذلك .

الرابع: إنّه تحدّث عمّا يجب أن يتّصف به الامام ، والقائد لمسيرة الأُمة من الصفات ، وهي :

١ ـ العمل بكتاب الله .

---

(١) هما : هانئ بن هانئ السبيعي ، وسعيد بن عبد الله الحنفي .

(٢) الإرشاد / المفيد : ٢ : ٣٩. بحار الأنوار : ٤٤ : ٣٣٤. تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٦١. الفتوح : ٥ : ٣٠ و ٣١. الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٦٧.

٢ ـ الأخذ بالقسط .

٣ ـ الإدانة بالحق .

٤ ـ حبس النفس على ذات الله .

ولم تتوفر هذه الصفات الرفيعة إلّا في شخصيته الكريمة التي تحكي اتجاهات الرسول صلى الله عليه وآله ونزعاته .

وتسلّم مسلم عليه السلام هذه الرسالة ، وقد أوصاه الإمام الحسين عليه السلام بتقوى الله ، وكتمان أمره[١] ، وغادر مسلم عليه السلام مكة ليلة النصف من شهر رمضان[٢] وعرّج في طريقه على يثرب فصلى في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وطاف بضريحه ، وودّع أهله وأصحابه[٣] ، وكان ذلك هو الوداع الأخير لهم ، واتجه صوب العراق وكان معه قيس بن مسهر الصيداوي ، وعمارة بن عبد الله السلولي ، وعبد الرحمن بن عبد الله الأزدي ، واستأجر من يثرب دليلين من قيس يدلانه على الطريق[٤] .

وسارت القافلة تجدّ في السير لا تلوي على شيء ، يتقدمها الدليلان وهما يتنكبان الطريق خوفاً من الطلب ، فضلّا عن الطريق ، ولم يهتديا له ، وقد أعياهما السير واشتد بهما العطش ، فأشارا إلى مسلم عليه السلام بسنن الطريق بعد أن بان لهما ، وتوفيا في ذلك المكان حسبما يقوله المؤرخون[٥] .

وسار مسلم عليه السلام مع رفقائه حتّى أفضوا إلى الطريق ، ووجدوا ماءً فأقاموا فيه ليستريحوا ممّا ألمّ بهم من عظيم الجهد والعناء .

---

(١) الإرشاد / المفيد : ٢ : ٣٩ . أنساب الأشراف : ٢ : ٣٣٤ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٦٧ .

(٢) مروج الذهب : ٣ : ٥٤ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك : ٤ : ٥٦٢ .

(٤) الإرشاد / المفيد : ٢ : ٣٩ . الأخبار الطوال : ٢٣٠ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٦٧ .

(٥) الإرشاد / المفيد : ٢ : ٤٠ .

رسالة مسلم عليه السلام للإمام الحسين عليه السلام

ويقول المؤرخون : إنّ مسلماً عليه السلام تخوّف من سفره وتطيّر بعد أن أصابه من الجهد وموت الدليلين ، فرفع للإمام الحسين عليه السلام رسالة يرجو فيها الاستقالة من سفارته ، وهذا نصّها :

« أمّا بعد ، فإنّي أقبلت من المدينة مع دليلين ، فجازا (١) عن الطريق فضلّا واشتد عليهما العطش فلم يلبثا أن ماتا ، وأقبلنا حتّى انتهينا إلى الماء فلم ننجُ إلّا بحشاشة أنفسنا ، وذلك الماء بمكان يدعى المضيق من بطن الخبت ، وقد تطيّرت من توجّهي هذا فإن رأيت أعفيتني منه ، وبعثت غيري ، والسلام » .

جواب الإمام الحسين عليه السلام

وكتب الإمام الحسين عليه السلام جواباً لرسالة مسلم عليه السلام ندد فيه بموقفه ، واتهمه بالجبن ، وهذا نصّه : **أَمّا بَعْدُ ، فَقَد خَشِيتُ أَلَّا يَكُونَ حَمَلَكَ عَلَى الْكِتابِ إِلَيَّ فـي الْإِسْتِعْفاءِ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي وَجَّهْتُكَ لَهُ إِلَّا الْجُبْنُ ، فَامْضِ لِوَجْهِكَ الَّذِي وَجَّهْتُكَ فِيهِ ، وَالسَّلامُ** (٢) .

أضواء على الموضوع

وأكبر الظن أنّ رسالة مسلم عليه السلام مع جواب الإمام الحسين عليه السلام من الموضوعات ، ولا نصيب لها من الصحة ، وذلك لما يلي :

---

(١) **جازا عن الطريق** : أي تركاه خلفهما ـ لسان العرب : ٢ : ٤١٦ ـ جوز .

(٢) الإرشاد / المفيد : ٢ : ٤٠ . بحار الأنوار : ٤٤ : ٣٣٥ . تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٦٢ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٦٧ .

وفي الحدائق الوردية ١ : ١١٧ : « خرج مسلم عليه السلام من مكّة حتّى أتى المدينة ، وأخذ منها دليلين فمرّا به في البرية فأصابهما عطش فمات أحد الدليلين ، فكتب مسلم رضي الله عنه إلى الحسين عليه السلام يستعفيه ، فكتب إليه الحسين عليه السلام : **أَنِ امْضِ إِلَى الْكُوفَةِ** » .

أوّلاً: إنّ مضيق الخبت الذي بعث منه مسلم عليه السلام رسالته إلى الإمام الحسين عليه السلام يقع ما بين مكة والمدينة حسبما نصّ عليه الحموي[١]، في حين أنّ الرواية تنصّ على أنّه استأجر الدليلين من يثرب، وخرجوا إلى العراق فضلّوا عن الطريق ومات الدليلان، ومن الطبيعي أنّ هذه الحادثة وقعت ما بين المدينة والعراق ولم تقع ما بين مكة والمدينة.

ثانياً: إنّه لو كان هناك مكان يدعى بهذا الاسم يقع ما بين يثرب والعراق لم يذكره الحموي فإنّ السفر منه إلى مكة ذهاباً وإياباً يستوعب زماناً يزيد على عشرة أيام، في حين أنّ سفر مسلم عليه السلام من مكة إلى العراق قد حدده المؤرخون فقالوا: إنّه سافر من مكة في اليوم الخامس عشر من شهر رمضان، وقدم إلى الكوفة في اليوم الخامس من شوال، فيكون مجموع سفره عشرين يوماً، وهي أسرع مدة يقطعها المسافر من مكة إلى الكوفة، فإنّ المسافة بينهما تزيد على ألف وستمائة كيلو متر، وإذا استثنينا من هذه المدة سفر رسول مسلم عليه السلام من ذلك المكان ورجوعه إليه، فإنّ مدة سفره من مكة إلى الكوفة تكون أقل من عشرة أيام، ويستحيل عادة قطع تلك المسافة بهذه الفترة من الزمن.

ثالثاً: إنّ الإمام الحسين عليه السلام اتّهم مسلماً ـ في رسالته ـ بالجبن، وهو يناقض توثيقه له من أنّه ثقته وكبير أهل بيته، والمبرّز بالفضل عليهم، ومع اتصافه بهذه الصفات كيف يتهمه بالجبن؟!

رابعاً: إنّ اتهام مسلم عليه السلام بالجبن يتناقض مع سيرته، فقد أبدى هذا البطل العظيم من البسالة والشجاعة النادرة ما يبهر العقول، فإنّه حينما انقلبت عليه جموع أهل الكوفة قابلها وحده من دون أن يعينه أو يقف إلى جنبه أيّ أحد، وقد أشاع في تلك الجيوش الكبيرة القتل ممّا ملأ قلوبهم ذعراً وخوفاً. ولمّا جيء به أسيراً إلى ابن زياد

---

(١) معجم البلدان: ٢: ٣٩٣.

لم يظهر عليه أيّ ذلّ أو انكسار.

ويقول فيه البلاذري: إنّه أشجع بني عقيل وأرجلهم[١]، بل هو أشجع هاشمي عرفه التاريخ بعد أئمة أهل البيت عليهم السلام.

إنّ هذا الحديث من المفتريات الذي وضع للحطّ من قيمة هذا القائد العظيم الذي هو من مفاخر الأُمة العربية والإسلامية.

في بيت المختار

وسار مسلم عليه السلام يطوي البيداء حتّى دخل الكوفة فاختار النزول في بيت المختار الثقفي[٢] وهو من أشهر أعلام الشيعة وأحد سيوفهم، ومن أحبّ الناس وأنصحهم للإمام الحسين عليه السلام.

لقد اختار مسلم عليه السلام النزول في بيت المختار دون غيره من زعماء الشيعة؛ وذلك لوثوقه بإخلاصه للإمام الحسين عليه السلام، وتفانيه في حبّه. كما أنّ هناك عاملاً آخر له أهميته، فقد كان المختار زوجاً لعمرة بنت النعمان بن بشير حاكم الكوفة[٣]، ولا شك أنّ يده لن تمتد إلى مسلم عليه السلام طالما كان مقيماً في بيت صهره المختار، وقد دلّ ذلك على إحاطة مسلم عليه السلام بالشؤون الاجتماعية.

وفتح المختار أبواب داره لمسلم، وقابله بمزيد من الحفاوة والتكريم، ودعا الشيعة إلى مقابلته، فأقبلوا إليه من كل حدب وصوب، وهم يظهرون له الولاء والطاعة.

---

(١) أنساب الأشراف: ٢: ٣٣٤.

(٢) الإرشاد / المفيد: ٢: ٤١. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٦٧.

وقيل: «نزل مسلم عليه السلام في بيت مسلم بن عوسجة». وقيل: «نزل في بيت هانئ بن عروة» ـ الإصابة: ٢: ١٥، وتهذيب التهذيب: ٢: ٣٠٢.

(٣) تاريخ الأُمم والملوك: ٥: ٢٢١ و ٢٢٢. الأغاني: ٩: ١٩٠ و ١٩١.

ابتهاج الكوفة

وعمّت الأفراح بمقدم مسلم عليه السلام جميع الأوساط الشيعية في الكوفة، وقد وجد منهم مسلم عليه السلام ترحيباً حاراً، وتأييداً شاملاً، وكان يقرأ عليهم رسالة الحسين عليه السلام وهم يبكون، ويبدون التعطش لقدومه، والتفاني في نصرته؛ لينقذهم من جور الأُمويين وظلمهم، ويعيد في مصرهم حكم الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام مؤسس العدالة الكبرى في الأرض، وكان مسلم عليه السلام يوصيهم بتقوى الله، وكتمان أمرهم حتّى يقدم إليهم الإمام الحسين عليه السلام.

البيعة للإمام الحسين عليه السلام

وانثالت الشيعة على مسلم عليه السلام تبايعه للإمام الحسين عليه السلام، وكانت صيغة البيعة الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسمة الغنائم بين المسلمين بالسوية، وردّ المظالم إلى أهلها، ونصرة أهل البيت عليهم السلام، والمسالمة لمن سالموا، والمحاربة لمن حاربوا، وقد شبّه السيد المقرم هذه البيعة ببيعة الأوس والخزرج للنبي صلى الله عليه وآله (١)، وكان حبيب بن مظاهر الأسدي يأخذ البيعة منهم للحسين عليه السلام (٢).

كلمة عابس الشاكري

وانبرى المؤمن الفذّ عابس بن شبيب الشاكري فأعرب لمسلم عن ولائه الشخصي واستعداده للموت في سبيل الدعوة، إلّا أنّه لم يتعهد له بأي أحد من أهل مصره، قائلاً: أمّا بعد، فإنّي لا أُخبرك عن الناس، ولا أعلم ما في أنفسهم،

---

(١) الشهيد مسلم بن عقيل: ١٤٥.

(٢) الحدائق الورديّة: ١: ١٢٥ من مخطوطات مكتبة الإمام كاشف الغطاء العامة.

وما أغرك منهم ، والله إنّي محدثك عمّا أنا موطّن عليه نفسي ، والله لأُجيبنكم إذا دعوتم ، ولأقاتلنّ معكم عدوكم ، ولأضربنّ بسيفي دونكم حتّى ألقى الله ، لا أريد بذلك إلّا ما عند الله .

وقد صدق عابس ما عاهد عليه الله ، فلم يخن ضميره ففدى بنفسه ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله واستشهد بين يديه في كربلاء .

وانبرى حبيب بن مظاهر فخاطب عابساً ، قائلاً له : رحمك الله ، فقد قضيت ما في نفسك بواجز من قولك ، وأنا واللهِ الذي لا إله إلّا هو على مثل ما أنت عليه .

واندفع سعيد الحنفي فأيّد مقالة صاحبيه[1] ، وهؤلاء الأبطال من أنبل من عرفهم التاريخ صدقاً ووفاءً ، فقد بذلوا أرواحهم بسخاء إلى الإمام الحسين عليه السلام ، واستشهدوا بين يديه في كربلاء .

إبعاد الانتهازيين

ولم يذكر لنا التاريخ دور الانتهازيين الذين كاتبوا الحسين عليه السلام ـ أمثال عمر بن سعد وغيره ـ مدة مكث مسلم عليه السلام بالكوفة ومبايعة الناس له ، ولعل مسلماً عزلهم عن التدخل في شؤون البيعة ، أو أنّهم يترقبون الأحداث ويتجسسون على الثورة ليراسلوا فاجر الشام بما يحدث .

عدد المبايعين

وتسابقت جماهير الكوفة إلى بيعة الإمام الحسين عليه السلام على يد سفيره مسلم بن عقيل عليه السلام ، وقد اختلف المؤرخون في عدد من بايعه ، وهذه بعض الأقوال :

الأوّل: أربعون ألفاً[2] .

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٦٣ .

(٢) شرح شافية أبي فراس : ١ : ٩٠ ، من مصورات مكتبة الإمام الحكيم قدس سره . مثير الأحزان : ١١ .

الثاني: ثلاثون ألفاً ، ومن بينهم حاكم الكوفة النعمان بن بشير[١].

الثالث: ثمانية وعشرون ألفاً[٢].

الرابع: ثمانية عشر ألفاً ، حسبما جاء في رسالة مسلم عليه السلام إلى الحسين عليه السلام يقول فيها: « وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً فعجّل الإقبال »[٣].

الخامس: اثنا عشر ألفاً[٤].

رسالة مسلم عليه السلام للإمام الحسين عليه السلام

وازداد مسلم عليه السلام إيماناً ووثوقاً بنجاح الدعوة حينما بايعه ذلك العدد الهائل من أهل الكوفة ، فكتب للإمام الحسين عليه السلام رسالة يستحثّه فيها على القدوم إليهم ، وكان قد كتبها قبل شهادته ببضع وعشرين ليلة[٥] ، وهذا نصها:

« أمّا بعد ، فإنّ الرائد لا يكذب أهله ، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً[٦] ، فعجّل حين يأتيك كتابي ، فإنّ الناس كلهم معك ليس لهم في آل معاوية

---

(١) شرح الأخبار: ٣: ١٤٧. روضة الأعيان في أخبار مشاهير الزمان / محمّد بن أبي بكر (المتوفى سنة ٧٣٠ هـ): ٦٧ ، من مصورات مكتبة الإمام الحكيم قدس سره العامّة. جواهر المطالب: ٢: ٢٦٥ ، وجاء فيه: « أنّ النعمان قال: يا أهل الكوفة ، ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله أحبّ إليكم من ابن بنت بحدل ».

(٢) تاريخ أبي الفداء: ١: ٢٦٤.

(٣) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٨٠. سير أعلام النبلاء: ٣: ٢٩٩. البداية والنهاية: ٨: ١٥٤.

(٤) مروج الذهب: ٣: ٥٤. الصراط السوي في مناقب آل النبيّ: ٨٦ من مصورات مكتبة الإمام الحكيم قدس سره العامّة. تهذيب التهذيب: ٢: ٣٠٢. الإصابة: ٢: ١٥. الحدائق الورديّة: ١: ١١٧.

(٥) أنساب الأشراف: ٣: ٣٧٨.

(٦) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٨٠.

وفي رواية البلاذري: « إنّ جميع أهل الكوفة معك » ـ أنساب الأشراف: ٣: ٣٧٨.

رأي ولا هوىً »[١].

لقد كتب مسلم عليه السلام هذه الرسالة لأنّه لم يرَ أيّة مقاومة لدعوته ، وإنّما رأى إجماعاً شاملاً على بيعة الإمام الحسين عليه السلام ، وتلهفاً حاراً لرؤيته ، وحمل الكتاب جماعة من أهل الكوفة ، وعليهم البطل العظيم عابس الشاكري .

وقدم الوفد مكة المكرمة ، وسلّم الرسالة إليه ، وقد استحثّوه على القدوم إلى الكوفة ، وذكروا إجماع أهلها على بيعته ، وما لاقاه مسلم عليه السلام من الحفاوة البالغة منهم ، وعند ذلك تهيأ الإمام الحسين عليه السلام إلى السفر للكوفة .

موقف النعمان بن بشير

كان موقف النعمان بن بشير[٢] من الثورة موقفاً يتّسم باللين والتسامح ، وقد اتهمه الحزب الأُموي بالضعف ، أو التضاعف في حفظ مصلحة الدولة والاهتمام بسلامتها فأجابهم : لئن أكون ضعيفاً وأنا في طاعة الله أحبّ إليّ من أن أكون قوياً في معصية

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٨٠ .

(٢) **النعمان بن بشير الأنصاري الخزرجي :**

كان قد ولّاه معاوية الكوفة بعد عبد الرحمن بن الحكم ، وكان عثمانيّ الهوى يجاهر ببغض عليّ عليه السلام ويسيء القول فيه ، وقد حاربه يوم الجمل وصفّين ، وسعى بإخلاص لتوطيد الملك إلى معاوية ، وهو الذي قاد بعض الحملات الإرهابية على بعض المناطق العراقية .

ويقول المحققون : إنّه كان ناقماً على يزيد ، ويتمنّى زوال الملك عنه شريطة ألّا تعود الخلافة لآل عليّ .

ومن الغريب في شأن هذا الرجل أنّ يزيد لمّا أوقع بأهل المدينة وأباحها لجنده ثلاثة أيام لم يثأر النعمان لكرامة وطنه وقومه .

وفي الإصابة : ٦ : ٢٤٠ : « أنّه لمّا هلك يزيد دعا النعمان إلى ابن الزبير ، ثمّ دعا إلى نفسه فقاتله مروان فقتل ، وذلك في سنة (٦٥هـ) ، وكان شاعراً مجيداً ، له ديوان شعر » .

الله ، وما كنت لأهتك ستراً ستره الله[١] .

وقد أعطى الشيعة بموقفه هذا قوة ، وشجّعهم على العمل ضد الحكومة علناً ، ولعلّ سبب ذلك يعود لأمرين :

الأوّل : إنّ مسلم بن عقيل عليه السلام كان ضيفاً عند المختار وهو زوج ابنته عمرة فلم يعرض للثوار بسوء رعاية للمختار .

الثاني : إنّ النعمان كان ناقماً على يزيد ؛ وذلك لبغضه للأنصار فقد أغرى الأخطل الشاعر المسيحي في هجائهم فثأر لهم النعمان كما أشرنا إلى ذلك في البحوث السابقة ، ولعلّه لهذا ولغيره لم يتخذ النعمان أيّ إجراء مضاد للثورة .

خطبة النعمان

وأعطى النعمان للشيعة قوة في ترتيب الثورة وتنظيمها ، وهيأ لهم الفرص في إحكام قواعدها ممّا ساء الحزب الأُموي ، فأنكروا عليه ذلك ، وحرّضوه على ضرب الشيعة ، فخرج النعمان وصعد المنبر فأعلن للناس سياسته المتّسمة بالرفق ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

« أمّا بعد ، فاتقوا الله عباد الله ، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة فإنّ فيهما تهلك الرجال وتسفك الدماء ، وتغصب الأموال . إنّي لم أُقاتل من لم يقاتلني ، ولا أثب على من لا يثب عليّ ، ولا أُشاتمكم ، ولا أتحرّش بكم ، ولا آخذ بالقرف[٢] ولا الظنّة ولا التهمة ، ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لي ، ونكثتم بيعتكم ، وخالفتم إمامكم فوالله الذي لا إله إلّا هو لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ، ولو لم يكن لي منكم ناصر ، أما إنّي أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر

---

(١) تجارب الأُمم : ٢ : ٤٢ . تهذيب التهذيب : ٢ : ٣٠٢ . سير أعلام النبلاء : ٣ : ٣٠٦ .

(٢) **القرف** : التهمة ـ لسان العرب : ١١ : ١٢٦ ـ قَرَفَ .

ممّن يرديه الباطل »[١].

وليس في هذا الخطاب أيّ ركون إلى وسائل العنف والشدّة ، وإنّما كان فيه تحذير من مغبة الفتنة وحبٌّ للعافية ، وعدم التعرض لمن لا يثب على السلطة ، وعدم أخذ الناس بالظنّة والتهمة كما كان يفعل زياد بن أبيه والي العراق .

وعلّق أنيس زكريا على خطاب النعمان بقوله : « ولنا من خطبه ـ أي خطب النعمان ـ في الكوفة برهان آخر على أنّه كان يرى الفتنة يقظى ، ولابدّ أن تشتعل ، وأنّه لن يهاجم القائمين بها قبل أن يهاجموه ، فجعل لأنصارها قوة وطيدة الأركان ، ويداً فعّالة في ترتيب المؤامرة وتنظيمها على الأُسس المتينة »[٢].

سخط الحزب الأُموي

وأغضبت سياسة النعمان عملاء الحكم الأُموي ، فانبرى إليه عبد الله بن مسلم الحضرمي حليف بني أُمية ، فأنكر خطبته قائلاً : إنّه لا يصلح ما ترى إلّا الغشم[٣] ، إنّ هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأي المستضعفين[٤].

ودافع النعمان عن نفسه بأنّه لا يعتمد على أيّة وسيلة تبعده عن الله ، ولا يسلك طريقاً يتجافى مع دينه ، وقد استبان للحزب الأُموي ضعف النعمان ، وانهياره أمام الثورة .

اتصال الحزب الأُموي بدمشق

وفزع الحزب الأُموي من تجاوب الرأي العام مع مسلم عليه السلام واتساع نطاق الثورة ،

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٦٣ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٦٧ .

(٢) الدولة الأمويّة في الشام : ٤١ .

(٣) **الغشم** : الظلم ـ لسان العرب : ١٠ : ٧٥ ـ غَشَمَ .

(٤) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٦٣ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٦٧ . البداية والنهاية : ٨ : ١٥٥ .

في حين أنّ السلطة المحلية غضّت النظر عن مجريات الأحداث، وقد اتهمتها بالضعف أو بالتواطؤ مع الثوار، وقام الحزب الأُموي باتصال سريع بحكومة دمشق، وطلبوا منها اتخاذ الإجراءات الفورية قبل أن يتسع نطاق الثورة، ويأخذ العراق استقلاله، وينفصل عن التبعية لدمشق، ومن بين الرسائل التي وفدت على يزيد رسالة عبد الله الحضرمي، جاء فيها:

«أمّا بعد، فإنّ مسلم بن عقيل قدم الكوفة، وبايعته الشيعة للحسين بن عليّ، فإن كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً ينفذ أمرك، ويعمل مثل عملك في عدوك، فإنّ النعمان بن بشير رجل ضعيف أو هو يتضعّف»[١].

وتدعو هذه الرسالة إلى إقصاء النعمان عن مركزه، واستعمال شخص آخر مكانه قوي البطش ليتمكن من القضاء على الثورة، فإنّ النعمان لا يصلح للقضاء عليها، وكتب إليه بمثل ذلك عمارة بن الوليد بن عقبة، وعمر بن سعد.

وكان عمر بن سعد، وشمر بن ذي الجوشن، وشَبَث بن ربعي، وزحر بن قيس من جملة الأربعة والأربعين الذين شهدوا على حُجْر وأصحابه بالخروج عن الطاعة، حسب رغبة زياد، وتزلفاً للسلطة، فأودت بأرواحهم إلى جنة عرضها السماوات والأرض[٢].

فزع يزيد

وفزع يزيد حينما توافدت عليه رسائل عملائه في الكوفة بمبايعة أهلها للحسين عليه السلام، فراودته الهواجس، وظلّ ينفق ليله ساهراً يطيل التفكير في الأمر، فهو يعلم أنّ العراق مركز القوة في العالم الإسلامي، وهو يبغضه ويحقد على أبيه،

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٦٣ و ٥٦٤. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٦٧.

(٢) الغدير: ١١: ٤٨ و ٤٩.

فقد أصبح موتوراً منهم لما صبّوه عليه من الظلم والجور، وأنّ كراهية أهل العراق ليزيد لا تقل عن كراهيتهم لأبيه، كما أنّه على يقين أنّ الأغلبية الساحقة في العالم الإسلامي تتعطش لحكم الإمام الحسين عليه السلام ؛ لأنّه الممثل الشرعي لجدّه وأبيه، ولا يرضون بغيره بديلاً.

استشارته لسرجون الرومي

وأحاطت الهواجس بيزيد، وشعر بالخطر الذي يهدد ملكه فاستدعى سرجون الرومي، وكان مستودع أسرار أبيه، ومستشاراً سياسياً له، كما كان من أدهى الناس، فعرض عليه الأمر، وقال له: ما رأيك، إنّ حسيناً قد توجّه إلى الكوفة، ومسلم بن عقيل بالكوفة يبايع للحسين، وقد بلغني عن النعمان ضعف وقول سيّء، فما ترى مَن استعمل على الكوفة؟

وتأمّل سرجون، وأخذ يطيل التفكير، فقال له: أرأيت أنّ معاوية لو نشر أكنت آخذاً رأيه؟

فقال يزيد: نعم.

فأخرج سرجون عهد معاوية لعبيد الله بن زياد على الكوفة، وقال: هذا رأي معاوية وقد مات، وقد أمر بهذا الكتاب[١].

أمّا دوافع سرجون في ترشيح ابن زياد لولاية الكوفة فهي لا تخلو من أمرين:

الأوّل: إنّه يعرف قسوة ابن زياد وبطشه، وإنّه لا يقوى أحد على إخضاع العراق غيره، فهو وحده الذي يتمكّن من القضاء على الثورة بما يملك من وسائل الإرهاب والعنف.

الثاني: إنّه قد دفعته العصبية القومية لهذا الترشيح فإنّ ابن زياد رومي النسب

---

(١) الكامل في التاريخ: ٣: ٢٦٨.

وسرجون رومي ؛ فلذا اختاره .

ولاية ابن زياد على الكوفة

وكان يزيد ناقماً على ابن زياد أشدّ ما تكون النقمة ، وأراد عزله عن البصرة[١] ؛ وذلك لمعارضة أبيه في البيعة له ، إلّا أنّه استجاب لرأي سرجون فقد رأى فيه الحفاظ على مصلحة دولته ، فعهد له بولاية الكوفة والبصرة ، وبذلك فقد خضع العراق بأسره لحكمه ، وكتب إليه هذه الرسالة :

« أمّا بعد ، فإنّه كتب إلي شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أنّ ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع لشقّ عصا المسلمين ، فَسِرْ حين تقرأ كتابي هذا حتّى تأتيَ الكوفة فتطلب ابن عقيل كطلب الخرزة حتّى تثقفه فتوثقه أو تقتله أو تنفيه ، والسلام »[٢] .

وأشارت هذه الرسالة إلى مدى قلق السلطة في دمشق وفزعها من مسلم بن عقيل عليه السلام ، وقد شددت على ابن زياد في الإسراع بالسفر إلى الكوفة لإلقاء القبض عليه . وتنصّ بعض المصادر أنّ يزيد كتب إلى ابن زياد : « إن كان لك جناحان فَطِرْ إلى الكوفة »[٣] ، وهذا مما ينبئ عن الخوف الذي ألمّ بيزيد من الثورة في العراق .

وحمل مسلم بن عمرو الباهلي العهد لابن زياد بولاية الكوفة مع تلك الرسالة .

ويقول المؤرخون : إنّ الباهلي كان من عيون بني أُمية في الكوفة ومن أهمّ عملائهم ، كما كان من أجلاف العرب ، وهو الذي ظنّ على مسلم عليه السلام أن يشرب جرعة من الماء حينما جيء به أسيراً إلى ابن زياد .

وكم لهذا الجلف الباهلي من موقف مخزٍ ، فإنّه لما اشتدّ النزاع بين ابن زياد

---

(١) البداية والنهاية : ٨: ١٥٥ .

(٢) تاريخ الأُمم والملوك : ٤: ٥٦٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء : ٣: ٢٩٩ .

وهانئ طلب من ابن زياد أن ينفرد بهانئ ، ولما خلا به أخذ يرجح له تسليم مسلم عليه السلام لابن زياد ، وأنّه ابن عمّ القوم ليسوا بضارّيه ، ولكنّ هانئاً لم ينخدع بقوله ، وراح مصمماً على رأيه وحمايته لضيفه وذماره ، ولكن الباهلي لا يعبأ بالخزي والعار لمواقفه المخزية .

وتسلّم ابن زياد من الباهلي العهد له بولاية الكوفة ، وقد طار فرحاً ، فقد تمّ له الحكم على جميع أنحاء العراق بعد ماكان مهدداً بالعزل عن ولاية البصرة ، وقد سرّ بما خولته دمشق من الحكم المطلق على العراق ، وبما سوّغت له من استعمال الشدّة والقسوة وسفك الدماء لكل من لا يدخل في طاعة يزيد أو يشترك بأيّة مؤامرة ضدّه ، وكان هذا التفويض المطلق في استعمال القسوة على الناس ممّا يتفق مع رغبات ابن زياد وميوله ، فقد كان من عوامل استمتاعاته النفسية حبّ الجريمة والإساءة إلى الناس ، وعدم التردد في سفك الدماء .

خطبة ابن زياد في البصرة

وتهيأ ابن زياد لمغادرة البصرة والتوجّه إلى الكوفة ، وقبل مغادرته لها جمع الناس ، وخطب فيهم خطاباً قاسياً جاء فيه :

« إنّ أميرالمؤمنين يزيد ولّاني الكوفة ، وأنا غادٍ إليها الغداة ، فوالله إنّي ما تقرن بي الصعبة ، ولا يُقَعقَع لي بالشِّنان[١] ، وإنّي لَنِكلٌ لمن عاداني ، وسَمٌّ لمن حاربني ، فقد أنصف القارة من راماها .

يا أهل البصرة ، قد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبي سفيان ، وإيّاكم

---

(١) **الشِّنان** : القربة البالية الصغيرة .

وفي المثل : « ما يُقعقعُ لَهُ بالشنان » يضرب لمن لا يتّضع لحوادث الدهر ، ولا يروعه ما لا حقيقة له ـ القاموس المحيط : **٩٧٤** ـ قَععَ ، و : **١٥٦١** ـ شَنَنَ . الأمثال : **٢ : ٢٦١** .

والخلاف والإرجاف ، فوالله الذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعرينه[١] ووليه ، ولآخذنّ الأدنى بالأقصى حتّى تسمعوا لي ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق ، أنا ابن زياد أشبهته بين من وطأ الحصى ، ولم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم »[٢].

فما أهون سفك الدماء عند أُولئك البرابرة الوحوش من ولاة بني أُمية ، لقد تحدّث الطاغية عن نفسيته الشريرة التي توغلت في الإثم ، فهو يأخذ البريء بالسقيم ، والمقبل بالمدبر ، والأدنى بالأقصى ، ويقتل على الظنّة والتهمة كما كان يفعل أبوه زياد الذي أشاع القتل في ربوع العراق.

ولم يذكر توجّه الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة ، مخافة التحاق أهل البصرة به ، أو انتفاضة أهل البصرة عليه ؛ ولذا تهدد وتوعد.

وكان رجل بالبصرة من بني سعد من قادة جيش عبيدالله بن زياد قد سقط من السطح فانكسرت رجله ، فدخل عليه أبو قلابة[٣] فعاده ، فقال : أرجو أن يكون لك خيراً.

فقال له : يا أبا قلابة ، وأي خير في كسر رجليّ جميعاً ؟ فقال : ما ستر الله عليك أكثر ، فلما كان بعد ثلاث ورد عليه كتاب ابن زياد يسأله أن يخرج فيقاتل الحسين عليه السلام ، فقال له : قد أصابني ما أصابني !

ثمّ إنّه لم يكن إلاّ سبعة أيام حتّى وافى الخبر بقتل الحسين عليه السلام . فقال الرجل :

---

(١) **العرين** : الجماعة ـ لسان العرب : ٩ : ١٧٤ ـ عرن.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٦٥. الفتوح : ٥ : ٣٨. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ١٩٩.

(٣) **أبوقلابة** : عبدالله بن زيد بن عامر الجرمي البصري عالم بالقضاء والأحكام. الأعلام : ٤ : ٨٨.

رحم الله أبا قلابة لقد صدق أنّه كان خيراً لي[١].

بغض عبيدالله لآل البيت عليهم السلام

بنى عبيدالله بن زياد مساجد بالبصرة تقوم على بغض علي عليه السلام والوقيعة فيه، فبنى مسجد بني عدي، ومسجد بني مجاشع، ومسجد كان في العلافين على فرضة[٢] البصرة، ومسجد في الأزد[٣].

سفر الطاغية إلى الكوفة

وسار الرجس الخبيث من البصرة متّجهاً إلى الكوفة ليقترف أعظم موبقة لم يقترفها شقي غيره، وقد صحبه من أهل البصرة خمسمائة رجل فيهم عبد الله بن الحارث بن نوفل، وشريك بن عبدالله الأعور الحارثي[٤]، وهو من أخلص أصحاب الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، وقد صحب ابن زياد ليكون عيناً عليه، ويتعرّف على خططه، وقد صحب ابن زياد هذا العدد ليستعين بهم على بثّ الإرهاب، وإذاعة الخوف بين الناس والاتصال بزعماء الكوفة لصرفهم عن الثورة.

وعلى أيّة حال فقد أخذ ابن زياد يجدّ في السير لا يلوي على شيء قد واصل السير إلى الكوفة مخافة أن يسبقه الحسين عليه السلام إليها، وقد جهد أصحابه، وأعياهم المسير فسقط منهم جماعة منهم عبد الله بن الحارث فلم يعبأ بهم، ولمّا ورد القادسية سقط مولاه مهران، فقال له ابن زياد: إن أمسكت على هذا الحال فتنظر إلى القصر فلك مائة ألف.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ٢٨: ٣٠٧. تهذيب تاريخ مدينة دمشق: ٧: ٤٣٠.

(٢) **الفرضة**: مرفأ السفن.

(٣) الغارات: ٣٨٥.

(٤) تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٥٦٦.

فقال له مهران : لا والله لا أستطيع .

ونزل الطاغية فلبس ثياباً يمانية وعمامة سوداء وتلثّم ؛ ليوهم من رآه أنّه الحسين عليه السلام وسار وحده فدخل الكوفة ممّا يلي النجف[1] ، وكان قلبه كجناح طائر من شدّة الخوف ، ولو كانت عنده مسكة من البسالة والشجاعة لما تنكّر وغيّر بزّته ، وأوهم على الناس أنّه الحسين عليه السلام ، وقد تذرّع الجبان بهذه الوسائل لحماية نفسه ، وتنصّ بعض المصادر أنّه حبس نفسه عن الكلام خوفاً من أن يعرفه الناس فتأخذه سيوفهم .

في قصر الإمارة

وأسرع الخبيث نحو قصر الإمارة[2] وقد علاه الفزع ، وساءه أشدّ ما يكون

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام / المقرّم : ١٧٠ .

(٢) **قصر الإمارة** : هو أقدم بناية حكومية شيّدت في الإسلام ، بناها سعد بن أبي وقاص ، وقد اندثرت معالمه ، كما اندثرت جميع معالم الكوفة ما عدا الجامع ، وقد اهتمّت مديرية الآثار العامّة في العراق بالتعرّف عليه ، فكشفت في مواسم مختلفة أُسسه ، وقد أظهرت نتائج الحفائر التي أُجريت عليه أنّه يتألف من سور خارجي يضم أربعة جدران تقريباً طولها ١٧٠ متراً ومعدل سمكها ٤ أمتار ، وتدعم كل ضلع من الخارج ستة أبراج نصف دائرية باستثناء الضلع الشمالي ، حيث يدعمها برجان فقط . والمسافة ما بين كل برج وآخر ٢٤ متراً و ٦٠ سنتمتراً ، وارتفاع هذا السور بأبراجه يصل إلى ما يقرب من عشرين متراً ، وقد بني القصر بناء محكماً ، وصمّمت هندسته على غاية حربية ليكون في حماية آمنة من كل غزو خارجي . جاء ذلك في تخطيط مدينة الكوفة للدكتور كاظم الجنابي : ١٣٥ ـ ١٥٥ .

وقد وقفت عليه غير مرّة ، وتطلّعت إلى كثير من معالمه ، ففي بعض أبوابه الرئيسية مظلّات لحرّاس القصر قد ردمت ولم يبقَ منها إلّا بعض معالمها ، وفي جانب منه بعض الغرف التي أُعدّت للسجن ، وقد صمّمت بشكل غريب ، وفي جانب منه مطابخ القصر ولم يشر الأُستاذ الجنابي إليها وقد أُحكم بناء القصر حتّى كان من المتعذّر ⇦

الاستياء من تباشير الناس وفرحهم بقدوم الإمام الحسين عليه السلام ، ولمّا انتهى إلى باب القصر وجده مغلقاً ، والنعمان بن بشير مشرف من أعلى القصر ، وكان قد توهّم أنّ القادم هو الحسين عليه السلام ؛ لأنّ أصوات الناس قد تعالت بالترحيب به والهتاف بحياته ، فانبرى يخاطبه : ما أنا بمؤدٍ إليك أمانتي يابن رسول الله ، ومالي في قتالك من إرب .

ولمس ابن مرجانة في كلام النعمان الضعف والانهيار ، فصاح به بنبرات تقطر غيظاً . افتح لافتحتَ ، فقد طال ليلك[1] .

ولمّا تكلم عرفه بعض من كان خلفه فصاح بالناس : إنّه ابن مرجانة وربّ الكعبة .

ومن الغريب أنّ ذلك المجتمع لم يميّز بين الإمام الحسين عليه السلام وبين ابن مرجانة ، مع أنّ كلاً منهما قد عاش فترة في ديارهم ، ولعلّ الذي أوقعهم في ذلك تغيير ابن زياد لبزّته ، ولبسه للعمامة السوداء .

وعلى أيّة حال فإنّ الناس حينما علموا أنّه ابن زياد جفلوا وخفّوا مسرعين إلى دورهم وهم يتحدثون عمّا عانوه من الظلم والجور أيام أبيه ، وقد أوجسوا من عبيد الله الشرّ ، وبادر ابن زياد في ليلته فاستولى على المال والسلاح ، وأنفق ليله ساهراً قد جمع حوله عملاء الحكم الأُموي فأخذوا يحدّثونه عن الثورة ويعرّفونه بأعضائها البارزين ، ويضعون معه المخططات للقضاء عليها .

خطابه في الكوفة

وعندما انبثق نور الصبح أمر ابن مرجانة بجمع الناس في المسجد الأعظم ، فاجتمعت الجماهير ، وقد خيّم عليها الذعر والخوف ، وخرج ابن زياد متقلداً سيفه ومعتماً بعمامة ، فاعتلى أعواد المنبر ، وخطب الناس ، فقال : « أمّا بعد ، فإنّ

⇨ اقتحامه والاستيلاء عليه .

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٦٧ .

أميرالمؤمنين ـ أصلحه الله ـ ولّاني مصركم وثغركم وفيئكم ، وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدّة على مريبكم ، فأنا لمطيعكم كالوالد البرّ الشفيق ، وسيفي وسوطي على من ترك أمري ، وخالف عهدي فليبقِ امرؤ على نفسه ، الصدق ينبئ عنك لا الوعيد »[١].

وحفل هذا الخطاب بما يلي :

أوّلاً : إعلام أهل الكوفة بولايته على مصرهم ، وعزل النعمان بن بشير عنه .

ثانياً : تعريفهم أنّ حكومة دمشق قد عهدت له بالإحسان على من يتبع السلطة ولم يتمرّد عليها ، واستعمال الشدّة والقسوة على الخارجين عليها .

ولم يعرض ابن مرجانة في خطابه للإمام الحسين عليه السلام وسفيره مسلم عليه السلام خوفاً من انتفاضة الجماهير عليه وهو بعد لم يحكم أمره .

نشر الإرهاب

وعمد ابن زياد إلى نشر الإرهاب ، وإذاعة الخوف ، ويقول بعض المؤرخين : إنّه لما أصبح ابن زياد بعد قدومه إلى الكوفة صال وجال ، وأرعد وأبرق ، وأمسك جماعة من أهل الكوفة فقتلهم في الساعة[٢] ، وقد عمد إلى ذلك لإماتة الأعصاب ، وصرف الناس عن الثورة . فقد أحدث تهديد ابن زياد تحولاً غريباً ، فقد ظهرت قوة الحزب الأُموي للوجود بعد أن أشرفت على العدم .

وفي اليوم الثاني أمر بجمع الناس في المسجد ، وخرج إليهم بزيّ غير ما كان يخرج به ، فخطب فيهم خطاباً عنيفاً تهدد فيه وتوعّد ، فقد قال بعد حمد الله والثناء عليه : « أمّا بعد ، فإنّه لا يصلح هذا الأمر إلّا في شدّة من غير عنف ، ولين من غير

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٦٦ . مقاتل الطالبيّين : ١٠٠ .

(٢) الفصول المهمّة : ١٨٥ . وسيلة المآل : ١٨٦ .

ضعف ، وأن آخذ البريء بالسقيم ، والشاهد بالغائب ، والولي بالولي ».

فانبرى إليه رجل من أهل الكوفة يقال له : أسد بن عبد الله المرّي فردّ عليه : أيّها الأمير ، إنّ الله تبارك وتعالى يقول : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[١] إنّما المرء بجدّه ، والسيف بحدّه ، والفرس بشدّه ، وعليك أن تقول ، وعلينا أن نسمع ، فلا تقدّم فينا السيئة قبل الحسنة . وأُفحم ابن زياد ، فنزل عن المنبر ودخل قصر الإمارة[٢].

تحول مسلم عليه‌السلام إلىٰ دار هانئ

واضطر مسلم عليه‌السلام إلى تغيير مقرّه ، وإحاطة نشاطه السياسي بكثير من السرّ والكتمان ، فقد شعر بالخطر الذي داهمه حينما قدم الطاغية إلى الكوفة ، فهو يعلم بخبث هذا الوغد ، وأنّه لا يرجو لله وقاراً ولا يتحرج من اقتراف الإثم ، وقد أجمع أمره على مغادرة دار المختار ؛ لأنّه لم تكن عنده قوة تحميه ، ولم يكن يأوي إلى ركن شديد ، فالتجأ إلى دار هانئ بن عروة فهو سيد المصر وزعيم مراد ، وعنده من القوة ما يضمن حماية الثورة والتغلب على الأحداث . فقد كان فيما يقول المؤرخون : إذا ركب يركب معه أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل ، فإذا أجابتها أحلافها من كندة وغيرها كان في ثلاثين ألف دارع[٣] ، كما كانت له ألطاف وأيادٍ بيضاء على أُسرته ممّا جعلتهم يكنون له أعمق الودّ والإخلاص .

ومضى مسلم عليه‌السلام إلى دار هذا الزعيم العربي الكبير فرحّب به ، واستقبله بحفاوة بالغة ، وتنصّ بعض المصادر[٤] أنّه قد ثقل على هانئ استجارة مسلم عليه‌السلام به ، وعظم عليه أن يتّخذ داره معقلاً للثورة ، ومركزاً للتجمعات ضد الدولة ، فإنّه بذلك

---

(١) الأنعام ٦ : ١٦٤ .

(٢) الفتوح : ٥ : ٣٩ و ٤٠ .

(٣) مروج الذهب : ٣ : ٥٩ .

(٤) الأخبار الطوال : ٢٣٣ .

يعرّض نفسه للنقمة والبلاء ، إلّا أنّه استجاب لمسلم على كره خضوعاً للعادات العربية التي لا تطرد اللاجئ إليها وإن عانت من ذلك أعظم المصاعب والمشاكل .

والذي نراه أنّه لا صحة لذلك ، فإنّ مسلماً لو شعر منه عدم الرضا والقبول لما ركن إليه ، وتحرّج أشدّ ما يكون التحرّج من دخول داره ؛ وذلك لما توفرت في مسلم عليه السلام من الطاقات التربوية الدينية ، وما عرف به من الشمم والإباء الذي يبعده كل البعد من سلوك أيّ طريق فيه حرج أو تكلّف على الناس ، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ مسلماً لو لم يحرز منه التجاوب التام ، والإيمان الخالص بدعوته لما التجأ إليه في تلك الفترة العصيبة التي تحيط به .

إنّ من المؤكد أنّ هانئاً لم يستجب لحماية مسلم عليه السلام والدفاع عنه على كره أو حياء ، وإنّما استجاب له عن رضاً وإيمان بوحي من دينه وعقيدته .

وعلى أيّة حال فقد استقرّ مسلم عليه السلام في دار هانئ واتخذها مقرّاً للثورة ، وقد احتفى به هانئ ، ودعا القبائل لمبايعته ، فبايعه في منزله ثمانية عشر ألفاً [١] ، وقد عرّف مسلم عليه السلام هانئاً بشؤون الثورة ، وأحاطه علماً بدعاتها وأعضائها البارزين .

امتناع مسلم عليه السلام من اغتيال ابن زياد

وذهب معظم المؤرخين إلى أنّ شريك بن عبدالله الأعور مرض مرضاً شديداً في بيت هانئ بن عروة أو في بيته [٢] ، فانتهى خبره إلى ابن زياد فأرسل إليه رسولاً يعلمه أنّه آتٍ لعيادته ، فاغتنم شريك هذه الفرصة ، فقال لمسلم : إنّما غايتك وغاية شيعتك هلاك هذا الطاغية ، وقد أمكنك الله منه ، وهو صائر إليّ ليعودني ،

---

(١) الأخبار الطوال : ٢٣٥.

(٢) البداية والنهاية : ٨: ١٥٥ ، والمشهور بين المؤرخين أنّ شريكاً كان في بيت هانئ لا في بيته ، فقد كان مقيماً بالبصرة ، وجاء مع ابن زياد إلى الكوفة .

فقم فادخل الخزانة حتّى إذا اطمأن عندي فاخرج إليه فاقتله ، ثمّ صر إلى قصر الإمارة فاجلس فيه فإنّه لا ينازعك فيه أحد من الناس ، وإن رزقني الله العافية صرت إلى البصرة فكفيتك أمرها ، وبايع لك أهلها (١).

وكره هانئ أن يقتل ابن زياد في داره تمسكاً بالعادات العربية التي لا تبيح قتل الضيف والقاصد إليها في بيوتها (٢) ، فقال له : ما أحب أن يقتل في داري.

فقال له شريك : ولِمَ ؟ فوالله إنّ قتله لقربان إلى الله.

ولم يُعنَ شريك بهانئ والتفت إلى مسلم عليه‌السلام يحثّه على اغتيال ابن زياد قائلاً له : لا تقصّر في ذلك.

وبينما هم في الحديث وإذا بالضجّة على الباب ، فقد أقبل ابن مرجانة مع حاشيته ، فقام مسلم عليه‌السلام ودخل الخزانة مختفياً بها ، ودخل ابن زياد فجعل يسأل شريكاً عن مرضه ، وشريك يجيبه ، ولمّا استبطأ شريك خروج مسلم جعل يقول :

ما الانْتِظارُ بِسَلْمَى أنْ تُحَيُّوها   حَيُّوا سُلَيمَى وَحَيُّوا مَن يُحيّيها

كَأْسُ المَنيَّةِ بِالتَّعجِيلِ فَاسْقُوها (٣)

---

(١) الأخبار الطوال : ٢٣٤. مقاتل الطالبيين : ١٠١. الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٦٩ ، وذهب بعض المؤرخين إلى أنّ الذي دعا مسلماً لاغتيال ابن زياد هو هانئ بن عروة كما في الإمامة والسياسة : ٢ : ٥.

(٢) يشير إلى ذلك ما جاء في مقاتل الطالبيين : ١٠١ : « أنّ هانئاً استقبح قتل ابن زياد في داره ».

(٣) مقاتل الطالبيّين : ٩٨. وفي مقتل أبي مخنف : ٢٩ : « أنّه أنشد هذه الأبيات :

مَا الانْتِظَارُ بِسَلمى لَا تُحيُّوهَا   حَيّوا سُلَيمَى وَحَيُّوا مَنْ يُحَيّيها

هَلْ شِرْبَةٌ عَذْبَةٌ أُسقَى عَلَى ظَمَأٍ   وَلَوْ تَلِفْتُ وَكَانَتْ مُنْيَتي فِيهَا

فَإنْ أَحَسَّتْ سُليمى مِنكَ دَاهيةً   فَلَسْتَ تَأْمَنُ يَوماً مِنْ دَواهِيهَا »

وفي الفتوح : ٥ : ٤٢ والأخبار الطوال : ٢٣٤ : « أنّه أنشد هذا البيت :

مَا تَنظرونَ بِسَلْمَى عِندَ فُرصَتِها   فَقَد وَفىٰ وُدُّها وَاسْتَوْسَقَ الصَّرَمُ »

ورفع صوته ليُسمع مسلماً قائلاً : لله أبوك إسقنيها وإن كانت فيها نفسي[١].

وغفل ابن زياد عن مراده ، وظنّ أنّه يهجر ، فقال لهانئ : أيهجر ؟

قال : نعم ، أصلح الله الأمير لم يزل هكذا منذ أصبح[٢].

وفطن مهران مولى ابن زياد ـ وكان ذكياً ـ إلى ما دُبّر لسيده ، فغمزه ونهض به سريعاً ، فقال له شريك : أيها الأمير ، إنّي أُريد أن أُوصي إليك .

فقال له ابن زياد : إنّي أعود إليك .

والتفت مهران ـ وهو مذعور ـ إلى ابن زياد ، فقال له : إنّه أراد قتلك .

فبهر ابن زياد ، وقال : كيف مع إكرامي له ؟ ! ! وفي بيت هانئ ويد أبي عنده !

ولمّا ولّى الطاغية خرج مسلم عليه السلام من الحجرة ، فالتفت إليه شريك وقلبه يذوب أسىً وحسرات ، قال له : ما منعك من قتله ؟[٣].

فقال مسلم عليه السلام : منعني منه خلتان : إحداهما كراهية هانئ لقتله في منزله ، والأُخرى قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « **إنَّ الإيْمانَ قَيْدُ الْفَتْكِ** »[٤] ولا يفتك مؤمن .

فقال له شريك : أما والله لو قتلته لاستقام لك أمرك ، واستوسق لك سلطانك[٥].

---

(١) مقاتل الطالبيّين : ١٠١ .

(٢) الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٧٠ .

(٣) مقاتل الطالبيّين : ١٠٢ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٧٠ .

(٤) « وهذا الحديث النبوي المراد منه أنّ الإنسان المؤمن يمتنع لأجل إيمانه أن يسفك الدم الحرام طاعة لأمر الحمية ، وركوباً بالسنن الجاهلية ، فكان إيمانه قيد فتكه » ـ المجازات النبويّة : ٢٣٠ .

(٥) الأخبار الطوال : ٢٣٥ .

وفي الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٧٠ : « أنّ هانئاً قال لمسلم : لو قتلته لقتلت فاسقاً فاجراً كافراً غادراً .

⇦

ولم يلبث شريك بعد الحادثة إلّا ثلاثة أيام حتّى توفي ، فصلى عليه ابن زياد ودفنه بالثوية ، ولمّا تبين له ما دبّره له شريك طفق يقول : والله لا أُصلي على جنازة عراقيّ ، ولولا أنّ قبر زياد فيهم لنبشت شريكاً [١] .

أضواء على الموقف

ويتساءل الكثيرون من الناس عن موقف مسلم عليه السلام ، فيلقون عليه اللوم والتقريع ، ويحمّلونه مسؤولية ما وقع من الأحداث ، فلو اغتال الطاغية لأنقذ المسلمين من شرّ عظيم ، وما مُني المسلمون بتلك الأزمات الموجعة التي أغرقتهم في المحن والخطوب .

أمّا هذا النقد فليس موضوعياً ، ولا يحمل أيّ طابع من التوازن والتحقيق ؛ وذلك لعدم التقائه بسيرة مسلم عليه السلام ولا بواقع شخصيته ، فقد كان الرجل فذّاً من أفذاذ الإسلام في ورعه وتقواه وتحرّجه في الدين ، فقد تربّى في بيت عمّه أمير المؤمنين عليه السلام ، وحمل اتجاهاته الفكرية ، واتخذ سيرته المشرقة منهاجاً يسير على أضوائها في حياته ، وقد بنى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام واقع حياته على الحقّ المحض الذي لا التواء فيه ، وتحرّج أعظم ما يكون التحرّج في سلوكه ، فلم يرتكب أيّ شيء شذّ عن هدي الإسلام وواقعه ، وهو القائل : « **قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَها حاجِزٌ مِنْ تَقْوَى اللهِ** » [٢] .

وعلى ضوء هذه السيرة بنى ابن عقيل حياته الفكرية ، وتكاد أن تكون هذه السيرة هي المنهاج البارز في سلوك العلويين .

⇦ وذكر ابن نما : أنّ امرأة هانئ تعلّقت بمسلم ، وأقسمت عليه بالله ألّا يقتل ابن زياد في دارها ، فلمّا علم هانئ قال : يا ويلها قتلتني وقتلت نفسها ، والذي فرّت منه وقعت فيه .

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٧٠ . الأغاني : ٢١ : ٢٥١ .

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ٢ : ٣١٢ .

يقول الدكتور محمّد طاهر درويش : «كان للهاشميّين مجال يحيون فيه ، ولا يعرفون سواه ، فهم منذ جاهليتهم للرياسة الدينية ، قد طبعوا على ما توحي به من الإيمان والصراحة ، والصدق والعفّة ، والشرف والفضيلة والترفّع ، والخلائق المثالية والمزايا الأدبية ، والشمائل الدينية والآداب النبوية »[(١)].

إنّ مسلماً لم يقدم على اغتيال عدوّه الماكر ؛ لأنّ الإيمان قيد الفتك ، ولا يفتك مؤمن ، وعلّق هبة الدين على هذه الكلمة بقوله : «كلمة كبيرة المغزى ، بعيدة المدى ، فإنّ آل عليّ من قوة تمسكهم بالحقّ والصدق نبذوا الغدر والمكر حتّى لدى الضرورة ، واختاروا النصر الآجل بقوة الحقّ على النصر العاجل بالخديعة ، شنشنة فيهم معروفة عن أسلافهم ، وموروثة في أخلاقهم ، كأنّهم مخلوقون لإقامة حكم العدل والفضيلة في قلوب العرفاء الأصفياء ، وقد حفظ التاريخ لهم الكراسي في القلوب »[(٢)].

ويقول الشيخ أحمد فهمي : « فهذا عبيد الله بن زياد ، وهو من هو في دهائه ، وشدّة مراسه أمكنت مسلماً الفرصة منه إذ كان بين يديه ، ورأسه قريب المنال منه ، وكان في استطاعته قتله ولو أنّه فعل ذلك لحرم يزيد نفساً جبارة ، ويداً فتّاكة ، وقوة لا يستهان بها ، ولكنّ مسلماً متأثر بهدي ابن عمّه ، عاف هذا المسلك وصان نفسه من أن يقتله غيلة ومكراً »[(٣)].

إنّ مهمة مسلم عليه السلام التي عهد بها إليه هي أخذ البيعة من الناس والتعرف على مجريات الأحداث ، ولم يعهد إليه بأكثر من ذلك ، ولو قام باغتيال الطاغية لخرج عن حدود مسؤولياته ، على أنّ الحكومة التي جاء ممثلاً لها إنّما هي حكومة دينية تُعنى

---

(١) الخطابة في صدر الإسلام : ٢ : ١٣.

(٢) نهضة الحسين : ٦٢ و ٦٣.

(٣) ريحانة الرسول : ١٧٨.

قبل كل شيء بمبادئ الدين والالتزام بتطبيق سننه وأحكامه ، وليس من الإسلام في شيء القيام بعملية الاغتيال .

وقد كان أهل البيت عليهم السلام يتحرّجون أشدّ ما يكون التحرّج من السلوك في المنعطفات ، وكانوا ينعون على الأُمويين شذوذ أعمالهم التي لا تتفق مع نواميس الدين ، وما قام الإمام الحسين عليه السلام بنهضته الكبرى إلّا لتصحيح الأوضاع الراهنة وإعادة المنهج الإسلامي إلى الناس ، وماذا يقول مسلم عليه السلام للأخيار والمتحرّجين في دينهم لو قام بهذه العملية التي لا يقرّها الدين ؟ !

وعلى أيّة حال فقد استمسك مسلم عليه السلام بفضائل دينه وشرفه من اغتيال ابن زياد ، وكان تحت قبضته ، وإنّ من أهزل الأقوال وأوهنها القول بأنّ عدم فتكه به ناشئ عن ضعفه وخَوَره ، فإنّ هذا أمر لا يمكن أن يُصغى إليه ، فقد أثبت في مواقفه البطولية في الكوفة حينما غدر به أهلها ما لم يشاهد التاريخ له نظيراً في جميع مراحله ، فقد صمد أمام ذلك الزحف الهائل من الجيوش فقابلها وحده ، ولم تظهر عليه أيّة بادرة من الخوف والوهن ، فقد قام بعزم ثابت يحصد الرؤوس ويحطم الجيوش حتّى ضجّت الكوفة من كثرة من قتل منها ، فكيف يتهم بطل هاشم وفخر عدنان بالوهن والضعف ؟ ! !

المخططات الرهيبة

وأدّت المخططات الرهيبة التي صممها الطاغية إلى نجاحه في الميادين السياسية وتغلبه على الأحداث ، فبعد أن كانت الكوفة تحت قبضة مسلم عليه السلام انقلبت عليه رأساً على عقب ، فزجّ بها الماكر الخبيث إلى حرب مسلم عليه السلام ، والقضاء عليه ، ومن بين هذه المخططات :

١ ـ التجسس على مسلم عليه السلام

وأوّل بادرة سلكها ابن زياد هي التجسس على مسلم عليه السلام ، ومعرفة جميع نشاطاته السياسية والوقوف على نقاط القوة والضعف عنده ومن الموكّد أنّ للتجسس أهمية فعّالة في شلّ الحركات السرية والعلنية المناهضة للدولة ، وقد اتخذه الأُمويون أداة فعّالة لعرقلة كل حركة مناهضة لدولتهم ، وذلك منذ تأسيسها .

وقد اختار للقيام بهذه المهمة مولاه معقلاً ، وكان من صنائعه ، وتربّى في كنفه ، ودرس طباعه ، ووثق بإخلاصه ، وكان فطناً ذكياً ، فأعطاه ثلاثة آلاف درهم ، وأمره أن يتصل بالشيعة ، ويعرّفهم أنّه من أهل الشام ، وأنّه مولى لذي الكلاع الحميري ، وكانت الصبغة السائدة على الموالي هي الإخلاص لأهل البيت عليهم السلام ؛ ولذا أمره بالانتساب إلى الموالي حتّى ينفي الشك والريب عنه ، وقال له : إنّه إذا التقى بهم فليعرفهم بأنّه ممّن أنعم الله عليه بحبّ أهل البيت عليهم السلام ، وقد بلغه قدوم رجل إلى الكوفة يدعو للإمام الحسين عليه السلام ، وعنده مال يريد أن يلقاه ليوصله إليه حتّى يستعين به على حرب عدوّه ، ومضى معقل في مهمته فدخل الجامع ، وجعل يفحص ويسأل عمّن له معرفة بمسلم ، فأُرشد إلى مسلم بن عوسجة ، فانبرى إليه ، وهو يظهر الإخلاص والولاء للعترة الطاهرة قائلاً له : إنّي أتيتك لتقبض مني هذا المال ، وتدلّني على صاحبك لأُبايعه ، وإن شئت أخذت بيعتي قبل لقائي إياه[١] .

فقال ابن عوسجة : لقد سرّني لقاؤك إياي لتنال الذي تحبّ ، وينصر الله بك أهل بيت نبيه ، وقد ساءني معرفة الناس هذا الأمر منّي قبل أن يتمّ مخافة هذا الطاغية وسطوته ، ثمّ أخذ منه البيعة وأخذ منه المواثيق المغلّظة على النصيحة وكتمان الأمر[٢] وفي اليوم الثاني أدخله على مسلم عليه السلام فبايعه وأخذ منه المال وأعطاه إلى

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٤: ٥٦٩. الكامل في التاريخ : ٣: ٢٦٩.

(٢) الكامل في التاريخ : ٣: ٢٦٩.

أبي ثمامة الصائدي ـ وكان قد عيّنه لقبض المال ـ ليشتري بـه السـلاح والكـراع ، وكان معقل فيما يقول المؤرخون : أوّل من يدخل على مسلم عليه السلام ، وآخر من يخرج منه ، وجميع البوادر والأحداث التي تصدر ينقلها بتحفظ في المساء إلى ابن زياد[١] حتّى وقف على جميع أسرار الثورة .

مع أعضاء الثورة

والذي يواجه أعضاء الثورة من المؤاخذات ، ما يلي :

أوّلاً : إنّ معقلاً كان من أهل الشام الذي عرفوا بالبغض والكراهية لأهل البيت عليهم السلام والولاء لبني أُمية والتفاني في حبّهم ، فما معنى الركون إليه ؟

ثانياً : إنّ اللازم التريب حينما أعطى المـال لمسـلم بـن عـوسجة وهـو يـبكي ، فما معنى بكائه أو تباكيه ؟ أليس ذلك مما يوجب الريب في شأنه ؟

ثالثاً : إنّه حينما اتصل بهم كان أوّل داخل وآخر خارج ، فما معنى هذا الاستمرار والمكث الطويل في مقر القيادة العامة ؟ أليس ذلك ممّا يوجب الشك في أمره ؟

لقد كان الأولى بالقوم التحرز منه ، ولكن القوم قد خدعتهم المـظاهر المـزيفة ، ومن الحقّ أنّ هذا الجاسوس كان ماهراً في صناعته ، وخبيراً فيما انتدب إليه .

وعلى أيّة حال فإنّ ابن زياد قد استفاد من عملية التجسس أُموراً بالغة الخطورة ، فقد عرف العناصر الفعّالة في الثورة ، وعرف مواطن الضعف فيها ، وغير ذلك من الأُمور التي ساعدته في التغلّب على الأحداث .

٢ ـ رشوة الزعماء والوجوه

ووقف ابن زياد على نبض الكوفة ، وعرف كيف يستدرج أهلها فبادر إلى إرشاء

---

(١) الأخبار الطوال : ٢٣٦.

الوجوه والزعماء فبذل لهم المال بسخاء فاستمال ودّهم، واستولى على قلوبهم، فصارت ألسنتهم تكيل له المدح والثناء، وكانوا ساعده القوي في تشتيت شمل الناس وتفريق جموعهم عن مسلم عليه السلام.

لقد استعبدهم ابن مرجانة بما بذله من الأموال، فأخلصوا له ومنحوه النصيحة، وخانوا بعهودهم ومواثيقهم التي أعطوها لمسلم، وقد أخبر بعض أهل الكوفة الإمام الحسين عليه السلام عن هذه الظاهرة حينما التقى به في أثناء الطريق، فقال له: أمّا أشراف الناس فقد عظمت رشوتهم، وملئت غرائرهم، يستمال ودّهم، ويستخلص به نصيحتهم، وأمّا سائر الناس فإنّ أفئدتهم تهوي إليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك[(١)].

لقد تناسى الكوفيون كتبهم التي أرسلوها للإمام الحسين عليه السلام وبيعتهم له على يد سفيره من أجل الأموال التي أغدقتها عليهم السلطة، يقول بعض الكتّاب: «إنّ الجماعات التي أقامها النكير على بني أُمية، وراسلت الحسين عليه السلام وأكدت له إخلاصها، وذرفت أمام مسلم عليه السلام أعزّ دموعها هي الجماعات التي ابتاعها عبيد الله بن زياد بالدرهم والدينار، وقد ابتاعها فيما بعد مصعب بن الزبير فتخلوا عن المختار، وتركوه وحيداً يلقى حتفه، ثمّ اشتراها الخليفة الأُموي عبد الملك بن مروان فتخلوا عن مصعب، وتركوه يلقى مصيره على يد عبد الملك بن مروان»[(٢)].

٣ـ الإحجام عن كبس دار هانئ

وعلم الطاغية أنّ هانئاً هو العضو البارز في الثورة، فقد أطلعه الجاسوس الخطير معقل على الدور الفعّال الذي يقوم به هانئ في دعم الثورة، ومساندتها بجميع

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٦٠٧.

(٢) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي: ٦٩ و ٧٠.

قدراته ، وعرّفه أنّ داره أصبحت المركز العام للشيعة ، والمقر الرئيسي لسفير الحسين مسلم عليه‌السلام ، فلماذا لم يقم بكبسها وتطويقها بالجيش ليقضي بذلك على الثورة ؟ وإنّما أحجم عن ذلك لعجزه عسكرياً ، وعدم مقدرته على فتح باب الحرب ، فإنّ دار هانئ مع الدور التي كانت محيطة بها كانت تضم أربعة آلاف مقاتل ممّن بايعوا مسلماً بالإضافة إلى أتباع هانئ ومكانته المرموقة في المصر ، فلهذا لم يستطع ابن زياد من القيام بذلك نظراً للمضاعفات السيئة .

رسل الغدر

وأنفق ابن زياد لياليه ساهراً يطيل التفكير ، ويطيل البحث مع حاشيته في شأن هانئ ، فهو أعزّ مَنْ في المصر ، وأقوى شخصية يستطيع القيام بحماية الثورة ، ولا يدع مسلماً فريسة لأعدائه ، فإذا قضى عليه فقد استأصل الثورة من جذورها ، وقد أعرض عن إلقاء القبض عليه وتطويق داره ، فإنّ ذلك ليس بالأمر الممكن ، وقد اتفق رأيه على خديعته بإرسال وفد إليه من قبل السلطة يعرض عليه رغبة ابن زياد في زيارته ، فإذا وقع تحت قبضته فقد تمّ كلّ شيء ، ويكون تشتيت أتباعه ليس بالأمر العسير ، وشكّل وفداً لدعوته ، وهم :

١ ـ حسان بن أسماء بن خارجة زعيم فزارة .

٢ ـ محمّد بن الأشعث زعيم كندة ، وكان ابن زياد قد تزوّج ابنته عائشة حينما استعمله يزيد على الكوفة(١) .

٣ ـ عمرو بن الحجّاج ، وكانت روعة أخت عمرو بن الحجاج تحت هانئ بن عروة ، وهي أُم يحيى بن هانئ .

ولم يكن لحسان بن أسماء علم بالمؤامرة التي دبرت ضد هانئ ، وإنّما كان يعلم

---

(١) عيون الأخبار : ٤ : ٩٨ .

بها محمّد بن الأشعث وعمرو بن الحجاج ، وقد أمرهم ابن زياد أن يحملوا له عواطفه ورغبته الملحّة في زيارته ، ويعملوا جاهدين على إقناعه .

اعتقال هانئ رضي الله عنه

وأسرع الوفد إلى هانئ عشية فوجدوه جالساً على باب داره فسلموا عليه ، وقالوا له : ما يمنعك من لقاء الأمير فإنّه قد ذكرك ؟ وقال : لو أعلم أنّه شاكٍ لعدته) .

فقال لهم : الشكوى تمنعني .

وأبطلوا هذا الزعم وقالوا له : إنّه قد بلغه أنّك تجلس كلّ عشية على باب دارك ، وقد استبطأك ، والإبطاء والجفاء لا يحتمله السلطان ، أقسمنا عليك لما ركبت معنا .

وأخذوا يلحّون عليه في زيارته ، فاستجاب لهم وهو لا يعلم ما أضمرته له الأقدار .

ولا أدري كيف اقتنع هانئ أن يذهب معهم إلى ابن زياد ليلقي نفسه في الفخ مع قيامه بمناصرة مسلم عليه السلام الذي يريد قلب الحكم الأُموي وهو في ضيافته ؟ ! وهل من الحزم والحيطة أن يستجيب لرسل ابن زياد حتّى يأتي معهم إليه ، أو أنّ الأمر ليس من الخطورة في شيء ؟

كلا ثم كلا ، بل إنّ التدبير السياسي يقتضي ألاّ يجتمع معه إلاّ ومعه الخيل والسلاح ، وهو ذلك الزعيم المتبوع ؛ ليتمكن من التخلص منه إذا اقتضت الحاجة إليه كما صنع الإمام الحسين عليه السلام مع أمير المدينة ، ولكن لا راد لقضاء الله .

ثم إنّ هانئاً دعا بثيابه فلبسها ودعا ببغلة فركبها ، فلمّا كان قريباً من القصر أحسّت نفسه بالشرّ فعزم على الانصراف ، وقال لحسان بن أسماء : يابن الأخ ، إنّي والله لخائف من هذا الرجل فما ترى ؟ فقال حسّان : يا عم ، والله ما أتخوّف عليك شيئاً ولم تجعل على نفسك سبيلاً . وأخذ القوم يلحّون عليه حتّى أدخلوه على

ابن مرجانة، فاستقبله بعنف وشراسة، وقال: أتتك بحائنٍ رجلاه[١].

وكان شريح إلى جانبه، فقال له:

أُرِيــدُ حِـباءَهُ وَيُــريدُ قَــتلِي عُذَيركَ مِن خَلِيلِكَ مِنْ مُرادِ[٢]

وذعر هانئ فقال له: ما ذاك أيها الأمير؟

فصاح به الطاغية بعنف: إيه يا هانئ، ما هذه الأُمور التي تتربص في دارك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين؟ جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك، وجمعت له السلاح والرجال في الدور حولك، وظننت أن تلك الأُمور تخفى عليّ؟

فأنكر ذلك هانئ، وقال: ما فعلت ذلك وما مسلم عندي.

قال: بلى قد فعلت.

وطال النزاع واحتدم الجدال بينهما، فرأى ابن زياد أن يحسم النزاع، فدعا معقلاً الذي جعله عيناً عليهم، فلمّا مثل عنده قال لهانئ: أتعرف هذا؟

قال: نعم.

وسُقط في يد هانئ ساعة، وأطرق برأسه إلى الأرض، ولكن سرعان ما سيطرت شجاعته على الموقف، فانتفض كالأسد، وقال لابن مرجانة: قد كان الذي بلغك، ولن أُضيع يدك عندي، تشخص لأهل الشام أنت وأهل بيتك سالمين بأموالكم، فإنّه جاء حقّ من هو أحقّ من حقّك وحقّ صاحبك[٣].

---

(١) **الحائن**: الأحمق. مجمع الأمثال: ١: ٢١، المثل ٥٧. لسان العرب: ٣: ٣٢٤ ـ حَيَنَ.

(٢) الأغاني: ١٥: ١٦٦. والبيت لعمرو بن معدي كرب، وروي: «أُريد حياته...» كما في الكامل في التاريخ: ٤: ٢٨. تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٢٧٢.

(٣) مروج الذهب: ٣: ٥٧. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧١. سمط النجوم العوالي: ٣: ٦١. تاريخ الإسلام (حوادث ٤١ ـ ٦٠): ١٧١، ٣٠١. وروي كلامه بصورة أُخرى وهي تخالف ما رواه مشهور المؤرّخين.

فثار ابن زياد وصاح به: والله لا تفارقني حتّى تأتيني به.

وسخر منه هانئ، وأنكر عليه قائلاً له مقالة الرجل الشريف: لا آتيك بضيفي أبداً.

ولمّا طال الجدال بينهما انبرى إلى هانئ مسلمُ بن عمرو الباهلي وهو من خدّام السلطة، ولم يكن رجل في المجلس غريب غيره، فطلب من ابن زياد أن يختلي بهانئ ليقنعه فأذن له، فقام وخلا به ناحية بحيث يراهما ابن زياد ويسمع صوتهما إذا علا، وحاول الباهلي إقناع هانئ فحذّره من نقمة السلطان وأنّ السلطة لا تنوي السوء بمسلم قائلاً: يا هانئ، أنشدك الله أن تقتل نفسك، وتدخل البلاء على قومك، إنّ هذا الرجل ـ يعني مسلماً ـ ابن عمّ القوم، وليسوا بقاتليه، ولا ضائريه، فادفعه إليه فليس عليك بذلك مخزاة، ولا منقصة إنّما تدفعه إلى السلطان.

ولم يخفَ على هانئ هذا المنطق الرخيص، فهو يعلم أنّ السلطة إذا ظفرت بمسلم فسوف تنكّل به، ولا تدعه حيّاً وأنّ ذلك يعود عليه بالعار والخزي إن سلّم ضيفه وافد آل محمّد فريسة لهم، فأجابه قائلاً:

بلى والله عليَّ في ذلك أعظم العار أن يكون مسلم في جواري وضيفي وهو رسول ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا حيّ صحيح الساعدين كثير الأعوان، والله لو لم أكن إلّا وحدي لما سلّمته أبداً.

وحفل هذا الكلام بمنطق الأحرار الذين يهبون حياتهم للمُثل العليا ولا يخضعون لما يخل بشرفهم.

ولما يئس الباهلي من إقناع هانئ انطلق نحو ابن زياد فقال له: أيّها الأمير، قد أبى أن يسلّم مسلماً أو يقتل[١].

وصاح الطاغية بهانئ: أتأتيني به أو لأضربن عنقك؟

---

(١) الفتوح: ٥: ٤٧.

فلم يعبأ به هانئ، وقال: إذن تكثر البارقة حولك.

فثار الطاغية وانتفخت أوداجه، وقال: والهفا عليك، أبالبارقة تخوّفني؟[١].

وصاح بغلامه مهران وقال: خذه، فأخذ بضفيرتي هانئ، وأخذ ابن زياد القضيب فاستعرض به وجهه، وضربه ضرباً عنيفاً حتّى كسر أنفه، ونثر لحم خدّيه وجبينه على لحيته حتّى تحطّم القضيب وسالت الدماء على ثيابه، وعمد هانئ إلى قائم سيف شرطي محاولاً اختطافه ليدافع به عن نفسه فمنعه منه، فصاح به ابن زياد: أحروري أحللت بنفسك، وحل لنا قتلك.

وأمر ابن زياد باعتقاله في أحد بيوت القصر، واندفع حسّان بن أسماء بن خارجة وكان ممّن أمّن هانئاً وجاء به إلى ابن زياد، وقد خاف من سطوة عشيرته ونقمتهم عليه، فأنكر عليه ما فعله بهانئ، قائلاً: أرسله يا غادر، أمرتنا أن نجيئك بالرجل فلمّا أتيناك به هشّمت وجهه، وسيّلت دماءه وزعمت أنّك تقتله[٢].

وغضب منه ابن زياد فأوعز إلى شرطته بتأديبه فلهز وتعتع ثمّ ترك، وأمّا ابن الأشعث المتملق الحقير فجعل يحرّك رأسه ويقول ليسمع الطاغية: قد رضينا بما رأى الأمير لنا كان أم علينا، إنّما الأمير مؤدّب[٣].

ولا يهم ابن الأشعث ما اقترفه الطاغية من جريمة في سبيل تأمين مصالحه ورغباته.

انتفاضة مذحج

وانتهى خبر هانئ إلى أُسرته فاندفعت بتثاقل، فقاد جموعها الانتهازي الجبان

---

(١) **البارقة**: السيوف التي يلمع بريقها ـ لسان العرب: ١: ٣٨٢ ـ بَرَقَ.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٧٣. الفتوح: ٥: ٤٨. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧١.

(٣) الإرشاد / المفيد: ٢: ٥٠. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧١.

عمرو بن الحجّاج الذي لا عهد له بالشرف والمروءة ، فأقبل ومعه مذحج وهو يرفع عقيرته لتسمع السلطة مقالته قائلاً : أنا عمرو بن الحجّاج ، وهذه فرسان مذحج ووجوهها ، لم نخلع طاعة ولم نفارق جماعة[١] .

وحفل كلامه بالخنوع والمسالمة للسلطة وليس فيه اندفاع لإنقاذ هانئ ، ولذا لم يحفل به ابن زياد ، فالتفت إلى شريح القاضي فقال له : ادخل على صاحبهم فانظر إليه ، ثمّ اخرج إليهم فأعلمهم أنّه حيّ ، وخرج شريح فدخل على هانئ فلمّا بصر به صاح مستجيراً : يا للمسلمين ، أهلكت عشيرتي ؟ ! ! أين أهل الدين ؟ ! أين أهل المصر ؟ ! أيحذرونني عدوهم ؟[٢] .

وكان قد سمع الأصوات وضجيج الناس فالتفت إلى شريح[٣] قائلاً : يا شريح ، إنّي لأظنّها أصوات مذحج وشيعتي من المسلمين ، إنّه إن دخل عليَّ عشرة نفر أنقذوني[٤] .

وخرج شريح وكان عليه عين لابن زياد مخافة أن يدلي بشيء على خلاف رغبات السلطة فيفسد عليها أمرها ، فقال لهم : قد نظرت إلى صاحبكم وأنّه حيّ لم يقتل .

---

(١) اللهوف : ٣٣.

(٢) في رواية الطبري : « يخلّوني وعدوهم » . تاريخ الأُمم والملوك : ٤: ٥٧٣. الكامل في التاريخ : ٣: ٢٧١.

(٣) شريح القاضي ينتمي لإحدى بطون كندة . جاء ذلك في الإصابة : ٣: ٢٠٢.

وجاء في حياة الحيوان / الدميري : « أنّ شريحاً ظل قاضياً على الكوفة خمساً وسبعين سنة من عهد عمر بن الخطاب إلى عهد الحجاج ، وكان من أصل فارسي » .

(٤) الكامل في التاريخ : ٣: ٢٧١.

وجاء في تهذيب التهذيب : ٢: ٣٠٣: « إنّ هانئاً قال لشريح : يا شريح ، اتقِ الله فإنّه قاتلي » .

وبادر عمرو بن الحجّاج فقال: فأمّا إذ لم يقتل فالحمد لله[١].

وولوا منهزمين كأنّما أُتيح لهم الخلاص من السجن وهم يصحبون العار والخزي، وظلوا مثالاً للخيانة والجبن على امتداد التاريخ ـ وفيما أحسب ـ أنّ هزيمة مذحج بهذه السرعة وعدم تأكدها من سلامة زعيمها جاءت نتيجة اتفاق سرّي بين زعماء مذحج وبين ابن زياد للقضاء على هانئ، ولولا ذلك لنفرت مذحج حينما أُخرج هانئ من السجن في وضح النهار، ونفّذ فيه حكم الإعدام في سوق الحذائين.

وعلى أيّة حال فقد خلدت مذحج للذل، ورضيت بالهوان، وانبرى شاعر مجهول أخفى اسمه حذراً من نقمة الأُمويين وبطشهم فرثى هانئاً وندد بأُسرته محاولاً بذلك أن يثير في نفوسهم روح العصبية القبلية ليثأروا لقتيلهم، يقول:

إِذاكُنتِ لَا تَدرِينَ ما المَوتُ فانظُرِي ... إِلَى هانئٍ فِي السُّوقِ وَابْنِ عَقِيلِ
إِلَى بَطَلٍ قَد هَشَّمَ السَّيفُ وَجهَهُ ... وَآخرَ يَهوِي مِن طَمارِ قَتِيلِ[٢]
أصابَهُما أَمرُ الأَمِيرِ فَأَصْبَحا ... أَحادِيثَ مِن يَسرِي بِكُلِّ سَبيلِ[٣]
تَرَى جَسَداً قَدْ غَيَّر المَوتُ لَونَهُ ... وَنَضْحَ دَمٍ قَد سالَ كُلَّ مَسيلِ
فَتىً هُوَ أَحْيى مِن فَتاةٍ حَيِيَّةٍ ... وَأَقطعُ مِن ذِي شَفرَتَينِ صَقِيلِ
أَيَركَبُ أَسماءُ الهَمالِيجَ آمِناً ... وَقَدْ طَلَبَتَهُ مَذحِجٌ بِذُحُولِ[٤]
تَطوفُ حَوَالَيهِ مُرَادٌ وَكُلُّهُمْ ... عَلَى رِقْبةٍ مِن سائلٍ وَمَسُولِ

---

(١) الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧١.

(٢) **الطمار**: اسم لغرفة شيدت فوق قصر الإمارة، وفي أعلاها قتل مسلم بن عقيل، ورميت جثته إلى الأرض، وما ذكره ابن أبي الحديد أنّ الطمار هو الجدار فليس بصحيح.

(٣) وفي رواية: «أصابهما بغي الأمير».

(٤) **الهماليج** ـ جمع هملاج ـ: وهو نوع من البرذون ـ لسان العرب: ١٥: ١٣٦ ـ هملج.
الذحول ـ جمع ذحل ـ: طلب الثأر ـ لسان العرب: ٥: ٢٧.

فَــإِنْ أَنــتُمُ لَــمْ تَــثْأَرُوا بِــأَخِيكُمُ فَكُــونُوا بَــغايا أُرْضِــيَتْ بِــقَلِيلِ[1]

وعلّق الدكتور يوسف خليف على هذه الأبيات بقوله: واللحن هنا تأثّر عنيف، والتعبير فيه قوي صريح، بل تصل فيه الصراحة إلى درجة الجرأة، وشجّع الشاعر على هذه الجرأة أنّه كان في مأمن من بطش الأُمويين؛ لأنّه استطاع أن يخفي اسمه، حتّى أصبح شخصاً مختلفاً فيه عند بعض الرواة، ومجهولاً تماماً عند بعضهم، وهو في هذا اللحن لا يتحدث عن الحسين، ولا عن السياسة، وإنّما كلّ حرصه أن يثير روح العصبية القبلية في نفوس اليمنية ليثأروا لقتيلهم وهو ـ من أجل هذا ـ أغفل متعمداً من غير شكّ ذكر محمّد بن الأشعث اليمني، ولم يذكر إلّا أسماء بن خارجة الفزاري على أنّه هو المسؤول عن دم هانئ مع أنّ كليهما كان رسول ابن زياد إليه. ولكنّ الشاعر حرص على أن يغفل ذكر ابن الأشعث حتّى لا يثير فتنة أو انقساماً بين اليمنية، وهو في أشدّ الحاجة إلى أن يوحّد صفوفهم حتّى يدركوا ثأرهم.

واعتمد الشاعر في قصيدته على هذه الصورة المفزعة التي رسمها للقتيلين اللذين هشّم السيف وجه أحدهما وأُلقي بالآخر من أعلى القصر، واللذين أصبحا أحاديث للناس في كل مكان، وهو حريص في هذه الصورة على أن يعرض للناس منظرين رهيبين يثيران في نفوسهم كلّ عواطف الحزن والسخط والانتقام، منظر هذين الجسدين وقد غيّر الموت من لونهما، وهذا الدم الذي ينضح منهما ويسيل كل مسيل، ثمّ منظر أسماء بن خارجة وهو يختال في طرقات الكوفة على دوابه التي تتبختر به آمناً مطمئناً، ويسأل إلى متى سيظل هذا الرجل في أمنه وخيلائه

---

(١) في مروج الذهب: ٣: ٦٠ إنّها لشاعر مجهول. وكذلك في الأغاني: ١٤: ١٦١. وفي مقاتل الطالبيّين: ١٠٩، إنّها لعبد الله بن الزبير الأسدي. وكذلك في تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٢٨٥، وقيل: إنّها للفرزدق. وفي الأخبار الطوال: ٢٤٢ إنّها لعبد الرحمن بن الزبير الأسدي. وفي لسان العرب: ٨: ١٩٩، إنّها لسليم بن سلام الحنفي.

ومن حوله قبيلة القتيل تطالبه بالثأر ، فلا يجد أشدّ من طعنها في كرامتها ؟! فيقول لهم : إن لم تثأروا بقتيلكم فكونوا بغايا يبغى شرفهن بثمن بخس دراهم معدودات[(١)].

لقد تنكرت مذحج لزعيمها الكبير فلم توفِ له حقوقه فتركته أسيراً بيد ابن مرجانة يمعن في إرهاقه من دون أن تحرّك ساكناً في حين أنّها كانت لها السيادة والسيطرة على الكوفة كما يرى ذلك (فلهوزن).

وعلى أيّة حال فقد كان لاعتقال هانئ الأثر الكبير في ذيوع الفزع والخوف في نفوس الكوفيّين ممّا أدى إلى تفرق الناس عن مسلم عليه السلام وإخفاق الثورة.

ثورة مسلم عليه السلام

ولمّا علم مسلم عليه السلام بما جرى على هانئ بادر لإعلان الثورة على ابن زياد لعلمه بأنّه سيلقى نفس المصير الذي لاقاه هانئ ، فأوعز إلى عبد الله بن حازم أن ينادي في أصحابه وقد ملأ بهم الدور ، فاجتمع إليه أربعة آلاف[(٢)] ، أو أربعون ألفاً[(٣)] ، وهم ينادون بشعار المسلمين يوم بدر : يا منصور أمت[(٤)].

وقام مسلم عليه السلام بتنظيم جيشه ، فأسند القيادات العامة في الجيش إلى من عرفوا بالولاء والإخلاص لأهل البيت عليهم السلام ، وهم :

أوّلاً : عبيد الله بن عمرو بن عزير الكندي ، جعله على ربع كندة.

---

(١) حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة : ٤٦٣ و ٤٦٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب : ٤ : ٩٢. الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٧١.

(٣) تهذيب التهذيب : ٢ : ٣٠٣. تذهيب التهذيب / الذهبي : ١ : ١٥٠ ، من مصورات مكتبة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام.

(٤) هذا الشعار فيه تحريض للجيش على الموت في الحرب للتغلب على الأعداء ، وفيه تفاؤل بالنصر.

ثانياً: مسلم بن عوسجة، جعله على ربع مذحِج وأسد.

ثالثاً: أبو ثمامة الصائدي، جعله على ربع قبائل بني تميم وهمدان.

رابعاً: العباس بن جَعدة الجدلي، جعله على ربع المدينة.

واتجه مسلم عليه السلام بجيشه نحو قصر الإمارة فأحاطوا به[١]، وكان ابن زياد قد خرج من القصر ليخطب الناس على أثر اعتقاله لهانئ، فجاء إلى المسجد الأعظم فاعتلى أعواد المنبر، ثمّ التفت إلى أصحابه فرآهم عن يمينه وشماله وفي أيديهم الأعمدة وقد شهروا سيوفهم للحفاظ عليه.

فهدأ روعه وخاطب أهل الكوفة قائلاً: أمّا بعد، يا أهل الكوفة فاعتصموا بطاعة الله ورسوله، وطاعة أئمتكم ولا تختلفوا، ولا تفرقوا فتهلكوا وتذلّوا، وتندموا وتقهروا، فلا يجعلن أحد على نفسه سبيلاً، وقد أُعذر من أنذر[٢].

وما أتم الطاغية خطابه حتّى سمع الضجّة وأصوات الناس قد علت، فسأل عن ذلك فقيل له: الحذر، الحذر، هذا مسلم بن عقيل قد أقبل في جميع من بايعه[٣].

واختطف الرعب لونه، وسرت الرعدة بجميع أوصاله فأسرع الجبان نحو القصر وهو يلهث من شدّة الخوف، فدخل القصر، وأغلق عليه أبوابه[٤]، وامتلأ المسجد والسوق من أصحاب مسلم عليه السلام، وضاقت الدنيا على ابن زياد، وأيقن بالهلاك؛ إذ لم تكن عنده قوة تحميه سوى ثلاثين رجلاً من الشرط، وعشرين رجلاً من الأشراف الذين هم من عملائه، وقد تزايد جيش مسلم عليه السلام حتّى بلغ فيما يقول

---

(١) الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧١.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٧٤. الفتوح: ٥: ٤٩.

(٣) الفتوح: ٥: ٤٩. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ١: ٢٠٦.

(٤) أنساب الأشراف: ٢: ٣٣٨. تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٧٤. البداية والنهاية: ٨: ١٥٧.

بعض المؤرخين ثمانية عشر ألفاً[١]، وقد نشروا الأعلام وشهروا السيوف، وقد ارتفعت أصواتهم بقذف ابن زياد وشتمه، وجرى بين أتباع ابن زياد وبين جيش مسلم عليه السلام قتال شديد كما نصّ على ذلك بعض المؤرخين.

وأمعن الطاغية في أقرب الوسائل التي تمكنه من إنقاذ حكومته من الثورة فرأى أن لا طريق له سوى حرب الأعصاب ودعايات الإرهاب فسلك ذلك.

دعايات ابن زياد المناهضة

وأوعز الطاغية إلى جماعة من وجوه أهل الكوفة أن يبادروا ببث الذعر ونشر الخوف بين الناس، وقد انتدب للقيام بهذه المهمة الذوات التالية:

أوّلاً: كثير بن شهاب الحارثي.

ثانياً: القعقاع بن شَوْر الذُّهلي.

ثالثاً: شَبَث بن ربعي التميمي.

رابعاً: حجّار بن أبجر العجْلي.

خامساً: شمر بن ذي الجوشن الضبابي[٢].

وانطلق هؤلاء إلى صفوف جيش مسلم عليه السلام فأخذوا يشيعون الخوف، ويبثّون الأراجيف فيهم، ويظهرون لهم الإخلاص والولاء خوفاً عليهم من جيوش أهل الشام ـ مع العلم أنّ بعضهم ممّن كاتب الحسين عليه السلام كشَبَث وشمر ـ فكان ما قاله كثير بن شهاب: أيها الناس، الحقوا بأهاليكم، ولا تعجلوا الشر، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل، فإنّ هذه جنود أميرالمؤمنين ـ يعني يزيد ـ قد أقبلت، وقد أعطى الله الأمير ـ يعني ابن زياد ـ العهد لئن أقمتم على حربه، ولم تنصرفوا من عشيتكم أن يحرم ذريتكم

---

(١) أنساب الأشراف: ٢: ٣٣٨. تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٧٤. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧١.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٧٥. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧٢.

العطاء، ويفرّق مقاتلكم في مغازي أهل الشام من غير طمع، وأن يأخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتّى لا تبقى فيكم بقية من أهل المعصية إلّا أذاقها وبال ما جرّت أيديها [١].

وكان هذا التهديد كالصاعقة على رؤوس أهل الكوفة، فقد كان يحمل ألواناً قاسية من الإرهاب، وهي:

الأوّل: التهديد بجيوش أهل الشام، فقد زحفت إليهم، وهي ستشيع فيهم القتل والتنكيل إن بقوا مصرّين على المعصية والعناد.

الثاني: حرمانهم من العطاء، وقد كانت الكوفة حامية عسكرية تتلقى جميع مواردها الاقتصادية من الدولة.

الثالث: تجميرهم [٢] في مغازي أهل الشام، وزجّهم في ساحات الحروب.

الرابع: إنّهم إذا أصرّوا على التمرّد فإنّ ابن زياد سيعلن الأحكام العرفية ويسوسهم بسياسة أبيه التي تحمل شارات الموت والدمار حتّى يقضي على جميع ألوان الشغب والعصيان.

وقام بقية عملاء السلطة بنشر الإرهاب وإذاعة الذعر، وكان من جملة ما أذاعوه بين الناس: «يا أهل الكوفة، اتقوا الله ولا تستعجلوا الفتنة، ولا تشقّوا عصا هذه الأُمة، ولا توردوا على أنفسكم خيول الشام، فقد ذقتموها، وجربتم شوكتها».

أوبئة الفزع والخوف

وسرت أوبئة الخوف والفزع في نفوس الكوفيّين، وانهارت أعصابهم وكأنّ الموت قد خيّم عليهم، فجعل بعضهم يقول لبعض: ما نصنع بتعجيل الفتنة،

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٧٦.

(٢) **جمّر الجند**: أبقاهم في ثغر العدو ولم يقفلهم ـ لسان العرب: ٢: ٣٥١ ـ جَمَرَ.

وغداً تأتينا جموع أهل الشام، ينبغي لنا أن نقيم في منازلنا، وندع هؤلاء القوم حتّى يصلح الله ذات بينهم[١].

وكانت المرأة تأتي ابنها أو أخاها أو زوجها، وهي مصفرّة الوجه من الخوف فتتوسل إليه قائلة: الناس يكفونك[٢]، وكان الرجل يأتي إلى ولده وأخيه فيملأ قلبه رعباً وخوفاً ويقول له: ما لنا والدخول بين السلاطين.

وقد نجح ابن زياد في ذلك إلى حدّ بعيد، فقد تغلّب على الأحداث، وسيطر على الموقف سيطرة تامة، وقد خلع الكوفيون ماكانوا يرتدونه من ثياب التمرّد على بني أُمية ولبسوا ثياب الذلّ والعبودية من جرّاء ذلك الإرهاب الهائل والقسوة في الحكم، فكانت الدماء تترقرق بين العمائم واللحى.

هزيمة الجيش

ومُني جيش مسلمعليه‌السلام بهزيمة مخزية لم يحدث لها نظير في جميع فترات التاريخ، فقد هزمته الدعايات المضللة من دون أن تكون في قباله أيّة قوة عسكرية، ويقول المؤرخون: إنّ مسلماً كلّما انتهى إلى زقاق انسلّ جماعة من أصحابه، وفرّوا منهزمين وهم يقولون: مالنا والدخول بين السلاطين![٣].

ولم يمضِ قليل من الوقت حتّى انهزم معظمهم، وقد صلّى بجماعة منهم صلاة العشاء في الجامع الأعظم فكانوا يفرّون في أثناء الصلاة، وما أنهى ابن عقيل صلاته حتّى انهزموا بأجمعهم بما فيهم قادة جيشه، ولم يجد أحداً يدلّه على الطريق، وبقي حيراناً لا يدري إلى أين مسراه ومولجه؟![٤] وكان قد أُثخن بالجراح فيما يقوله

---

(١) الفتوح: ٥: ٥٠.

(٢) الإرشاد / المفيد: ٢: ٥٤. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧٢. تاريخ أبي الفداء: ١: ٢٦٤.

(٣) الدرّ المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء: ١: ١٠٨. الفوائد الرجاليّة: ٤: ٣٧.

(٤) الإرشاد / المفيد: ٢: ٥٤. بحار الأنوار: ٤٤: ٣٥٠. تاريخ الأُمم والملوك: ⇦

بعض المؤرّخين[١]، وقد أمسى طريداً مشرّداً لا مأوى يأوي إليه، ولا قلب يعطف عليه.

في ضيافة طوعة

وسار القائد العظيم سليل هاشم وفخر عدنان مُتَلَدِداً[٢] في أزقّة الكوفة وشوارعها، ومضى هائماً على وجهه في جهة كندة[٣] يلتمس داراً لينفق فيها بقية الليل، وقد خلت المدينة من المارة، وعادت كأنّها واحة موحشة، فقد أسرع كلّ واحد من جيشه وأعوانه إلى داره وأغلق عليه الأبواب مخافة أن تعرفه مباحث الأمن وعيون ابن زياد بأنّه كان مع ابن عقيل فتلقي عليه القبض.

وأحاطت بمسلم تيارات مذهلة من الهموم، وكاد قلبه أن ينفجر من شدّة الألم وعظيم الحزن، وقد هاله إجماع القوم على نكث بيعته وغدرهم به، واستبان له أنّه ليس في المصر رجل شريف يقوم بضيافته وحمايته أو يدلّه على الطريق، فقد كان لا يعرف مسالك البلد وطرقها، وسار وهو حائر الفكر خائر القوى حتّى انتهى إلى دار سيّدة يقال لها طوعة ـ هي سيدة من في المصر رجالاً ونساءً بما تملكه من إنسانية ونبل ـ وكانت أمّ ولد للأشعث بن قيس وقد أعتقها، فتزوجها أُسيد الحضرمي فولدت له بلالاً[٤]، وكانت السيدة واقفة على الباب تنتظر ابنها، وترتقب طلوعه

⇦ ٤: ٥٧٦. مقامات الحريري: ١: ١٩٢.

(١) الفتوح: ٥: ٥٠.

(٢) **تَلَدَّد**: تلفّت يميناً وشمالاً ـ لسان العرب: ١٢: ٢٦٣ ـ لدد.

(٣) الأخبار الطوال: ٢٣٩.

(٤) الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧٢.

وفي الفتوح: ٥: ٥٠: «أنّها كانت فيما مضى امرأة قيس الكندي، فتزوّجها رجل من بعده من حضرموت يقال له: أسد بن البطين، فأولدها ولداً يقال له: أسد».

للأحداث الرهيبة التي حلّت في المصر ، ولمّا رآها مسلمعليه السلام بادر إليها ، فسلّم عليها فردّت عليه السلام بتثاقل ، وقالت له : ما حاجتك ؟

قال : اسقيني ماءً.

فبادرت إلى دارها ، وجاءته بالماء ، فشرب منه ، ثمّ لم يبرح مكانه ، فاسترابت من أمره ، فقالت له : ألم تشرب الماء ؟

قال : بلى .

قالت : اذهب إلى أهلك ، إنّ مجلسك مجلس ريبة[١] .

وسكت مسلمعليه السلام ، فأعادت عليه القول بالانصراف وهو ساكت ، وكررت عليه القول ثالثاً فلم يجبها ، فذعرت منه وصاحت بـه : سبحان الله ! إنّي لا أُحلّ لك الجلوس على بابي .

ولمّا حرّمت عليه الجلوس لم يجد بُدّاً من الانصراف ، فقال لها بصوت خافت حزين النبرات : ليس لي في هذا المصر منزل ولا عشيرة ، فهل لك إلى أجر ومعروف ؟ ولعلّي أُكافئك بعد اليوم .

وشعرت المرأة بأنّ الرجل غريب ، وأنّه على شأن كبير ، وله مكانة عظمى يستطيع أن يجازيها على معروفها وإحسانها ، فبادرته قائلة : ما ذاك ؟

فقال لها وعيناه تفيضان دموعاً : أنا مسلم بن عقيل كذّبني القوم وغرّوني[٢] .

فقالت المرأة في دهشة وإكبار : أنت مسلم بن عقيل ؟

قال : نعم .

وانبرت السيدة بكل خضوع وتقدير فسمحت لضيفها الكبير بالدخول إلى

---

(١) الإرشاد / المفيد : ٢ : ٥٤ . مقاتل الطالبيّين : ١٠٤ و ١٠٥ . سير أعلام النبلاء : ٣ : ٣٠٧ .

(٢) الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٧٢ .

منزلها ، وقد حازت الشرف والمجد ، فقد آوت سليل هاشم ، وسفير ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وأدخلته في بيت في دارها غير البيت الذي كانت تأوي إليه ، وجاءته بالضياء والطعام ، فأبى أن يأكل ، فقد مزّق الأسى قلبه الشريف ، وأيقن بالرزء القاصم ، وتمثّلت أمامه الأحداث الرهيبة التي سيواجهها ، وكان أكثر ما يفكر به كتابه للحسين عليه السلام بالقدوم إلى الكوفة .

ولم يمضِ قليل من الوقت حتّى جاء بلال بن أُسيد[1] ابن السيدة طوعة ، فرأى أُمّه تكثر الدخول والخروج إلى ذلك البيت لتقوم برعاية ضيفها ، فأنكر عليها ذلك واستراب منه ، فسألها عنه فأنكرته فألحّ عليها فأخبرته بالأمر بعد أن أخذت عليه العهود والمواثيق بكتمان الأمر . وطارت نفس الخبيث فرحاً وسروراً ، وقد أنفق ليله ساهراً يترقّب بفارغ الصبر انبثاق نور الصبح ليخبر السلطة بمقام مسلم عليه السلام عندهم ، وقد تنكّر هذا الخبيث للأخلاق العربية التي تلزم بقرى الضيف وحمايته ، فقد كان هذا الخلق سائداً حتّى في العصر الجاهلي . وإنّا لنتخذ من هذه البادرة مقياساً عاماً وشاملاً لانهيار القيم الأخلاقية والإنسانية في ذلك المجتمع الذي تنكّر لجميع العادات والقيم العربية .

وعلى أيّة حال فقد طوى مسلم عليه السلام ليلته حزيناً ، قد ساورته الهموم ، وتوسّد الأرق ، وكان فيما يقول المؤرخون : قد قضى شطراً من الليل في عبادة الله ما بين الصلاة وقراءة القرآن ، وقد خفق في بعض الليل فرأى عمّه أميرالمؤمنين عليه السلام فأخبره بسرعة اللحاق به ، فأيقن عند ذلك بدنو الأجل المحتوم منه .

تأكد الطاغية من فشل الثورة

ولمّا انهزمت جيوش أهل الكوفة ، وولّت الأدبار تصحب معها الخيانة والعار ،

---

(١) وزعموا أنّه كان شريداً من الناس . وقال بعضهم : كان يشرب مع أصحاب له ـ تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٧٧ .

وقد خلا الجامع الأعظم منهم ، لم يطمئن الطاغية الجبان من ذلك ، خوفاً من أن يكون ذلك مكيدة وخديعة ، فعهد إلى أذنابه بالتأكد من انهزام جيش مسلمعليه‌السلام ، وأمرهم بأن يشرفوا على ظلال المسجد لينظروا هل كمن أحد من الثوار فيه ؟ وأخذوا يدلون القناديل ، ويشعلون النار في القصب ، ويدلونها بالحبال فتصل إلى صحن الجامع ، وفعلوا ذلك بالظُلَّة التي فيها المنبر ، فلم يروا إنساناً ، فأخبروه بذلك ، فاطمئن بفشل الثورة وأيقن بالقضاء عليها (١) .

إعلان حالة الطوارئ

وأعلن الطاغية في الصباح الباكر حالة الطوارئ في جميع أنحاء المصر ، وقد شدّد على المدير العام لشرطته الحصين بن تميم (٢) بتنفيذ ما يلي :

أوّلاً : تفتيش جميع الدور والمنازل في الكوفة تفتيشاً دقيقاً للبحث عن مسلم (٣) .

ثانياً : الاحاطة بالطرق والسكك لئلا يهرب منها مسلمعليه‌السلام .

ثالثاً : الاعتقالات الواسعة لجميع المؤيدين للثورة ، وقد ألقت الشَرَطَةُ القبض على هؤلاء :

١ ـ عبد الأعلى بن يزيد الكلبي .

٢ ـ عمارة بن صلخب الأزدي .

٣ ـ عبد الله بن نوفل بن الحارث .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك : ٤ : ٥٧٧ .

(٢) لا يخفى على القارئ اللبيب أنّ الحصين اسم يحمله شخصان : أحدهما ابن تميم التميمي وهو على شرطة ابن زياد في الكوفة وقد قدم معه من البصرة ، وهو الذي اشترك في قتال الإمام الحسينعليه‌السلام . والآخر ابن نمير السكوني وهو شامي حارب به يزيد بن معاوية أهل المدينة ومكة ـ إبصار العين : ١٧ و ١٨ .

(٣) الأخبار الطوال : ٢٤٠ .

٤ ـ المختار بن أبي عبيد الثقفي.

٥ ـ الأصبغ بن نباتة.

٦ ـ الحارث الأعور الهمداني.

راية الأمان

وأوعز الطاغية إلى محمّد بن الأشعث أن يرفع راية الأمان، ويعلن إلى الملأ أنّ من انضم إليها كان آمناً، ولعل أسباب ذلك ما يلي:

١ ـ التعرف على العناصر الموالية لمسلم لإلقاء القبض عليها.

٢ ـ إعلان الانتصار والقضاء على الثورة.

٣ ـ شلّ حركة المقاومة، وإظهار سيطرة الدولة على جميع الأوضاع في البلاد.

ورفعت راية الأمان فسارع الكوفيون الذين كانوا مع مسلم عليه السلام إلى الانضمام إليها؛ لنفي التهمة وإظهار إخلاصهم للحكم القائم آنذاك.

اشتباه

ومن الغريب ما ذكره ابن قتيبة[١]، والحر العاملي[٢] من أنّ مسلماً كان في بيت المختار ثمّ خرج لحرب ابن زياد، وبعد فشل ثورته التجأ إلى بيت هانئ، فأجاره هانئ، وقال له: إنّ ابن زياد يدخل داري فاضرب عنقه، فامتنع مسلم عليه السلام من الفتك به، وقام ابن زياد باعتقال هانئ ثمّ أرسل شرطة لإلقاء القبض على مسلم عليه السلام فقاتلهم حتّى ضعف عن المقاومة فوقع أسيراً بأيديهم، وهذا الذي أفاداه لم يذهب إليه أحد من المؤرخين فإنّ تفصيل الحادثة حسبما ذكرناه، وما عداه فهو من الأقوال

---

(١) الإمامة والسياسة: ٢: ٤.

(٢) الدرّ المسلوك: ١: ١٠٨.

الشاذة التي نشأت من قلة التتبع.

خطبة ابن زياد

ولمّا أيقن الطاغية بفشل ثورة مسلم عليه السلام، وتفلل قواته المسلحة أمر بجمع الناس في الجامع، فتوافدت الجماهير، وقد خيّم عليها الذعر والخوف فجاء الطاغية، وهو يرعد ويبرق ويتهدد ويتوعد فصعد المنبر، فقال: «أيّها الناس، إنّ مسلم بن عقيل أتى هذه البلاد، وأظهر العناد، وشقّ العصا، وقد برئت الذمة من رجل أصبناه في داره، ومن جاء به فله ديّته، اتقوا الله عباد الله، وإلزموا طاعتكم وبيعتكم، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً، ومَن أتاني بمسلم بن عقيل فله عشرة آلاف درهم، والمنزلة الرفيعة من يزيد بن معاوية، وله في كل يوم حاجة مقضية»[١].

وحفل هذا الخطاب بالقسوة والصرامة، وفيه هذه النقاط التالية:

الأُولى: الحكم بالإعدام على كل من آوى مسلماً مهما كانت لذلك الشخص من مكانة اجتماعية في المصر.

الثانية: إنّ ديّة مسلم عليه السلام تكون لمن جاء به.

الثالثة: إنّ مَن ظفر بمسلم تمنحه السلطة عشرة آلاف درهم.

الرابعة: إنّ من يأتي به يكون من المقربين عند يزيد، وينال ثقته.

الخامسة: تكافئ السلطة من جاء به بقضاء حاجة له في كل يوم.

وتمنّى أكثر أُولئك الأوغاد الظفر بمسلم لينالوا المكافأة من ابن مرجانة والتقرب إلى يزيد بن معاوية.

---

(١) الفتوح: ٥: ٥٢.

الإفشاء بمكان مسلم عليه السلام

وطالت تلك الليلة على بلال ابن السيدة الكريمة طوعة التي آوت مسلماً، فقد ظل يترقّب بفارغ الصبر طلوع الصبح ليخبر السلطة بمقام مسلم عليه السلام عندهم، ولم يرقد تلك الليلة من الفرح والسرور، فقد تمّت - فيما يحسب - بوارق آماله وأحلامه، وماكاد الصبح أن يتنفس حتّى أسرع ولدها إلى القصر بحالة تلفت النظر إليها من الدهشة، فقصد عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث، وهو من الأُسرة الخبيثة التي لا عهد لها بالشرف والمروءة فسارّه، وأعلمه بمكان مسلم عليه السلام عنده، فأمره عبد الرحمن بالسكوت لئلا يسمع غيره فيبادر بإخبار ابن زياد فينال الجائزة منه، وأسرع عبد الرحمن إلى أبيه محمّد بن الأشعث، فأخبره بالأمر، وفطن ابن زياد إلى خطورة الأمر فبادر يسأل ابن الأشعث قائلاً: ما قال لك عبد الرحمن؟

فقال: أصلح الله الأمير البشارة العظمى.

قال: ما ذاك؟ مِثْلُكَ من بشّر بخير.

فقال: إنّ ابني هذا يخبرني أنّ مسلم بن عقيل عليه السلام في دار طوعة.

وسرّ ابن زياد، ولم يتمالك نفسه من الفرح، فانبرى يمنّي ابن الأشعث بالمال والجاه قائلاً: قم فأتني به، ولك ما أردت من الجائزة والحظّ الأوفى[(١)].

لقد تمكّن ابن مرجانة من الظفر بسليل هاشم ليجعله قرباناً إلى أُمويته اللصيقة التي نحر في سبيلها هو وأبوه جميع القيم الإنسانية، واستباحا كلّ ما حرّمه الله من إثم وفساد.

الهجوم على مسلم عليه السلام

وندب الطاغية لحرب مسلم عمرَو بنَ حريثٍ المخزومي صاحب شَرَطَته

---

(١) الفتوح: ٥: ٥٢ و ٥٣.

ومحمّد بن الأشعث[١] وضمّ إليهما ثلاثمائة رجل من صناديد الكوفة وفرسانها ، وأقبلت تلك الوحوش الكاسرة لحرب القائد العظيم الذي أراد أن يحررها من الذلّ والعبودية ، وينقذها من الظلم والجور ، ولمّا سمع وقع حوافر الخيل وصيحات الرجال علم أنّه قد أُتي إليه فبادر إلى فرسه فأسرجه وألجمه وصبّ عليه درعه ، وتقلّد سيفه ، والتفت إلى السيدة الكريمة طوعة فشكرها على ضيافتها ، وأخبرها أنّه إنّما أُتي إليه من قبل ابنها الباغي اللئيم قائلاً : رحمكِ الله ، وجزاك عني خيراً ، اعلمي إنّما أُتيت من قِبل ابنك[٢] .

واقتحم الجيش عليه الدار ، فشدّ عليهم يضربهم بسيفه ، ففروا منهزمين ، ثمّ عادوا إليه فأخرجهم منها وانطلق نحوهم في السكة شاهراً سيفه لم يختلج في قلبه خوف ولا رعب ، فجعل يحصد رؤوسهم بسيفه ، وقد أبدى من البطولات النادرة ما لم يشاهد لها التاريخ نظيراً في جميع عمليات الحروب ، وكان يقاتلهم وهو يرتجز :

هُوَ المَوتُ فاصنَعْ وَيْكَ ما أَنتَ صانِعُ ... فَأَنتَ بِكَأْسِ المَوتِ لَا شَكَّ جَارِعُ
فَصَبْراً لِأَمْرِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ ... فحُكْمُ قَضاءِ اللهِ فِي الخَلْقِ ذَائِعُ[٣]

وأبدى سليل هاشم من الشجاعة وقوة البأس ما حيّر الألباب ، وأبهر العقول ، فقد قتل منهم فيما يقول بعض المؤرخين : واحداً وأربعين رجلاً[٤] ما عدا الجرحى ، وكان من قوته النادرة أنّه يأخذ الرجل بيده ويرمي به من فوق البيت[٥] ، وليس في تاريخ الإنسانية مثل هذه البطولة ، ولا مثل هذه القوة . وليس هذا غريباً عليه فعمّه عليّ بن أبي طالب عليه السلام أشجع الناس وأقواهم بأساً ، وأشدّهم عزيمة .

---

(١) الفتوح : ٥ : ٥٣ . تذهيب التهذيب : ١ : ١٥١ .

(٢) الفتوح : ٥ : ٥٣ . مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ٢٠٩ .

(٣) و (٤) مناقب آل أبي طالب : ٤ : ٩٣ .

(٥) الدر النضيد : ١٦٤ . نفس المهموم : ٥٧ .

واستعمل معه الجبناء من أنذال أهل الكوفة ألواناً قاسية وشاذة من الحرب، فقد اعتلوا سطوح بيوتهم وجعلوا يرمونه بالحجارة وقذائف النار[١]، ولو كانت في ميدان فسيح لأتى عليهم ولكنّها كانت في الأزقّة والشوارع.

فشل الجيوش

وفشلت جيوش أهل الكوفة، وعجزت عن مقاومة البطل العظيم، فقد أشاع فيهم القتل، وألحق بهم خسائر فادحة، وأسرع الخائن الجبان محمّد بن الأشعث يطلب من سيده ابن مرجانة أن يمدّه بالخيل والرجال فقد عجز عن مقاومة مسلم، ولامه الطاغية قائلاً: سبحان الله!! بعثناك إلى رجل واحد تأتينا به، فثلم في أصحابك هذه الثلمة العظيمة[٢].

وثقل هذا التقريع على ابن الأشعث، فراح يشيد بابن عقيل قائلاً: أتظنّ أنّك أرسلتني إلى بقّال من بقالي الكوفة أو جرمقاني من جرامقة[٣] الحيرة[٤]، وإنّما بعثتني إلى أسد ضرغام، وسيف حسام في كف بطل همام من آل خير الأنام[٥].

وأمدّه ابن زياد بقوة كبيرة من الجيش، فجعل البطل العظيم يقاتل وحده وهو يرتجز:

أَقْسَمْتُ لا أُقْتَلُ إِلَّا حُرّاً ... وَإِنْ رَأَيْتُ المَوتَ شَيْئاً نُكْرا

---

(١) المحاسن والمساوئ / البيهقي: ١: ٤٣. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ١: ٢٠٩. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧٣.

(٢) الفتوح: ٥: ٥٣.

(٣) **الجرامقة**: قوم من العجم صاروا إلى الموصل ـ لسان العرب: ٢: ٢٦٢ ـ جَرمقَ. القاموس المحيط: ١١٢٥ ـ جَرمقَ.

(٤) مقتل الحسين عليه السلام / المقرّم: ١٨٣ و ١٨٤. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ١: ٢٠٩.

(٥) الفتوح: ٥: ٥٣. مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي: ١: ٢٠٩.

كُلُّ امرِئٍ يَوماً مُلَاقٍ شَرَّا   أَوْ يُخلَطُ البارِدُ سُخْناً مُرّا
رُدَّ شُعاعُ الشَّمسِ فاستَقَرّا   أَخافُ أَنْ أُكذَبَ أَوْ أُغَرّا (١)

لقد كنت يابن عقيل سيد الأحرار، فقد رفعت لواء العزة والكرامة ورفعت شعار الحرية والإباء، وأمّا خصومك الحقراء فهم العبيد الذين رضوا بالذل والهوان.

وحلل الدكتور يوسف خليف هذا الرجز بقوله: «هو رجز ـ من الناحية النفسية ـ صادق كلّ الصدق، معبّراً تعبيراً دقيقاً عن الموجات النفسية التي كانت تندفع في نفس الشاعر وهو في موقفه الضيق الحرج، فهو قبل كلّ شيء مصمم على أن يحتفظ بحريته ولو أدّى هذا إلى قتله، وهو يعلن في صراحة وصدق أنّ الموت شيء منكر ولا يقول هذا كما يقوله غيره ممّن يغالطون أنفسهم أنّ الموت شيء محبب إلى نفسه، وإنّما يعبر عن نفسيته تعبيراً صادقاً، فالموت شيء لا يحبه، ولكنّه لا يفر منه ما دام قد صمّم على الاحتفاظ بحريته. ثمّ يحاول أن يهدئ من روعه، ويجعل هذه الموجة العالية الرهيبة تنحسر عن نفسه دون أن يجذبها في تيارات من الهلع والفزع، فيحدّث عن نفسه بأنّ الدنيا متقلبة، وكل امرئ فيها لابدّ أن يلاقي ما يسوءه، وهو يعرض هذا الحديث النفسي في صورة فنية رائعة».

وأضاف يقول: «إنّه حريص على الحياة، ولكنّه حريص على الحرية بجعله متردداً لأنّه يخشى ـ بل يخاف ـ أن يكذب عليه أعداؤه أو يخدعوه فيقتلوه دون محاولة منه لتنفيذ عهده بأن يموت في سبيل حريته، أو يأسروه فيفقد حريته التي يحرص عليها حرصه على الحياة.

أرأيت كيف استطاع أن يصوّر موقفه الضيّق الحرج هذا التصوير الفني الرائع الذي يشمل روعته من تعبيره عن نفسيته تعبيراً صادقاً لا رياء فيه ولا تضليل؟! إنّ هذا هو السرّ الذي يجعل هذه السطور القليلة تؤثر في نفوسنا تأثيراً يجعلنا نشعر بما كان

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٧٩. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧٣.

يعانيه قائلها من صراع داخلي هائل لا يعد له إلّا صراعه الخارجي مع أعدائه »[١].

أمان ابن الأشعث

ولمّا سمع محمّد بن الأشعث رجز مسلم عليه السلام الذي أقسم فيه أن يموت ميتة الأحرار، وألّا يخدع ولا يغر انبرى إليه قائلاً: إنّك لا تكذب ولا تخدع، إنّ القوم بنو عمّك وليسوا بقاتليك ولا ضاريك[٢].

فلم يعتنِ به مسلم عليه السلام، وإنّما مضى يقاتلهم أعنف القتال وأشدّه، ففرّوا منهزمين من بين يديه، واعتلوا فوق بيوتهم يرمونه بالحجارة، فأنكر عليهم مسلم عليه السلام ذلك قائلاً: ويلكم، مالكم ترمونني بالحجارة، كما تُرمى الكفار، وأنا من أهل بيت الأبرار؟! ويلكم أما ترعون حقّ رسول الله صلى الله عليه وآله وذريته؟!

ولم يستطيعوا مقابلته وجبنوا عن مقاتلته، وضاق بابن الأشعث أمره فصاح بالجيش: ذروه حتّى أُكلّمه، ودنا منه، فخاطبه: يابن عقيل، لا تقتل نفسك، أنت آمن، ودمك في عنقي.

ولم يحفل به مسلم عليه السلام فإنّه على علم بأنّ ابن الأشعث لم يمر في تاريخه ولا في تاريخ أُسرته أيّ معنى من معاني الشرف والنبل والوفاء، فاندفع يقول له: يابن الأشعث، لا أُعطي بيدي أبداً، وأنا أقدر على القتال، والله لا كان ذلك أبداً.

وحمل مسلم عليه السلام على ابن الأشعث ففرّ الجبان يلهث كأنّه الكلب، وأخذ العطش القاسي من مسلم عليه السلام مأخذاً عظيماً، فجعل يقول: اللّهمّ إنّ العطش قد بلغ منّي.

وتكاثرت الجنود عليه إلّا أنّها منيت بالذعر والجبن، وصاح بهم ابن الأشعث: إنّ هذا هو العار والفشل أن تجزعوا من رجل واحد هذا الجزع، احملوا عليه

---

(١) حياة الشعر في الكوفة: ٣٧١ و ٣٧٢.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٧٩. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧٣.

بأجمعكم حملة واحدة[١].

وحملوا عليه حملة واحدة فضربه بكير بن حمران الأحمري ضربة منكرة على شفته العليا، وأسرع السيف إلى السفلى، وضربه مسلم عليه السلام ضربة منكرة على رأسه، وثنّى بأُخرى على حبل عاتقه كادت تأتي إلى جوفه[٢].

أسر مسلم عليه السلام وقتله

وبعدما أُثخن مسلم عليه السلام بالجراح، وأعياه نزيف الدم، انهارت قواه، وضعف عن المقاومة، فوقع أسيراً بأيدي أُولئك الأوغاد، فتسابقوا إلى ابن زياد يحملون له البشرى بأسرهم للقائد العظيم الذي جاء ليحررهم من الذلّ والعبودية، وقد طار الطاغية فرحاً، فقد ظفر بخصمه، وتمّ له القضاء على الثورة. أمّا كيفية أسره فقد اختلفت فيها أقوال المؤرخين، وهذه بعضها:

الأوّل: ما ذكره ابن اعثم الكوفي أنّ مسلماً وقف ليستريح ممّا ألمّ به من الجروح، فطعنه من خلفه رجل من أهل الكوفة طعنة غادرة فسقط إلى الأرض فأسرعوا إلى أسره[٣].

الثاني: ما ذكره الشيخ المفيد أنّ مسلماً لمّا أُثخن بالحجارة وعجز عن القتال أسند ظهره إلى جنب دار فقال له ابن الأشعث: لك الأمان.

فقال مسلم عليه السلام: آمنٌ أنا؟

قال: نعم.

فقال للقوم الذين معه: ألي الأمان؟

---

(١) الفتوح: ٥: ٥٤.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٧٨. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧٢ و ٢٧٣. إبصار العين: ٥٩.

(٣) الفتوح: ٥: ٥٤ و ٥٥.

قالوا: نعم، إلّا عبيد الله بن العباس السُّلمي[١] فإنّه قال: لا ناقة لي في هذا ولا جمل، وتنحّى.

فقال مسلم عليه السلام: أما لو لم تؤمنوني ما وضعت يدي في أيديكم.

وأُتي ببغلة فحمل عليها فاجتمعوا حوله، وانتزعوا سيفه فكأنّه عند ذلك أيس، فقال: هذا أوّل الغدر[٢].

الثالث: ما ذكره أبو مخنف: أنّهم عملوا له حفيرة وستروها بالتراب، ثمّ انكشفوا بين يديه، فحمل عليهم، فلمّا انتهى إليها سقط فيها، فازدحموا عليه وأسروه[٣]، وهذا القول لم يذهب إليه غير أبي مخنف.

مع عبيد الله السلمي

ولم يفكّر مسلم عليه السلام في تلك الساعة الحرجة بما سيعانيه من القتل والتنكيل على يد الطاغية ابن مرجانة، وإنّما شغل فكره ما كتبه للإمام الحسين عليه السلام بالقدوم إلى هذا المصر، فقد أيقن أنّه سيلاقي نفس المصير الذي لاقاه، فدمعت عيناه، وظنّ عبيد الله بن العباس السلمي أنّه يبكي لما صار إليه من الأسر، فأنكر عليه ذلك، وقال له: إنّ من يطلب مثل الذي تطلب إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبكِ.

فردّ عليه مسلم عليه السلام ما توهمه فيه قائلاً: إنّي والله ما لنفسي بكيت، ولا لها من القتل أرثي، وإن كنت لا أحب لها طرفة عين تلفاً، ولكن أبكي لأهلي المقبلين، أبكي للحسين وآل الحسين[٤].

---

(١) وفي تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٥٧٩: «عمرو بن عبيدالله السلمي».

(٢) الإرشاد / المفيد: ٢: ٥٩. تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٥٧٩. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧٣.

(٣) مقتل الحسين عليه السلام / أبو مخنف: ٣٧. وذكر ذلك الطريحي في المنتخب: ٢٩٩.

(٤) الإرشاد / المفيد: ٢: ٥٩. تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٥٧٩.

وازدحمت الشوارع والأزقّة بالجماهير الحاشدة لتنظر ما يؤول إليه أمر القائد العظيم، وما سيلاقيه من الأُمويين، ولم يستطع أحد منهم أن ينبس ببنت شفة حذراً من السلطة العاتية.

مع مسلم بن عمرو الباهلي

وجيء بمسلم أسيراً تحفّ به الشرطة وقد شهرت عليه السيوف، فلمّا انتهي به إلى قصر الإمارة رأى جرّة فيها ماء بارد، وقد أخذ العطش منه مأخذاً أليماً، فالتفت إلى من حوله قائلاً: اسقوني من هذا الماء.

فانبرى إليه اللئيم الدنس مسلم بن عمرو الباهلي، فقال له: أتراها ما أبردها؟ والله لا تذوق منها قطرة حتّى تذوق الحميم في نار جهنم.

ولا حدّ لظلم الإنسان، ولا منتهى لوحشيته وجفائه، فما يضر أُولئك الجفاة لو سقوه الماء وهو أسير بين أيديهم لا يملك من أمره شيئاً، وكان هذا السمت من التردّي وسقوط الأخلاق قد عرف به هولاء من قتلة المصلحين.

فانبرى مسلم عليه السلام فأراد التعرف على هذا الإنسان الممسوخ الذي تنكّر لأبسط القيم الإنسانية قائلاً له: من أنت؟

فأجابه مفتخراً بأنّه من عملاء السلطة الأُموية وأذنابها قائلاً: أنا من عرف الحقّ إذ تركته، ونصح الأُمة والإمام إذ غششته، وسمع وأطاع إذ عصيته، أنا مسلم بن عمرو.

أيّ حق عرفه الباهلي؟ وأيّة نصيحة أسداها للأُمة هذا الجلف الجافي الذي ارتطم في الباطل وماج في الضلال؟ لقد كان منتهى ما يفخر به تماديه في خدمة ابن مرجانة الذي هو صفحة عار وخزي على الإنسانية في جميع مراحل التاريخ.

وردّ عليه مسلم عليه السلام بمنطقه الفيّاض قائلاً: لأُمّك الثكل، ما أجفاك وأفظّك وأقسى

قلبك وأغلظك ؟! أنت يابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنم منّي[١].

واستحيا عمارة بن عقبة[٢] من جفوة الباهلي وقسوته، فدعا بماء بارد، فصبّه في قدح فأخذ مسلم عليه السلام كلّما أراد أن يشرب يمتلئ القدح دماً، وفعل ذلك ثلاثاً، فقال وقد ذاب قلبه من الظمأ: لو كان من الرزق المقسوم لشربته[٣].

وهكذا شاءت المقادير أن يحرم من الماء ويموت ظامئاً، كما حرم من الماء ابن عمّه ريحانة الرسول صلى الله عليه وآله وسيد شباب أهل الجنة.

مع ابن زياد

وكان من أعظم ما رزئ به مسلم عليه السلام أن يدخل أسيراً على الدعي ابن مرجانة، فقد ودّ أنّ الأرض وارته ولا يمثل أمامه، وقد شاءت المقادير أن يدخل عليه، وقد دخل تحفّ به الشَرطَة، فلم يحفل البطل بابن زياد ولم يُعنَ به، فسلّم على الناس ولم يسلّم عليه، فأنكر عليه الحرسي وهو من صعاليك الكوفة قائلاً: هلّا تسلم على الأمير؟

فصاح به مسلم عليه السلام محتقراً له ولأميره: اسكت لا أُمّ لك، مالك والكلام، والله ليس لي بأمير فأُسلّم عليه.

وكيف يكون ابن مرجانة أميراً على مسلم عليه السلام سيد الأحرار، وأحد المستشهدين في سبيل الكرامة الإنسانية ؟! إنّما هو أمير على أُولئك الممسوخين الذين لم يألفوا

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٨٠ و ٥٨١.

(٢) في الإرشاد / المفيد: ٢: ٦٠ و ٦١: «وبعث عمرو بن حريث غلاماً له فجاء بِقُلّة عليها منديل وقدح فصبّ فيه ماءً، فقال له: اشرب». وكذلك في تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٨١.

(٣) الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧٤.

إلّا الخنوع والذلّ والعار.

والتاع الطاغية من احتقار مسلمعليه السلام له، وتبدّد جبروته، فصاح به: لا عليك سلّمت أم لم تسلّم فإنّك مقتول.

ولم يملك الطاغية سوى سفك الدم الحرام، وحسب أنّ ذلك يخيف مسلماً أو يوجب انهياره وخضوعه له، فانبرى إليه بطل عدنان قائلاً بكلّ ثقة واعتزاز بالنفس: إن قتلتني فقد قتل من هو شرّ منك من كان خيراً منّي.

ولذعه هذا الكلام الصارم، وأطاح بغلوائه، فقد ألحقه مسلمعليه السلام بالجلّادين والسفّاكين من قتلة الأحرار والمصلحين، واندفع الطاغية يصيح بمسلم: يا شاقّ، يا عاقّ، خرجت على إمام زمانك، وشققت عصا المسلمين، وألقحت الفتنة.

أيّ إمام خرج عليه مسلمعليه السلام وأيّة عصاً للمسلمين شقّها، وأيّة فتنة ألقحها؟ إنّما خرج على قرين الفهود والقرود، لقد خرج لينقذ الأمة من محنتها أيام ذلك الحكم الأسود.

وانبرى مسلمعليه السلام يردّ عليه قائلاً: والله ما كان معاوية خليفة بإجماع الأُمة، بل تغلّب على وصيّ النبيّصلى الله عليه وآله بالحيلة، وأخذ منه الخلافة بالغصب، وكذلك ابنه يزيد، وأمّا الفتنة فإنّما ألقحتها أنت وأبوك زياد ابن علاج من بني ثقيف.

وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة على يد شرّ بريته، فوالله ما خالفت ولا كفرت ولا بدّلت، وإنّما أنا في طاعة أميرالمؤمنين الحسين بن عليّعليهما السلام ونحن أولى بالخلافة من معاوية وابنه وآل زياد[1].

وكانت هذه الكلمات أشدّ على ابن مرجانة من الموت، فقد كشفت واقعه أمام شرطته وعملائه، وجرّدته من كلّ نزعة إنسانية، وأبرزته كأحقر مخلوق

---

(١) الفتوح: ٥: ٥٥ و ٥٦. تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٥٨١.

على وجه الأرض.

ولم يجد الدعيّ وسيلة يلجأ إليها سوى الافتعالات الكاذبة التي هي بضاعته وبضاعة أبيه زياد من قبل، فأخذ يتّهم مسلماً بما هو بريء منه، قائلاً: يا فاسق، ألم تكن تشرب الخمر في المدينة؟

فصاح به مسلم عليه السلام: أحقّ والله بشرب الخمر مَن يقتل النفس المحرّمة، وهو يلهو ويلعب كأنّه لم يسمع شيئاً.

واستردّ الطاغية تفكيره فرأى أنّ هذه الأكاذيب لا تجديه شيئاً، فراح يقول له: منّتك نفسك أمراً حال الله بينك وبينه وجعله لأهله.

فقال مسلم عليه السلام باستهزاء وسخرية: من أهله؟

- يزيد بن معاوية.

- الحمد لله كفى بالله حاكماً بيننا وبينكم.

- أتظن أنّ لك من الأمر شيئاً؟

- لا والله ما هو الظن ولكنه اليقين.

- قتلني الله إن لم أقتلك.

- إنّك لا تدع سوء القتلة، وقبح المثلة، وخبث السريرة، والله لو كان معي عشرة ممّن أثق بهم، وقدرت على شربة ماء لطال عليك أن تراني في هذا القصر، ولكن إن كنت عزمت على قتلي فأقم لي رجلاً من قريش أُوصي له بما أُريد[١].

وسمح له الطاغية بأن يوصي بما أهمّه.

---

(١) الفتوح: ٥: ٥٦. تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٥٨١ و ٥٨٢.

وصيّة مسلم عليه السلام

ونظر مسلم عليه السلام في مجلس ابن زياد فرأى عمر بن سعد فأحبّ أن يعهد إليه بوصيته فقال له: لا أرى في المجلس قرشياً غيرك[١]، ولي إليك حاجة وهي سر[٢].

واستشاط ابن زياد غضباً حيث نفاه مسلم عليه السلام من قريش، وأبطل استلحاقه ببني أُمية، فقد أبطل ذلك النسب اللصيق الذي ثبت بشهادة أبي مريم الخمّار ولم يستطع أن يقول ابن زياد شيئاً.

وامتنع ابن سعد من الاستجابة لمسلم إرضاءً لعواطف سيده ابن مرجانة، وكسباً لمودته، وقد لمس ابن زياد خوره وخنوعه فأسرّها في نفسه، ورأى أنّه خليق بأن يرشّحه لقيادة قواته المسلحة التي يزج بها لحرب ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وأمر ابن زياد عمر بن سعد بأن يقوم مع مسلم عليه السلام ليعهد إليه بوصيته، وقام ابن سعد معه، فأوصاه مسلم عليه السلام بما يلي:

أوّلاً: إنّ عليه ديناً بالكوفة يبلغ سبعمائة درهم، فيبيع سيفه ودرعه ليوفيها عنه[٣]، وقد دلّ ذلك على شدّة احتياطه وتحرّجه في دينه، كما أوصى أن يعطي لطوعة ما يفضل من وفاء دينه.

ثانياً: أن يستوهب جثّته من ابن زياد فيواريها[٤]؛ وذلك لعلمه بخبث الأُمويين، وأنّهم لا يتركون المثلة.

---

(١) جواهر المطالب: ٢: ٢٦٨. العقد الفريد: ٤: ٣٧٩.

(٢) الإرشاد / المفيد: ٢: ٦١. تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٥٨١. الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧٤. البداية والنهاية: ٨: ١٥٩.

(٣) الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧٤.
وفي تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٨١. والأخبار الطوال: ٢٤١: «إنّ علَيَّ ألف درهم».

(٤) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٨١.

ثالثاً: أن يكتب للحسين عليه السلام بخبره[١]، فقد شغله أمره لأنّه كتب إليه بالقدوم إلى الكوفة.

وأقبل ابن سعد يلهث على ابن زياد فقال له: أتدري أيّها الأمير ما قال لي؟ إنّه قال كذا وكذا[٢].

فأنكر عليه ابن زياد إبداءه السرّ، فقال: لا يخونك الأمين، ولكن قد يؤتمن الخائن، أمّا ماله فهو لك تصنع به ما شئت، وأمّا الحسين فإن لم يردنا لم نرده، وإن أرادنا لم نكف عنه، وأمّا جثته فإنّا لن نشفّعك فيها[٣].

لقد ترك الطاغية شفاعة ابن سعد في جثّة مسلم عليه السلام، فقد عزم على التمثيل بها للتشفّي منه، وليتخذ من ذلك وسيلة لإرهاب الناس وخوفهم.

الطاغية مع مسلم عليه السلام

وصاح ابن مرجانة بمسلم عليه السلام، فقال له: بماذا أتيت إلى هذا البلد؟ شتّتَ أمرهم، وفرّقت كلمتهم، ورميت بعضهم على بعض.

وانطلق فخر هاشم قائلاً بكلّ ثقة واعتزاز بالنفس: لست لذلك أتيت هذا البلد، ولكنّكم أظهرتم المنكر، ودفنتم المعروف، وتأمّرتم على الناس من غير رضاً، وحملتموهم على غير ما أمركم الله به، وعملتم فيهم بأعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، وندعوهم إلى حكم الكتاب والسنة

---

(١) الإرشاد / المفيد: ٢: ٦١.

وفي تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٥٨٠: «أنّ محمّد بن الأشعث أرسل إلى الحسين عليه السلام إياس بن العثل الطائي من بني مالك».

(٢) الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧٤.

(٣) وفي الإرشاد / المفيد: ٢: ٦١: «أمّا جثّته فإنّا لا نبالي إذا قتلناه ما صنع بها». روضة الواعظين: ١٧٧. بحار الأنوار: ٤٤: ٣٥٦. تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٥٨١.

وكنّا أهل ذلك ، فإنّه لم تزل الخلافة لنا منذ قتل أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب ، ولا تزال الخلافة لنا فإنّا قهرنا عليها . إنّكم أوّل من خرج على إمام هدى ، وشقّ عصا المسلمين ، وأخذ هذا الأمر غصباً ، ونازع أهله بالظلم والعدوان(١) .

وأدلى مسلم عليه السلام بهذا الحديث عن أسباب الثورة التي أعلنها الإمام الحسين عليه السلام على الحكم الأُموي ، وقد التاع الطاغية من كلام مسلم عليه السلام ، وتبددت نشوة ظفره ، فلم يجد مسلكاً ينفذ منه لإطفاء غضبه سوى السبّ للعترة الطاهرة ، فأخذ يسبّ عليّاً والحسن والحسين عليهم السلام .

وثار مسلم عليه السلام في وجهه ، فقال له : أنت وأبوك أحقّ بالشتم منهم ، فاقضِ ما أنت قاضٍ ، فنحن أهل بيت موكل بنا البلاء(٢) .

لقد ظلّ مسلم عليه السلام حتّى الرمق الأخير من حياته عالي الهمّة ، وجابه الأخطار ببأس شديد ، فكان في دفاعه ومنطقه مع ابن مرجانة مثالاً للبطولات النادرة .

إلى الرفيق الأعلى

وآن للقائد العظيم أن ينتقل عن هذه الحياة بعد ما أدّى رسالته بأمانة وإخلاص ، وقد رزق الشهادة على يد الممسوخ القذر ابن مرجانة ، فندب لقتله بكير بن حمران الذي ضربه مسلم عليه السلام ، فقال له : خذ مسلماً ، واصعد به إلى أعلى القصر ، واضرب عنقه بيدك ؛ ليكون ذلك أشفى لصدرك(٣) .

والتفت مسلم عليه السلام إلى ابن الأشعث الذي أعطاه الأمان ، فقال له : يابن الأشعث ،

---

(١) اللهوف : ٣٦ . الفتوح : ٥ : ٥٧ و ٥٨ .

(٢) الإرشاد / المفيد : ٢ : ٦٣ . الفتوح : ٥ : ٥٨ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٧٤ ، وفيه : « أنّ مسلماً لم يكلّم ابن زياد بعد شتمه له » .

(٣) مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ٢١٣ .

أما والله لولا أنّك آمنتني ما استسلمت ، قم بسيفك دوني فقد أُخفرت ذمتك ، فلم يحفل به ابن الأشعث[١].

واستقبل مسلم عليه السلام الموت بثغر باسم ، فصُعد به إلى أعلى القصر وهو يسبح الله ويستغفره بكل طمأنينة ورضاً ، وهو يقول : اللّهمّ احكم بيننا وبين قوم غرّونا ، وخذلونا[٢].

وأشرف به الجلّاد على موضع الحذائين[٣] فضرب عنقه ، ورمى برأسه وجسده من أعلى القصر أمام الجماهير المحتشدة ، فاستولى الخوف والتخاذل على الناس ، وذهب كل إنسان لبيته وكأنّ الأمر لا يعنيه[٤].

وهكذا انتهت حياة هذا البطل العظيم الذي يحمل نزعات عمّه أمير المؤمنين عليه السلام ، ومُثُل ابن عمّه الحسين عليه السلام ، وقد استشهد دفاعاً عن الحقّ ودفاعاً عن حقوق المظلومين والمضطهدين .

ونزل القاتل الأثيم ، فاستقبله ابن زياد فقال له : ماكان يقول وأنتم تصعدون به ؟

قال : كان يسبّح الله ويستغفره ، فلمّا أردت قتله قلت له : الحمد لله الذي أمكنني منك وأقادني منك ، فضربته ضربة لم تغنِ شيئاً ، فقال لي : أما ترى فيَّ خدشاً تخدشنيه وفاءً من دمك أيّها العبد .

فبهر ابن زياد وراح يبدي إعجابه وإكباره له قائلاً : أو فخراً عند الموت[٥] !

وقد انطوت بقتل مسلم بن عقيل عليه السلام صفحة مشرقة من أروع صفحات العقيدة

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٨٢ .

(٢) الفتوح : ٥ : ٥٨ .

(٣) أنساب الأشراف : ٢ : ٣٤٠ . الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٧٤ .

(٤) مروج الذهب : ٣ : ٦٠ .

(٥) الكامل في التاريخ : ٣ : ٢٧٤ .

والجهاد في الإسلام ، فقد استشهد في سبيل العدالة الاجتماعية ، ومن أجل إنقاذ الأُمة وتحريرها من الظلم والجور ، وهو أوّل شهيد من الأُسرة النبوية يقتل علناً أمام المسلمين ، ولم يقوموا بحمايته والذبّ عنه .

سلب مسلم عليه السلام

وانبرى سليل الخيانة محمّد بن الأشعث(١) إلى سلب مسلم عليه السلام ، فسلب سيفه ودرعه ، وهو غير حافل بالعار والخزي ، وقد تعرّض للنقد اللاذع من جميع الأوساط في الكوفة ، ويقول بعض الشعراء في هجائه :

وَتَرَكتَ عَمَّكَ أَنْ تُقاتِلَ دُونَهُ ... فَشَلاً وَلَولاَ أَنتَ كانَ مَنِيعا
وَقَتَلْتَ وافِدَ آلِ بَيتِ مُحَمَّدٍ ... وَسَلَبتَ أَسْيافاً لَهُ وَدُرُوعا (٢)

وعمد بعض أجلاف أهل الكوفة فسلبوا رداء مسلم عليه السلام وثيابه .

تنفيذ الإعدام في هانئ رضي الله عنه

وأمر الطاغية بإعدام الزعيم الكبير هانئ بن عروة ، وإلحاقه بمسلم مبالغة في

---

(١) **الأشعث بن قيس :**

إنّما سمي بالأشعث لشعوثة رأسه ، واسمه معدي كرب ، هلك بعد مقتل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بأربعين ليلة ، وكان عمره ٦٣ سنة ـ أسد الغابة : ١ : ١١٨ و ١١٩ . تاريخ الإسلام ـ عهد الخلفاء الراشدين : ٦٠٩ و ٦١٠ .

أمّا محمّد بن الأشعث فأمه أُمّ فروة أُخت أبي بكر لأبيه ـ الرياض المستطاب : ٨ .

(٢) مروج الذهب : ٣ : ٥٩ . وفي مقتل أبي مخنف : ٤١ ، هكذا :

أَتَرَكتَ مُسلِمَ لَا تُقاتِلُ دُونَهُ ... حَذَرَ المَنيَّةِ أَنْ تَكونَ صَرِيعَا
وَقَتَلتَ وَافِدَ آلِ بَيتِ مُحَمَّدٍ ... وَسَلَبْتَ أسيَافاً لَهُ وَدُرُوعَا
لَوْ كُنتَ مِنْ أَسَدٍ عَرَفتَ مَكَانَهُ ... وَرَجَوتَ أَحمَدَ فِي المَعادِ شَفيعا

إذلال زعماء الكوفة وإذاعة للذعر والخوف بين الناس ، وقام محمّد بن الأشعث فتشفع فيه خوفاً من بطش أُسرته ، قائلاً : أصلح الله الأمير ، إنّك قد عرفت شرفه في عشيرته ، وقد عرف قومه أنّي وأسماء بن خارجة جئنا به إليك ، فأنشدك الله أيّها الأمير لما وهبته لي ، فإنّي أخاف عداوة أهل بيته ، وأنّهم سادات أهل الكوفة وأكثرهم عدداً [١].

فلم يحفل به ابن زياد ، وإنّما زبره وصاح به فسكت العبد ، وأُخرج البطل إلى السوق في موضع تباع فيه الأغنام [٢] مبالغة في إذلاله ، ولمّا علم أنّه ملاقٍ حتفه جعل يستنجد بأُسرته ، وقد رفع عقيرته : وامذحجاه ، ولا مذحج لي اليوم ، واعشيرتاه [٣].

ولو كانت عند مذحج صبابة من الشرف والنبل لانبرت إلى إنقاذ زعيمها ، ولكنّها كانت كغيرها من قبائل الكوفة ، قد طلّقت المعروف ثلاثاً .

وعمد هانئ إلى إخراج يده من الكتاف ، وهو يطلب السلاح ليدافع به عن نفسه ، فلمّا بصروا به بادروا إليه فأوثقوه كتافاً ، وقالوا له : امدد عنقك .

فأجاب برباطة جأش ورسوخ يقين : لا والله ، ما كنت بالذي أُعينكم على نفسي .

وانبرى إليه وغد من شرطة ابن زياد يقال له : رشيد التركي [٤] فضربه بالسيف

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٨٣ . مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ٢١٤ .

(٢) ويقع سوق الأغنام شرقي الكناسة على تخوم محلة مذحج ، وإنّما فعل ذلك إذلالاً لأُسرته فقد نفّذ فيه حكم الإعدام بالقرب منه . خطط الكوفة : ١٢٥ .

(٣) أنساب الأشراف : ٢ : ٣٤٠ . تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٥٨٣ . مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ٢١٤ .

(٤) وقد ثأر لدم هانئ عبد الرحمن بن حصين المرادي فقتل رشيداً ، يوم الخازر بالموصل ، وفي ذلك يقول : ⇦

فلم يصنع به شيئاً ، ورفع هانئ صوته قائلاً : اللّهمّ إلى رحمتك ورضوانك ، اللهم اجعل هذا اليوم كفارة لذنوبي ، فإنّي إنّما تعصّبت لابن بنت نبيك محمّد .

وضربه الباغي ضربة أُخرى فهوى إلى الأرض يتخبّط بدمه الزاكي ، ولم يلبث إلّا قليلاً حتّى فارق الحياة[١] ، وكان عمره يوم استشهد تسعاً وتسعين سنة[٢] ، وقد مضى شهيداً دون مبادئه وعقيدته ، وجزع لقتله الأحرار والمصلحون ، وقد رثاه أبو الأسود الدؤلي بقوله :

أَقُولُ وَذَاكَ مِنْ جَزَعٍ وَوَجْدِ ... أَزَالَ اللهُ مُلْكَ بَنِي زِيادِ
هُمُ جَدَعُوا الأُنُوفَ وَكُنَّ شُمّاً ... بِقَتلِهِمُ الكَرِيمَ أَخا مُرادِ[٣]

ورثاه الأخطل بقوله :

وَلَم يَكُ عَن يَومِ ابْنِ عُروةَ غائِباً ... كَما لَم يَغِبْ عَنْ لَيْلَةِ ابْنِ عَقِيلِ
أَخُو الحَرْبِ صَرّاها فَلَيسَ بِناكِلٍ ... جِبارٍ وَلَا وَجْبِ الفُؤادِ ثَقِيلِ[٤]

⇦ إِنِّي قَتَلتُ رَاشِدَ التُّركِيّا ... وَلَيتَهُ أَبيَضَ مَشرَفِيّا
أَرضِي بِذاكَ اللهَ وَالنَّبِيّا

جاء ذلك في أنساب الأشراف : ٢ : ٣٤٠ و ٣٤١ .

(١) الإرشاد / المفيد : ٢ : ٦٤ . بحار الأنوار : ٤٤ : ٣٥٨ . الدرّ النظيم : ١٦٠ ، من مصورات مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام .

(٢) مرآة الزمان : ٨٥ .

(٣) المعجم الكبير : ٣ : ١١٨ ، الرقم ٢٨٥٣ . أنساب الأشراف : ٢ : ٣٤١ . نظم درر السمطين : ٢٢٥ . ديوان أبي الأسود : ٣٣٦ ، وفيه :

أَقُولُ وَزادَنِي جَزَعاً وَغَيظاً ... أَزَالَ اللهُ مُلكَ بَنِي زِيادِ
وَأَبْعَدَهُمْ بِما غَدَرُوا وَخانوا ... كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ وَقَومُ عادِ
وَلَا رَجَعَتْ رِكابُهُمُ إِلَيهِمْ ... إِذا وَقَفَتْ إِلَى يَومِ التَّنادِ

(٤) أنساب الأشراف : ٢ : ٨٤ .

السحل في الشوارع

وعهد الطاغية إلى زبانيته وعملائه بسحل جثة مسلم عليه السلام وهانئ في الشوارع والأسواق ، فعمدوا إلى شدّ أرجلهما بالحبال ، وأخذوا يسحلونهما في الطرق[١] ؛ وذلك لإخافة العامة وشيوع الإرهاب ، وليكونا عبرة لكل من تحدثه نفسه بالخروج على الحكم الأُموي .

لقد سحب هانئ أمام أُسرته وقومه ، ولو كان عندهم ذرة من الشرف والحميّة لانبروا إلى تخليص جثّة زعيمهم من أيدي الغوغاء الذين بالغوا في إهانتها .

صلب الجثتين

ولمّا قضى الطاغية أربه في سحل جثّة مسلم عليه السلام وهانئ أمر بصلبهما ، فصلبا منكوسين[٢] في الكناسة[٣] ، فكان مسلم عليه السلام ـ فيما يقول المؤرخون ـ أوّل قتيل صلبت جثته من بني هاشم[٤] ، وقد استعظم المسلمون أشدّ ما يكون الاستعظام هذا الحادث الخطير ، فإنّ هذا التمثيل الفظيع إنّما هو جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً ، ومسلم عليه السلام وهانئ إنّما هما من روّاد الحقّ ودعاة الإصلاح في الأرض .

وعلى أيّة حال فقد أخضع الطاغية ـ بعد قتله لمسلم وهانئ ـ العراق الثائر ، وارتمت جميع أوساطه تحت قدميه بدون أيّة مقاومة .

---

(١) الدرّ النظيم : ١٦٠ . مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ٢١٥ . تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٦٠٠ .

(٢) مناقب آل أبي طالب : ٤ : ٩٤ . مقتل الحسين عليه السلام / الخوارزمي : ١ : ٢١٤ و ٢١٥ .

(٣) المناقب والمثالب : ٢٨٨ .

(٤) مروج الذهب : ٣ : ٦٠ .

حمل رؤوس الشهداء إلى دمشق

وعمد ابن مرجانة إلى إرسال رأس مسلم عليه السلام وهانئ وعمارة بن صلخب الأزدي(١) هدية إلى سيده يزيد لينال الجائزة، ويحرز إخلاص الأُسرة المالكة له ويثبت التصاقه بهم، وقد أرسل معها هذه الرسالة: «أمّا بعد، فالحمد لله الذي أخذ لأمير المؤمنين بحقّه، وكفاه مؤونة عدوه. أُخبر أميرالمؤمنين ـ أكرمه الله ـ أنّ مسلم بن عقيل عليه السلام لجأ إلى دار هانئ بن عروة المرادي، وأنّي جعلت عليهما العيون، ودسست إليهما الرجال، وكدتهما حتّى استخرجتهما، وأمكن الله منهما فضربت أعناقهما، وبعثت إليك برأسيهما مع هانئ بن أبي حيّة الوادعي الهمداني، والزبير بن الأروح التميمي، وهما من أهل السمع والطاعة، فليسألهما أميرالمؤمنين عمّا أحبّ فإنّ عندهما علماً وصدقاً وفهماً وورعاً، والسلام»(٢).

واحتوت هذه الرسالة على العمليات التي قام بها الطاغية للقضاء على الثورة، والتي كان من أهمها:

أوّلاً: استعانته بالعيون والجواسيس في معرفة شؤون الثورة والوقوف على أسرارها، وقد قام بهذه العملية معقل مولاه.

ثانياً: إنّه دسّ لهانئ ـ العضو البارز في الثورة ـ الرجال حتّى صار تحت قبضته واعتقله، وكذلك كاد لمسلم حينما ثار عليه، فقد أرسل عيون أهل الكوفة ووجوهها مع العرفاء فأخذوا يذيعون الذعر وينشرون الإرهاب حتّى انهزم جيشه.

جواب يزيد

ولمّا انتهت الرؤوس إلى دمشق سرّ يزيد بذلك سروراً بالغاً، وكتب لابن مرجانة

---

(١) أنساب الأشراف: ٢: ٣٤١ و ٣٤٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك: ٤: ٥٨٤ و ٥٨٥. الفتوح: ٥: ٦٢ و ٦٣.

جواباً عن رسالته شكره فيها ، وهذا نصّها : « أمّا بعد ، فإنّك لم تعدُ أن كنت كما أُحبّ ، عملت عمل الحازم وصلْتَ صولة الشجاع الرابض ، فقد كفيت وصدّقت ظنّي ورأيي فيك ، وقد دعوت رسوليك فسألتهما عن الذي ذكرت ، فقد وجدتهما في رأيهما وعقلهما وفهمهما وفضلهما ومذهبهما كما ذكرت ، وقد أمرت لكلّ واحد منهما بعشرة آلاف درهم ، وسرحتهما إليك فاستوص بهما خيراً.

وقد بلغني أنّ الحسين بن عليّ قد عزم على المسير إلى العراق ، فضع المراصد والمناظر واحترس ، واحبس على الظنّ ، واكتب إليّ في كلّ يوم بما يتجدد لك من خير أو شرّ ، والسلام »[1].

وحفلت هذه الرسالة بالتقدير البالغ لابن زياد ، وأضفت عليه صفة الحازم اليقظ ، وأنّه قد حقق ظنّ يزيد فيه أنّه أهل للقيام بمثل هذه الأعمال الخطيرة ، وقد عرّفه

---

(١) أنساب الأشراف : ٢ : ٣٤٢ . الفتوح : ٥ : ٦٣ . ولم يتعرّض المؤرخون إلى شؤون هذه الرؤوس الكريمة ، فهل دفنت في دمشق أو في مكان آخر ؟ فقد أهملوا ذلك ، إلّا أنّه جاء في مرآة الزمان : ٥٩ ، فيما يخصّ رأس هانئ ما نصّه : « إنّه في هذه ـ السنة أي سنة ٣٠٢هـ ـ ورد الخبر إلى بغداد أنّه وجد بخراسان بالقصر أزجاً [**الأزج** : ضرب من الأبنية ، بيت يبنى طولاً ـ تاج العروس : ٢ : ٤ ـ أزِجَ] فيه ألف رأس في برج ، في أُذن كلّ واحد خيط من إبريسم فيه رقعة فيها اسم صاحبه ، وكان من جملتها رأس هانئ بن عروة ، وحاتم بن حسنة ، وطلق بن معاذ وغيرهم ، وتاريخهم ـ أي تاريخ وضعهم في ذلك الأزج ـ سنة سبعين من الهجرة ».

ونقل الزركلي في هامش أعلامه ٨ : ٦٨ عن صلة تاريخ الطبري : ٦٢ من حوادث سنة ٣٠٤ هـ : « أنّه ورد إلى بغداد كتاب من خراسان يذكر فيه أنّه وجد بـ (قندهار) في أبراج سورها برج متصل بها فيه خمسة آلاف رأس في سلال من حشيش ، ومن هذه الرؤوس تسعة وعشرون رأساً في أُذن كلّ رأس منها رقعة مشدودة بخيط إبريسم باسم كلّ رجل منهم ، وعد منهم هانئ بن عروة ، وقال : إنّهم قد وجدوا على حالهم إلّا أنّه قد جفّت جلودهم والشعر عليها بحالته لم يتغير ».

يزيد بعزم الإمام الحسينعليه‌السلام على التوجّه إلى العراق، وأوصاه باتّخاذ التدابير التالية:

الأوّل: وضع المراصد والحرس على جميع الطرق والمواصلات.

الثاني: التحرّس في أعماله، وأن يكون حذراً يقظاً.

الثالث: أخذ الناس بسياسة البطش والإرهاب.

الرابع: أن يكون على اتصال دائم مع يزيد، ويكتب له بجميع ما يحدث في القطر.

وطبّق ابن مرجانة جميع ما عهده إليه سيده، ونفّذ ما يلي:

إعلان الأحكام العرفية

وبعدما أطاح الطاغية بثورة مسلمعليه‌السلام قبض على العراق بيد من حديد، وأعلن الأحكام العرفية في جميع أنحاء العراق، واعتمد في تنفيذ خططه على القسوة البالغة، فأشاع من الظلم والجور ما لا يوصف، فكان اسمه موجباً لإثارة الفزع والخوف في نفوس العراقيّين كما كان اسم أبيه زياد من قبل.

لقد فوضت إليه حكومة دمشق السلطات الواسعة، وأمرته بأخذ الناس بالظنّة، وإعدام كلّ من يحقد على الحكم الأُموي، أو له ضلع بالاشتراك في أيّة مؤامرة تحاك ضده. وبهذه الأساليب الرهيبة ساق الناس لحرب الإمام الحسينعليه‌السلام، فقد كان يحكم بالموت على كلّ من يتخلّف أو يرتدع عن الخوض في المعركة[1].

احتلال الحدود العراقية

واحتل ابن زياد جميع الحدود العراقية احتلالاً عسكرياً، ومنع الناس من الدخول للعراق والخروج منه إلّا بإذن وتأشير خاص من شرطة الحدود، وكانوا إذا

---

(١) الدولة الأمويّة في الشام: ٥٦.

أخذوا رجلاً أجروا معه التحقيق الكامل ، فإن علموا براءته أطلقوا سراحه وإلّا بعثوه مخفوراً إلى السلطة المركزية في الكوفة لتجري معه المزيد من التحقيق ، وقد احتاط في هذه الجهة أشدّ الاحتياط مخافة أن يلج أحد إلى العراق أو يخرج منه من شيعة الإمام الحسين عليه السلام .

ويقول المؤرخون : إنّه جعل على جميع المفارق ورؤوس المنازل عيوناً من عسكره ، كما عيّن في البرّ نقاطاً ومسالح ترصد جميع الحركات ، وقد بعث الحصين ابن تميم رئيس شرطته إلى القادسية ، ومنها إلى خفّان[١] ، ثمّ إلى القطقطانة[٢] وجبل لعلع ، ورتّب في كلّ مكان جماعة من الفرسان والخيالة لتفتيش الداخل والخارج ، وقد حفظت هذه الإجراءات تلك المناطق من الاشتراك بأيّ عمل ضد الدولة ، كما حفظت خطوط المواصلات بين الكوفة والشام ، وقد ألقت الشرطة القبض على قيس بن مسهر الصيداوي رسول الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة ، وبعثته مخفوراً إلى ابن زياد ، وسنذكر حديثه في البحوث الآتية .

الاعتقالات الواسعة

وقام ابن زياد بحملة اعتقالات واسعة النطاق في صفوف الشيعة فاعتقل منهم ـ فيما يقول بعض المؤرخين ـ اثني عشر ألفاً[٣] ، وكان من بين المعتقلين سليمان ابن صُرَد الخزاعي ، والمختار بن أبي عبيد الثقفي ، وأربعمائة من الأعيان والوجوه[٤] .

---

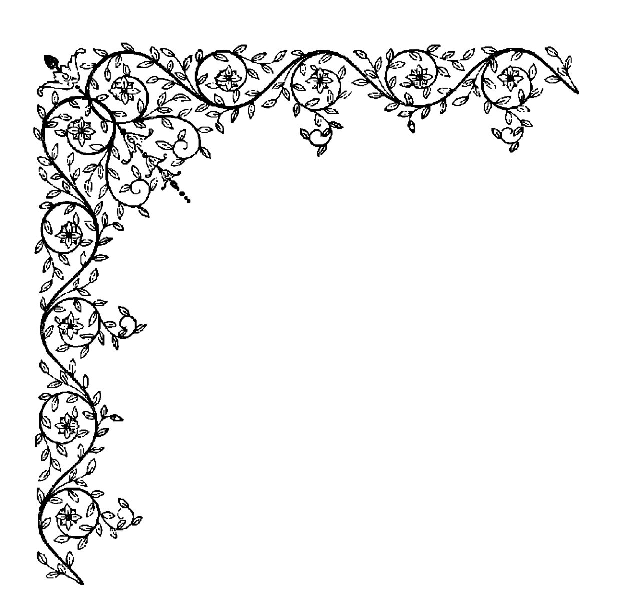
(١) **خفّان** : موضع قرب الكوفة ـ معجم البلدان : ٢ : ٤٣٤ .

(٢) **القطقطانة** : موضع قرب الكوفة من جهة البريّة بالطف ، به كان سجن النعمان بن المنذر . معجم البلدان : ٤ : ٤٢٤ و ٤٢٥ .

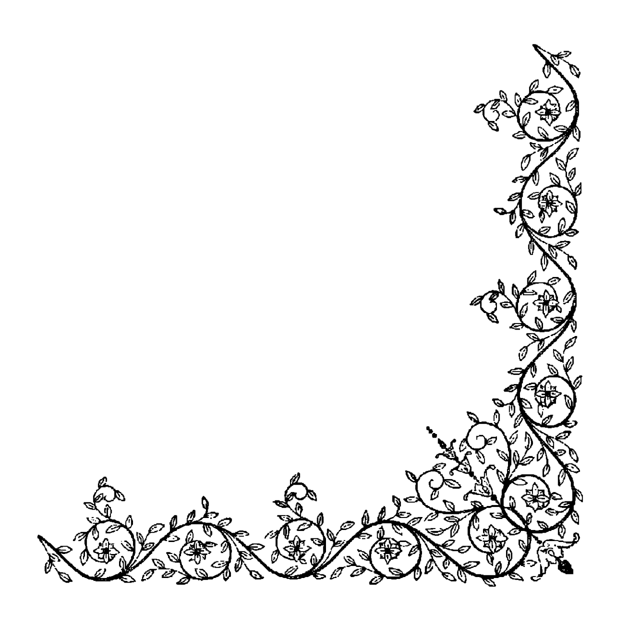
(٣) المختار مرآة العصر الأُموي : ٧٤ و ٧٥ .

(٤) الدرّ المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء : ١ : ١٠٩ .

وقد أثارت هذه الإجراءات عاصفة من الفزع والهلع لا في الكوفة فحسب وإنّما في جميع أنحاء العراق ، وقد ابتعد الكوفيون عن التدخل في أيّة مشكلة سياسية ، ولم تبدُ منهم أيّة حركة من حركات المعارضة ، وأيقنوا أن لا قدرة لهم على الإطاحة بالعرش الأُموي ، وظلّوا قابعين تحت وطأة سياطه القاسية .



إِخْفَاقُ الثَّوْرَةِ



ويتساءل الكثيرون عن الأسباب التي أدّت إلى إخفاق مسلم عليه السلام في ثورته مع ماكان يتمتع به من القوى العسكرية في حين أنّ خصمه لم تكن عنده أيّة قوة يستطيع أن يدافع بها عن نفسه فضلاً عن الهجوم والدخول في عمليات القتال. ويعزو بعضهم السبب في ذلك إلى قلّة خبرة مسلم عليه السلام في الشؤون السياسية، وعجزه من السيطرة على الموقف، فترك المجال مفتوحاً لعدوه حتّى تغلب عليه.

وهذا الرأي ـ فيما يبدو ـ سطحي ليست له أيّة صبغة من التحقيق؛ وذلك لعدم ابتنائه على دراسة الأحداث بعمق وشمول، ومن أهمّها ـ فيما نحسب ـ دراسة المجتمع الكوفي، وما مُني به من التناقض في سلوكه الفردي والاجتماعي، والوقوف على المخططات السياسية التي اعتمد عليها ابن زياد للتغلب على الأحداث، والنظر في الصلاحيات المعطاة لمسلم بن عقيل من قِبل الإمام الحسين عليه السلام، فإنّ الإحاطة بهذه الأُمور توضّح لنا الأسباب في إخفاق الثورة، وفيما يلي ذلك:

المجتمع الكوفي

ولابدّ لنا أن نتحدث بمزيد من التحقيق عن طبيعة المجتمع الكوفي فإنّه المرآة الذي تنعكس عليه الأحداث الهائلة التي لعبت دورها الخطير في تاريخ الإسلام السياسي، وأن نتبيّن العناصر التي سكنت الكوفة، وننظر إلى طبيعة الصِلات

الاجتماعية فيما بينها ، والحياة الاقتصادية التي كانت تعيش فيها ، فإنّ البحث عن ذلك يلقي الأضواء على فشل الثورة ،كما يلقي الأضواء على التذبذب والانحرافات الفكرية التي مُني بها هذا المجتمع ، والتي كان من نتائجها ارتكابه لأبشع جريمة في تاريخ الإنسانية ، وهي إقدامه على قتل ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإلى القرّاء ذلك :

الظواهر الاجتماعية

أمّا الظواهر الاجتماعية التي تفرّد بها المجتمع الكوفي دون بقية الشعوب ، فهي :

أوّلاً : التناقض في السلوك

والظاهرة الغريبة في المجتمع الكوفي أنّه كان في تناقض صريح مع حياته الواقعية ، فهو يقول شيئاً ويفعل ضدّه ، ويؤمن بشيء ويفعل ما ينافيه ، والحال أنّه يجب أن تتطابق أعمال الإنسان مع ما يؤمن به ، وقد أدلى الفرزدق بهذا التناقض حينما سأله الإمام الحسين عليه السلام عن أهل الكوفة ، فقال له : خلّفت قلوب الناس معك ، وسيوفهم مشهورة عليك(١) .

وكان الواجب يقضي أن تذب سيوفهم عمّا يؤمنون به ، وأن يناضلوا عمّا يعتقدون به ، ولا توجد مثل هذه الظاهرة في تاريخ أي شعب من الشعوب .

ومن غرائب هذا التناقض أنّ المجتمع الكوفي قد تدخّل تدخّلاً إيجابياً في المجالات السياسية وهام في تياراتها ، فكان يهتف بسقوط الدولة الأُموية ، وقد كاتبوا الإمام الحسين عليه السلام ؛ لينقذهم من جور الأُمويين وبطشهم ، وبعثوا الوفود إليه مع آلاف الرسائل التي تحثّه على القدوم لمصرهم ، ولما بعث إليهم سفيره مسلم بن عقيل رحمه الله قابلوه بحماس بالغ وأظهروا له الدعم الكامل حتّى كاتب الإمام الحسين عليه السلام

---

(١) الإرشاد / المفيد : ٢ : ٦٧. الفتوح : ٥ : ٧١. العقد الفريد : ٤ : ٣٨٤.

بالقدوم إليهم، ولكن لمّا دهمهم ابن مرجانة ونشر الرعب والفزع في بلادهم تخلّوا عنه، واقفلوا عليهم بيوتهم وراحوا يقولون: مالنا والدخول بين السلاطين[(١)].

إنّ حياتهم العملية لم تكن صدىً لعقيدتهم التي آمنوا بها، فقد كانوا يمنّون قادتهم بالوقوف معهم ثمّ يتخلّون عنهم في اللحظات الحاسمة.

ومن مظاهر ذلك التناقض أنّهم بعدما أرغموا الإمام الحسن عليه السلام على الصلح مع معاوية وغادر مصرهم جعلوا ينوحون ويبكون على ما فرّطوه تجاهه، ولمّا قتلوا الإمام الحسين عليه السلام ودخلت سبايا أهل البيت عليهم السلام مدينتهم أخذوا يعجّون بالنياحة والبكاء فاستغرب الإمام زين العابدين عليه السلام ذلك منهم وراح يقول: **إنّ هٰؤُلَاءِ يَبْكُونَ وَيَنُوحُونَ مِنْ أَجْلِنا، فَمَنْ قَتَلَنا؟!!**[(٢)].

إنَّ فقدان التوازن في حياة ذلك المجتمع جرّ لهم الويلات والخطوب وألقاهم في شرّ عظيم.

ثانياً: الغدر والتذبذب

والظاهرة الأُخرى في المجتمع الكوفي الغدر، فقد كانت من خصائصهم التي اشتهروا بها، وقد ضرب بهم المثل فقيل: أغدر من كوفي[(٣)]، كما ضرب المثل بعدم وفائهم فقيل: الكوفي لا يوفي[(٤)].

وقد وصفهم أميرالمؤمنين عليه السلام بقوله: «**أُسُودٌ رَوَّاعَةٌ، وَثَعالِبُ رَوَّاغَةٌ**».

وقال فيهم: إنّهم أُناس مجتمعة أبدانهم، مختلفة أهواؤهم، وإنّ من فاز بهم

---

(١) الفوائد الرجاليّة: ٤: ٣٧.

(٢) كشف الغمّة: ١: ٥٩٣.

(٣) الفرق بين الفِرق: ٢٦.

(٤) آثار البلاد: ١٦٧.

فاز بالسهم الأخيب، وأنّه أصبح لا يطمع في نصرتهم ولا يصدق قولهم(١).

إنّ للكوفيّين طابعاً خاصاً عرفوا به، وهو النكول في العهد والنكوص عن الوعد والهروب من الحق، وهذه الصفات سمة كل جماعة لم تنضج تربيتها الإيمانية العالية.

لقد كان الجانب العملي في حياتهم هو التقلّب والتردد والتخاذل، وقد غرّوا زيد ابن عليّ عليه السلام الثائر العظيم، فقالوا له: إنّ معك مائة ألف رجل من أهل الكوفة يضربون دونك بأسيافهم(٢)، وقد أحصى ديوانه منهم خمسة عشر ألفاً كانوا قد بايعوه على النصرة(٣)، ثمّ لمّا أعلن الثورة هبط عددهم إلى مائتين وثمانية عشر رجلاً(٤).

وقد نصح داود بن عليّ زيداً بألّا ينخدع بأهل الكوفة، فقال له: يابن عمّ، إنّ هؤلاء يغرونك من نفسك، أليس قد خذلوا من كان أعزّ عليهم منك جدّك عليّ بن أبي طالب عليه السلام حتّى قتل، والحسن عليه السلام من بعده بايعوه ثمّ وثبوا عليه فانتزعوا رداءه من عنقه، وانتهبوا فسطاطه وجرحوه؟ أوليس قد أخرجوا جدّك الحسين عليه السلام وحلفوا له بأوكد الأيمان ثمّ خذلوه وأسلموه؟ ثمّ لم يرضوا بذلك حتّى قتلوه(٥).

وكانوا ينكثون البيعة بعد البيعة، وقد أشار إلى هذه الظاهرة أعشى همدان الذي كان شاعر ثورة عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث الذي ثار على الحجّاج، يقول داعياً على أهل الكوفة:

أَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتَمِّمَ نُورَهُ ... ويُطفِئَ نُورَ الفاسِقِينَ فَيَخمُدا

---

(١) الإمامة والسياسة: ١: ١٥٠ و ١٥١.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٦: ١٤٣ و ١٤٤.

(٣) تاريخ الأُمم والملوك: ٦: ١٤٨.

(٤) تاريخ الأُمم والملوك: ٦: ١٥٧.

(٥) تاريخ الأُمم والملوك: ٦: ١٤٥.

ويُــــنزِلَ ذُلّاً بِــــالعِرَاقِ وَأَهــــلِهِ　　لِما نَقَضُوا العَهدَ الوَثِيقَ المُؤَكَّدا
وَمــا أَحدَثُوا مِن بِدعَةٍ وَعَظيمَةٍ　　مِنَ القَولِ لَمْ تَصْعَدْ إلَى اللهِ مَصْعدا
ومــا نكَثُوا مِــنْ بَــيعَةٍ بَعدَ بَيعَةٍ　　إذا ضَمِنُوها اليومَ خاسُوا بِها غَدَا (١)

ويقول النجاشي في هجائهم :

إذَا سَقَى اللهُ قَوْماً صَوبَ غـادِيَةٍ　　فَلَا سَقَى اللهُ أَهْلَ الكُوفَةِ المَطَرا
أَلْقَــى العَــداوَةَ وَالبَــغْضاءَ بَينَهُمُ　　حَتَّى يَكُونُوا لِمَنْ عاداهُمُ جَزَرا (٢)

وقد عُرفوا بهذا السمت عند جميع الباحثين .

ويرى (فلهوزن) : أنّهم مترددون متقلّبون وأنّهم لم يألفوا النظام والطاعة ، وأنّ الإخلاص السياسي والعسكري لم يكن معروفاً لهم على الإطلاق .

وأكّد ذلك الباحث (وزتر شنين) يقول : « إنّ من صفاتهم المميزة البارزة الهوائية والتقلّب ونقص الثقة بأنفسهم »(٣) .

ولم يكن هذا التذبذب في حياتهم مقتصراً على العامة ، وإنّما كان شائعاً حتّى عند رجال الفكر والأدب ، فسراقة البارقي الشاعر المعروف وقف في وجه المختار ، واشترك في قتاله يوم جبّانة السبيع ، فلمّا انتصر المختار وقع سراقة أسيراً بين يدي أصحاب المختار ، فزجّ به في السجن ، فأخذ سراقة يستعطفه وينظم القصيد في مدحه ، ويذكر مبادئ ثورته ويبالغ في تمجيده ، فكان ممّا قاله فيه :

نُـصِرتَ عَلَى عَدُوِّكَ كُلَّ يَومٍ　　بِكُــلِّ كَــتِيبَةٍ تَـنْعَى حُسَـينا
كَـنَصرِ مُـحَمَّدٍ فِـي يَـومِ بَـدرٍ　　وَيَــومِ الشِّــعبِ إذْ لَاقَـى حُـنَينا

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٥ : ٤٤٦ . الأغاني : ٦ : ٥٣ .

(٢) النقود الإسلاميّة : ١٢٦ .

(٣) السيادة العربيّة : ٧٤ .

فَأَسجِحْ إذْ مَلَكْتَ فَلَوْ مَلَكنا | لَجُرنا فِي الحُكُومَةِ وَاعتَدَينا[١]
تَقَبَّلْ تَوبَةً مِنِّي فَإنِّي | سَأشكُرُ إنْ جَعَلتَ النَّقْدَ دَينَا

ولمّا عفا عنه المختار خرج من الكوفة فلم يبعد عنها قليلاً حتّى أخذ يهجو المختار ويحرّض عليه، وقد قال في هجائه:

أَلا أَبلِغْ أَبا إسحاقَ إنِّي | رَأَيتُ البُلقَ دُهماً مُصمِتاتِ
كَفَرتُ بِوَحيِكُمْ وَجَعَلتُ نَذراً | عَليَّ قِتالَكُم حَتَّى المَماتِ
أُرِي عَيْنَيَّ مالَم تُبصِراهُ | كِلانا عالِمٌ بالتُّرَّهاتِ
إذا قالُوا أَقولُ لَهُم كَذِبتُمْ | وَإنْ خَرجُوا لَبِستُ لَهُم أَدَاتِي[٢]

لقد مضى يصبّ ثورته وسخريته على المختار وأصحابه في نفس الوزن الذي نظم فيه قصيدته السابقة، ومن الطبيعي أنّ هذا التناقض في حياتهم كان ناجماً من الاضطراب النفسي، وعدم التوازن في السلوك.

ومن غرائب ذلك التناقض أنّ بعضهم كان يحتاط في أبسط الأُمور ولا يتحرّج من اقتراف أعظم الموبقات، فقد جاء رجل من أهل الكوفة إلى عبد الله بن عمر يستفتيه في دم البعوض يكون على الثوب أطاهر أم نجس؟ فقال له ابن عمر: من أين أنت؟ فقال: من أهل العراق.

فبهر ابن عمر وراح يقول: انظروا إلى هذا يسألني عن دم البعوض!! وقد قتلوا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد سمعته يقول فيه وفي أخيه: «**هُما رَيْحانَتايَ مِنَ الدُّنْيا**»[٣].

---

(١) **الإسجاح**: حسن العفو ـ لسان العرب: ٦: ١٧٤ ـ سَجَحَ.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٥: ١٧١ و ١٧٢. أنساب الأشراف: ٦: ٤٠١. الأخبار الطوال: ٣٠٣.

(٣) سنن الترمذي: ٥: ٦١٥، الحديث ٣٧٧٠. المعجم الكبير: ٣: ١٢٧، الرقم ٢٨٨٤. الصراط السويّ في مناقب آل النبيّ: ٩٤.

ويعزو بعضهم السبب في هذا الاضطراب إلى الظروف السياسية القاسية التي مرّت عليهم، فإنّ الحكم الأُموي كان قد عاملهم بمنتهى القسوة والشدّة، فرماهم بأقسى الولاة وأشدّهم عنفاً أمثال المغيرة بن شعبة، وزياد بن سميّة ممّا جعل الحياة السياسية ضيقة ومتحرّجة ممّا نجم عنه هذا التناقض في السلوك.

ثالثاً: التمرّد على الولاة

والطابع الخاص الذي عرف به المجتمع الكوفي التمرد على الولاة والتبرّم منهم، فلا يكاد يتولى عليهم والٍ وحاكم حتّى أعلنوا الطعن عليه، فقد طعنوا في سعد بن أبي وقاص مؤسس مدينتهم واتهموه بأنّه لا يحسن الصلاة[١]، فعزله عمر وولّى مكانه الصحابي الجليل عمّار بن ياسر، ولم يلبثوا أن شكوه إلى عمر فعزله، وولّى مكانه أبا موسى الأشعري، ولم تمضِ أيام من ولايته حتّى طعنوا فيه، وقالوا: لا حاجة لنا في أبي موسى[٢]، وضاق عمر بهم ذرعاً وبدا عليه الضجر فسأله المغيرة عن شأنه، فقال له: ما فعلت هذا يا أميرالمؤمنين إلّا من عظيم، فهل نابك من نائب؟

فانبرى عمر يشكو إليه الألم الذي داخله من أهل الكوفة، قائلاً: وأيّ نائب أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير، ولا يرضى عنهم أمير[٣].

وتحدّث عمر عنهم، فقال: من عذيري من أهل الكوفة إن استعملت عليهم القوي فجّروه، وإن ولّيت عليهم الضعيف حقّروه[٤].

لقد جبلوا على التمرّد فهم لا يطيقون الهدوء والاستقرار.

---

(١) فتوح البلدان: ٢٧٧.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٣: ٥٤٨، وجاء فيه: «أنّهم اتهموه بأنّه يتاجر في أقواتهم».

(٣) تاريخ الأُمم والملوك: ٣: ٥٤٨.

(٤) فتوح البلدان: ٢٧٨.

ويرى ديمومبين أنّ هذه الظاهرة اعتادها الكوفيون من أيام الفرس الذين دأبوا على تغيير حكّامهم دوماً(١).

ويذهب فان فلوتن إلى أنّ العرب المستقرّين بالكوفة كانوا قد تعوّدوا على حياة الصحراء بما فيها من ضغن وشحناء وحبّ الانتقام والتخريب والأخذ بالثأر؛ فلذا تعودوا على التمرّد، وعدم الطاعة للنظام(٢).

رابعاً: الانهزامية

والظاهرة الغريبة التي عرف بها المجتمع الكوفي هي الانهزامية، وعدم الصمود أمام الأحداث، فإذا جدّ الجد ولّوا منهزمين على أعقابهم، فقد أجمعوا في حماس على مبايعة مسلم عليه السلام ونصرته، ولمّا أعلن الثورة على ابن مرجانة انفضّوا من حوله حتّى لم يبقَ معه إنسان يدلّه على الطريق. وقد وقفوا مثل هذا الموقف مع زيد بن عليّ عليه السلام، فقد تركوه وحده يصارع جيوش الأمويين، وراح يقول: فعلوها حسينية، وبايعوا عبد الله بن معاوية، فقالوا له: ادعُ إلى نفسك فبنو هاشم أولى بالأمر من بني مروان(٣)، وأخرجوه حيث كان مقيماً، وأدخلوه القصر فبايعوه، ولمّا زحف لقتاله والي الأُمويين عبد الله بن عمر فرّوا منهزمين، ونظر عبدالله بن معاوية فإذا الأرض بيضاء من أصحابه فقد غدر به قائد قواته؛ لأنّه كان على اتفاق مع والي الأُمويين فانهزم وانهزم معه الجيش(٤).

---

(١) النظم الإسلاميّة: ٢٦.

(٢) السيادة العربيّة: ١١.

(٣) تاريخ الأُمم والملوك: ٦: ٢٦٢. وعبد الله المذكور هو ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

(٤) تاريخ الأُمم والملوك: ٦: ٢٦٢. وعبد الله: هو ابن عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم والي الكوفة حينها.

وكان عيسى بن زيد يقول فيهم: لا أعرف موضع ثقة يفي ببيعته، ويثبت عند اللقاء[١].

خامساً: مساوئ الأخلاق

واتصفت الأكثرية الساحقة من أهل الكوفة بمساوئ الأخلاق.

فقد وصفهم الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بقوله: «**إنْ أُهْمِلْتُمْ خُضْتُمْ، وَإنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ، وَإنِ اجْتَمَعَ النّاسُ عَلىٰ إمامٍ طَعَنْتُمْ، وَإنْ جِئْتُمْ إلَىٰ مُشاقَّةٍ نَكَصْتُمْ**»[٢].

ويقول فيهم عبد الله بن الحسن: إنّهم «نفخ العلانية، خور السريرة، هرج في الرخاء، جزع في اللقاء، تقدمهم ألسنتهم، ولا تشايعهم قلوبهم»[٣].

ووصفهم المختار لعبدالله بن الزبير حينما سأله عنهم، فقال: لسلطانهم في العلانية أولياء وفي السر أعداء.

وعلّق ابن الزبير على قول المختار فقال: هذه صفة عبيد السوء إذا رأوا أربابهم خدموهم وأطاعوهم، فإذا غابوا عنهم شتموهم[٤].

وهجاهم أعشى هَمْدان بقوله:

وَجُبناً حَشاهُ ربُّهُمْ في قُلوبِهِمُ فَما يَقْرَبونَ النّاسَ إلّا تَهدُّدا
فَلَا صِدْقَ في قَولٍ وَلَا صَبْرَ عِندَهُمُ وَلَكِنَّ فَخْراً فِيهِمُ وَتَزيُّدا[٥]

ويقول فيهم أبو السرايا:

---

(١) مقاتل الطالبيّين: ٣٥٣.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك: ٦: ١٤٦.

(٣) تاريخ الأُمم والملوك: ٦: ٤٨٩.

(٤) تاريخ الأُمم والملوك: ٥: ٨٤.

(٥) تاريخ الأُمم والملوك: ٥: ٤٤٦.

وَمـارَستُ أَقـطارَ البِـلادِ فَـلَم أَجِـدْ لَكُم شَبَهاً فِيما وَطَـأْتُ مِـنَ الأَرضِ
خِـلَافاً وَجَـهْلاً وَانـتِشارَ عَـزِيمَةٍ وَوَهناً وَعَجْزاً فِي الشَّدائِدِ وَالخَفْضِ
لَقَدْ سَبَقتْ فِيكُمْ إلَى الحَشْـرِ دَعـوَةٌ فَلَا عَنكُمُ راضٍ وَلَا فِيكُمُ مَرضِي[١]
سَأَبعُدُ دَارِي مِنْ قِـليً عَـنْ دِيـارِكُمُ فَذُوقُوا إذا وَلّيتُ عـاقِبَةَ البُـغضِ[٢]

وحلّل الدكتور يوسف خليف هذه الأبيات بقوله: «وأبو السرايا في هذه الأبيات يردد تلك الفكرة القديمة التي عرفت عن أهل الكوفة من أنّهم أهل شقاق ونفاق ومساوئ أخلاق، فيصفهم بالشقاق والجهل وتفرّق العزيمة والضعف والعجز، ويرى أنّ هذه صفاتهم التي تلازمهم دائماً في الحرب والسلم، وهي صفات لم تجعل أحداً من زعمائهم أو أئمتهم يرضى عنهم، وهم منفردون بها من بين سائر البشر في جميع أقطار الأرض التي وطأتها قدماه، ثمّ يعلن في النهاية بغضه لهم واعتزامه البعد عنهم ليذوقوا من بعده سوء العاقبة وسوء المصير»[٣].

ووصفهم أبو بكر الهذلي بقوله: «إنّ أهل الكوفة قطعوا الرحم ووصلوا المثانة، كتبوا إلى الحسين بن عليّ إنّا معك مائة ألف وغرّوه حتّى إذا جاء خرجوا إليه وقتلوه وأهل بيته صغيرهم وكبيرهم، ثمّ ذهبوا يطلبون دمه، فهل سمع السامعون بمثل هذا؟!»[٤].

سادساً: الجشع والطمع

وهناك نزعة عامة سادت في أوساط المجتمع الكوفي، وهي التهالك على المادة

---

(١) يشير إلى دعوة الإمام الشهيد الحسين عليه السلام على أهل الكوفة يوم عاشوراء بقوله: «**وَلَا يُرْضِي الْوُلَاةَ عَنْكُمْ أَبَداً**».

(٢) مقاتل الطالبيّين: ٤٤٤.

(٣) حياة الشعر في الكوفة: ٤٤٥.

(٤) مختصر البلدان: ١٧٣.

والسعيّ على حصولها بكل طريق ، فلا يبالون في سبيلها بالعار والخزي ، ولقد لعبت هذه الجهة دورها الخطير في إخفاق ثورة مسلم عليه السلام ، فقد بذل ابن زياد الأموال بسخاء للوجوه والأشراف فخفّوا إليه سراعاً فغدروا بمسلم ونكثوا عهودهم ، وقد ملكهم ابن زياد بعطائه فأخرجهم لحرب ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن أقسموا الأيمان المغلّظة على نصرته والذبّ عنه .

سابعاً : التأثر بالدعايات

وظاهرة أُخرى من ظواهر المجتمع الكوفي وهي سرعة التأثر بالدعايات من دون فحص ووقوف على واقعها ، وقد استغلّ هذه الظاهرة الأُمويون أيام (مَسْكِن)[١] فأشاعوا في أوساط الجيش العراقي أنّ الحسن صالح معاوية ، وحينما سمعوا بذلك ماجوا في الفتنة وارتطموا في الاختلاف ، فعمدوا إلى أمتعة الإمام الحسن عليه السلام فنهبوها ، كما اعتدوا عليه فطعنوه في فخذه ، ولمّا أذاعت عصابة ابن زياد بين جيش مسلم عليه السلام أنّ جيش أهل الشام قد أقبل إليكم فلا تجعلوا أنفسكم عرضة للنقمة والعذاب ، وسمعوا ذلك انهارت أعصابهم ، وولّوا منهزمين ، وأمسى ابن عقيل وحده ليس معه إنسان يدلّه على الطريق .

هذه بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الكوفة ، وهي تكشف عن ضحالة ذلك المجتمع ، وانهياره أمام الأحداث ، فلم تكن له إرادة صلبة ولا وعي اجتماعي أصيل ، وقد جرّوا لهم بذلك الويل ، فدمّروا قضاياهم المصيرية وتنكّروا لجميع حقوقهم ، وفتحوا المجال للطاغية ابن مرجانة أن يتحكّم فيهم ويصبّ عليهم وابلاً من العذاب الأليم .

---

(١) **مَسكِن** : موضع قريب من (أوانا) على نهر دُجيل عند دير الجاثليق ، وفيه قُتل مصعب بن الزبير ـ معجم البلدان : ٥ : ١٤٩ .

الحياة الاقتصادية

أمّا الحياة الاقتصادية في الكوفة فكانت تتسم بعدم التوازن ، فقدكانت فيها الطبقة الأرستقراطية التي غرقت في الثراء العريض ، فقد منحتها الدولة الأُموية أيام عثمان ومعاوية الهبات والامتيازات الخاصة فأثرت على حساب الضعفاء والمحرومين ، ومن بين هؤلاء :

الأوّل : الأشعث بن قيس ، وقد اشترى في أيام عثمان أراضي واسعة في العراق ، وكان في طليعة الإقطاعيّين في ذلك العصر ، وهو الذي أرغم الإمام علي‌عليه‌السلام على قبول التحكيم ؛ لأنّ حكومته كانت تهدد مصالحه وامتيازاته الخاصة .

الثاني : عمرو بن حريث ، وكان أثرى رجل في الكوفة[1] ، وقد لعب دوراً خطيراً في إفساد ثورة مسلم‌عليه‌السلام وشلّ حركتها .

الثالث : شَبَثُ بن ربعي ، وهو من الطبقة الأرستقراطية البارزة في الكوفة[2] ، وهو أحد المخذّلين عن مسلم‌عليه‌السلام ، كما تولى قيادة بعض الفرق التي حاربت الإمام الحسين‌عليه‌السلام .

هؤلاء بعض المثرين في ذلك العصر ، وكانوا يداً لابن مرجانة وساعده القوي ، فقد كانوا يملكون نفوذاً واسعاً في الكوفة ، وقد استطاعوا أن يعلنوا معارضتهم للمختار رغم ما كان يتمتع به من الكتل الشعبية الضخمة المؤلفة من الموالي والعبيد ، وهم الذين أطاحوا بحكومته .

أمّا الأكثرية الساحقة في المجتمع الكوفي فكانت مرتبطة بالدولة تتلقى مواردها المعاشية منها باعتبارها المعسكر الرئيسي للدولة فهي التي تقوم بالإنفاق عليها ،

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٣ : ٥٠٨ . وفيه : «أنّ عمرو بن حريث كان أكثر أهل الكوفة مالاً» .

(٢) حياة الشعر في الكوفة : ١٦٨ .

وقد عانى بعضهم الحرمان والبؤس ، وقد صوّر الشاعر الأسدي سوء حياته الاقتصادية بقصيدة يمدح بها بعض نبلاء الكوفة لينال من معروفه وكرمه ، يقول فيها :

يـا أَبـا طَـلْحةَ الجَـوادِ أَغِـثْنِي ... بِسِـجالٍ مِـن سَـيبِكَ المَـقسُومِ
أَحْيِي نَفْسِي ـ فَدَتكَ نَفْسِي ـ فَإِنّي ... مُفلِسٌ ـ قَد عَلِمتَ ذَاكَ ـ عَـديمِ
أَوْ تَــطوَّعْ لَـنا بِسُـلْتٍ دَقـيقٍ ... أَجـرُهُ ـ إِنْ فَـعَلتَ ذَاكَ ـ عَـظيم
قَـدْ عَـلِمتُمْ فَـلا تُـعامِسَ عَـنِّي ... مـا قَـضى اللهُ فِـي طَـعامِ اليَـتيمِ
لَـيسَ لِـي غَـيرُ جَـرَّةٍ وَأَصيصٌ ... وَكِـتابٌ مُـنَمنَمٌ كـالوشُومِ
وَكِسـاءٌ أَبـيعُهُ بِـرَغيفٍ ... قَـد رَقـعنا خُـروقَهُ بِـأَدِيمِ
وَإِكـافٌ أَعـارَنيهِ نَشِـيطٌ ... وَلِـحافٌ لِكُـلِّ ضَـيفٍ كَـرِيمِ[١]

أرأيت هذا الفقر المدقع الذي دعا الشاعر إلى هذا الاستعطاف والتذلل ؟! إنّها مشكلة الفقر الذي أخذ بخناقه .

وعلّق شوقي ضيف على هذه الأبيات بقوله : « ومن هنا ارتفع صوت المال في القصيدة الأُموية ، واحتل جوانب غير قليلة منها ، فقد كان أساسياً في حياة الناس . فطبيعي أن يكون أساسياً في فنّهم وشعرهم ؛ أليس المال دعامة هامة من دعائم الحياة ؟! فلِمَ لا يكون دعامة هامة من دعائم البناء الفني ؟! إنّه يستتر في قاع الحياة ، وقاع الشعر ؛ لأنّ الشعر إنّما هو تعبير عن الحياة »[٢] .

إنّ الحياة الاقتصادية تؤثّر تأثيراً عميقاً وفعّالاً في كيان المجتمع ، وتلعب دوراً خطيراً في توجيه المجتمع نحو الخير أو الشر ، وقد ثبت أنّ كثيراً من الجرائم التي يقترفها بعض المصابين في سلوكهم إنّما جاءت نتيجة لفقرهم وبؤسهم أو لجشعهم

---

(١) الحيوان / الجاحظ : ٥: ٢٩٧ ، ٢٩٩.

(٢) التطوّر والتجديد في الشعر الأموي : ١٣٤.

على تحصيل المادة، وقد اندفع أكثر الجيش الذي خرج لحرب الإمام الحسين عليه السلام حينما منّاهم ابن مرجانة بزيادة مرتباتهم التي يتقاضونها من الدولة.

وعلى أيّة حال فإنّ سوء الحالة الاقتصادية في الكوفة كانت من الأسباب الفعالة في إخفاق ثورة مسلم عليه السلام وتحوّل الجماهير عنه حينما أغدق ابن زياد الأموال على الوجوه والعرفاء وغيرهم فاندفعوا إلى القيام بمناهضة مسلم عليه السلام وصرف الناس عنه.

عناصر السكان

كانت الكوفة أُمميّة قد امتزجت فيها عناصر مختلفة في لغاتها، ومتباينة في طباعها وعاداتها وتقاليدها فكان فيها العربي والفارسي والنبطي إلى جانب العبيد وغيرهم، ولم تعد مدينة عربية خالصة كمكة والمدينة، وإنّما كانت مدينة أهلها أخلاط من الناس ـ كما يقول اليعقوبي ـ وقد هاجرت إليها هذه العناصر باعتبارها المركز الرئيسي للمعسكر الإسلامي، فمنها تتدفق الجيوش الإسلامية للجهاد، كما تتدفق بها المغانم الكثيرة التي وعد الله بها المجاهدين، وقد بلغ نصيب الجندي المقاتل من فيء المدائن اثني عشر ألفاً[١]، ممّا دعا ذلك إلى الهجرة إليها باعتبارها السبيل إلى الثروة، ونشير إلى بعض تلك العناصر:

الأوّل: العرب

وحينما تمّ تأسيس الكوفة على يد فاتح العراق سعد بن أبي وقّاص اتجهت إليها أنظار العرب، وتسابقوا إلى الهجرة إليها، فقد سكنها في وقت مبكّر سبعون بدرياً وثلاثمائة من أصحاب الشجرة[٢].

---

(١) مختصر كتاب البلدان: ١٦٦.

(٢) الطبقات الكبرى: ٦: ٩.

وقد ترجم ابن سعد في طبقاته مائة وخمسين صحابياً ممّن نزلوا الكوفة[١].

ويقول فيها السفاح: «وهي ـ أي الكوفة ـ منزل خيار الصحابة وأهل الشرف»[٢]، أمّا القبائل العربية التي سكنتها، فهي:

أوّلاً: القبائل اليمنية: وتسابقت القبائل اليمنية إلى سكنى الكوفة، فكان عددهم ـ فيما يقول المؤرخون ـ اثني عشر ألفاً[٣]، وهي: قُضاعة، غَسّان، بَجِيْلَة، خَثْعَم، كِنْدَة، حَضْرَمَوت، الأزد، مَذْحِج، حِمْيَر، هَمْدان، النَخَع.

فهذه هي الأُسر التي تنتمي إلى اليمن، وقد استوطنت الكوفة، ونزلت في الجانب الشرقي من المسجد.

ويرى (فلهوزن): أنّ القبائل المشهورة من اليمن ـ وهي مَذحِج، وهَمْدان، وكِنْدة ـ قد كانت لها السيطرة والسيادة على الكوفة.

ويقول عبد الملك بن مروان بعد دخوله إلى الكوفة حينما جاءته قبائل مَذحِج وهَمْدان: ما أرى لأحد مع هؤلاء شيئاً.

ثانياً: القبائل العدنانية: أمّا القبائل العدنانية التي سكنت الكوفة فكان عددها ثمانية آلاف شخص، وهي تتشكل من أُسرتين: تَمِيم، بَنُو العَصر.

ثالثاً: قبائل بني بكر: وسكنت الكوفة قبائل بني بكر، وهي عدّة أُسر، منها: بنو أَسَد، غَطَفان، مُحارِب، نُمَير.

وهناك مجموعة أُخرى من القبائل العربية استوطنت الكوفة، وهي: كِنانة، وجُدَيلة، وضُبَيعة، وعَبد القيس، وتَغْلب، وإياد، وَطَيء، وثَقيف، وعامِر،

---

(١) تاريخ الكوفة: ٣٩٧ ـ ٤١٠. الطبقات الكبرى: الجزء ٦.

(٢) مختصر كتاب البلدان: ٧٣.

(٣) معجم قبائل العرب: ١: ١٥. فتوح البلدان: ٢٧٦. معجم البلدان: ٤: ٥٥٩.

ومُزَينة[(١)].

ويرى (ماسنيون) أنّه إلى جانب القرشيّين الذين سكنوا الكوفة عناصر شديدة البداوة من سكّان الخيام وبيوت الشعر ، وأصحاب الإبل من بني دارم التميمي وجيرانهم اليمنيّين القدماء من طيء ، وعناصر نصف رحّالة من ربيعة وأسد من الغرب والشمال الغربي ، وبكر من الشرق والجنوب الشرقي ، وعبد القيس الذين جاءوا من هَجَر من الجنوب الشرقي . ثمّ عناصر متحضّرة من القبائل الجنوبية الأصيلة العربية الذين نزحوا من اليمن وحضرموت ، وهؤلاء كانوا قسمين : عناصر نصف متحضرة من كندة وبجيلة ، وعناصر متحضرة تماماً من سكان المدن والقرى اليمنية من مَذحِج وحِميَر وهَمْدان[(٢)].

إنّ العنصر العربي الذي استوطن الكوفة منذ تأسيسها كان مزيجاً من اليمانية والنزارية وغيرهما ، ولكنّ اليمانية كانت أكثر عدداً كما كان تأثيرها في حياة المجتمع الكوفي أشدّ من غيرها .

الروح القبلية

وسادت في قبائل المجتمع العربي في الكوفة الروح القبلية فكانت كل قبيلة تنزل في حيّ معين لها لا يشاركها فيه إلّا حلفاؤها ، كما كان لكلّ قبيلة مسجدها الخاص ، ومقبرتها الخاصة .

ويرى ماسنيون أنّ جبّانات الكوفة هي إحدى الصفات المميزة لطوبوغرافيّتها[(٣)].

---

(١) الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة في الكوفة : ٤٢ .

(٢) خطط الكوفة : ٥٣ .

(٣) **الطوبوغرافيا** : الوصف أو الرسم الدقيق للأماكن أو لسماتها السطحية ، وتشمل الهضاب والطرق والأودية والبحيرات ـ المورد : ٩٧٧ .

كما سميت شوارعها وسككها بالقبائل التي كانت تقطن فيها [١]، وغدت المدينة صورة تامة للحياة القبلية، وبلغ الإحساس بالروح القبلية والتعصب لها إلى درجة عالية، فكانت القبائل تتنافس فيما بينها على إحراز النصر كما حدث في واقعة الجمل. ومن هنا غلب على الحياة فيها طابع الحياة الجاهلية[٢].

ويحدثنا ابن أبي الحديد عن الروح القبلية السائدة في الكوفة بقوله: «إنّ أهل الكوفة في آخر عهد عليّ كانوا قبائل، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمرّ بمنازل قبيلة أُخرى، فينادي باسم قبيلته يا للنخع أو يالكندة، فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مرّ بها فينادون يالتميم أو يالربيعة، ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه فيمضي إلى قبيلته فيستصرخها فتسل السيوف وتثور الفتنة»[٣].

لقد كانت الروح القبلية هي العنصر البارز في حياة المجتمع الكوفي، وقد استغلّ ابن سمية هذه الظاهرة في إلقاء القبض على حُجْر وإخماد ثورته، فضرب بعض الأُسر ببعض، وكذلك استغلّ هذه الظاهرة ابنه للقضاء على حركة مسلم عليه السلام وهانئ وعبد الله بن عفيف الأزدي.

الثاني: الفرس

وإلى جانب العنصر العربي الذي استوطن الكوفة كان العنصر الفارسي، وكانوا يسمون الحَمْراء[٤]، وقد سألوا عن أمنع القبائل العربية فقيل لهم: تميم، فتحالفوا معهم[٥]. وأكبر موجة فارسية استوطنت الكوفة عقيب تأسيسها هي المجموعة

---

(١) خطط الكوفة: ٦٧، ٧١.

(٢) التطوّر والتجديد في الشعر الأُموي: ٨٠ و ٨١.

(٣) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١٣: ١٦٧.

(٤) الأخبار الطوال: ٢٨٨. فتوح البلدان: ٢٧٩. تاريخ الكوفة: ١١٦.

(٥) تاريخ الأُمم والملوك: ٣: ٣٢٣. فتوح البلدان: ٢٧٩. تاريخ الكوفة: ١١٦.

الضخمة من بقايا فلول الجيوش الساسانية التي انضمّت إلى الجيش العربي وأخذت تقاتل معه ، وقد عرفت في التاريخ باسم (حمراء ديلم) فكان عددهم ـ فيما يقول المؤرخون ـ أربعة آلاف جندي يرأسهم رجل يسمى (ديلم) قاتلوا معه تحت قيادة رستم في القادسية ، فلمّا انهزمت الفرس وقتل رستم عقدوا أماناً مع سعد بن أبي وقّاص ، وشرطوا عليه أن ينزلوا حيث شاءوا ، ويحالفوا من أحبّوا وأن يفرض لهم العطاء ، وقد حالفوا زهرة بن حُوَيّة التميمي أحد قادة الفتح ، وفرض لهم سعد في ألف ألف ، وأسلموا وشهدوا فتح المدائن معه كما شهدوا فتح جلولاء ، ثمّ تحوّلوا فنزلوا الكوفة[١] ، وقد كونت هذه الجالية مجموعة كبيرة في المجتمع الكوفي .

ويذكر (فلهوزن) أنّهم كانوا أكثر من نصف سكان الكوفة ، وقد أخذ عددهم بازدياد حتّى تضاءلت نسبة العرب في الكوفة ، وتغلبوا في عصر المأمون حتّى كانت اللغة الفارسية تحتل الصدارة في ذلك العصر[٢] .

ويقول الجاحظ : « إنّ اللغة الفارسية أثرت تأثيراً كبيراً في لغة الكوفة »[٣] .

وعلى أيّة حال فإنّ الفرس كانوا يشكّلون عنصراً مهماً في الكوفة ، وكوّنوا بها جالية متميزة ، فكان أهل الكوفة يقولون : « جئت من حمراء ديلم »[٤] .

ويقول البلاذري : « إنّ زياداً سيّر بعضهم إلى الشام ، وسيّر قوماً منهم إلى البصرة »[٥] ، وقد شاركت هذه الجالية في كثير من الفتوحات الإسلامية ، كما شكّلت المد العالي للإطاحة بالحكم الأُموي .

---

(١) فتوح البلدان : ٢٧٩ . خطط الكوفة : ٤٧ و ٤٨ .

(٢) تاريخ الدولة العربيّة : ٨٣ و ٨٤ .

(٣) البيان والتبيين : ١ : ٣٤ .

(٤) اتّجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري : ٥٥ .

(٥) فتوح البلدان : ٢٧٩ .

الثالث: الأنباط

وكانت الأنباط من العناصر التي سكنت الكوفة، وقد أثّروا في الحياة العامة تأثيراً عقلياً واجتماعياً، ويقول المؤرخون: إنّ الأنباط ليسوا عنصراً خاصاً من البشر وإنّما هم من العرب، وكانوا يستخدمون اللغة الآراميّة في كتابتهم، وكانوا يستوطنون بلاد العرب الصخرية، وقد انتقلوا منها إلى العراق، واشتغلوا بالزراعة، وكانوا ينطقون بلغتهم الآراميّة[1]، وقد أثّروا تأثيراً بالغاً في حياة الكوفة.

يقول أبو عمرو بن العلاء لأهل الكوفة: «لكم حذلقة النبط وصلفهم، ولنا دهاء فارس وأحلامهم»[2].

ويروي الطبري: أنّ رجلاً من بني عبس أسر رجلاً من أهل نهاوند اسمه دينار، وكان يواصل العبسي ويهدي إليه، وقد قدم الكوفة في أيام معاوية، فقام في الناس وقال لهم: يا معشر أهل الكوفة، أنتم أوّل من مررتم بنا كنتم خيار الناس، فعمرتم بذلك زمان عمر وعثمان، ثمّ تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع: بخل، وخِبّ، وغَدر، وضيق، ولم يكن فيكم واحدة منهن، فرافقتكم فإذا ذلك في مولّديكم، فعلمت من أين أُتيتم[3].

ويرى دي بود أنّ التغير الاجتماعي وتبدّل الأخلاق في الكوفة قد نشأ في وقت مبكّر أيام معاوية بن أبي سفيان[4].

ومن الطبيعي أنّ للأنباط ضلعاً كبيراً في هذا التغيير.

---

(١) الحضارة الإسلاميّة: ٩٧.

(٢) البيان والتبيين: ٢: ٨٩.

(٣) تاريخ الأُمم والملوك: ٣: ٥٢٤.

(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام: ١٥ ـ ١٨.

الرابع: السريان

والعنصر الرابع الذي شارك في تكوين الكوفة هم السريان، فقد كانوا منتشرين في العراق قبل الفتح الإسلامي، وكان الكثيرون منهم مقيمين على حوض دجلة، وبعضهم كان مقيماً في الحيرة والكوفة، وقد ارتبطوا بأهل الكوفة وتأثّروا بعاداتهم وأخلاقهم، فإنّ الحياة الاجتماعية ـ كما يقول علماء الاجتماع ـ حياة تأثير وتأثّر فكلّ إنسان يتأثّر ويؤثّر فيمن حوله.

هذه هي العناصر التي شاركت في استيطان الكوفة وبناء مجتمعها فهي لم تكن عربية خالصة وإنّما امتزجت بها هذه العناصر، وقد نشأت بينها المصاهرة، فنشأ جيل مختلط من هذه العناصر، ولكن التغلّب الجنسي كان للعرب باعتبارهم الأكثرية الساحقة في القطر، فقد أصبحت التقاليد الدينية والعادات الاجتماعية خاضعة للعرب، كما كانت لهم الكلمة العليا في البلاد.

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن عناصر السكان في الكوفة.

الأديان

ولم يكن المجتمع الكوفي يدين بدين واحد، وإنّما كانت فيه أديان متعددة، ولكلّ دين الحرية في إقامة طقوسه الدينية، وهذه بعضها:

الإسلام

وكان الإسلام دين الأكثرية الساحقة للعرب الذين استوطنوا الكوفة فإنّها إنّما أنشئت لتكون حامية للجنود الإسلامية التي كانت تبعث بهم الدولة لحركات الفتوح وعمليات الجهاد، ولكن الإسلام لم ينفذ إلى أعماق قلوب الكثيرين منهم، وإنّما جرى على ألسنتهم طمعاً بثمرات الفتوح التي أفاء الله بها على المجاهدين. وقد أكّد علم الاجتماع أنّ التحوّل الاجتماعي لا يكون إلّا بعد أجيال وأجيال، وأنّ المجتمع

يظلّ محافظاً على عاداته وتقاليده التي اكتسبها من آبائه ، ويؤيد ذلك ما مُني به من الحركات الفكرية التي تتنافى مع الإسلام ، وإلى الانقسامات الخطيرة بين صفوفه ، ونشير إلى بعض تلك الانقسامات :

أوّلاً : الخوارج

واعتنق هذه الفكرة القرّاء وأصحاب الجباه السود حينما رفعت المصاحف في صفين ، وقد أرغموا الإمام على قبول التحكيم بعد ما مُني معاوية بالهزيمة الساحقة ، فاستجاب لهم الإمام على كره ، وقد حذّرهم من أنّها مكيدة وخديعة فلم يكن يجدي ذلك معهم ، وأصرّوا على فكرتهم ، ولمّا استبان لهم ضلال ما اقترفوه أقبلوا على الإمام وهم يقولون له : إنّا قد كفرنا وتبنا ، فأعلن توبتك وقر على نفسك بالكفر لنكون معك فأبى عليه السلام فاعتزلوه ، واتخذوا لهم شعار « لا حكم إلّا لله »[١] .

وانغمسوا في الباطل وماجوا في الضلال ، فحاربهم الإمام وقضى على الكثيرين منهم إلّا أنّ البقية الباقية منهم ظلّت تواصل نشر أفكارها بنشاط ، وقد لعبت دوراً مهمّاً في إفساد جيش الإمام الحسن عليه السلام حتّى اضطر إلى الصلح مع معاوية ، كما كان أكثر الجيش الذي زجّه ابن زياد لحرب الإمام الحسين عليه السلام من الخوارج وكانوا موتورين من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فروّوا أحقادهم من أبنائه الطيبين في كارثة كربلاء .

ثانياً : الحزب الأموي

وهؤلاء يمثّلون وجوه الكوفة وزعماءها ، كقيس بن الأشعث ، وعمرو بن الحجّاج الزبيدي ، ويزيد بن الحرث ، وشَبَث بن ربعي ، وعمرو بن حريث ، وعمر بن سعد ، وكانوا يدينون بالولاء لبني أُمية ، ويرون أنّهم أحقّ بالخلافة وأولى بزعامة الأُمة من

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٣٢٠ .

آل البيت عليهم السلام ، وقد لعبوا دوراً خطيراً في فشل ثورة مسلم عليه السلام ، كما زجّوا الناس لحرب الإمام الحسين عليه السلام .

ثالثاً: الشيعة

وهي التي تدين بالولاء لأهل البيت عليهم السلام ، وترى أنّه فرض ديني ، وقد أخلصت شيعة الكوفة في الولاء لهم ، أمّا مظاهر حبّهم ، فهي :

الأوّل: الخطب الحماسية التي يمجّدون فيها أهل البيت عليهم السلام ، ويذكرون فضلهم ومآثرهم ، وما شاهدوه من صنوف العدل والحقّ في ظلّ حكومة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

الثاني: الدموع السخية التي يهريقونها حينما يذكرون آلام آل البيت عليهم السلام وما عانوه في عهد معاوية من التوهين والتنكيل .

ولكنّهم لم يبذلوا أيّة تضحية تذكر لعقيدتهم ، فقد كان تشيعهم عاطفياً لا عقائدياً ، وقد تخلوا عن مسلم عليه السلام وتركوه فريسة بيد الطاغية ابن مرجانة .

ويروي البلاذري : أنّهم كانوا في كربلاء وهم ينظرون إلى ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وقد تناهبت جسمه الشريف السيوف والرماح فكانوا يبكون ، ويدعون الله قائلين : اللّهمّ أنزل نصرك على ابن بنت نبيك ، فانبرى إليهم أحدهم فأنكر عليهم ذلك الدعاء ، وقال لهم : هلاّ تهبّون إلى نصرته بدل هذا الدعاء ؟ وقد جرّدهم الإمام الحسين عليه السلام من إطار التشيع وصاح بهم يا شيعة آل أبي سفيان[1] .

والحقّ أنّ الشيعة بالمعنى الصحيح لم تكن إلّا فئة نادرة في ذلك العصر ، وقد التحق بعضهم بالإمام الحسين عليه السلام واستشهدوا معه ، كما زُجّ الكثيرون منهم في ظلمات السجون .

---

(١) اللهوف : ٧١.

روى زيد بن أرقم عن الحسين عليه السلام ، قال : « **ما مِنْ شيعَتِنا إلاَّ صِدِّيقٌ شَهِيدٌ** .

قال : قلت له : جعلت فداك ؛ أنّى يكون ذلك وعامتهم يموتون على فراشهم ؟

فقال : **أَما تَتْلُو كِتابَ اللهِ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصِّدِيقُونَ والشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِهِم ﴾**[١] .

قال : فقلت : كأنّي لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله تعالى .

قال : **لَوْ كانَ الشُّهَداءُ لَيْسَ إلَّا كَما تَقُولُ لَكانَ الشُّهَداءُ قَلِيلاً** »[٢] .

وعلى أيّة حال فلم يكن المسلمون في الكوفة على رأي واحد وإنّما كانت هناك انقسامات خطيرة بين صفوفهم .

النصارى

من العناصر التي سكنت الكوفة النصارى ، فقد أقبلوا إليها من الحيرة بعد زوال مجدها ، وقد أقاموا لهم في الكوفة عدّة كنائس ، فقد كانت لهم كنيسة في ظهر قبلة المسجد الأعظم[٣] وكان لهم أسقفان أحدهما نسطوري ، والآخر يعقوبي[٤] ، وكانوا طائفتين :

أُولاهما : نصارى تغلب : وقد استوطنوا الكوفة عند تخطيطها مع سعد ، وكانت لهذه الطائفة عزّة ومنعة[٥] ، وقد رفض أبناؤها دفع الجزية ممّا اضطر عمر أن يعاملهم معاملة المسلمين فجعل جزيتهم مثل صدقة المسلمين[٦] .

ثانيهما : نصارى نجران : وقد نزلوا الكوفة في خلافة عمر ، واستوطنوا في ناحية

---

(١) الحديد ٥٧ : ١٩ .

(٢) المحاسن : ١ : ٢٦٥ ، باب المؤمن صدّيقٌ شهيدٌ ، الحديث ٥١٢ .

(٣) فتوح البلدان : ٢٨٤ .

(٤) خطط الكوفة : ١٠٢ و ١٠٣ .

(٥) و (٦) تاريخ الأُمم والملوك : ٣ : ٤٥٨ .

منها سميت محلة النجرانية[١].

وقد شاركت النصارى مشاركة إيجابية في كثير من أعمال الدولة، فقد اتخذ أبو موسى الأشعري ـ أمير الكوفة ـ كاتباً نصرانياً[٢]، كما ولّى الوليد بن عقبة ـ والي عثمان ـ رجلاً مسيحياً لإدارة شؤون مسجد قريب من الكوفة[٣].

وقد شغل المسيحيون في الكوفة أعمال الصيرفة، وكوّنوا أسواقاً لها[٤]، وكانت الحركة المصرفية بأيديهم، كما كانوا يقومون بعقد القروض لتسهيل التجارة. وكانت تجارة التبادل والصيرفة بأيديهم[٥]، وقد مهروا في الصيرفة ونظموها على شكل يشبه البنوك في هذا العصر.

وكانت هذه البنوك الأهلية تستقرض منها الحكومة المحلية الأموال إذا حدثت ثورة في القطر، فكانت الأموال توزّع على أعضاء الثورة لإخمادها، وقد استقرض منها ابن زياد الأموال فوزّعها على وجوه الكوفة وأشرافها للقضاء على ثورة مسلم عليه السلام.

وعلى أيّة حال فإن المجتمع الكوفي كان مزيجاً من المسلمين والمسيحيّين وكانت العلاقة بينهما وثيقة للغاية.

اليهود

واستوطن اليهود الكوفة سنة (٢٠هـ)[٦]، وقد قدم قسم كبير منهم من الحجاز بعد

---

(١) حياة الشعر في الكوفة: ١٤٤.

(٢) عيون الأخبار: ١: ٤٣.

(٣) الأغاني: ٥: ٩٧.

(٤) تاريخ الكوفة: ١٤٧ و ١٤٨. يبدأ سوق البنوك والصيرفة من مسجد سهيل إلى المسجد الأعظم، كما نصّت على ذلك بعض المصادر.

(٥) خطط الكوفة: ٩٧.

(٦) نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق / يوسف رزق الله غنيمة: ١٠٣.

أن أجلاهم منه عمر بن الخطاب[١]، وقد كانت لهم محلّة تعرف باسمهم في الكوفة، كما بنوا فيهامعابد لهم. ويذكر الرحالة (بنيامين) أنّ بالكوفة سبعة آلاف يهوديّ، وفيها قبر يسكنه اليهود وحوله كنيس لهم[٢]. وقد زاولوا بعض الحِرف التي كان العرب يأنفون منها كالصياغة وغيرها، وكانت اليهود تحقد على الرسول صلى الله عليه وآله أعظم ما يكون الحقد؛ لأنّه أباد الكثيرين منهم وألحق بهم العار والهزيمة، وقد قاموا بدور فعّال ـ فيما يقول بعض المحقّقين ـ في مجزرة كربلاء تشفّياً من النبيّ صلى الله عليه وآله بأبنائه وذرّيّته.

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن بعض الأديان السائدة في الكوفة، وقد اشترك معظمها في حركات الجهاد وعمليات الحروب في ذلك العصر.

تنظيم الجيش

وأنشأت الكوفة لتكون معسكراً للجيوش الإسلامية، وقد نظّم الجيش فيها على أساس قبلي كما كانوا مرتّبين وفق قبائلهم، وكانوا يقسّمون في معسكراتهم باعتبار القبائل والبطون التي ينتمون إليها، وقد رتّبت كما يلي:

نظام الأسباع

ووزّع الجيش توزيعاً سباعياً يقوم قبل كل شيء على أساس قبلي بالرغم من أنّهم كانوا يقاتلون في سبيل الله إلّا أنّ الروح القبلية كانت سائدة ولم تضعف، وفيما يلي أنظمتها:

السبع الأوّل: كنانة وحلفاؤها من الأحابيش وغيرهم، وجديلة، وكانوا أعواناً

---

(١) الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة في الكوفة: ١٠٥.

(٢) رحلة بنيامين / ترجمة عزار حدّاد: ١٤٦.

طيعين للولاة القرشيّين منذ إمارة سعد ، وتولوا بإخلاص عمّال بني أُمية وولاتهم.

السبع الثاني : قضاعة ، وغسان ، وبجيلة ، وخثعم ، وكندة ، وحضرموت ، والأزد.

السبع الثالث : مَذحِج ، وحِمْيرَ ، وهَمْدان وحلفاؤهم ، وقد اتسموا بالعداء لبني أُمية والمساندة الكاملة للإمام عليّ وأبنائه عليهم السلام .

السبع الرابع : تميم ، وسائر الرباب وحلفاؤهما.

السبع الخامس : أسد ، وغطفان ، ومحارب ، وضبيعة ، وتغلب ، والنمر.

السبع السادس : إياد ، وعكّ ، وعبد القيس ، وأهل هجر ، والحمراء.

السبع السابع : طيّء[(١)].

وتحتوي هذه الأسباع على قطعات قبلية من الجيش ، وقد استعمل هذا النظام لأجل التعبئة العامة للحروب التي جرت في ذلك العصر ، وتوزيع الغنائم عليها بعد العودة من الحرب ، وظلّت الكوفة على هذا التقسيم ؛ حتّى إذا كانت سنة (٥٠ هـ) عمد زياد بن أبيه حاكم العراق فغيّر ذلك المنهج وجعله رباعياً ، فكان على النحو التالي :

الأوّل : أهل المدينة ، وجعل عليهم عمرو بن حريث.

الثاني : تميم ، وهمدان ، وعليهم خالد بن عرفطة.

الثالث : ربيعة وبكر ، وكندة ، وعليهم قيس بن الوليد بن عبد شمس.

الرابع : مذحج ، وأسد[(٢)] ، وعليهم أبو بردة بن أبي موسى.

وإنّما عمد إلى هذا التغيير لإخضاع الكوفة لنظام حكمه ، كما أنّ الذين انتخبهم

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٣ : ٤٥٢. تاريخ الكوفة : ١٤٢. حياة الشعر في الكوفة : ٢٩ و ٣٠.

(٢) تاريخ الأُمم والملوك : ٤ : ٤٩٠. خطط الكوفة : ٦١.

لرئاسة الأنظمة قد عرفوا بالولاء والإخلاص للدولة ، وقد استعان بهم ابن زياد لقمع ثورة مسلم عليه السلام ، كما تولّى بعضهم قيادة الفرق التي زجّها الطاغية لحرب الإمام الحسين عليه السلام ، فقد كان عمرو بن حريث وخالد بن عرفطة من قادة ذلك الجيش.

أمّا رؤساء الأنظمة فقد كانت الدولة لاتنتخب إلّا من ذوي المكانة الاجتماعية المعروفين بالنجدة والبسالة والتجربة في الحرب[1] ، ورؤساء الأرباع يكونون خاضعين للسلطة الحكومية ، كما أنّ اتصال السلطة بالشعب يكون عن طريقهم ، ونظراً لأهميتهم البالغة في المصر فقد كتب إليهم الإمام الحسين عليه السلام يدعوهم إلى نصرته والذبّ عنه[2].

العُرفاء

وكانت الدولة تعتمد على العرفاء[3] ، فكانوا يقومون بأُمور القبائل ويوزّعون عليهم العطاء ، كما كانوا يقومون بتنظيم السجلّات العامة التي فيها أسماء الرجال والنساء والأطفال ، وتسجيل من يولد ليفرض له العطاء من الدولة ، وحذف العطاء لمن يموت[4].

كما كانوا مسؤولين عن شؤون الأمن والنظام ، وكانوا في أيام الحرب يندبون الناس للقتال ويحثّونهم على الحرب ، ويخبرون السلطة بأسماء الذين يتخلّفون عن

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك : ٣: ٤٥٢ و ٤٥٣.

(٢) أنساب الأشراف : ٣: ٣٧٠.

(٣) **العرفاء** ـ جمعٌ مفرده عريف ـ: وهو من يعرف أصحابه ، ومنه الحديث : «**فارجِعُوا حَتَّىٰ يَرفَعَ إلَينا عُرَفاؤُكُم أمرَكُمْ**».

والعريف : هو القائم بأُمور القبيلة والجماعة من الناس يلي أُمورهم ، ويتعرّف الأمير منه أحوالهم ـ تاج العروس : ٦: ١٩٥.

(٤) الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة في الكوفة : ٥٣.

القتال[١]. وإذا قصّر العرفاء أو أهملوا واجباتهم فإنّ الحكومة تعاقبهم أقسى العقوبات وأشدّها[٢].

ومن أهمّ الأسباب في تفرّق الناس عن مسلم عليه السلام هو قيام العرفاء في تخذيل الناس عن الثورة وإشاعة الإرهاب والأراجيف بين الناس[٣]، كما كانوا السبب الفعّال في زجّ الناس وإخراجهم لحرب الإمام الحسين عليه السلام.

إلى هنا ينتهي بنا الحديث عن مظاهر الحياة الاجتماعية في الكوفة، وكان الإلمام بها من ضرورات البحث؛ وذلك لما لها من الأثر في إخفاق الثورة.

الطاغية ابن مرجانة

ولابدّ لنا أن نتعرّف على قائد الانقلاب الطاغية ابن مرجانة فنقف على نشأته وصفاته ومخططاته الرهيبة التي أدّت إلى القضاء على الثورة، وإلى القرّاء ذلك:

ولادته

ولد الطاغية سنة (**٣٣** هـ)[٤]، وقد ولد لخلق الكوارث وإشاعة الخطوب في الأرض. وعلى هذا فيكون عمره يوم قتله لريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله (**٢٨** سنة)، ولم تعيّن المصادر التي بأيدينا المكان الذي ولد فيه.

أبواه

أمّا أبوه فهو زياد بن سمية، وهو من عناصر الشرّ والفساد في الأرض، فقد سمل

---

(١) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٦٦.

(٢) البداية والنهاية: ٨: ١٥٦. تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٦٦.

(٣) البداية والنهاية: ٨: ١٥٧.

(٤) البداية والنهاية: ٨: ٢٨٦.

عيون الناس، وصلبهم على جذوع النخل، وقتل على الظنّة والتهمة وأخذ البريء بذنب السقيم، وأغرق العراق بالحزن والثكل والحداد.

وأمّا أُمه مرجانة فكانت مجوسية[١] وقد عرفت بالبغاء، وقد عرّض بها عبيد الله التميمي أمام ابنها عبيد الله، فقال: إنّ عمر بن الخطاب كان يقول: اللّهم إنّي أعوذ بك من الزانيات وأبناء الزانيات.

فالتاع ابن زياد وردّ عليه: إنّ عمر كان يقول: لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر إلّا خرج مائقاً[٢]، وفارق زياد مرجانة فتزوّج بها شيرويه[٣].

واتهم عبيدالله بفجور أُمه، وعدم شرعية ولادته، وفي ذلك يقول ابن مفرغ في هجائه:

وَقُــــلْ لِــــعُبَيدِاللهِ مــــالَكَ وَالِــــدٌ ... بِحَقٍّ وَلَا يَدرِي امرُؤٌ كَيفَ تُنسَبُ[٤]

نشأته

نشأ الطاغية في بيت الجريمة، وقد قطع دور طفولته في بيت زوج أُمّه شيرويه، ولم يكن مسلماً، ولمّا ترعرع أخذه أبوه زياد، وقد ربّاه على سفك الدماء والبطش بالناس، وربّاه على الغدر والمكر، وقد ورث جميع صفات أبيه الشرّيرة من الظلم والتلذذ بالإساءة إلى الناس، وقد كان لا يقلّ قسوة عن أبيه، وقد قال الطاغية في بعض خطبه: «أنا ابن زياد، أشبهته من بين من وطأ الحصى، ولم ينتزعني شبه خال ولا ابن عمّ»[٥]. لقد كان كأبيه في شدّته وصرامته في الباطل وتنكره للحقّ.

---

(١) البداية والنهاية: ٨: ٢٨٦.

(٢) البيان والتبيين: ٢: ١٧٤ و ١٧٥.

(٣) البيان والتبيين: ١: ٦٧.

(٤) الكنى والألقاب: ١: ٤١٩. الأغاني: ١٨: ٢٠٦.

(٥) تاريخ الأُمم والملوك: ٤: ٥٦٥. الكامل في التاريخ: ٣: ٣٦٨.

صفاته

أمّا صفاته النفسية فكان من أبرزها القسوة والتلذذ بسفك الدماء، وقد أخذ امرأة من الخوارج فقطع يديها ورجليها، وأمر بعرضها في السوق[١].

ووصفه الحسن البصري بأنّه غلام سفيه سفك الدماء سفكاً شديداً[٢].

ويقول فيه مسلم بن عقيل عليه السلام: «ويقتل النفس التي حرّم الله قتلها على الغضب والعداوة وسوء الظنّ وهو يلهو ويلعب كأنّه لم يصنع شيئاً»[٣].

وكان متكبراً لا يسمع من أحد نصيحة، وقد دخل عليه الصحابي عائذ بن عمرو فقال له: أي بُني، إنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: **إنَّ شَرَّ الرِّعاءِ الحُطَمَةُ**[٤] فإيّاك أن تكون منهم.

فلذعه قوله وصاح به: اجلس إنّما أنت من نخالة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله.

فأنكر عليه عائذ، وقال: وهل كان فيهم نخالة؟ إنّما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم[٥].

١ ـ الغش

ومن صفات ابن مرجانة الغش، فهو أول من غش الدراهم وضربها زيوفاً حين فرّ من البصرة، وذلك في سنة (٦٤ هـ)، ثم فشت في الأمصار[٦].

---

(١) قصص العرب: ١: ٢١٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣: ٥٤٥.

(٣) الكامل في التاريخ: ٣: ٢٧٤.

(٤) صحيح مسلم: ٨: ١٦١. **الحُطَمَة**: القاسي الذي يظلم الناس ـ لسان العرب: ٣: ٢٢٧ ـ حَطَم.

(٥) البداية والنهاية: ٨: ٢٨٨.

(٦) النقود الإسلاميّة / المقريزي: ٢١.

وعرف في أثناء ولايته على البصرة بالغشّ للرعية والخديعة لها، وقد نصحه معقل بن يسار أن يترك ذلك، وقال له: إنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّتَهُ وَيَمُوتُ وَهُوَ غاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**»[1].

فهذه بعض نزعاته وصفاته النفسية. أمّا صفاته الجسمية فقد كان منها ما يلي:

٢ ـ اللّكنَة

ونشأ الطاغية في بيت أُمّه مرجانة ولم تكن عربية فأخذ لكنتها، فقد نشأ معها بالأساورة[2]، وكان زياد قد زوجها من شيرويه الأساور. ولم يكن يفهم اللغة العربية، فقد قال لجماعة: افتحوا سيوفكم[3] وهو يريد سلّوا سيوفكم، وإلى هذا يشير يزيد بن مُفرِغ في هجائه له:

وَيَومَ فَتَحتَ سَيفَكَ مِن بَعيدٍ   أَضَعتَ وَكُلُّ أَمرِكَ لِلضَّياعِ

وجرت بينه وبين سويد مشادّة، فقال له عبيد الله: اجلس على است الأرض. فسخر منه سويد وقال: ما كنت أحسب أنّ للأرض استاً[4].

وكان لا ينطق بالحاء، وقد قال لهانئ: أهروري سائر اليوم، يريد أحروري، وكان يقلب العين همزة كما كان يقلب القاف كافاً، فقد قال يوماً: من كاتلنا كاتلناه، يريد من قاتلنا قاتلناه[5].

---

(١) صحيح مسلم: ١: ٨٨. تاريخ مدينة دمشق: ٣٧: ٤٤٧. البداية والنهاية: ٨: ٢٨٨.

(٢) **الأساورة:** قوم من العجم بالبصرة نزلوها قديماً ـ القاموس المحيط: ٥٢٧ ـ سور.

(٣) وعلّق ابن قتيبة الدينوري على ذلك بقوله: «إمّا للكنة فيه، أو لجبن، أو دهشة» ـ عيون الأخبار: ١: ١٦٥.

(٤) البيان والتبيين: ٢: ١٥٥ و ١٥٦.

(٥) تاريخ مدينة دمشق: ٣٧: ٤٤٠. البداية والنهاية: ٨: ٢٨٧.

٣ـ الرَّقطة

من الصفات الجسديّة لابن مرجانة أنّه كان أرقط[١].

قال ابن دريد: «وكان عبيدالله بن زياد أرقط، شديد الرقطة فاحشها».

٤ـ نهمُهُ في الطعام

ويقول المؤرخون: إنّه كان نهماً في الطعام، فكان في كلّ يوم يأكل خمس أكلات آخرها جنبة بغل، ويوضع بين يديه بعد ما يفرغ عناق[٢] أوجدي فيأتي عليه وحده[٣].

وكذلك كان مسرفاً في النساء فقد بنى ليلة قدومه إلى الكوفة بأُمّ نافع بنت عمارة بن عقبة بن أبي معيط[٤].

وحينما تزوّج ابن زياد هنداً بنت أسماء بن خارجة سيد فزارة عاب محمّد بن عمير بن عطارد التميمي ومحمّد بن الأشعث أسماء تزويجه لابنته، ولما بلغ ذلك عبيدالله أرغم ابن الأشعث على تزويجه ابنته، وزوّج أخاه عثمان ابنة محمّد بن عمير[٥]. هذه بعض صفاته الجسمية.

ولايتُهُ عَلى البصرة

وأسند إليه معاوية إمارة البصرة وولّاه أُمور المسلمين، وكان في مَيعة الشباب

---

(١) **الرَّقطُ** و **الرَّقطةُ**: سوادٌ تشوبه نقط بياض، أو بياض تشوبه نقط سواد. جمهرة اللغة: **٢: ٧٥٥**ـ رقط.

(٢) **العِناق**: الأنثى من أولاد المعز ـ لسان العرب: **٩: ٤٣٢** ـ عَنَقَ.

(٣) نهاية الأرب: **٣: ٣٤٣**. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: **١٨: ٣٩٨**.

(٤) مرآة الزمان: **٢٨٥**.

(٥) العصبيّة القبليّة / إحسان النصّ: **٢٤٧**.

وغروره وطيشه ، وقد ساس البصرة كما ساسها أبوه ، فكان يقتل على الظنّة والتهمة ، ويأخذ البريء بالسقيم والمقبل بالمدبر ، وقد وثق به معاوية وارتضى سيرته ، وكتب إليه بولاية الكوفة إلّا أنّه هلك قبل أن يبعث إليه بهذا العهد .

ولما بنى ابن زياد بيضاء البصرة أمر أصحابه أن يسمعوا من أفواه الناس ما يقولون ، فأتي برجل ، قيل له : إنه لما رآها تلا قوله تعالى : ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** ﴾[١] .

فقال له : ما حملك على ما قلت ؟ قال : لم يكن أيّها الأمير عن قصد ، وإنّما آية خطرت على قلبي فقرأها لساني ؛ لا روية لي فيها ولا نية ، قال : فوالله لأعملنّ فيك بالآية الثالثة : ﴿ **وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُم جَبَّارِينَ** ﴾[٢] ، فأمر فبني ركن من أركان القصر عليه[٣] .

مع الخوارج

أُتي عبيدالله بن زياد بجارية خُماسية من الخوارج كان يطلب أباها بذحل ، فقال : أين أبوك ؟

قالت : لو كان تحت أخمصي ما رفعته عنه .

قال : حبّك له لأنّه يفعل بأُمك ؟

قالت : إن فعل فبنكاح استحله بكتاب الله وسنة رسوله ، ليس كمن جاء من سفاح لا نكاح !!

فقال بعض جلسائه : لعلكِ تعنيني ؟!

---

(١) الشعراء ٢٦ : ١٢٨ و ١٢٩ .

(٢) الشعراء ٢٦ : ١٣٠ .

(٣) معجم البلدان : ١ : ٦٢٩ . الهفوات النادرة : ١١٨ .

قالت : لا واللهِ ، ولكنّي أعني صاحب السرير .

قال : ما تقولين في الشيخين ؟

قالت : سبقا وفازا ، واتّبعا ما به أُمرا .

قال : ما تقولين في عثمان وعلي ؟

قالت : إن كانا أحسنا فالله ولي إحسانهما ، وإن كانا أساءا فالله غفور رحيم .

قال : ما تقولين في معاوية وعَمرو ؟ فلعنتهما .

قال : ما تقولين في يزيد ؟

قالت : أقول فيمن أنت سيئة من سيئاته ؟ !! عليك وعليه لعنة الله .

قال : فما تقولين فيّ ؟

قالت : أقول : أَولك لزنية ، وآخرك لدعوة ، وأنت فيما بين ذلك جبار عنيد[١] .

ابن زياد وابن الزبير الشاعر

كان ابن زياد صديقاً حميماً لعبدالله بن الزبير ، وكان يصله ويقضي ديونه ، وكان يجمعهما الولاء لبني أُمية ، والبغض لعترة الرسول صلى الله عليه وآله ؛ ولابن الزبير مدائح لابن زياد ، منها :

إِلَيكَ عُبَيدَاللهِ تَهوى رِكابُنا ... تَعَسَّفُ مَجهُولَ الفَلَاةِ وَتَدْأَبُ

وَقَد ضَمَرَتْ حَتَّى كَأَنَّ عُيُونَها ... نِطافُ فَلَاةٍ ماؤُها مُتَصَبِّبُ

فَقُلتُ لَها لَا تَشتَكي الأَينَ إِنَّهُ ... أَمامَكِ قَرْمٌ مِنْ أُمَيَّةَ مُصعَبُ

إِذَا ذَكَرُوا فَضْلَ امرِئٍ كانَ قِبلَةً ... فَفَضْلُ عُبَيدِاللهِ أَثرَى وَأَطيَبُ

وَإِنَّكَ لَو يُشفَى بِكَ القَرحُ لَمْ يَعُدْ ... وَأَنْتَ عَلَى الأَعداءِ نابٌ وَمِخْلَبُ

---

(١) ربيع الأبرار : ٣ : ١٥٣ و ١٥٤ ، الباب الحادي والأربعون ، الحديث ٤٢ .

تَصافى عُبيدُاللهِ وَالمَجدُ صَفوةَ الـ ـحَلِيفَينِ ما أَرسَى ثَبِيرٌ وَيَثرِبُ
وَأَنتَ إلَى الخَيراتِ أَوَّلُ سابِقٍ فَأَبْشِرْ فَقَد أَدرَكتَ ماكُنتَ تَطْلُبُ(١)

أحقاد يزيد على ابن مرجانة

وكان يزيد ناقماً على ابن مرجانة أشدّ ما يكون الانتقام ؛ لأُمور كان من أهمّها أنّ أباه زياداً كان من المنكرين على معاوية ولايته ليزيد ؛ لاستهتاره ، وإقباله على اللهو والمجون ، وقد أراد يزيد أن يعزل عبيد الله من البصرة ، ويجرّده من جميع الامتيازات ، إلّا أنّه لمّا أعلن الإمام الحسين عليه السلام الثورة وبعث سفيره مسلماً لأخذ البيعة من أهل الكوفة أشار عليه سرجون بأن يقرّه على ولاية البصرة ويضمّ إليه الكوفة ، ويندبه للقضاء على الثورة ، فاستجاب له يزيد ، وقد خلص العراق بأسره لحكم ابن زياد فقبض عليه بيد من حديد ، واندفع كالمسعور للقضاء على الثورة ليحرز بذلك ثقة يزيد به ، وينال إخلاص البيت الأُموي له .

مخططات الانقلاب

وبالرغم من حداثة سن ابن زياد فإنّه كان من أمهر السياسيّين في الانقلابات ، وأكثرهم تغلباً على الأحداث ، وقد استطاع بغدره ومكره أن يسيطر على حامية الكوفة ، ويقضي على جذور الثورة ويخمد نارها ، وقد كانت أهمّ مخططاته ما يلي :

أوّلاً : التجسس على مسلم عليه السلام ، والوقوف على جميع شؤون الثورة .

ثانياً : نشر أوبئة الخوف ، وقد أثار جوّاً من الفزع والإرهاب لم تشهد له الكوفة نظيراً ، وانشغل الناس بنفوسهم عن التدخّل في أيّ شأن من الشؤون السياسية .

ثالثاً : بذل المال للوجوه والأشراف ، وقد صاروا عملاء عنده يوجّههم حيثما

---

(١) الأغاني : ١٤ : ١٦٤ و ١٦٥ .

شاء ، وقد أفسدوا عشائرهم وألحقوا الهزيمة بجيش مسلم عليه السلام .

رابعاً: الاحتيال على هانئ بإلقاء القبض عليه ، وهو أمنع شخصية في المصر ، وقد قضى بذلك على أهم العناصر الفعالة في الثورة .

هذه بعض المخططات الرهيبة التي استطاع أن يسيطر بها الطاغية على الموقف ، ويقضي على الثورة ويزجّ حامية الكوفة إلى حرب ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله .

مسلم بن عقيل عليه السلام

أمّا مسلم بن عقيل عليه السلام فكان من أعلام التقوى في الإسلام ، وكان متحرّجاً في دينه أشدّ ما يكون التحرّج ، فلم يسلك أيّ منعطف في طريقه ، ولا يقرّ أيّة وسيلة من وسائل المكر والخداع ، وإن توقف عليها النصر السياسي شأنه في ذلك شأن عمّه أميرالمؤمنين عليه السلام ، بالإضافة إلى ذلك إنّه لم يبعث إلى الكوفة كوالٍ مطلق حتّى يتصرّف حسبما يراه ، وإنّما كانت مهمته محدودة وهي أخذ البيعة للإمام الحسين عليه السلام ، والاستطلاع على حقيقة الكوفيّين فإن رآهم مجتمعين بعث إليه بالقدوم إليهم ، ولم يؤمر بغير ذلك ، وقد أطلنا الحديث في هذه الجهة في البحوث السابقة .

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن إخفاق ثورة مسلم عليه السلام التي كانت فاتحة لفاجعة كربلاء ، ومصدراً لآلامها العميقة ،كما ينتهي بنا الحديث عن حياة الإمام الحسين عليه السلام في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

المحتويات

أفول دولة الحق

١٠١ ـ ١٢٠

حكومة معاوية

١٢١ ـ ٢٤٠

بداية حكومة يزيد

٢٤١ ـ ٢٦٦

الثورة الحسينية أسبابها ومخططاتها

٢٦٧ ـ ٣٠٠

الإمام الحسين عليه السلام في مكة
٣٠١ ـ ٣٣٥

إيفاد مسلم إلى العراق

٣٣٧ ـ ٤١٣

اخفاق الثورة

٤١٥ ـ ٤٥٣